

تفسير العهد الجديد

وليم باركلي

شرح
بشارة يوحنا



اهداءات ٢٠٠١

دار الثقافة

المينة الإنجيلية والقبطية

شرح بشارة يوحنا

الجزء الثاني

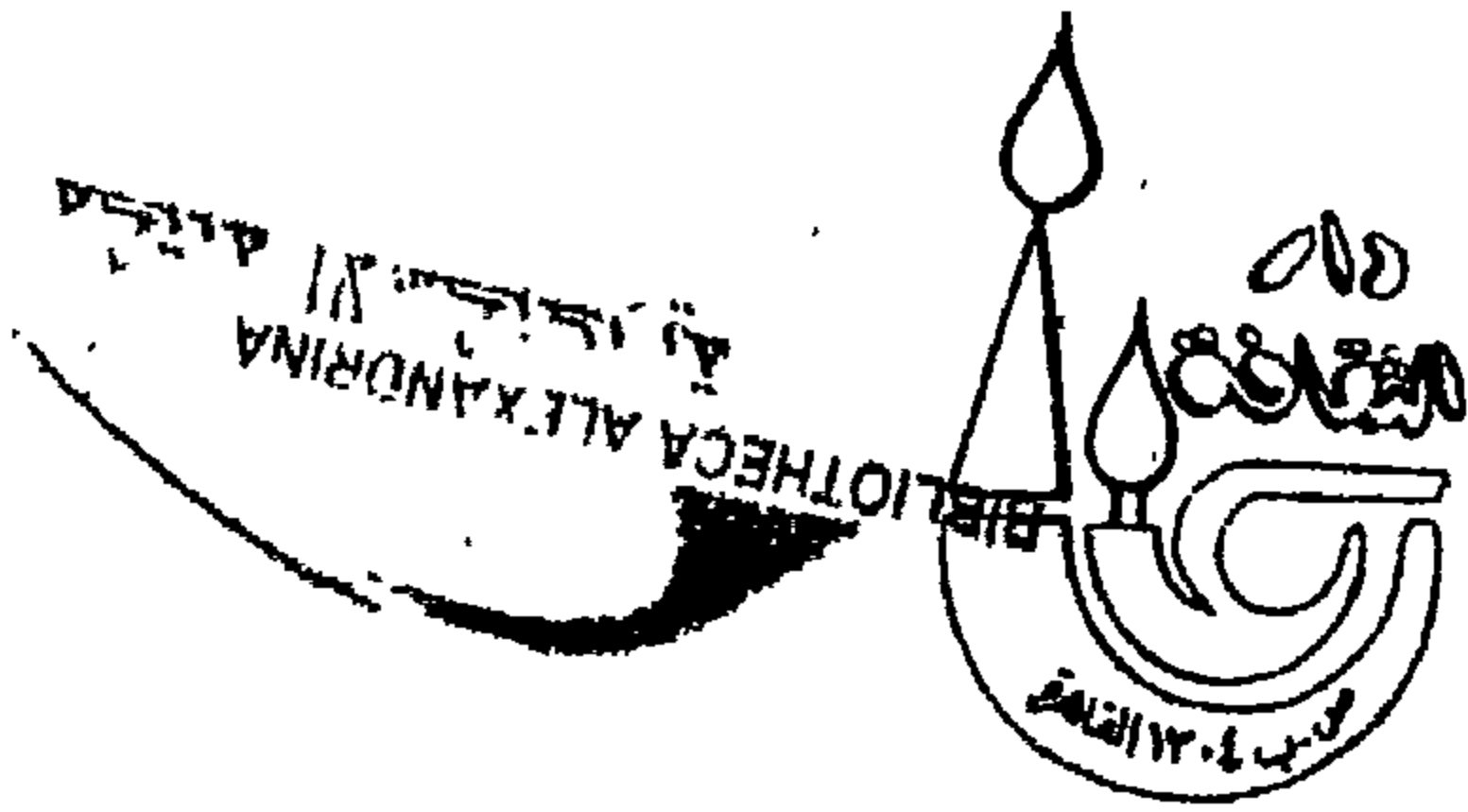
(من الأصحاح الثامن - الأصحاح الحادي والعشرين)

للدكتور

وليم باركلي

ترجمة

الدكتور عزت زكي



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة
نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، والناشر
يحتفظ بحق إعادة الطبع) ٣٧٤ ط ٢ (أ) ٨٣ / (٥ - ١٠)
تتم الأيداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٤١٥ دولى رقم ٦ - ٠١٠ - ٩٧٧/٢٣٥
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة بالقاهرة



تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلي

أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو

مجلس التحرير

دكتور بطرس عبد الملك الأستاذ جيب سعيّد

القسّ صموئيل جيب القسّ فايز فارس

القسّ فهميم عزيز

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	الأصحاح العاشر		الأصحاح الثامن
١١٠	الراعى ورعيته	١١	بين التعاسة والمراحم
١١٩	الباب المؤدى إلى الحياة	٢٨	يوم أخفق العالم فى معرفة النور
١٢٤	الراعى الصالح والراعى الزائف	٤٠	عدم الفهم المميت
١٢٨	الوحدة القصوى	٤٩	التلمذة الحقيقية
١٣٥	اختبار المحبة	٥٣	بين الحرية والعبودية
١٣٨	مختل العقل أم ابن الله	٥٧	البنوة الحقيقية
١٤١	الدعوى والوعد	٦١	أبناء الشيطان
١٥٠	الثقة الكاملة والحق الأعظم	٦٧	الانتهام القاسى والإيمان اللامع
١٥٤	الدعوة إلى الاختبار الحاسم	٧٢	الحياة والمجد
١٦٠	هدوء قبيل العاصفة	٧٥	الادعاء الكبير
	الأصحاح الحادى عشر		الأصحاح التاسع
١٦٢	فى الطريق إلى المجد	٨١	نور لاعميون المظلمة
١٦٧	وقت كاف ولكنه ليس كثيراً	٨٨	خطوات معجزة
١٧٠	النهار والليل	٩٣	الرأى المتحامل والاقتناع الكامل
١٧٤	الرجل الذى لم يشأ أن يترك يسوع	٩٧	يسوع يتحدى الفريسيين
١٧٨	بيت النوح	١٠٣	الإعلان والدينونة
١٨٢	القيامة والحياة	١٠٦	أعظم فأعظم

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
عواطف يسوع	١٩٣	الغسل الألف	٢٨٣
النداء الذى يوقظ الموتى	١٩٩	عار الحيانة ومجد الإخلاص	٢٨٧
إقامة لعازر من الموت	٢٠٢	نداء المحبة الأخير	٢٩١
المعارقة الساخرة	٢٠٩	أركان المجد الأربعة	٢٩٨
يسوع الخارج على القانون	٢١٥	وصية الوداع	٣٠١
الأصحاح الثانى عشر		الوفاء المترنج	٣٠٥
المحبة المتلفة	٢١٩	الأصحاح الرابع عشر	
تطرف المحبة	٢٢٥	موعد المجد	٣٠٨
محاولة لتحطيم الدليل الناصع	٢٢٩	الطريق والحق والحياة	٣١٦
استقبال ملكى	٢٣٣	رؤيا القدير	٣٢١
اليونانيون ويسوع	٢٤٢	وعود ثمينة	٣٢٩
اللغز المذهل	٢٤٥	المعين — الوعد القديم	٣٣٤
من الاضطراب إلى اليقين	٢٥٤	الطريق إلى الشركة والإعلان	٣٤٠
أبناء النور	٢٦١	تركة المسيح	٣٤٣
عدم الإيمان الأعمى	٢٦٤	الأصحاح الخامس عشر	
إيمان الجبناء	٢٦٨	الكريمة والأغصان	٣٤٧
الدينونة الحتمية	٢٧١	حياة شعب يسوع المختار	٣٥٦
الأصحاح الثالث عشر		كراهية انعام	٣٦٤
التراجع على رأس الخدمة	٢٧٥	المعرفة والمسئولية	٣٧٥

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٤٨	يسوع أمام حنان	٣٧٧	الشهادة البشرية والشهادة الإلهية
٤٥٣	البطل والجبان		الأصحاح السادس عشر
	الأصحاح التاسع عشر	٣٧٩	التحذير مع التحدى
٤٦٠	يسوع أمام بيلاطس	٣٨٤	عمل الروح القدس
٤٩٤	فى الطريق إلى الصليب	٣٨٩	روح الحق
٤٩٧	مقامرون فى مشهد الموت	٣٩٥	الحزن يتحول إلى فرح
٥٠٢	محبة ابن	٤٠٢	الطريق المباشرة
٥٠٦	نهاية ظافرة	٤٠٥	المسيح وهباته
٥١٠	الماء والدم		الأصحاح السابع عشر
٥١٥	أشواكوزهور فى بستان الجلعثة	٤١٠	مجد الصليب
٥٢١	المدايا الأخيرة ليسوع	٤١٥	الحياة الأبدية
	الأصحاح العشرون	٤١٩	عمل يسوع
٥٢٥	المحبة الذاهلة	٤٢١	معنى التلمذة
٥٢٨	الاكتشاف الأعظم	٤٢٥	صلاة يسوع لأجل تلاميذه
٥٣١	المعرفة الأعظم	٤٣٣	لمحة من المستقبل
٥٣٥	المناداة بالأخبار السارة	٤٣٦	العطية وموعد المجد
٥٣٩	تكليف المسيح		الأصحاح الثامن عشر
٥٤٥	إقناع المتشكك	٤٤٠	إلقاء الأيدى فى البستان

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٥٧	حقيقة القيامة	٥٤٩	توما في الأيام التالية
٥٥٩	عمومية إرسالية الكنيسة	٥٥٢	هدف البشارة
٥٦١	راعى رعية المسيح		
٥٦٥	الشهادة للمسيح		الأصحاح الحادى والعشرون
٥٦٧	المسيح غير المحدود	٥٥٤	المسيح المقام

شرح بشارة يوحنا
الجزء الثانى

الْأَصْحَاحُ الثَّامِنُ

بين التعاسة والمراحم

أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ
ثُمَّ حَضَرَ أَيْضاً إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ وَجَاءَ إِلَيْهِ
جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ . وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ
وَالْفَرِيسِيُّونَ امْرَأَةً اُمْسِكْتُ فِي زِنًا . وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي
الْوَسْطِ قَالُوا لَهُ يَا مَعْلَمُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ اُمْسِكْتُ وَهِيَ تَزْنِي
فِي ذَاتِ الْفِعْلِ . وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنْ مِثْلَ
هَذِهِ تُرْجَمُ . فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ . قَالُوا هَذَا لِيُجَرَّبُوهُ لِكَيْ
يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى
أَسْفَلٍ وَكَانَ يَكْتُبُ بِأَصْبَعِهِ عَلَى الْأَرْضِ . وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا
يَسْأَلُونَهُ أَنْتَصَبْ وَقَالَ لَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلَاخَطِيئَةٍ
فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ . ثُمَّ انْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلٍ وَكَانَ
يَكْتُبُ عَلَى الْأَرْضِ . وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ

تُبَكِّتُهُمْ خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى
الْآخِرِينَ . وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ .
فَلَمَّا أَنْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ قَالَ
لَهَا يَا امْرَأَةُ أَيْنَ هُمُ أَوْلِيكَ الَّتِي تَشْكُونُ عَلَيْكَ . أَمَا دَانَكَ
أَحَدٌ . فَقَالَتْ لَا أَحَدٌ يَا سَيِّدُ . فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ وَلَا أَنَا
أَدِينُكَ . أَذْهَبِي وَلَا تُخْطِئِي أَيْضًا .

(يوحنا ٨ : ١ - ١١)

لقد نصب الكتبة ، والفريسيون شباكهم ، ليأخذوا يسوع بكلمة .
وهنا ظنوا أن الشباك قد أحكمت تماماً وأنه لن يستطيع منها إفلاتاً .
وغنى عن القول ، إنه جرت العادة ، في زمن المسيح ، حينما كانت تعرض
مشكلة للمجتمع ، كانت ترفع للمعلم ، أو الربى ، ليتخذ قراره فيها وكان
هذا أمراً طبيعياً . وهكذا أتى الكتبة ، والفريسيون إلى « يسوع » ، كمن يتخذ
مركز الربى المعلم ، حاملين معهم مشكلة : امرأة أمسكت وهي تزنى في
ذات الفعل . ولم تكن ثورتهم إزاء كسر الوصية السابقة ، ثورة مفتعلة .
فلقد كانت جريمة الزنا ، في عرف الناموس اليهودى ، جريمة بشعة نكراء ،
وعن الربيين الأحبار نقراً قولهم : « على كل يهودى أن يتمنى لنفسه
الموت ، قبل أن يرتكب جريمة عبادة الوثن ، أو القتل ، أو الزنا » .
لكنهم كانوا يعتبرون الزنا ، واحدة من الخطايا الثلاث الكبرى .

أما حكم الناموس في تلك الجريمة ، فقد كان واضحاً محدداً . ومع
تباين طرق تنفيذ حكم الموت ، فإن الناموس لم يترك مجالاً للغموض ،

إزاء عقوبة تلك الجريمة . فى سفر اللاويين (٢٠ : ١٠) يرد القول :
« إذا زنى رجل مع امرأة ، فاذا زنى مع امرأة قريبه ، فإنه يقتل الزانى ،
والزانية » .

هنا لانبجد تفصيلا لطريقة تنفيذ الحكم ..

وفى سفر التثنية (٢٢ : ٢٣ - ٢٤) يتحدث الناموس الموسوى ،
عن تنفيذ عقوبة الموت ، فى فتاة مخطوبة ، أغراها رجل ، وسلبها أعز
ماتملك . فى مثل هذه الحالة ، يخرج الإثنان خارج أبواب المدينة ، ويقتلان
رجماً بالحجارة حتى الموت . « إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ،
فوجدها رجل فى المدينة ، واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى
باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا . الفتاة من أجل أنها لم
تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه » . وعن
« المشنا » وهو مجموع التعليقات اليهودية على الناموس ، نقرأ أن عقوبة
الزنا هى الموت شنقاً . حتى طريقة الشنق يفصلها تفصيلا ..

« يوضع الرجل فى حفرة ممتلئة بروث الحيوان حتى ركبتيه ، وتلف
فوطتان ، الواحدة جافة من الخارج ، والثانية لينة فى داخلها ، حول
رقبته . (وذلك حتى لا تبدو فى المتهم أية علامة خارجية ، لأن العقاب
لإلهى) ثم يتجاذب طرفى الفوطة المطوية رجلان ، واحد من هذا الطرف ،
والثانى من الطرف الآخر ، بكل قواهما حتى تخمد أنفاسه » .

ويزيد المشنا أيضاً ، أن عقوبة الفتاة المخطوبة التى تفرط فى عفافها ،
هى الموت رجماً . فمن وجهة النظر الموسوية القانونية ، لم يكن الكتبة
والفريسيون مخطئين فى أن الموت هو الجزاء العادل القانونى ، لتلك المرأة
التي أمسكت فى ذات الفعل ، وثبت للجميع أنها مدانة .

وحينما جابه الكتبة والفريسيون شخص المسيح بتلك الحالة ، كانت
لمكيده التي دبروها له على النحو التالى : لو قرر السيد أن المرأة بالفعل
تستحق الموت ، فسيكون من نتيجة ذلك حدوث أمرين - الأول أنه
سيفقد للأبد تعاطف الجماهير معه ، ومحبتهم له . وثقتهم بأنه الرحيم ، المحب ،
صاحب القلب الكبير ، صديق العشارين والخطاة . والأمر الثانى ، هو أنه
سوف يصطدم مع القانون الرومانى ، لأنه لم يكن لليهود السلطان على تنفيذ
عقوبة الموت فى أى إنسان ، إلا من تثبت إدانته أمام المحاكم الرومانية .
وهكذا إن أقبر يسوع شرعية إعدام هذه المرأة ، فسوف يفقد محبة ، وإخلاص ،
عامّة الطبقات ، كما سيظهر ، أمام السلطات الرومانية ، بصورة المتمرد على
سلطان روما ، التأثير على قوانينها . ومن الجانب الآخر ، إن نادى بالعفو عنها ،
ومساحتها ، وإطلاقها حرة ، فإن هذا قد يؤول على أنه يعلم الناس ، الاستهانة
بناموس موسى ، ويشجعهم على التهاون ، بصدد خطية الزنا . هذا هو الفخ
الذى نصبه الكتبة ، والفريسيون ، وظنوا أنهم قد أحكموه إحكاماً ، ولن
يستطيع السيد منه فكاكاً . ولكن يسوع رد كيدهم إلى نحرهم ، ووجه إليهم
نفس السهم الذى وجهوه إليه .

وفى سياق القصة نخبرنا البشير يوحنا أن المسيح لم يحبهم على الفور .
بل انحنى ، وابتدأ يكتب بأصبعه على الأرض . ترى مامعنى هذا ؟ ولماذا
تصرف يسوع على هذا النحو ؟ .

هناك افتراضات أربعة أمام هذا التصرف ، يمكن أن تلقى بعض الضوء .

١ - الافتراض الأول ، أن يسوع أراد أن يكسب وقتاً ، ولم يشأ
أن يتجه إلى قرار سريع فى قضية خطيرة نظير هذه . لقد كان يبحث

المشكل من كافة جوانبه ، ولعله في تلك الفترة ، رفع قلبه إلى الآب .
في صلاة سرية .

٢ - وفي بعض النسخ الأصلية ترد الكلمة .. « وكأنه لم يسمعهم »
هذه الإضافة وردت في الترجمة الإنكليزية المعتمدة^(١) ، بحروف صغيرة ،
إشارة إلى أنها غير موجودة في معظم المخطوطات الشهيرة ، لكنها أضيفت
لتوضيح معنى الفقرة ، ولتلقى ضوءاً على أحداثها . ولعل يسوع أراد بهذا
الصمت ، أن يدفع أولئك الشهود ، إلى إعادة النظر في أقوالهم ، وفي
الدوافع القاسية التي تكمن وراء إتهامهم .

٣ - ولأحد الكتاب المعروفين^(٢) رأيه الذي يستحق الإثبات .
في هذا الصندد يقول مامعناه ، إن « يسوع » قد امتلأ بروح الحجل والألم ،
إزاء خطية الإنسان ، ممثلة أيضاً ، في قسوة المشتكين عليها ، وضمايرهم
الحامدة . وهكذا تحاشى تلك النظرات النارية التي تشع بالقسوة ، والغرور
والأنانية ، فأحنى وجهه إلى الأرض ، بروح الحزن ، والألم المرير . لقد
اجتمعت أمامه صورة خزي المرأة ، وعارها ، وجمود متهميها ، وشرهم
والحبث الذي يدفعهم إلى مجابهة السيد بمثل هذه الحالة ، ثم نظرات الجموع
المتسائلة ، التي تتطلع في انتظار وذمول - كل هذه الصور اجتمعت أمام
يسوع لتعصر قلبه في ألم وضيق ، يمتزج بالإشفاق والمراحم . وهكذا أحنى
وجهه عنهم .

٤ - على أن أوضح افتراض تبدو عليه مسحة من المنطق ، ماورد في
بعض النسخ المتأخرة من ترجمات العهد الجديد - في الترجمة الأرمنية نقراً
الفقرة على هذا النحو : « أما هو ، فأحنى رأسه ، وابتدأ يكتب على

Authorised Version (١)

Seeley (٢) في كتابه " Ecce Homo "

الأرض ، ليعلن لهم خطاياهم ، وهكذا رأى كل واحد خطاياهم العديدة ،
منقوشة على الأحجار . هنا نرى أن «يسوع» قد رد على اتهمهم للمرأة بطريقة
صامته مفحمة ، حينما كتب لهم على الأرض مضمون خطاياهم ، أولئك
الذين نصبوا من أنفسهم قضاة ، وجلسوا على كراسي الحكم ، ليصدروا
حكم الدينونة على إنسانة تتساوى معهم في المذنبية والقصاص . وقد يكون
في اللغة الأصلية اليونانية مايسند هذا الرأي . فالكلمة المرادفة لكلمة «يكتب»
في اليونانية القديمة هي «جرافين» ، ولكن الكلمة التي وردت في البشارة
هي «كاتا جرافين» التي قد تعني ، يسجل تقريراً ضد إنسان ما (المقطع
«كاتا» من أحد معانيه : ضد) — نفس الكلمة وردت في سفر أيوب ،
حينما راح يتحدث إلى خالقه بروح العتاب (أيوب ١٣ : ٢٦) قائلاً ..

«لأنك كتبت علي أموراً مرة» الكلمة مرادفة لكلمة «كاتا جرافين» .

وهكذا يجابه يسوع أولئك المغترين بنواتهم ، بتقرير عن خطاياهم .
لقد ألح الكتبة والفريسيون عليه في أن يقدم لهم حلال ذلك المشكل .. حكماً
في هذه القضية ، وها هو يقدمه لهم . إنه يقول لهم مامعناه :

«أريدون أن تنفذوا الحكم فيها ؟ تقدموا . أريدون أن تجلسوا على
كراسي الحكم ؟ تعالوا . هل تلهب قلوبكم شوقاً إلى رؤية الدماء تتفجر من
جراحها ؟ أرجموها . ولكن ليلق بالحجر الأول ، من يوقن في نفسه أنه
بلا خطية» — «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر» .

وكلمة بلا خطية ، لاتعني فقط أنه لم يرتكب خطية ، بل تعني أيضاً
لاتساوره حتى مجرد الرغبة الحاطة . وكأني بيسوع يقول لهم : «تستطيعون

أن ترجموها على أساس أنه لا يساوركم حتى مجرد الشوق إلى رجمها ، وإنهاء حياتها بأيديكم » . وساد سكون إلى فترة وجيزة . ثم تسلل الواحد منهم بعد الآخر ، وهو يلقي من يده الحجر الذي اختاره لرميها .

ولم يبق في المكان غير يسوع ، ، واقفاً أمام المرأة المتهالكة على الأرض ، في خزيها ، وعارها . وكما يقول القديس أوغسطينوس : « وقفت المراحم العظمى وجهاً لوجه أمام التعاسة العظمى » . وإذا بصوت السيد يرن هاتفا « يا امرأة ، أين هؤلاء المشتكون عليك ؟ أما دانك أحد ؟ » فتجيبه بصوت أسيف « لأحد يا سيد ؟ » فيصدر رب الأجيال والدهور حكمه عليها « ولا أنا أدينك حتى هذه الساعة . ولكن إن عادت قدماك إلى المسير مرة ثانية في نفس الطريق ، فستكون لك الأواخر أشد من الأوائل ، إذهبي ، ولا تخطئي أيضاً واقلبي صفحة جديدة بيضاء ... »

بين التعاسة والمراحم

إن الضوء الكبير الذى تقدمه لنا هذه الفقرة ، هى أنها تبين لنا عينات من مواقف البشر . فهى تكشف لنا عن حقيقتين ، بصدد موقف الكتبة والفريسيين

١ - إنها تظهر لنا قبل كل شيء ، مفهوم السلطان لديهم . لقد كان الكتبة ، والفريسيون ، أخصائيي الناموس فى عصرهم ، متمرسين ، وعارفين بكل أسرار بنوده ، كان كل اتجاههم يشير إلى أنهم يفهمون السلطان على أنه نقد للآخرين ، وتجريح وإدانة لهم . أما أن يقوم السلطان على أساس العطف . . . أما أن يكون هدفه اصلاح الخاطيء ، وليس تخطيطه ، فهذا ما لم يخطر لهم على بال . وعلى أساس هذا المفهوم الخاطيء ، نصبوا من أنفسهم قضاة ، وحراساً على الشعب ، يحصون كل هفوة منه فى حق الناموس ، وكل انحراف عن بنوده ، وحدوده ، ويوقعون أقصى القصاص الوحشى ، على من يجرد عنه ، أو يتهاون فى وصاياه . وهكذا ظنوا أن من حقهم محق الخطية عن طريق سحق الخاطيء . ولم يدربوا نخلدهم يوماً ، ان من واجبهم - كمن يجلسون على كراسى القضاء والحكم - أن يعاملوا الإنسان الخاطيء كمريض يحتاج إلى العلاج ، يتقدمون إليه بالعطف والمراحم .

وحتى يومنا الحاضر ، يوجد أناس ، يعتقدون أن المجتمع قد رفعهم إلى

مراكز قيادية ليدنوا سواهم ، ويصدروا أحكامهم على من هم دونهم ،
ينصبون من أنفسهم كلاب حراسة على المجتمع ، من وظيفتها أن تمزق
المذنب تمزيقاً . ولكن السلطان الحقيقي ، ينبغي أن يبنى على العطف . . على
شعور الإنسان بالعجز والضعف ، وإحساسه بمساواته في المذنبية مع
سواه . . .

عن جورج هويتفيلد يروي ، أنه شاهد مجرماً في طريقه إلى جبل المشنقة ،
وعندها صاح هاتفا بكلمته المأثورة . . « هنا يمضي هويتفيلد إلى مصيره
لولا نعمة الله »

وهذا هو الواجب الأول ، لمن يمسون بين أيديهم بمقاليد السلطان ،
أن يضعوا أنفسهم في موضع المذنب ، والظروف التي احاطت به ، ويدركوا
الدوافع الخفية التي دفعته إلى مثل هذا التصرف ، والملابس التي خلقت
من الخطية إغراء ، ومن الإغراء دافعاً لا يقاوم ، دفع بالإنسان إلى التعثر
والأنهيار ، وتحطيم كل المبادئ الخلقية . لا أحد يستطيع أن يصدر حكماً
صائباً عادلاً على منهم ، ما لم يضع في اعتباره ، الظروف التي جاز فيها هذا
المتهم . إن عقاب المتهم ينبغي أن يأتي في المرتبة الثانية في اعتبار السلطة
الحاكمة . وإن كانت مهمة السلطات ، هي الضغط على المتهم ، لدفعه
إلى اليأس ، أو الندامة الكثيرة الحزينة في مرارة العقاب القاسي ، فهي
بلا شك تتنكب عن طريق الصواب . إن أعظم خدمة تقدمها السلطات للمجتمع
لا أن تسحق الخاطئ ، بل أن نحوله إلى أداة نافعة ، واولئك الذين يحتلون
كراسي السلطة ، ينبغي أن يكون شأنهم شأن الطبيب الحكيم ، الذي يرغب
في شفاء مريضه ، وعودته صحيحاً سالماً للمجتمع .

٢ - وهذه الحادثة تظهر بأكثر وضوح ، موقف الكتبة والفريسيين

من الشعب ، وروح العداء التي تملأ قلوبهم . اولئك الكتبة والفريسيون ، ما كانوا ينظرون إلى تلك المرأة على أنها انسان . . مخلوق بشرى ؛ لقد كانوا يعتبرونها مجرد شيء . . وفي روح العداء التي كانوا يضمرونها ليسوع ، وجدوا فيها مقلب القط الذي يوصلهم لأغراضهم . . شباك الفخ الذي نصبوه ليقعوا السيد فيه . إنها مجرد اداة لتحقيق أهدافهم . . فهي في عرفهم بلا اسم ، ولا ذاتية ، ولا قلب ، ولا مشاعر ، ولا عواطف .

هذه النظرة للكائن البشرى ، هي ولا شك نظرة خاطئة . نظرة غير إنسانية . . نظرة لا تشرف صاحبها . وكم يحدث أن يصدر نفس التصرف ، من أناس يتمنون إلى اسم المسيح كما قيل عن «بياتريس وب» التي عرفت فيما بعد باسم «لادى باسمور» الخبيرة الإقتصادية المعروفة إنها كانت تنظر إلى الناس كعينات ، وأصناف تترأى أمامها . إن البشر في نظرها ليسوا أشخاصاً ، بل امثلة . . حالات . . عينات .

في كتاب إيمان طيب ، للدكتور بول تورنييه ، يخصص الكاتب فصلاً كاملاً من كتابه الشائق ، للحديث عن الكتاب المقدس وذاتية الفرد . في هذا الفصل ، يؤكد الكاتب قيمة ذاتية الإنسان ، في عرف الكلمة المقدسة وأحد مظاهر هذه الحقيقة ، اهتمام الكتاب بالأسماء . فالله يتحدث إلى موسى قائلاً «عرفتك باسمك» (خروج ٣٣ : ١٧) . ودارس الكتاب تذهله كثرة الأسماء التي يفرد لها الوحي فصولاً كاملة ، يراها القارئ العادى بلا معنى . لكن المتعمق في الدراسة ، يرى أن ذكر هذه الأسماء ، يظهر لنا قيمة ذاتية الفرد في نظر الله . فهو ليس صفراً في مجموعة أرقام . . ولا قطعة غيار في ماكينة الجهاز البشرى . وكما يقول مدلا بمثال من مهنته كطبيب : «لو جاءني مريض ، لم أتذكر اسمه ، واكتفيت بأن أقول لنفسى هذه

حالة التهاب الحوصلة المرارية التي فحصتها أول أمس . فاني أفقد المريض
اعتباره كإنسان ، وأراه حالة من الحالات . إني أهتم بعملى وفنى ، أكثر
من اهتمامى بذاتيته . أى أنى أعتبره حوصلة مرارية ، أو كبداً متليفاً ، أو رثة
ممزقة ، أكثر منه إنساناً حياً له ذاتيته المميزة « إن الكتاب المقدس يرفع
ذاتية الفرد ، والله يقدر شخصية الإنسان . وما أمثلة الإبن الضال ، والدرهم
المفقود ، والحمل الشارد عن القطيع ، والسامرى الصالح ، إلا أمثلة من
قيمة الفرد فى نظر الله ، كما صورها لنا شخص المسيح فى أمثاله .

ولكن الكتبة ، والفريسيين ، لم يعرفوا حتى مجرد اسم هذه المرأة .
لأنها فى نظرهم لاتزيد عن كونها حالة .. حالة أغرقها خطيتها فى طين الحمأة ،
ورأوا فيها أداة .. آلة صالحة لاستغلالها فى أغراضهم – حينما تصغر قيمة
الأشخاص فى أنظارنا ، نبتعد كل البعد عن روح المسيح .

ولكن الله يستخدم سلطان محبته ، ليدفع بالإنسان إلى السمو . وأحد الطرق
التي يتبعها ، دفعه إلى اليقين بأنه أكثر من شىء ، وأنه لن يتحول من ذات
إلى شىء . على نفس الطريق ينبغى أن نسير ، علينا أن نعمل على إعادة
الضال وجبر الكسير ، وإصلاح المعوج ، وإقامة العاثر .. أن نعيد الإنسان
إلى إنسانيته .. أن نرفعه من حضيض الحيوانية التي وصل إليها . أن نجعله
يدرك أنه إنسان ، وليس مجرد شىء .

هنا أول خطوة فى طريق إعادة الخاطيء إلى نفسه ، وإلى مجتمعه ،
وإلى إلهه .

بين التعاسة والمراحم

زيادة على ذلك ، فإن هذه الحادثة تظهر لنا موقف يسوع من الإنسان الخاطئ .

١ - هنا نرى المبدأ الأساسى الذى نادى به يسوع : أنه لا يحق لإنسان أن يدين سواه ، طالما كان هو أسيراً لنوع من الخطأ . فالذى يريد أن يجلس على كرسى الدينونة ، عليه أن يكون بلا عيب .. أن يكون نقى القلب ، والسريرة ، طاهر الحواس . والمشاعر . ومادما جميعاً فى مستوى واحد ، بالنسبة للناموس الأدبى الإلهى ، فعلينا أن نترك الدينونة لمن هو أحق منا بذلك « لا تدينوا لكى لا تدانوا . لأنه بالدينونة التى بها تدينون تدانون . وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم ، ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفتن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك ، وها الخشبة فى عينك ؟ بامرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك ، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك » متى (١: ٧ - ٥) .

إن أكثر الأخطاء شيوعاً فيما بيننا ، هى أننا نطبق على الآخرين ، مقاييس لا نحاول أن نطبقها على أنفسنا .. أن نطلب منهم مستوى ، لانستطيع نحن ، ولا نحاول ، أن نصل إليه .. أن ندين فيهم خطايا ، نغفل عن رؤيتها ،

ودينونتها في حياتنا نحن . ألا يحدث أن والدًا يعنف ابنه على خطأ ، استقاه
الإبن من أبيه ، وتمثل به في فعله ؟ ألا يشيع البعض من المتقدمين في
الكنائس مذمة عضو ، هم واقعون فيها ؟ إن أهلية الإنسان لدينونة سواه ،
ليست المعرفة ، فجميعنا نمتلك المعرفة . ولكن الأهلية الحقيقية تكمن في
الصلاح ، وهذا ما لا يمتلكه واحد منا . وما يقيننا عن الله ، بأنه الديان
الوحيد ، إلا استناداً على هذه الحقيقة الملزمة : إن الإنسان في عجزه ،
وضعفه ، وخطيته ، لم يصل ، ولن يصل يوماً ما ، إلى المستوى الكامل ،
الذي يستطيع فيه ، أن يجلس على كرسي الدينونة ، ويحكم على سواه .

٢ - وأحد المبادئ الأساسية أيضاً ، التي نادى بها رب المجد ، أن
عواطفنا تجاه إنسان ضل عن الطريق السوي ، ينبغي أن تبنى أولاً ، وقبل
كل شيء على الرحمة ، والتعاطف .

ولقد قيل عن الأطباء ، إن من واجب الطبيب قبل كل شيء ، « أن
يشفى مريضه أحياناً ، وأن يخفف من كابوس المرض غالباً ، وأن يقدم
التعزية له دائماً » . حينما يحضرون مريضاً لطبيب ، عليه ألا يظهر له
استياءه ، أو تقززه من المرض ، مهما كان المرض شديداً
الاشمئزاز .

بل عليه أن يتغلب على مشاعره الذاتية ويبتلع تلك المشاعر في رغبته
الصادقة لتخفيف أعباء المرض ، وإعادة المريض للشفاء . وحينما يجابهنا
إنسان ارتكب خطأ من الأخطاء ، فلا ينبغي أن يكون شعورنا
الأول :

« ينبغي على المخطئ أن يدفع ثمن خطيئته ، فماذا عساني أن أفعل لأرفع

نتائج جرم ارتكبه إنسان « بل ينبغي أن يكون : « ماذا أستطيع أن أفعل له ؟ كيف أعينه على تخطي الهوة التي حفرها لنفسه ؟ كيف أعيده إلى ذاته وأعيده إلى المجتمع ؟ » ينبغي أن نضع أنفسنا في موضعه ، ونقدم له العون الذى نشاق أن نجده فى مثل تلك الظروف .

٣- ومن الأمور البالغة الأهمية ، أن نفهم الدافع الذى جعل يسوع يتصرف على هذا النحو مع تلك المرأة التى أمسكت فى خطيتها . فمن اليسير ، أن ينحرف بنا تفكيرنا ، وينأى بنا عن الصواب ، ونصل إلى استنتاج ، هو أبعد ما يكون عن روح المسيح ، فنظن أن السيد يتهاون مع الخطيئة ، أو يقلل من جرمها ، وشناعتها .

إن المسيح حينما قال للمرأة « ولا أنا أدينك الآن .. إذهبي ولا تخطئي أيضاً » ، إن يسوع لا يقصد على الإطلاق ، أنه أبطل الدينونة ، وأهدر العدالة ، وشطب على بنود الناموس الإلهي ، ولن يدين المخطيء بعد . إنه لا يعنى بقوله : « أيتها المرأة ، لا تقلقى بعد . لقد انتهى عهد الناموس ببنوده القاسية . وجاء عهد النعمة .. وعهد النعمة رحب متسع ، لا مكان فيه للقصاص » ، كلا ، لقد كانت كلمته تشير إلى إرجاء تنفيذ العدالة إلى فرصة أخرى قادمة .

وإذا جاز لنا أن نوسع كلمته ، فأننا نضعها على النحو التالى : « أيتها المرأة ، لن أصدر عليك اليوم حكماً نهائياً ، ولن أدينك الآن الدينونة القاطعة ، لكننى سوف أعطيك فرصة أخرى لحياة أفضل ، وأكثر كرامة .. إذهبي : وأثبتي أهليتك لهذا العفو الكريم .

« أظهرى للملأ حياة أرفع ، ومثلاً أسمى . كونى قوة بناءة للحياة
لا قوة هدامة للموت ، والهلاك .

« لقد أخطأت ، هذا حق . لكن أمامك فرصة جديدة لتصلى ما فات .
إذهبي ولا تخطئى أيضاً ، وأنا سوف أعينك . وعند نهاية يوم الحياة القصير ،
سوف تعطين حساباً عما استطعت أن تفعله بالفرصة المقدمة إليك » . لقد كان
موقف يسوع فى هذه الحادثة يتضمن أكثر من حقيقة . .

(١) فهو يتضمن قبل كل شئ هبة الفرصة الثانية . وكأنى بالسيد يقول
لها « إنى أعرف أن طريق الحياة قد التوى بك . وأنتك تعثرت فى
الطريق . ولكنى أهبك الفرصة لتبدئى من جديد . . لتلمى شتات كيائك
الممزق ..

إن يسوع يقدم لكل خاطئ ، التوت به السبل وتعثر فى الطريق ،
إنجيل الفرصة الثانية . وإن كان السيد يهتم بما كانه الانسان ، فانه يبدى
اهتمامه بالتالى ، بما سيكونه ، أو يمكن أن يكونه . إنه لا يقلل من قيمة
الأخطاء التى ترتكب فى الحياة . فهو يهتم بالناموس المكسور ، مثل اهتمامه
بالقلوب الكسيرة ، ولكنه بالتالى ، يؤمن أن باب المستقبل مفتوح أمام الإنسان
ليبدأ من جديد ..

(ب) وهذا الموقف يظهر روح العطف . إن الفارق الأساسى بين
المسيح ، وبين الكتبة ، والفريسيين ، هو أنه يتقدم للخاطئ بروح العطف ،
بينما هم يجلسون على كراسى القضاء . ومن خلال سطور هذه الحادثة
نستطيع أن نلمس هذه الحقيقة بأكثر وضوح . فهم يريدون أن يصدروا
حكمهم على المرأة الخاطئة بالموت رجماً ، وسعادتهم العظمى ، تكمن فى

استماعهم للصرخات المرة ، ورؤيتهم الدماء المتفجرة ، والجسد المرتعش ،
والأحجار المتساقطة عليه .

لقد كان يخلب مشاعرهم سلطان الدينونة . أما يسوع فقد وجد سعادته ،
وارتواء نفسه ، في سلطان أعظم ، هو سلطان العفو ، والغفران ، لقد
كانوا يسعدون باطفاء الفتيلة المدخنة ، بينما وجد هو سعادته في بعثها إلى الحياة ..
في تغذيتها بزيت النعمة .. في إعادتها إلى رسالة النور ، والبركة .

وهكذا نرى أن يسوع يتناول الخاطيء ، بيدي الحنان ، والحب ،
والعطف ، والمشاركة الرحيمة . أما هم فقد كان يملوهم الغرور النابع
من البر الذاتي .

(ح) وموقف يسوع من المرأة الخاطئة ينطوي على روح التحدى .
أما تحديه لما فهو تحدى نور الشمس الطاهرة للمستنقع الآسن العفن . لقد
جابهها بحياته .. بطهارته .. ببره ، إنه لم يقل لها : « لا تضطربي ، ولا
تزعزعي » إن البشر كلهم خطاة . وأولئك الذين يتأهبون لتنفيذ الحكم
فيك ، هم أنفسهم خطاة نظيرك ، يستوجبون الحكم ، استمرى في طريقك ،
بل قال لها : « إن الطريق الذي تسيرين فيه طريق خاطيء » .

« انتفضي من عثرتك ، وقومي للجهاد » غيرى برنامج حياتك من الألف
إلى الياء . إذهبي ولا تخطئي أيضاً .

هنا لا نجد غفراناً سهلاً ، كما يعتقد البعض .. هنا غفران يتحدى ..
غفران يشير إلى القمة .. غفران يوجه الخاطيء إلى مستوى لم يخطر له
على بال . إن يسوع يجابه الظلمة الدامسة ، بتحديات الحياة الطيبة النقية
الساطعة .

(د) وموقف المسيح هنا ، يتضمن ثقته في الإمكانات البشرية. فحينما نتأمل قليلا في الأمر الذي وجهه يسوع لتلك المرأة ، نمتلىء دهشة وتعجبا ، كيف يقول يسوع لساقطة ، ذات مثل منحلة ، لم تستر في عارها ، حتى تمكن الذين حولها من القبض عليها في ذات الفعل ، كيف يقول لمثل هذه المرأة :

« إذهبي ولا تخطئي أيضاً » ؟ ألا يشير هذا القول إلى ثقة يسوع في الإمكانات الكامنة في قلب الإنسان؟ إنه حينما وقف أمام هذه المرأة لم يقل لها: « أيتها التعسة البائسة ، من يأكل الحصرم ، تضرس أسنانه . لقد عشت في عارك وخزرك ، وفي عارك وخزرك أيضاً تموتين » . لكنه قال : « إذهبي ولا تخطئي أيضاً » لقد كان يثق أنه بمعونته ، وبنعمته ، وبعمل روحه ، يستطيع الخاطيء ، أن يتحول إلى قديس . لقد كانت طريقة يسوع ، لأن يدفع الناس إلى المعرفة اليائسة بأنهم خطاة ، لا رجاء لهم ، وليس أمامهم سوى الموت ، بل أن يوحى إليهم بالإمكانات العظيمة الكامنة ، التي يمكنها بقوة الله أن تظهر ، وتحول بأسهم بأسا ، وهزيمتهم انتصارا بنعمة الله .

(هـ) وموقف يسوع يتضمن التحذير للإنسان الخاطيء .. ومع أن التحذير هنا ، لا نكتشفه واضحا مسموعا ، إلا أننا نستطيع أن نلمحه ضمنا ، فالمسيح يأتي بنا وجهاً لوجه ، في هذه القصة ، مع الاختيار الأبدى المصيري . لقد واجه السيد هذه المرأة بالاختيار الأعظم ، فأمامها طريق الشائنة القديمة ، وهي تستطيع أن تعود إليها إذا أرادت ، وأمامها طريق الحياة ، والرجوع إلى نفسها . إن هذه القصة ، قصة بلا ختام ، لأن كلمة الختام في حياة كل إنسان ، لا تسجل ، إلا حينما يقف وجهاً لوجه ، أمام الإله العظيم الديان .

يوم أخفق العالم فى معرفة النور

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ .
مَنْ يَتَّبِعْنِي فَلَا يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ .
فَقَالَ لَهُ الْفَرِيسِيُّونَ أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ . شَهَادَتُكَ
لَيْسَتْ حَقًّا . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ
لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ لِأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ
أَذْهَبُ . وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتَى وَلَا إِلَى أَيْنَ
أَذْهَبُ . أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ . أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ
أَدِينُ أَحَدًا . وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدِينُونَنِي حَقٌّ لِأَنِّي
لَسْتُ وَخَدِي بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي . وَأَيْضاً
فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ إِنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ . أَنَا هُوَ
الشَّاهِدُ لِنَفْسِي وَيَشْهَدُ لِي آلَابُ الَّذِي أَرْسَلَنِي . فَقَالُوا
لَهُ أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ . أَجَابَ يَسُوعُ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلَا
أَبِي . لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً .

هَذَا الْكَلَامُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي
الْهَيْكَلِ . وَلَمْ يُمَسِّكْهُ أَحَدٌ لِأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ
بَعْدُ .

(يوحنا ٨ : ١٢ - ٢٠)

هذه المحاوراة دارت بين يسوع وبين شيوخ اليهود تحت خزانة الهيكل .
وكانت خزانة الهيكل في رواق النسوة ، وهو ثاني أروقة الهيكل - الرواق الأول
كان رواق الأمم ، والثاني رواق النساء . وكان الرواق الأخير مخصصاً للنساء ،
لا تتعداه المرأة ، إلا عند تقديم ذبيحة على المذبح في رواق الكهنة . وحول
رواق النساء ، كانت توجد بوابات ذات أعمدة ، حيث تقوم بجواز
الجدران ثلاث عشرة خزانة يلتقي فيها الناس بتقديماتهم . وكانوا يطلقون على
تلك الخزانات لقب الأبواق ، لأنها كانت تشبه الأبواق ، متسعة في أسفلها
وضيقة في أعلاها . وكل خزانة من تلك الخزانات ، كانت مخصصة لنوع
خاص من التقدمة . في الخزانة الأولى والثانية ، كان يودع نصف الشاقل ،
الذي يلزم كل يهودي بإيداعه لنفقات صيانة الهيكل ، وحفظه . في
الثالثة والرابعة كانت تقدم أثمان زوج الحمام الذي على كل سيدة وضعت
طفلها ، أن تقدمه لمراسم تطهيرها ، (لاويين ١٢ : ٨) . في الخزانة
الخامسة كانت تودع التبرعات ، لتغطية نفقات الحطب اللازم لإيقاد النيران
على المذبح . والخزانة السادسة ، كانت مخصصة لأثمان البخور الذي يستخدم في
مراسم العبادة في كافة المناسبات . أما السابعة ، فكانت لحفظ أواني
الهيكل الذهبية ، وصيانتها .

وبقية الخزانات ، كانت مخصصة للندور ، والهدايا ، والهبات ،
والتبرعات ، وتقدمات الشكر ، وتقدمات التكفير عن الخطية . وغير ذلك .
ومن ثم كانت خزانة الهيكل ، مكانا يعج بالحركة ، ويموج بالعابدين الذين
يريدون أن يهبوا عطاياهم لله . وما كان هناك مكان نظيره ، يضم الأتقياء
المتعبدين ، الذين هم على استعداد أن يقبلوا التعليم الصحيح ، أو يناقشوا
صحته ... في هذا المكان ، وأمام جموع المتعبدين الأتقياء ، ينادى يسوع
بالحق العظيم قائلا : « أنا هو نور العالم .. » ومن المحتمل جداً أن خلفية
الصورة التي أحاطت بيسوع ، قد زادت هذا الحق قوة وتأثيراً . لقد
كانت الفرصة التي يقرنها يوحنا بهذا الحديث ، هي فرصة عيد المظال :
(يوحنا ٧ : ٢) ولقد عرفنا في فصل سابق (يوحنا ٧ : ٣٧) كيف
أن ذلك العيد ، كان ضمن مراسيمه تقليد استقاء الماء . وكيف أن هذا
التقليد ، قد أعطى يسوع الفرصة لينادى بالحق العظيم عن كونه الماء الحي
الذي يهب الري لكل ظامئ .

ولقد كان هناك تقليد آخر ، يرتبط بمراسيم هذا العيد . ففي مساء أول
أيامه ، كان هناك حفل إضاءة الهيكل ، وهذا التقليد كان يجري في رواق
النساء . كان ذلك الرواق تحيط به ممرات كثيرة لكي تسع المتفرجين ، وفي
وسط الرواق ، كانت تقام منارات أربع كبيرة . فإذا أسدل الليل ستاره ،
كانت تضاء تلك المنارات . ويقول التقليد اليهودي أن نورها كان من القوة ،
حتى أن شكل بيت في المدينة المقدسة ، كانت تتوهج ساحته بالنور القوي
المتبعث منها ، فيتحول ليل المدينة إلى نهار . وخلال تلك الليلة ، كان
الشيوخ والحكماء ، يعتقدون حلقات ، يرددون فيها المزامير ، وهم
برقصون بكل قوتهم أمام الرب ، والشعب يهتف من حولهم . لقد كانت
أول ليالي عيد المظال ، ليلة يشرق فيها النور كل زوايا أورشليم ، ويضيء

كل ركن فيها ، غامراً بالفرح ، والسرور والتهليل ، كل قلب ، وكل نفس .
ولكن يسوع يوجه أنظار سامعيه ، من النور المادى ، إلى نور من نوع جديد .
إنه يقول لهم : «لقد رأيتم كيف أن النور المنبعث من منائر الهيكل ، يحترق
ظلام الليل فيبيده . أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل
يكون له نور الحياة . ليس نوراً لليلة واحدة ، أو لعدة ليال ، بل بطول
الحياة .. بطول طريق الحياة . إن نور الهيكل ساطع قوى ، ولكنه سرعان
ما يتضاءل حتى ينطفىء . أما أنا فأنى النور الذى يبقى ، ويستمر ، ويزايد
إلى أبد الآبدين .

يوم أخفق الناس فى معرفة النور . (تابع)

(يوحنا ٨ : ١٢ - ٢٠)

يقول يسوع : « من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة » . والجملة نور الحياة تعنى أمرين . فى الأصل اليونانى قد تعنى النور الذى يصدر من ينبوع الحياة ، أو النور الذى يعطى حياة للناس ، وفى هذه الجملة تعنى الأمرين . أن يسوع هو نور الله ، وقد انبثق مضيئاً وسط البشر ، ويسوع هو أيضاً النور الذى يهب حياة للعالم . وكما أن الزهرة لن تفتح بتلاتها فى ابتسامة مشرقة ، ما لم تغمرها أشعة الشمس ، وهكذا حياتنا لن تروى بأزهار النعمة والجمال ، ما لم تتشبع بنور محضر يسوع المسيح ، ونعمه إشراقه .

فى هذه الفقرة يتحدث السيد عن إتباع خطواته . ونحن كثيراً ماننادى بضرورة اتباع خطوات المسيح .. كثيراً ماندعو الغير لاتباعه - وحينما نتحدث كذلك ، ماذا نعنى ؟

وقبل كل شىء كلمة « يتبع » هى فى الأصل اليونانى « إكولوتين » ، وحينما ندرس المعانى التى تنطوى عليها هذه الكلمة ، فإننا نستطيع أن نلقى ضوءاً على معنى اتباع المسيح ، وما يترتب على اتباعه . هذه الكلمة فى الأصل اليونانى ، لها خمسة من المعانى المختلفة ، ولكنها مع ذلك مترادفة ، مترابطة .

١ - المعنى الأول يشير إلى اتباع الجندى لقائده ، ورئيسه . والجندى يتبع قائده ، حينما يقوده ، ويرشده ، فى المسيرة الطويلة .. فى ميدان

القتال .. فى الحملات الهجومية على البلدان الأخرى . فى كل خطوة يخطوها القائد ، على الجندى أن يتبعه فى غير مناقشة ، ولا سؤال . والمسيحى كجندى صالح تحت قيادة قائده الأعظم يسوع المسيح ، عليه أن يتبعه فى طاعة ، وخضوع .

٢ - والمعنى الثانى ، يشير إلى اتباع العبد لسيدته . حيثما يسير السيد ، فإن العبد يتبعه كظله . وحيثما دعت الحاجة ، يكون فى خدمته ، وطاعته ، والقيام بكل المهام التى يطلبها منه . إنه على الدوام رهن إشارته ، وتابعه الأمين الذى لا يفرق عنه . وهكذا المسيحى أيضاً ، عبد ليسوع المسيح ، سروره ، ورضاه ، وراحته ، فى سرور ، وراحة ، ورضى سيده .

٣ - والمعنى الثالث لكلمة يتبع ، يشير إلى قبول نصيحة مشير ، أو حكم إنسان عاقل حكيم . وحيثما يقف الإنسان فى حيرة فى مفرق طريقين ، ولا يعرف هل يتجه يمينا ، أم يساراً ، فإنه يلجأ لنصح ناصح ، أو مشورة مشير ، أو حكمة حكيم ، إنسان له من الحكمة ، والدراية ، وبعد النظر ، والخبرة الطويلة ، ما يمكنه من إبداء رأى ، أو إصدار حكم . فإذا كان السائل عاقلاً ، فإنه يعمل بذلك الرأى ، ويقبل ذلك الحكم . والمسيح ، بالنسبة لكل مسيحى ، هو المشير الحكيم ، والناصح الخبير ؛ وعلى كل من يؤمن به أن يقبل نصحه ، ومشورته ، ويوجه سفينته بحسب إرشاده وتوجيهه .

٤ - والكلمة تستخدم أيضاً بمعنى الطاعة لقوانين الدولة ، ونواميسها ، وشرائعها . فإذا شاء الإنسان أن يكون عضواً نافعاً فى المجتمع ، على أية صورة من الصور كان ذلك المجتمع ، فعليه أن يخضع لنواميسه ويقبل فوائده ... والمسيحى كمواطن لمملكة عظمى ، هى مملكة السماء ،

وكمضو في ملكوت شامل ، هو الملكوت الروحي الأسمى ، عليه أن يخضع ذاته لقوانين ذلك الملكوت ، ويتقبل ناموس المسيح ، كالناموس الذي يسيطر على حياته ، وينظم مجرياته .

هـ - والفعل أيضاً يفيد تتبع المنهاج الذي ينتهجه معلم في نقاشه ، وتفكيره أو تتبع أفكار خطيب ، في خطابه أو حديثه . فالمسيحي هو الإنسان الذي أدرك مغزى تعاليم المسيح إنه لا يصغى لمعلمه في جمود وعدم فهم كما يحدث للتلميذ المغلق الذهن ، حين يصغى للمدرسه في فصل الدراسة . وهو لا يصغى إليه بذهن مشتت ، كما يحدث مع إنسان له مشاغله الكثيرة التي تملأ عقله وقلبه فتدخل الرسالة من أذن ، لتخرج من الأذن الأخرى . إنه يصغى ويتشبع عقله ، وفهمه بالرسالة ، وتثبت في ذاكرته ، وتتأصل في أعماق قلبه ، كما يتأصل البذار الحى في التربة ، فتثمر بالحبّة والطاعة .

أن تكون تابعاً ليسوع المسيح ، معناه أن تعطى نفسك جسداً وروحاً ونفساً في طاعة لسيدك ، والدخول في بركة هذه التبعية يعنى السير في النور . إننا إذا سلكنّا في قوتنا الذاتية ، في حكمتنا الشخصية ، في مقدرتنا ، وذكائنا ، فإننا مرعان ما نضعف ونتعثر ، لأن الكثير من مشكلات الحياة ، هو فوق ذكائنا ومقدرتنا ولا نستطيع أن نجد له حلاً . وإذا سرنا بمفردنا فإننا غالباً ما نتخذ الطريق الخاطيء ، لأننا لا نمتلك خريطة الحياة بين أيدينا . فنحن بحاجة إلى الحكمة الإلهية لمسيرة الحياة . إن الإنسان الذي له قائد حكيم يسير أمامه ، والخريطة الصائبة بين يديه ، لا بد وأن يصل إلى نهاية رحلته في أمان وسلام ، ويسوع المسيح هو ذلك القائد ، الذي يمتلك وحده أدق صورة لمسالك الحياة ، في عورتها ومتاهاتها ، وصحاريها ومعمياتها . واتباعه في صديق وأمانة ، معناه السير في أمان في هذه الحياة ، والدخول في سلام إلى المجد العتيد .

يوم أنخفق العالم في معرفة النور . (تابع)

يوحنا (٨ : ١٢ - ٢٠)

حينما أعلن يسوع عن حقه العظيم بأنه نور العالم ، ثارت ثائرة الكتبة والفريسيين . لقد كانت هذه النعمة أكثر غرابة لديهم ، مما تبدو لنا الآن . فقد كان هذا عندهم ادعاء صارخا بأنه المسيا لاسواه . بل ادعاء بصفة وأعمال ، هي وقف على الجلال الإلهي فحسب . فكلمة النور ، كانت تقترن في الفكر اليهودي ، وفي اللغة اليهودية ، بذات الجلال الإلهي . في المزمور (٢٨ : ١) يتحدث المرنم هاتفا « الرب نورى وخلصى » ، وفي نبوات إشعياء (٦٠ : ١٩) نقرأ القول « الرب يكون لك نوراً أبدياً » « بينما يتحدث أيوب هاتفا : « أضاء سراجي على رأسى . بنوره سلكت الظلمة » (أيوب ٢٩ : ٣) . وفي نبوات ميخا : « إذا جلست في الظلمة قال رب نورلى » . (ميخا ٧ : ٨) . أما الأحبار فقد أعلنوا أن أسم المسيا هو النور . وحينما نادى يسوع بأنه نور العالم ، فإنه قد أدعى لنفسه حقاً لم يتطاول إليه إنسان .

وتتبع النقاش في هذه الفقرة عسير معقد ، ولكنه يبرز خطوات ثلاث رئيسية ...

١ - الخطوة الأولى نرى فيها اليهود يصرون على ان شهادة يسوع لنفسه غير صحيحة ، لأنها تنقصها شهادة الشهود . فلقد كانت شهادته ، كما ظنوها ، من جانبه فحسب . وكان الناموس اليهودي ، يصير على أن

أى تقرير ، ينبغي أن يقوم على اساس شهادة شاهدين على أقل تقدير ، قبل أن يصبح نافذاً معترفاً به . فى سفر التثنية (١٩ : ١٥) يرد القول « لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطيئة ما من جميع الخطايا التى يخطئ بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر » . كما نقرأ أيضاً فى نفس السفر (١٧ : ٦) « على فم شاهدين أو ثلاثة شهود يقتل الذى يقتل . لا يقتل على فم شاهد واحد » ... وفى سفر العدد (٣٥ : ٣٠) « شاهد واحد لا يشهد على نفس للموت » . وهكذا كان منطق اليهود أن شهادة يسوع عن نفسه لا يمكن أن تقبل ، لأنه لا يوجد أى شاهد يؤيدها عداه . أما رد يسوع فقد كان يحمل بندين : فهو يقول لهم أولاً أن شهادته حق ، ولو كانت بمفردها ، لأنه موقن بسلطانه . واثق بشركته مع الآب ، حتى أنه ليس بحاجة لشهادة أخرى . هذا ليس غروراً ، أو ثقة ذاتية كاذبة . إنه صورة لما يتكرر حدوثه معنا ، فى مجريات الحياة العادية . فقد يتقدم أحدنا إلى جراح كبير ، أو اختصاصى علمى طالبا استشارته ، ويصدر الطبيب حكمه القاطع ، ويؤكد صحته . إنه شق بكل كلمة يقولها ، فهو ليس بحاجة إلى مشورة سواه لتأييد قوله إن تقريره هو جوهر خبرته . نخذ مثلاً آخر ، حكم يصدره أحد كبار جال القضاء . إنه واثق من نفسه ، ومن تطبيقه لبنود القانون ، وثقته لاتعني غروره . إنها مجرد تأكيد على أنه يعرف ما يعرف .

وهكذا كان السيد واثقا بقربه من الآب ، حتى إنه ما كان بحاجة إلى شهادة أى شاهد ، عدا شهادة هذه الشركة الحية الوثيقة .

والأمر الثانى يذكر فيه يسوع أن لديه شاهداً آخر . هذا الشاهد الثانى هو الله نفسه . وكيف يمكن أن نقول إن الله يشهد ليسوع المسيح .

(أ) أول كل شيء شهادة الآب للابن ، تكمن في أقوال الابن وتعاليمه . فلا يستطيع إنسان أن ينطق بكلمات الحكمة العلوية ، ما لم يكن قد أعطى من فوق من ينبوع الحكمة الأزلى .

(ب) وشهادة الآب أيضاً للابن ، تكمن في الأعمال التي تجرى على يديه . فلا أحد يستطيع أن يقوم بمثل هذه الأعمال ، ما لم يكن الله عاملاً فيه .

(ج) وشهادة الآب تكمن أيضاً في تأثير يسوع على الجماهير . إن المسيح يجرى في حياة البشر تغييرات جوهرية ، هي أسمى من أن يصل إليها مجهود إنسان . فلا توجد قوة بشرية تستطيع أن تحول الخاطئ إلى قديس ، أو المحرم إلى ملاك وديع . وهذا ما يفعله يسوع . وهكذا نرى في هذا أصدق دليل على عمل الله في شخص المسيح . فليست هذه على الإطلاق أعمال إنسان بشرى عادى .

(د) وشهادة الله الآب للابن ، تكمن أيضاً في تفاعل البشر معه فحيثما كرز بإنجيل المسيح للناس ، وحيثما رفع الصليب في ملء قوته ، وسموه ، وجلاله ، أمام أبصار البشر ، فإنه في الحال يلتقى التجاوب السريع الفعال ، والحياة العملية الصادقة . ما الذى يوقظ هذا التجاوب في قلوب البشر ؟ ما الذى يبعث فيهم هذه المشاعر التي تدفعهم إلى الحياة العملية المباركة ؟ هذا ولاشك هو عمل روح الله القدوس ، شاهداً ، ومؤثراً ، في قلوب البشر . إن الله في القلب . هو الذى يمكننا من أن نرى الله في يسوع .

وهكذا كان رد يسوع على الكتبة والفريسيين ، الذين اعترضوا

على شهادته بأنها غير قانونية ، لأنها صادرة من جانب واحد ، من صاحبها ولا تتأيد بشهادة شهود آخرين . لقد أكد لهم بأن شهادته عن نفسه حق وصدق ، لأنها تتأيد بسلطانه اليقيني ولأنها تتأيد بشهادة الله الآب له .

ثانياً : الخطوة الثانية في مواد هذا النقاش ، نرى فيها يسوع يؤكد حقه في الدينونة . إنه قد جاء ولا شك بروح المحبة ، فهو لم يأت إلى العالم ليدين العالم . ومع ذلك ففي ذات تفاعل الإنسان تجاه المسيح ، وتجاه دعوته تكمن دينونة ذلك الإنسان . فهو ان لم ير في المسيح جمالا ، وان لم يقبله في حياته ، فإنه انما يدين نفسه ، ويصدر الحكم الرهيب على حياته . وهنا يضع السيد فاصلا للتمييز بين نوعين من الدينونة .

(أ) فهناك الدينونة التي على معرفة البشر ، ومقاييس البشر .. الدينونة التي لاتصل إلى الأعماق ، ولا تكتشف ما يكمن في الداخل . وهذه هي دينونة الكتبة والفريسيين . بل هذه هي دينونة الناس بوجه عام . إنها لا تبحث عن الدوافع ، ولا تهتم بما هو في الداخل . إن كل اهتمامها يتجه إلى الصورة الظاهرة ... إلى ما فوق السطح .

(ب) وهناك الدينونة التي تقوم على أساس المعرفة الكاملة ، ليس للمعرفة الخارجية الجوفاء ، بل المعرفة الكاملة ، التي تحيط بكل الجوانب وتصل إلى أبعد الظروف أو أعماق الدوافع ، واخفى الحقائق ، وهذه وقف على الله جل جلاله . فهو وحده العارف بواطن الأمور . وهنا نصغي إلى يسوع ينادى ، بأن أية دينونة يصدرها ، هي دينونة الهية وليست بشرية لأنه والله واحد . هنا تكمن تعزيتنا . بل في هذا يكمن التحذير لنا ، فيسوع هو الوحيد الذي يكشف بواطن الأمور . هذه الحقيقة تجعله

رحبنا ، أكثر من أى قلب آخر ، وتجعله بالتالى مختبراً لأفكار القلب
ونياته .. ممزاً لكل صغيرة وكبيرة فى حياتنا ، أكثر من أى شخص
آخر فما يخفى على عيون الناس مكشوف لديه .

لذلك فان دينونة يسوع صداقة ، وعادلة – وكاملة ، لأنها تتأيد بالمعرفة
الشاملة التى هى وقف على الله جل جلاله .

ثالثاً : وفى الخطوة الأخيرة ، نرى يسوع يتحدث بكل صراحة
للكتبة والفريسيين ، معلناً لهم ، أنه ليست لهم معرفة بالله . إن عدم
معرفتهم له ، ولرسالته ، وللهدف من مجيئه ، كل هذه تدل دلالة
واضحة ، على أنه ليست لهم معرفة بالله . هنا تكمن مأساة من يلقبون أنفسهم
بشعب الله المختار . لقد اختار الله بالفعل اسرائيل ليعلن مقاصده له ، ويعلن
مقاصده عن طريقه للأمم ، ويظهر ذاته قبل الكل بين ظهرائه . وكان
كل تاريخ اسرائيل ، يشير إلى هذا الهدف ويتجه إلى هذه الغاية . ولكنهم
انحرفوا عن الطريق إلى مناقشة الأفكار ، إلى التمسك بهذا الرأى أو
الانتصار لذاك .. إلى التعصب المقيت لمفهومهم الخاص عن معنى الديانة ،
حتى أنهم أصبحوا عمياناً تجاه الخالق . إن مأساتهم تكمن فى أنهم ارادوا أن
يتعالوا على فكر الله ، وبشبتوا أنهم أحكم من القدير ، وفى هذا كان رفضهم
للحق الالهى .

عدم الفهم المميت

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيُّضاً أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي وَتَمُوتُونَ
فِي خَطِيئَتِكُمْ . حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ
تَأْتُوا . فَقَالَ الْيَهُودُ أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولَ حَيْثُ
أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا . فَقَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ
مِنْ أَسْفَلُ . أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ . أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ . أَمَّا
أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ . فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ
فِي خَطَايَاكُمْ . لِأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنَّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ
فِي خَطَايَاكُمْ . فَقَالُوا لَهُ مَنْ أَنْتَ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ
أَنَا مِنَ الْبَدءِ مَا أَكَلْتُكُمْ أَيُّضاً بِهِ . إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً
أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ . لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ
حَقٌّ . وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ . وَلَمْ
يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الْآبِ . فَقَالَ لَهُمْ
يَسُوعُ مَتَى رَفَعْتُمْ ابْنَ الْإِنْسَانِ فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنَّي أَنَا

هُوَ وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهِذَا كَمَا
عَلَّمَنِي أَبِي . وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِيَ وَلَمْ يَتْرُكْنِي الْآبُ
وَحْدِي لِأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ .
وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ .
(يوحنا ٨ : ٢١ - ٣٠)

هذه واحدة من أصعب فقرات النقاش التي تتميز بها بشارة يوحنا .
والتي يعسر فهمها وتحليلها . وفي هذه الفقرة نرى اتجاهات متعددة في
الحديث تسير جنباً إلى جنب ، ويضمها إطار واحد ..

في البداية يبدأ يسوع بأن يعلن أمام مقاوميه أنه ماضٍ بعيداً عنهم .
وأنه حيناً يمضي ، سيكتشفون خسارتهم العظمى ، حيناً يبحثون عنه ولا يجدونه
إنهم سوف يستيقظون من غفلتهم ، ولكن يقظتهم ستكون متأخرة .
هذا الإعلان يحمل نغمة نبوية . وهو يذكرنا بأمور ثلاثة :

(١) إنه يذكرنا أولاً ، بأن هناك فرصاً تتاح لنا تأتي بين أيدينا مرة
واحدة ولا تعود . فلكل واحد منا ، تعطى الفرصة ليقرر في نفسه ، أن يقبل
المسيح مخلصاً ورباً . وأن يخرج عزمه إلى حيز التنفيذ . ولكن هذه
الفرصة ، شأنها شأن أية فرصة أخرى ، يمكن أن ترفض وأن تضيع للأبد .
ب - ويتضح أيضاً في هذا النقاش أن الحياة قصيرة ، والزمن محدود .
فلا يوجد إنسان يمتلك كل الوقت الذي يتمناه في هذا الوجود . ولا يوجد
مخلوق لاتصل حياته إلى نهايتها يوماً من الأيام . إن وقتنا وحياتنا تحت
قيود وحدود . وفي هذا الوقت المحدد وفي هذه الفرصة ، علينا أن
نقرر مصيرنا . إن الوقت محدود ، والفرصة مقصورة . ولا أحد يعرف

متى يقف عند حده . لذلك فكل الأسباب تدعونا ، أن نقرر مصيرنا من الآن .

جـ - ولأن لنا الفرصة في هذه الحياة ، فعلينا بالتالي مسئولية تأتي بنا إلى الدينونة . بل إن ذات الفرصة المرفوضة ، تتضمن الدينونة لصاحبها . وكلما كانت الفرصة عظيمة .. متاحة .. مقدمة لنا أكثر من مرة ، زادت مسئوليتنا ، وثقلت مديونيتنا . هذه الفقرة تأتي بنا وجها لوجه أمام سمو الفرصة المقدمة لنا ، وأمام محدودية الفرصة المتاحة لنا لنغتنمها فيها .

وحيثما تحدث يسوع عن ذهابه ، فإنه كان يتحدث عن عودته للآب ، ورجوعه إلى مجده . وما كان ممكنا أن يلحق به أعداؤه إلى هناك . إنهم بعنادهم ، وشرهم ، وقساوة قلوبهم ، ورفضهم قبوله ، قد حكموا على أنفسهم بالرفض ، بعيداً عن محضر الله . أما مقاوموه ، فقد قابلوا كلماته بالسخرية اللاذعة . لقد قال لهم يسوع إنهم حيث يمضون لا يستطيعونهم أن يلحقوا به ، فجاء ردهم الساخر : « لعله سيقتل نفسه » ، وكان في هذا الرد أكثر من سخرية عابرة . لقد كانت العقيدة اليهودية تخصص أعمق أعماق الجحيم لمن يزعمون أرواحهم بأيديهم . وهكذا في سخرية تحمل كل معاني التجديف ، القاسي ، قالوا مامعناه : « لعله سيقتل نفسه » ، ولذلك فهو الآن في طريقة إلى الهاوية ، وبطبيعة الحال من يستطيع أن يلحق به إلى هناك إلا من كان على شاكلته ؟ »

وأجابهم يسوع موضحاً حديثه بأنهم إن استمروا في رفضه سيموتون في خطيتهم - وهذه الجملة ترد في كتابات الأنبياء (راجع حزقيال ٣ : ١٨ ، ١٨ : ١٨) . وهي تتضمن ، معنيين ...

١- كلمة خطيئة في الأصل هي « همارتيا » . وهي كلمة في وضعها الأصلي تختص بالصيد ، وإطلاق السهم على الفريسة . وهي تعني حرفيا إخطاء الهدف . إن الذي يرفض قبول يسوع مخلصا له ، وربما ، قد أخطأ هدف الحياة . إنه يموت بهدف غير محقق . بحياة لم تكمل ، ولم يكمل القصد منها . وعلى ذلك فهو يحكم على نفسه بعدم أهليته في الدخول للحياة الأعظم مع الله .

٢ - وجوهر الخطيئة يكمن في انفصال الانسان عن الله . وفي هذا لعنتها . فيما أخطأ آدم ، كانت أول غريزة سيطرت عليه هي الاختباء من وجه القدير (راجع تكوين ٣ : ٨ - ١٢) . إن الانسان الذي يموت في خطيئته يموت في حالة العداوة مع الله . . . في حالة الخوف منه . أما الانسان الذي يقبل المسيح ، فهو الذي يسير مع الله . فيكون الموت بالنسبة له ، هو اليدالي تفتح الباب أمام شركة أعمق . إن رفض المسيح معناه أن نكون غرباء عن الله ، وقبوله معناه أن نكون في صداقة مع القدير . وفي هذه الصداقة المباركة ينتقى الخوف من الموت إلى الأبد ..

عدم الفهم المميت (تابع)

« يوحنا ٨ : ٢١ - ٣٠ »

ثم يستمر يسوع في حديثه ، راسماً أمام سامعيه سلسلة من المقارنات ، فأعداؤه من الأرض ، أما هو فمن السماء . وهم من العالم ، أما هو فليس من العالم . وفي بشارة يوحنا ، تتردد كثيراً كلمة العالم . والكلمة هي في الأصل اليوناني « كوزموس » . والسيد يستخدمها بطريقة الفريدة الخاصة به .

١ - فالعالم قبل كل شيء ، هو الصورة المناقضة للسماء . إن يسوع قد أتى من السماء إلى العالم (يوحنا ١ : ٩) . وهو قد أرسله الله إلى العالم (يوحنا ٣ : ١٧) . وهو ليس من العالم ، أما أعداؤه فمن هذا العالم (٨ : ٢٣) والعالم هو الحياة المتقلبة العابرة التي نعيشها . قصارى القول أن « الكوزموس » هو كل ما هو بشري مادي مقابل كل ما هو إلهي روحي .

٢ - ومع ذلك ، فهذا العالم لا ينفصل عن الله . فهو قبل كل شيء خليفة الله (يوحنا ١ : ١٠) . عن طريق كلمة الله خلق الله العالم . بواسطة الكلمة كان كل شيء . وبالرغم من الفارق العظيم بين العالم وبين السماء ، فالواحد أرضي ، والآخر سماوي ، فلا توجد هناك الهوة السحيقة التي تفصل بين الاثنين .

٣ - بل الأكثر من هذا ، أن العالم « كوزموس » ، هو موضوع محبة الله . « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكيلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » . (يوحنا ٣ : ١٦) . بالرغم

من اختلاف العلم عن كل ما هو روحى . فان الله لم يغضب عليه ، ولم يهجره ، بل أصبح موضوع محبته ، ومهد عطيته العظمى .

٤ - وكل هذا لا يجعلنا نغفل وجود ما هو ردىء منحرف فى هذا الوجود . فالعالم يسوده العمى الروحى . وحين أرسل الله ابنه إلى العالم لم يعرفه العالم : إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تعرفه (يوحنا ١ : ١٠) والعالم لا يستطيع أن يقبل روح الحق . (ص ٤ : ١٧) . وهو عنده جهالة ولا يعرف الله (ص ١٧ : ٢٥) . إن العالم يسوده العمى الرهيب ، الذى يجعله لا يدرك الله ، ولا يرحب بحق الله ، ولا يقبل ابن الله . والعالم تسوده عداوة رهيبة من نحو الله ، وشعب الله ... إنه يبغض المسيح ، واتباع المسيح (يوحنا ١٥ : ١٨ ، ١٩) . وفى عداوة العالم ، لا ينبغى أن يتوقع اتباع المسيح سوى المتاعب والضيقات .

٥ - هنا نكتشف مجموعة من الحقائق الغريبة المترابطة . فالعالم منفصل عن الله ، ومع ذلك فبين الله والعالم لا توجد الهوة السحيقة التى تفصل بين الإثنين . فالله خلق العالم ، والله يحب العالم ، والله أرسل ابنه لفداء العالم ، وبالرغم من كل هذا ، فالعالم يسوده العمى ، وتسوده الجهالة والعداوة من نحو الله - ترى لماذا يتصرف العالم على هذا النحو الخاطيء ؟ هناك استنتاج واحد محتمل ، أو كما قال أحد كبار كتاب الغرب^(١) ، هناك أمر واحد يقينى بصدد تصرف الإنسان هكذا ، إنه انحرف عما ينبغى أن يكون عليه .. عن الهدف الذى وجد من أجله . هناك أمر يقينى واحد بخصوص العالم « كوزموس » ، إن العالم لم يصبح ما ينبغى أن يكون عليه . لقد طرأ خلل رهيب .. خطأ غير عادى . ما هو هذا الخلل أو هذا الخطأ ؟ إنه الخطية .. الخطية هى التى فصلت بين الله والعالم . الخطية هى التى أعمت

(١) ي. ك. شسترتون

العالم ، وغطت عينيه بغشارة القساوة والجهل فلم يعد يرى الله . الخطية
هى فى الأساس سر العداوة لله .

وإلى هذا العالم الذى انحرف ، وابتعد ، وأخطأ الهدف ، أتى يسوع معه
بالتكفير عن الخطية ، وبالتطهير من الخطية ، وبالقوة والنعمة ، لينتصر على سلطان
الخطية ، ويعود إلى ما ينبغى أن يكون عليه . ومع ذلك فإن للانسان حق
الاختيار ، أن يمد يده ويتناول العلاج الشافى ، أو يرفضه . إن الطبيب يقدم
الدواء للعليل . ونخبره بأن هذا الدواء فيه النعمة ، والشفاء ، وعودة القوة
إليه ، بل قد يصل الأمر إلى تحذير المريض بأنه إن لم يتعاط الدواء فمسيره
إلى الموت الأكيد . ولكنه لا يرغم المريض على تناول الدواء . وهذا ما فعله
يسوع ، إنه يقول لسامعيه « إن لم تؤمنوا إني أنا هو ، تموتون فى خطاياكم »
إن لم يقبل المريض العلاج المقدم له ، فليس أمامه سوى الموت .

إن العالم قد أخطأ الهدف ، هذه حقيقة لا جدال فيها ، وعلاج العالم
هو فى هذا الطريق الواحد : « أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك
ويسوع المسيح الذى أرسلته » . أن يعرفوا أنه لاشفاء لضربة الخطية ،
إلا بالطاعة للحكمة الإلهية التى دبّرت العلاج الوحيد فى المسيح . فيقبول
المسيح مخلصاً ورباً ، ينال المريض الشفاء الأكيد من لعنة خطيته .

عدم الفهم الذى يؤدى إلى مأساة (تابع)

(يوحنا ٨ : ٢١ - ٣٠)

لا توجد فى العهد الجديد فقرة تستعصى على الترجمة ، مثل الكلمات الواردة فى (يوحنا ٨ : ٢٥) . فلا أحد يستطيع أن يؤكد تماماً ماتعنيه تلك الفقرة فى الأصل اليونانى . يقول يسوع : « أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به » وتتفق الترجمة العربية لفانديك مع ماورد فى الترجمة الإنكليزية المعتمدة . هناك ترجمات أخرى مقترحة ، تقدم لنا هذه الصورة : « أولياً ، ومبدئياً ، أنا هو الذى أكلمكم به » - وعن موقات « إني أعلن لكم أنى أنا البداية » « وكيف بى أتحدث اليكم على الإطلاق »

ويقترح البعض أن المعنى المقصود من الترجمة الإنكليزية المعتمدة ، المطابقة للنص العربى فى ترجمة فانديك هو « إن كل ما أقوله لكم ليس سوى البداية » . فاذا أخذنا بهذا المعنى ، يكون المقصود بالفقرة كلها ، أن البشر يستطيعون أن يكتشفوا المعنى الحقيقى لشخص المسيح ، فى صور ثلاث ..

١ - فهم يستطيعون أن يدركوه فى الصليب . فحينما يرفع المسيح على خشبة العار يستطيع الناس أن يدركوا حقاً من هو المسيح . هنا نرى المحبة إلى المنتهى ، المحبة التى لن تدع الإنسان يفلت منها .

٢ - وهم يستطيعون أن يدركوا حقيقة المسيح فى الدينونة . إن

الدينونة محفوظة له وليس لسواه. « الآب قد أعطى كل الدينونة للابن » .
إنهم ينظرون يسوع في الوقت الحاضر ، فلا يرون فيه سوى النجار
الناصري ، ولكن سيأتي اليوم الذي يرونه فيه عظيمادياناً ، يجلس على كرسي
العدالة الإلهية ، ويدين الشعوب بالعدل والاستقامة .

٣- وحينما يشاهدونه هكذا ، سيرون فيه إرادة الله المتجسدة . إن
يسوع يقول عن صلته بالآب : « إني أفعل في كل حين ما يرضيه » .
البعض قد تكون طاعتهم لله تشنجية ، في نوبات متقطعة . أما طاعة
يسوع فهي مستمرة .. رفيعة .. كاملة . لا بد وأن يأتي اليوم ، حين يرى
الناس ويعترفون ، مقررين بأن يسوع هو فكر الله الأزلي المتجسد .

التلمذة الحقيقية

فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ إِنَّكُمْ إِن تَبَتُّمْ
فِي كَلَامِي فَبِالْحَقِّ تَكُونُونَ تَلَامِيذِي وَتَعْرِفُونَ
الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ .

(يوحنا ٨ : ٣١ - ٣٢)

هناك نصوص قليلة في العهد الجديد تقدم لنا صورة كاملة للتلمذة
الحقيقية للمسيح ، وهذا النص واحد منها . هنا نرى الخريطة الكاملة
للتلمذة ، وطريقها وهدفها .

فالتلمذة للمسيح تبدأ بالإيمان به . إن بدايتها هي اللحظة التي يقبل فيها
الإنسان ما يقوله «يسوع» كالحق الأوحد . فحين يقبل الإنسان ما يقوله
«يسوع» عن محبة الله .. حين يقبل بكل تصديق ما يعلنه عن فظاعة الخطية
وجسامتها .. حين يقبل ما ينادى به عن معنى الحياة الحقيقي ، في ذلك
الوقت عينه يصبح الإنسان تلميذاً حقيقياً للمسيح .

٢ - والتلمذة الحقيقية ليسوع ، تعني الثبات بصورة مستمرة في كلمته .
وماذا يعني الثبات في كلمة يسوع ؟

(١) إنه يتضمن قبل كل شيء الإصغاء المستمر لكلمته . يقال عن

أحد مشاهير الوعاظ^(١)، إنه في وسط حديثه، كان يتوقف بين الحين والحين، كأنما ليصغى إلى صوت خفى . إن المسيحى الحقيقى، هو الإنسان الذى يقضى طفلة عمره، وهو يصغى لصوت الحبيب ... إنه الإنسان الذى لا يتخذ قراراً فى أمر من الأمور، قبل أن يصغى أولاً لما يقوله «يسوع» له .

(ب) وهو يتضمن ثانياً، التعلم المستمر من «يسوع». فكلمة تلميذ فى الأصل اليونانى تعنى الذى يتعلم . وعلى المسيحى طفلة عمره، أن يتعلم أكثر فأكثر من «يسوع»، وأن يتعلم أكثر فأكثر عن «يسوع». إن العقل المغلق معناه نهاية التلمذة .

(ج) والثبات فى كلمة «يسوع» يعنى أيضاً، التغلغل فى الحق الذى تعلنه كلمة «يسوع». ولا يستطيع مسيحى أن يصل إلى أعماق كلمة «يسوع»، بمجرد قراءة سطحية لها. إنه لن يفهم حينذاك أعماق كلمته. إن الفارق بين الكتاب العظيم العميق والكتاب السطحى، هو أن الأول يجتذبنا لدراسته والتعمق فيه أكثر من مرة، بينما الثانى لانود الرجوع إليه بعد القراءة الأولى فالثبات فى كلمة «يسوع» يعنى دراستها، والتعمق فيها، والتأمل المستمر فى متضمناتها، والتشبع بتعاليمها، حتى تصبح الكلمة جزءاً لا يتجزأ من كياننا .

(ج) وهو يتضمن أيضاً الطاعة الكاملة المستمرة للكلمة . إننا ندرس كلمة «يسوع» لالتشبع رغبتنا فى المعرفة فحسب، ولا لنصل إلى فهم كلمات تاريخية تستحق الدراسة، ولكن لنعرف ما يريدنا الله أن نفعله . إن التلميذ هو طالب العلم الذى يتعلم، حتى يعرف ما ينبغى عليه أن يفعله . والحق الذى أتى به «يسوع» إلى العالم، ليس بنوداً نظرية، ولكنه حق قصد به أن يتجسم فى الحياة العملية .

(١) جون براون من هادنجتون

٣ - والتلمذة تتبلور في معرفة الحق . إننا إذ نتعلم من «يسوع» نعرف الحق ، كما قال بفمه الطاهر : «تعرفون الحق والحق يحرركم» .. وما هو ذلك الحق الذي نعرفه ؟ هناك أجوبة كثيرة على ذلك السؤال ، ولكن أصدق إجابة نعرف بها حق «يسوع» . هو أنه الحق الذي يعلن لنا قيم الحياة الصادقة . إن السؤال الرئيس في الحياة الذي ينبغي أن نجيب عنه تصرّحاً أو ضمناً هو هذا : «لأى هدف أكرس حياتي ؟ هل أكرس حياتي لمهنتي . لعملي . لجمع الثروة وتكديس المال والممتلكات ؟ هل أكرس حياتي للملذات العالم وشهواته ؟ أم أكرسها لطاعة الله وخدمته والسير في وصاياه ؟ إن الحق الذي يأتي به «يسوع» إلينا ، يعيننا على الوصول إلى القيم الصحيحة في الحياة ففي نور حقه ، نستطيع أن نرى ما هو قيم يستحق اهتمامنا ، وما ليس بذي قيمة .

٤ - والتلمذة تنهى بنا إلى الحرية ، «الحق يحرركم» . وفي خدمة «يسوع» الحرية الكاملة . وفي التلمذة ليسوع التحرر التام . إن التلمذة له تأتي لنفوسنا بأربعة أنواع من الحرية .

(أ) فهي تأتي لنا بالتحرر من الخوف . إن الإنسان الذي اختبر التلمذة للمسيح ، لم يعد يسلك في الحياة بمفرده ، فهو يسير في صحبة معلمه ، في صحبة «يسوع» . وفي هذه لصحبة المباركة ينتفي كل خوف .

(ب) والتلمذة ليسوع تأتي لنا بالتحرر من الذات . إن أكثر من واحد منا يعرف تماماً أن أعدى أعدائه هو الذات . فهي سر المتاعب والتقصير ، والعثرات . وأكثر من واحد يصرخ من أعماق قلبه : «ويحي أنا الإنسان الشقي . . من ينقذني من ذاتي . . من نفسي ، انني كلما حاولت أن اسمو أجد نفسي مقيداً إلى الأرض» . ولكن محضر «يسوع»

وقوته ، يستطيعان أن يجددا الإنسان ، حتى يصبح كل شيء بالكلية
جديدا .

(ج) وهي تحررنا من سلطان الآخرين . إن الكثيرين يعيشون في
رعب ، لأن الخوف من الناس يسيطر عليهم . . . ماذا يفتكرون عنهم ؟
ماذا يقولون ؟ قال الكاتب المعروف « هـ . ج . ويلز » : « إن صوت
جيراننا يكاد يطفى في آذاننا على صوت الله » . أما التلميذ الحقيقي فهو
الذى لا يلقى بالا لما يقوله الآخرون أو يفتكرونه عنه – إن كل اهتمامه
يتركز فيما يقوله الله عنه .

(د) وهي تحطم عنا قيود الخطية . كثيرون يخطئون بمحض اختيارهم ،
وأكثر منهم يندفعون في خطاياهم لأن الخطية تغلبهم . . . تسيطر عليهم . . .
تقيدهم بقيود من حديد . فحينما يحاولون أن ينتفضوا من سقوطهم ، لا يجدون
سبيلا إلا إلى العودة لخطاياهم مرة أخرى . ولقد أصبحت الخطية فيهم طبعاً
ثانياً ، وتمكنت العادات منهم ، فحولتهم إلى دواب تمتطيها وتلها هذه العادات .
وكم من واحد لسان حاله يهتف بالحكمة القديمة التي قبلت عن مدمن الخمر :
« متى استيقظ أعود أطلبها بعد » .

أما التلمذة الحقيقية ليسوع ، فهي تحطم فينا سلطان العادة . إنها تكسر
القيود التي تربطنا إلى عجلة الخطية ، وتمكننا من أن نصبح كما ينبغي أن
نكون ، بحسب القصد الإلهي المجيد . إنها تتم لنا الأشواق التي عبر عنها
أحدهم قائلاً ..

يا ليت انساناً جديداً غالباً في داخلي
يطل في سلطانه فعل القديم الأول

بين الحرية والعبودية

أَجَابُوهُ إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لِأَحَدٍ قَطُّ . كَيْفَ
تَقُولُ أَنْتَ إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَارًا . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ الْحَقُّ
الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ كُلَّ مَنْ يَفْعَلُ الْخَطِيئَةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيئَةِ .
وَالْعَبْدُ لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الْأَبَدِ . أَمَّا الْابْنُ فَيَبْقَى
إِلَى الْأَبَدِ . فَإِنْ حَرَّرَكُمْ الْابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا .

(يوحنا ٨ : ٣٣ - ٣٦)

ولقد أثار حديث «يسوع» عن الحرية مشاعر اليهود. لقد كانوا ينادون
بأنهم أحرار ، لم يستعبدوا لأحد قط - إدعاء يدعو للسخرية المرة . ففي ذلك
الحين ، كانت نعال الرومان تدوس على أعناقهم . وقبل ذلك التاريخ ، ذاقوا مرارة
الاستعباد في ربوع بابل ، وتحت سلطان آشور . ومع ذلك فقد كان اليهود
يعلقون أهمية عظيمة على الحرية التي كانوا يعتقدون أنها حق موروثة لكل
يهودي . حتى أنه من أحد البنود الثابتة في الناموس ، إن العبراني لن يصل إلى
حد الاستعباد لأخيه مهما بلغت به الفاقة . (لاويين ٢٥ : ٣٩ - ٤٢) :

« وإذا افتقر أخوك عندك ، وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد كأجير
كنزبل يكون عندك . إلى سنة اليوبيل يخدم عندك . ثم يخرج من عندك هو

وبنوه معه فيعود إلى عشيرته إلى ملك آبائه يرجع . لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لايبيعون بيع العبيد » بل إن أحد الأسباب الرئيسية للثورات المتكررة ، التى كانت تنشب فى ربوع اليهودية ، قيام بعض القادة الثائرين ينادون فى الشعب بأنهم أحرار ، وليس عليهم أن يخضعوا لمخلوق أو يطيعوا أوامره ، فهم لا ينتمون للملكوت أرضى ، بل للملكوت سماوى . وملكهم ليس من أبناء الأرض بل هو ملك السماء ، رب السماء ، ولا يشاركه فى هذا السلطان منازع .

ومحدثنا المؤرخ اليهودى الشهير « يوسفوس » الذى عاصر أحداث ما بعد الصلب والقيامة ، عن اتباع يهوذا الجليلي ، الذى قاد ثورة عارمة ضد (الرومان) إنهم « كانوا يتمسكون بالحرية إلى أبعد الحدود . وكانوا ينادون بأن الله هو ملكهم الوحيد وسيدهم » . فحينما قال اليهود فى كبرياء ليسوع إنهم لم يستعبدوا لأحد قط ، فقد كانوا يتمسكون ببند قوى من قانون حياتهم الاجتماعية .

وحتى لو قلنا بأن استعبادهم لدول أخرى ، كان حقيقة تاريخية حدثت فى بعض حقبة تاريخية ، إلا أننا نستطيع أن نقول ، إنهم حتى وإن كانوا خاضعين لروما ، أو كانوا تحت سلطان مملكة بابل ، أو تحت نير مادی وفارس ، فهم حتى فى أشد أوقات استعبادهم مرلزة وقسوة ، كانوا يحتفظون فى أعماقهم بروح مستقلة عن الظروف .. روح خرة طليقة ، بمعنى أنهم كانوا عبيداً بالجسد ، ولكن أحراراً بالروح .

كتب كيرلس الأورشليمي عن « يوسف الصديق » : « لقد بيع يوسف عبداً فى قيود المذلة والعبودية ، ولكنه كان حراً .. حراً من كل قيد .. يشع بنور الحرية ، فى روحه النبيلة النقية الطاهرة » .

لذلك كان إتهام «يسوع» لهم بأنهم عبيد سبة لا تطاق ... ولكن السيد كان يقصد عبودية من نوع أقسى ، لذلك قال « كل من يفعل الخطية هو عبد للخطية » . إن كل من هو مستعبد للخطية . . لعادة شريرة . . لطبع ردى . . للممارسة تسيطر عليه ، هو في حالة من العبودية أقسى وأمر من ذاك الذى يرزح تحت سلطان سيد جسدى ، مهما كان ذلك السيد عنيفاً قاسياً غليظ القلب . هنا يقدم يسوع مبدءاً يشبه إلى حد كبير ، ما كان ينادى به حكماء الأغريق ، جيلاً بعد جيل .
فعن الرواقين نقرأ القول :

« الإنسان الحكيم هو الحر ، أما الغبي فهو العبد الرقيق » . ويوما قال «سقراط» لتلاميذه : « كيف تعتبرون إنساناً تقيده ملاذه ، وتسيطر عليه شهواته ، كيف تعتبرون مثل هذا الإنسان حراً ؟ » ونحن نجد رسول الأمم فى (رومية ٦ : ١٧ - ٢٠) . يشكر إلهه ، لأن أتباع المسيح قد وجدوا فيه الحرية من لير عبودية الخطية .

هنا فكر هام يدعو للتأمل والأهتمام . فقد يحدث أن نوبخ إنساناً على خطأ ارتكبه ، أو نحذره من نتيجة هذا الخطأ ، فيكون جوابه . . « لانى حر فى حياتى أفعل بها ما أشاء » . ولكن الحقيقة التى نود أن نوجه إليها الأنظار ، هى أن الإنسان حينما يرتكب الخطية فإنه لا يفعل ما يريد ، بل الشر الذى يسيطر عليه هو الذى يفعل ما يريد . فقد يكون للعادة سلطانها على الإنسان فتسيطر عليه ، وتسيره كيفما تشاء ، حتى تصبح السيد الأمر الناهى فى حياته ، وقد يطلق الإنسان العنان لشهوة من الشهوات حتى تتسلط عليه ، ولا يملك القدرة على التحرر من قيودها ، أو كما عبر «سنيكا» ، حتى يصل فى النهاية إلى

أن يبغض آثامه ويحبها في الوقت عينه . وهكذا لا يفعل الإنسان ما يريد ، بل الشر الذي في داخله هو الذي يفعل ، وهو الذي يسيطر . لقد فقد قوته . . حرته . . سلطانه على نفسه ، وأصبح عبداً لعاداته لشهوته . . للشر الذي تملك عليه . وهذا هو ما يعنيه السيد المسيح بقوله ، « كل من يفعل الخطية هو عبد للخطية » .

ثم يتقدم السيد بعد ذلك بتهديد مقنع . . . تهديد يدركه كل يهودي . لحقيقة صيرورة الإنسان عبداً يقدم ضمنها معنى جديداً – في البيت اليهودي كان هناك فارق بين العبد ، والحر . أما الإبن فهو صاحب البيت الذي يبقى في بيته إلى النهاية ، ولا يترعه منه إنسان . أما العبد ، ففي الأماكن التي يخلو عنه وطرده في أية ساعة . إن سيده يستطيع أن يستغنى عنه ، ويطرده – لا قوة في الوجود تنزع من الإبن حق البنوة ، وبركاتها ، الإبن على الدوام هو الإبن ، ولكن العبد يمكن طرده في أية ساعة .

وهكذا يقول « يسوع » لليهود : « إنكم تظنون بأنكم أبناء في بيت الله ... تعتقدون بأنه لا قوة في الوجود تستطيع أن تنزعكم منه ، استناداً إلى حق البنوة ، ولكني أقول لكم إنكم بسلوككم .. بعنادكم .. بقساوتكم .. قد انتزعتم أنفسكم من دائرة البنين إلى دائرة العبيد . . لقد صيرتم أنفسكم عبيداً بخطاياكم . وإني أقول لكم ، إن العبد يمكن أن يجد نفسه ملقى في الطريق ، بعيداً عن البيت في أية ساعة » . هنا تهديد . . تهديد رهيب . إنه يحذرنا من الاتجار في مراحم الله . . من الأتكال على إحسانه وقلبه الكبير ، ومعاملاته السالفة . وهذا ما كان يفعله اليهود . . وهذا التحذير بالتالي يقدمه الله لنا كأفراد . .

البنوة الحقيقية

أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ . لَكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ
تَقْتُلُونِي لِأَنَّ كَلَامِي لَمْ يَوْضِعْ لَهُ فِيكُمْ . أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا
رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي . وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ آبَائِكُمْ .
أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمَ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ
لَوْ كُنْتُمْ أَوْلَادَ إِبْرَاهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ .
وَلَكِنَّكُمْ الْآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ
كَلَّمَكُم بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ . هَذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ .

(يوحنا ٨ : ٣٧ - ٤٠)

في هذا النص يتقدم السيد بضربة قاضية إلى ادعاء ، كان اليهود يتمسكون به
ويظنون أنه الكل في الكل في حياتهم . لقد كان «إبراهيم» بالنسبة لليهودي ، أعلى
وأسمى مثال في تاريخه الحي . وكان اليهودي يعتبر نفسه آمناً مطمئناً في غنى
مراحم الله ، على أساس هذا الحق الأوحى : أنه ابن لإبراهيم . فنحن نجد
كاتب المزامير يخاطب إخوته بالقول : «يا ذرية إبراهيم عبده . يا بني يعقوب
بختاريه» (مزمور ٥ - ١ : ٦) « وإشعيا ينادى بلسان الله .. «أما أنت
يا إسرائيل .. الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي» (إشعيا ٤١ : ٨) . ولقد
كان اليهود على حق في تقديرهم لإبراهيم . فلم تظهر شخصية عملاقة في

تاريخ الإنسانية ، قدر هذه الشخصية . بل إن اليهود كانوا يعتقدون أن بر «إبراهيم» لا يكفي هو فحسب ، بل يكفي جميع الأجيال من بعده — لقد اعتقدوا أن صلاح «إبراهيم» ، خزلة هائلة تسحب منها الأجيال ولا تفرغ — في مجادلة يوستينوس الشهيد مع تريفو اليهودي ، عن الديانة اليهودية واستحقاقاتها نجد «تريفو» يتحدث قائلاً: «إن ملكوت الأبدى سوف يوهب للنسل «إبراهيم» حسب الجسد ، حتى ولو كانوا خطاة ، غير مؤمنين ، وغير مطيعين لوصايا الله . أى أن اليهودى كان بالمعنى الحرفى ، يعتبر نفسه فى أمان ، لأنه من نسل «إبراهيم» . مثل هذا الموقف العنصرى الأحمق ، قد نجد له نظائر فى حياتنا الحاضرة ..

(أ) فهناك من يحاولون أن يقيموا أمجادهم ، على اسم أو مركز سابق . فقد يكون ضمن أسرهم ، أو فى تاريخ العائلة ، من قام للكنيسة بخدمة جليلة ، أو من كانت له خدمته الممتازة ، فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو الوطنية ، وهم لذلك يحلمون بمركز ممتاز ، أو يطلبون مقاماً هاماً فى المجتمع ، على هذا الأساس الواحد .. إنهم يقيمون أمجادهم على غيرهم . هذا طريق خاطئ . فلا يمكن أن تكون الأمجاد السالفة ، أو الإسم الحسن ، أساساً لحياة كسولة بلا عمل . بل ينبغى أن تكون دافعاً لصاحبها عل تعلية البناء ، والسمو به إلى أعلى ، وبذل مجهود أعظم ، وتحقيق منجزات أسمى .

(ب) وهناك من يحاولون أن يبنوا حياتهم ، على أساس تقليد أو تاريخ ، وكم من هيئة مسيحية تظن أن لها رسالتها الهامة ، وخدمتها الفعالة ، لأنها يوماً من الأيام ، فى غابر الزمان ، كانت لها شهرتها ، وكان لها كيائها . كم من كنيسة تقليدية تحيا فى عاصمة أمجاد ماضيا ، وتنشئ تراب التاريخ بحثاً عن أمجادها الدفينة التى اندثرت ، وتملأ الدنيا صياحاً ، منادية بما كانت

عليه ، ولكن عاصمة أمجاد الماضي ، إن لم يتعهدا أبنائها بالعناية والمجهود والعمل ، فآلها إلى الانهيار والاضمحلال :

لا يمكن لفرد ، أو أمة ، أو هيئة دينية ، أن يحيا ، أو تحيا في أمجاد الماضي . وهذا ما كان اليهود يحاولونه .. ولقد كان «يسوع» صريحاً معهم . لقد أعلن لهم أن نسل «إبراهيم» الحقيقي ، ينبغي أن يعمل أعمال «إبراهيم» .. أن يحيا حياته .. أن يكون له بر «إبراهيم» وليس أقل من هذا . وبنفس الروح ، نادى المعمدان من قبل . لقد أعلن للشعب أن يوم الدينونة على الأبواب . ولن يغنيهم فتيلاً كونهم أبناء «إبراهيم» ، لأن الله في إمكانه لو أراد أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم ، (راجع متى ٣ : ٩ ، لوقا ٣ : ٨) وعلى نفس الوتيرة تحدث رسول الأمم في أكثر من موضع من رسائله . فليس الجسد والدم هما نسل «إبراهيم» ، والكيان المادى لا يجعل الإنسان سليلاً له . إنها المؤهلات الروحية وليس سواها . ولقد كان «يسوع» يمهّد للتصريح الذى ينادى به بعد ذلك بأنهم يريدون أن يقتلوه ، وليس هذا الفعل من أفعال «إبراهيم» ، ولا ينتسب إليه فى شيء .. فحينما أرسلت السماء رسولا إلى خليل الله قبله بكل شوق ، وبكل احترام (تكوين ١٨ : ١ - ٨) لقد رحب «إبراهيم» برسول الله . وهامهم ، من يدعون أنهم ذرية «إبراهيم» ونسله ، يرسل الله إليهم ابنه الحبيب «يسوع المسيح» ، فيدبرون المؤامرات لقتله . كيف يتجاسرون أن يلقبوا أنفسهم ذرية «إبراهيم» ، وسلوكهم يناقض سلوكه ؟

هنا نرى حقاً عظيماً ينادى به «يسوع» . فلو وضعنا فى مخيلتنا قصة «إبراهيم» كما وردت فى سفر التكوين ، فإننا نجد «يسوع» ينادى ضمناً بأنه رسول (الله) ، وهو يؤكد هذا الحق بقوله : « مارأيت عند الآب وإنما أخبركم به » . إن الحق الأساسى فى تعاليم «يسوع» ، هو أنه لم يأت بهذه التعاليم من ذاته ، بل

أنه أتى بها من لدن الآب . فهو لا يقدم آراءه الذاتية ، بل كابن الله ، يقدم للبشر فكر الله عن كل مافي الوجود .

وفي نهاية هذا النص ، يتقدم «يسوع» إليهم بتقرير مؤلم حاسم : « أنتم تعملون أعمال أبيكم » - لقد قال لهم إن «إبراهيم» ليس أباً لهم ، فمن يكون أبوهم إذا ؟ في عدد (٤٤) نقرأ الجواب : « أنتم من أب هو إبليس » : إن أباهم ليس أقل من الشيطان نفسه . أولئك الذين كانوا يفخرون أمامه منذ لحظات ، بأنهم أبناء «إبراهيم» ، نجده يجابههم بأقصى إتهام واجههم به إنسان ، إنهم أبناء عدو كل خير . إن أعمالهم تعلن عن بنويتهم ، فسلوكننا ، وأعمالنا ، هي التي تثبت حقاً إن كنا أبناء الله أو أبناء الشيطان ، وليس سوى هذا .

أبناء الشيطان

أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ . فَقَالُوا لَهُ إِنَّنَا لَمْ نُوَلَدْ مِنْ زِنَا . لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ لَوْ كَانَ اللَّهُ آبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لِأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ . لِأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي . لِمَاذَا لَا تَفْهَمُونَ كَلَامِي . لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْتَمْعُوا قَوْلِي . أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا . ذَاكَ كَانَ قِتَالًا لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ . مَتَى تَكَلَّمْتَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لِأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ . وَأَمَّا أَنَا فَلِأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي .

(يوحنا ٨ : ٤١ - ٤٥)

استمعنا ليسوع منذ قليل ، يقول لليهود ، إنهم يحياهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم إزاءه ، قد كشفوا عن حقيقة ذواتهم ، إنهم ليسوا أبناء إبراهيم وأنهم يتسلسلون من أب رهيب ، وينتسبون إلى بنوية رهيبة . وكان جواب كبريائهم ، إدعاء يفوق ادعاءهم الأول . لقد نسبوا أنفسهم لله ، وقالوا

عن ذواتهم لأنهم أبناء له ، وليس هذا حقاً جديداً نادى به اليهود ، فهو يتكرر تصريحاً أو تلميحاً في أكثر من موضع من العهد القديم . إننا نقرأ في أكثر من مكان في الأسفار المقدسة ، أن الله هو الآب المحب لشعبه . ففي سفر الخروج (٤ : ٢٢) يأمر الله عبده «موسى» أن يجابه فرعون مصر بالقول : « هكذا يقول الرب : إسرائيل ابني البكر .. فقلت لك أطلق ابني ليعبدني » ويوم وقف «موسى» موبخاً ومنذراً لشعب إسرائيل نستمع إليه يقول .. «الرب تكافئون بهذا يا شعباً غيباً غير حكيم ؟ أليس هو أباك ومقتنيك ؟ .. (تثنية ٣٢ : ٦) و «إشعيا» يتحدث عن ثقته في الله هاتفاً أمامه «تطلع من السموات وانظر .. فإلك أنت أبونا ولينا منذ الأبد إسمك » (إشعيا ٦٣ : ١٥ ، ١٦) وفي سفر ملاخي بهتف كاتبه : « أليس أب واحد لكلنا ؟ . أليس إله واحد خلقنا ؟ (ملاخي ٢ : ١٠) .

وهكذا لم يكن ادعاء غريباً أن ينادى اليهود بأن الله أب لهم .

« نحن لم نولد من زنى » هكذا هتفوا بكبرياء : وهنا يواجهنا احتمالان . أما الأول فأننا نفسره بالقول ، أن أحب الأوصاف التي أطلقت على أمة إسرائيل في القديم ، هو لقب عروس الرب . لأجل هذا حينما كانت الأمة تنحرف وراء آلهة الأمم ، كانت الآهة التي توجه إليها أنها راحت تزني وراء آلهة غريبة . إن خيانتها لإلهها ليست أقل من جريمة الزنى الروحي . إنها خيانة لرباط الزوجية المقدس ، الذي ارتبطت به بإلهها . وفي هذه الحالة ، كانت الأمة المنحرفة تلقب « بأبناء زنى » (هوشع ٢ : ٤) . وهكذا حينما نادى اليهود بأنهم ليسوا أبناء زنى ، فقد كانوا يقصدون أنهم لا ينتفون إلى أمة من عبدة الأوثان ، وأنهم طيلة تاريخهم كانوا يتعبدون للإله الحي الواحد . ويرتبطون به ارتباطاً مقدساً — إدعاء يدعو للدهشة ، ولا يمكن أن ينادى به ، إلا أناس تملكهم الغرور والبر الذي نظير اليهود :

أما الثاني ، فلعل اليهود قصدوا بهذا القول شيئاً يمس حياة «يسوع» الخاصة في الصميم . فنحن نعرف كيف أن المسيحيين الأولين منذ البداية لم يتوانوا في المناذاة بميلاد المسيح العذراوى المعجزى ، وأمام هذا الحق أطلق اليهود أقسى الشائعات عن «يسوع» ، وكيف أن العذراء خانت عهد خطبتها وكانت غير أمينة ليوسف ، أما ذلك الذى سقطت معه في غفلة من رجلها ، فقد كان جندياً رومانياً يدعونه « بانثيرا » أو « بانديرا » وجاء يسوع نتيجة هذه الصلة الآثمة . — كلام قبيح ما كنا نود أن نثبتته في هذه الصفحات الكريمة. لذلك فمن المحتمل جداً أن اليهود كانوا يعيرون المسيح بأصله غير المعروف ، وكأنى بهم يقولون له .. « بأى حق تتجاسر وتوجه لنا مثل هذا الحديث ، ونحن نعرف من أين أتيت ؟ »

ويتجاوز يسوع عن وقاحتهم ، ويعود إلى مناقشة إدعائهم بأن الله أبوهم ، فيقول لهم : لو كان الله أباً لكم بالحقيقة لكنتم تحبوننى ، وترحبون بى ، هنا نجد مفتاح البشارة الرابعة ، إن المحك الحقيقى لجوهر الإنسان هو موقفه من «يسوع» ، فإن كان يرى فى «يسوع» كلى الجمال ، وإن كانت صورته تبدو فى عينيه الأبرع جمالا من بنى البشر ، فهذا الإنسان ولاشك قد اختبر الولادة الجديدة من فوق ، وأصبح بالحقيقة إبناً لله . إن له العينين السماويتين المفتوحتين اللتين تبصران مجد الله فى شخص المسيح . وإن كان لا يرى فى المسيح جمالا ، فإن عينيه مازالتا تغشاهما غشاوة الجهل ، إنه لم يولد بعد من الله. فيسوع هو المحك الحقيقى الذى يدين البشر ويظهر معدنهم وحقيقتهم .

وهكذا استمر «يسوع» فى حلقات اتهاماته المترابطة ، التى تظهر سامعيه على حقيقتهم ، وهو يتساءل قائلاً : « لماذا لا تفهمون كلامى ، وتدركون

الحق الذى أنادى به ؟ « أما الجواب فهو قاس رهيب . إنه لا يشير إلى ذهن طبيعى مغلق ، بل إلى صمم روحى رهيب . إن السبب فى عدم فهمهم ، ليس عدم مقدرتهم على الإصغاء ، أو عدم إدراكهم للحق ، بل جمود قاس ، يدفعهم إلى عناد يرفض الفهم ، - فى إمكان الإنسان أن يغمض عينيه فى عناد قلبه فلا يبصر ، وأن يصم أذنيه فلا يسمع ، وأن يغلق أحشاءه فلا يصل إليه صوت الضمير الصارخ . فإذا استمر الحال على هذا المنوال وقتاً طويلاً ، فإن التصامم يصل به أخيراً إلى الصمم الروحى الفعلى . قصارى القول ، أن الإنسان يستطيع فقط أن يسمع ما يريد أن يستمع إليه ، فإذا أرهف أذنيه لصوت رغائبه وشهواته ، وإذا عود سمعه على الاتجاه الخاطيء ، فانه فى النهاية لا يستطيع أن يوجه أسماعه إلى موجات الصوت الإلهى فتلتقطها وتتأثر بها ، وتصل إلى إطاعتها ، وتمثلها فى حياة مباركة .

ثم يأتى الاتهام اللاذع - إن الآب الحقيقى لليهود هو الشيطان لا سواه ، ويسوع يثبت فى هذا المجال صفتين للشيطان .

(١) أما الصفة الأولى . فهى روح العمل « قتالا للناس من البدء » وقد تكون فى مخيلة « يسوع » حينما تقدم بهذا القول صورتان . الأولى جريمة « قايين » ضد أخيه « هابيل » ، لقد كان « قايين » القاتل الأول فى تاريخ البشرية : ومما لاشك فيه أنه اندفع إلى جريمته المروعة بوحى من الشيطان . أو قد يكون فى فكر « يسوع » ، صورة أكثر عمومية وخطورة : صورة الشيطان ، أصل كل خطية وتجربة فى حياة الإنسان ، منذ بدء الخليقة حتى الآن ، وإلى نهاية الدهر . فمن طريق الشيطان دخلت الخطية إلى العالم . وبالخطية الموت . وهكذا اجتاز الموت إلى الجميع إذ أخطأ الكل . (رومية ٥ : ١٣) فلم تكن هناك تجربة ، لما كانت هناك خطية ، ولو لم تكن

هناك خطية ما كان هناك موت . فحين تحدث السيد عن الشيطان ، وصوره في صورة القاتل المجرم الأوحده ، في حياة البشرية جمعاء ربما كان في فكره أنه أصل كل خطية في حياة البشر ، وعن طريق الخطية تسلك الموت إلى الجميع ، فأصبح هو ، ولو عن طريق غير مباشر ، سبب وجود الموت في تاريخ الإنسانية .

وسواء كانت الصورة الأولى المحدودة ، أو الصورة الثانية الرهيبة الشاملة ، فإن الحقيقة واحدة في كلتا الصورتين : الشيطان هو أصل الموت وأن المسيح رئيس الحياة لأنه أصل الحياة ، وواهب الحياة ، وحافظ الحياة .. إن الشيطان هو قاتل البر والطهارة والصلاح والنقاوة والجمال في حياة الإنسان ، وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة حلوة مباركة مجيدة سامية . بل إن الشيطان يقتل سلام العقل ، وراحة الضمير ، وسعادة القلب .. بل إنه هو عدو المحبة وقاتلها في حياة الإنسان .

الشيطان في جوهره هدام قتال ، والمسيح في طبيعته بناء واهب الحياة . الشر يقتل ، والمسيح يحيي .. الشر يأتي بالموت ، والمسيح يهب الحياة . كان اليهود يدبرون الخطط ، ويحكيون المؤامرات لقتل المسيح . في الوقت الذي جاء فيه المسيح إلى العالم نوراً وحياة للناس . وهكذا نرى أنهم كانوا يسلكون طريق أبيهم الشيطان ، عدو الحياة والخير .

٢ - والصفة الثانية للشيطان ، الكذب ، فهو أصل كل كذب وخداع وباطل ، الكلمة الغاشة والفكر الباطل ، والحديث الملتوى ، والكذب الأبيض أو الأسود ، كما يصوره الناس ، كل هذا مصدره الشيطان ، إن كل كذبة وليدة إبليس ، تعمل عمل إبليس وتخدم مقاصده الرديئة ، فالكذب يبغض الحق ، ويحاول أن يهدمه ، لهذا السبب أبغض اليهود

يسوع ، فحينما التقى اليهود وجهاً لوجه مع رب المجد ، كان لقاء الليل
بالنهار .. الظلمة بالنور .. الكذب بالحق . وكان طبيعياً أن يبغض الليل
والظلمة والكذب ، النور والحق ، ويحاول أن ينتصر عليه ويبدده .

لقد وسم «يسوع» اليهود بمبسم البنية للشيطان ، لأن أفكارهم كانت
تتجه إلى هدم كل صلاح ، وتعصيد كل ما هو كذب وضلال . وكل من
يحاول أن يقف في وجه الحق ويهدمه ، يعمل عمل عدو الخير .

الِإِتْهَامُ الْقَاسَى ، وَالِإِيْمَانُ اللَّامِعُ

مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيئَةٍ . فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ
فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي . الَّذِي مِنَ اللَّهِ يَسْمَعُ كَلَامَ
اللَّهِ . لِذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللَّهِ .
فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا إِنَّكَ
سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ . أَجَابَ يَسُوعُ أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ
لَكِنِّي أَكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي . أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ
مَجْدِي . يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ .

(يوحنا ٨ : ٤٦ - ٥٠)

هذا النص يحتاج منا أن نحاول تصوير ما حدث وكأنه يجري أمام
عيوننا . هنا مسرحية تجري أحداثها أمامنا . والمسرحية لا تكمن في
الكلمات فحسب ، بل نستطيع أن نراها بين السطور .. في وقفات السكون .
إن يسوع يبدأ بالمناداة بحق جبار : « هل بينكم من يستطيع أن يكتشف
خطأ في حياتي ؟ من يضع أصبعه على نقطة سوداء ؟ هل بينكم من يستطيع
أن يوجه إلى أدنى اتهام ؟ » ولا بد وأن فترة من السكون قد مرت بعد هذه
الكلمات ، فيها جال السيد يبصره بين الجموع ، هنا ، وهناك ، باحثا عن
يقبل التحدي ، ويفتح عينه في نور شمس البر والنقاء . ويستمر الصمت

دون أن يجرؤ واحد على رفع رأسه . ولا بد وأن كل واحد ، قد أجهد ذاكرته ، وخاصة بين المقاومين ، ولكن دون جدوى . وحينما يعجز الجميع عن الجواب ، ويرين عليهم الصمت ، يتحدث إليهم «يسوع» قائلا : «إن كنتم تعترفون بأنه لا عيب في ، فلماذا لا تقبلون كلامي؟ هنا يسود الصمت مرة أخرى ، فيعود «يسوع» إلى مجابتهم بالقول: أنتم لا تقبلون كلامي لأنكم لستم من الله ، وروح الله لا يسكن فيكم ... ترى ماذا يقصد يسوع حين وجه هذا الاتهام إلى اليهود ؟.

الجواب أنه لا يوجد اختبار يتغلغل في أعماق قلب الإنسان وفكره ، مالم يوجد في الداخل ما يتجاوب معه ... مالم يكن هناك الاستعداد الداخلي لقبول هذا الاختبار . فإذا لم يكن هذا الاستعداد الداخلي موجوداً ، فمن المحتمل جداً ألا يتم هذا الاختبار . لنأخذ على سبيل المثال حالة انسان فقد حاسة السمع . كيف به يستمتع بأنغام سيمفونية رائعة لموسيقار عظيم نظير بيتهوفن؟ أو لنأخذ حالة إنسان مصاب بداء عى الألوان ، كيف نطلب منه أن يميز الألوان الأخاذة في تحفة رائعة لمايكل أنجلو . وهكذا حينما يحل روح الله في قلب الإنسان فإنه يعمل عملين : العمل الأول ، أنه يكشف حق الله للإنسان ويعلنه له ، والثاني ، أنه يعين الإنسان على تمييز ذلك الحق وإدراكه والتمسك به . هذا يعنى بكل جلاء ، أنه مالم يحل روح الله في قلب الإنسان فلن تكون للإنسان المقدرة على معرفة حق الله أو التمسك به . وهو يعنى أيضاً أنه حين يغلق الإنسان قلبه في وجه روح الله ويسلك وراء شهوات قلبه ، ومسررات نفسه ، حتى لا يترك مجالاً لروح الله للسيطرة عليه ، فإنه حينما يرى الحق أمامه واضحاً جلياً لا يستطيع أن يميزه ، أو يدركه أو يتمسك به .

لقد كان «يسوع» يقول هنا لليهود ما معناه . « لقد سلكتم حسب شهواتكم . واتبعتم مشورة قلوبكم . لقد صنعتم من الذات صنما تبخرون له وتتعبدون . وهكذا لن يستطيع روح الله أن يصل إلى أعماقكم ، لأنه وجد أبواب قلوبكم موصدة أمامه ، لهذا السبب فقدتم نعمة التمييز الروحي فلم تستطيعوا أن تعرفوني ، أو تدر كوا تعليمي . »

إن اليهود في كل الأجيال والعصور ، شعب متدين ، ولكن العيب يكمن في تمسكهم بأفكارهم .. بأرائهم .. بدلا من التمسك بفكر الله . وتعاليمه . وهذا العيب ، هو السر في ابتعادهم عن الله ، حتى أصبحوا شعبا بلا إله . وفي نفس الوقت الذي يظنون فيه أنهم يخدمون الله صاروا بلا إله .

ولقد كان اتهاما قاسيا حين جاء «يسوع» ، ليواجه هذا الشعب المتدين بالقول بأنهم غرباء عن الله ، لا غربة إن كان في هذا أقصى إتهام يثير حافظتهم . وهكذا في قحة مجنونة راحوا يوجهون إليه السباب . « أليس حسنا ما نقوله عنك أنك سامري ، وبك شيطان » ترى ماذا يقصدون بكلمة سامري . إنها تعني قبل كل شيء أنه عدو لإسرائيل .. فقد كانت العداوة مستعرة بين اليهود والسامريين . وهي تعني أيضاً أنه منكر للناموس ، ومحطم لبنوده شأنه شأن السامريين . وأقصى ما تعنيه كلمة سامري أنه هرطوقي . فقد أصبحت الكلمتان مترادفتين في عرف اليهود . شيء رهيب أن يوجه مثل هذا اللقب المشين لمعلم الأجيال . لكنها حقيقة مرة نستقيها من واقع الظرف ، إنه لو ظهر رب المجد ثانية ، ونادى بتعاليمه بين طوائفنا ، وكنائسنا ، ووقف في

وجه بعض التقاليد الباطلة ، لما ناله منا أقل مما ناله من اليهود . ولوجهنا إليه نفس التهمة الوقحة .

على أنه من المحتمل أن الكلمة التي ترجمت سامري ، هي ترجمة محرفة - للكلمة - الأصلية . ونحن نلاحظ أن «يسوع» أجاب على التهمة الثانية ولم يجب على الاتهام الأول . إنه رد على اتهامهم : «بك شيطان» . ولكنه لم يجب على قولهم : «انك سامري» . وهذا يدفعنا للعجب . على أن الاحتمال الذي اشرنا إليه ، هو أن تكون الكلمة مترجمة خطأ عن الأصل . في الأصل الآرامي ، وردت الكلمة «شوميروني» . وهي لقب من القاب رئيس الأبالسة ، نظير القاب اشمداي . وشماثيل ، وشيطان . وضمن آيات القرآن، نقرأ أن اليهود قد انحرفوا عن عبادة الله ، إلى عبادة الأوثان بأغواء شوميرون رئيس الأبالسة . وهكذا إن كانت الكلمة على هذه الصورة ، يكون المعنيان مترادفين : «السنا نقول حسنا إنك ابن إبليس «شوميرون» وبك شيطان ؟» ويجيبهم «يسوع» : «انني ابعد من أن اكون ابنا لعدو الخير . فانا اكرم الله ، وأنتم بسلوككم المنحرف تهينون الله . فمن منابه شيطان ؟ ومن منا يلقب بأسماء الأبالسة ؟ انتم ولا شك ، لأن اعمالكم الشريرة تشهد عليكم بحق . ثم تأتي قمة الإعلان عن ايمان «يسوع» حين يقول «مجدامن الناس لست أقبل» انني لا ابحث عن المجد في هذا العالم . انني اعرف أن مصيري هو الرفض ، والهوان ، والعار ، والصليب . ولكن سيأتي اليوم الذي يوضع فيه . كل في موضعه . سيأتي اليوم الذي يوضع فيه الآب تاج المجد على جبين من يستحق . إنه سيهني المجد الحقيقي ، الذي هو مجده . لقد كان يسوع واثقا بنهاية الأشياء .. كانت له النظرة البعيدة المدى التي تشرق الأجيال ، وتصل إلى ما وراء الدهور -

فى الزمن لم يكن له سوى العار والهوان.. وفى الأبد، كان يرى التيجان
التي تنتظره ، وتنتظر كل من يطيع الآب السماوى ويمجد اسمه فى
غير فساد ..

لقد كان ليسوع التفاؤل العظيم ، النابع من إيمانه العظيم ، التفاؤل
الذى يتعمق ويتأصل فى الآله الحى .

الحياة والمجد

أَلْحَقَّ أَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي
فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ . فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ أَلَا نَ
عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا . قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالْأَنْبِيَاءُ .
وَأَنْتَ تَقُولُ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي فَلَنْ يَذُوقَ
الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ . أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي
مَاتَ . وَالْأَنْبِيَاءُ مَاتُوا . مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ . أَجَابَ يَسُوعُ
إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا . أَبِي هُوَ الَّذِي
يُمَجِّدُنِي الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلَهُكُمْ وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ .
وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ . وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ
مِثْلَكُمْ كَاذِبًا . لَكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ .

(يوحنا ٥: ١٨ - ٥٥)

هذه الفقرة تنقلنا من مجد إلى مجد . فبين سطورها نلمح إعلانات تشبه
ومضات البرق تتألق الواحدة بعد الأخرى . هنا يتقدم «يسوع» متحدثا عن
ذاته بإعلان بعد إعلان، الواحد أعظم من الذي يسبقه . فالذي يسمع كلامه
ويؤمن به ويطيعه لا يرى الموت . وكان هذا الإعلان صدمة كبرى

للإهود . لقد قال زكريا النبي « آباؤكم أين هم . والأنبياء هل أبداً
يحْيون . »

(زكريا ١ : ٥)

لقد انتهت حياة إبراهيم : والأنبياء أيضاً رقدوا تحت التراب ، ألم يحفظوا
في يومهم وفي جيلهم وصايا القدير . فمن يكون «يسوع» حتى يضع نفسه
في مركز أرفع من أبطال الإيمان هؤلاء ؟ لقد كان الإهود يتمسكون بحرفية
الكلام . وفي هذا كانت عثرتهم . كان ضيق فكرهم هو السر في غباوتهم
وعدم فهمهم . فلم يكن «يسوع» يتحدث عن الحياة المادية ، والموت المادي .
لقد كان يقصد بقوله هذا أن الإنسان الذي يقبله لا يوجد ما يسمى بالموت
بالنسبة له . لقد فقد الموت حتميته بالنسبة له . إن الذي يدخل في شركة الحياة
الأبدية مع «يسوع» ، قد دخل في شركة بعيدة كل البعد عن الزمن ، لا تنطبق
عليها المقاييس الزمنية التي يقبل «يسوع» قد دخل في شركة مع ، الله لا يستطيع
الزمن ولا الأبد ، ان يسيطر عليها او يحطمها بأية صورة . مثل هذا الإنسان
لا ينتقل من حياة إلى موت ، بل من حياة إلى حياة . وما الموت إلا المدخل
الذي يوصله إلى صلة أقرب إلى إلهه .

ويتطرق السيد في حديثه ، من هذه العقيدة ، ليقدم حقاً عظيماً بعد ذلك :
إن كل أكرام حقيقي منبعه هو الآب . فليس من الصعب العسير ان يكرم
الإنسان نفسه ، في استطاعة كل إنسان أن يحيط نفسه بهالة من المجد المصطنع
هذا شيء يسير ، ولكنه في نفس الوقت خطير ، أن يحيا الإنسان في نور
أحلام رضاه ، وليس من العسير أيضاً كسب مديح البشر ، فالعالم يكرم
الناجحين الطموحين . ولكن المجد الحقيقي ، هو الذي تعلنه الأبدية وليس
الزمن . فمقاييس الأبدية تختلف عن مقاييس الزمن .

ثم ينادى «يسوع» بدعامتين أساسيتين في حياته . .

١ - فهو وحده الذى له المعرفة الفريدة بالله . إنه وحده الذى يعرف الله كما لم يعرفه مخلوق قبله ، وكما لن يعرفه إنسان بعده . بل الأكثر من ذلك إن اراد أحدا أن يصل إلى معرفة حقيقته بالله فلا سبيل آخر له غير طريق المسيح . إنه وحده الطريق المؤدى إلى معرفة الله الحقيقية . قد نستطيع أن نصل بعقولنا إلى معرفة جزئية سطحية عن الله . ولكن المعرفة الكاملة تأتي عن طريق المسيح . فهو وحده إعلان الله الكامل للبشر وفيه تتمثل صورة الله في ملء جلالها وسموها .

٢ - وهو أيضا وحده الذى وصل إلى الطاعة الكاملة لله . إنه وحده الذى يحفظ وصايا الله بلا نقص . وهكذا حين يتأمل الإنسان حياة «يسوع» يستطيع أن يقول : «هذه هي الصورة المباركة، التى يريدنى الله أن أكون على مثالها» ، وإذ يتمثل به يصل إلى كمال خدمة الله .

في «يسوع» وليس فى سواه ، نعرف ما يريدنا الله أن نصل إلى معرفة وفى «يسوع» وليس فى سواه ، نصل إلى ما يريدنا الله أن نكون عليه .

الادعاء الكبير

أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلْ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ .
فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ
إِبْرَاهِيمَ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ
يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ . فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ .
أَمَّا يَسُوعُ فَاتَّخَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازاً فِي وَسْطِهِمْ
وَمَضَى هَكَذَا

(يوحنا ٨ : ٥٦ - ٥٩)

. إن كل التصريحات السابقة التي نطق بها «يسوع» ، تبدو كألسنه من
البرق الخاطف ، إزاء هذا التصريح المتوهج اللامع . فحينما تحدث «يسوع»
بأن إبراهيم ، رجل الطاعة والإيمان ، تطلع فرأى يومه ، فابتهج بفرح
لا ينطق به ، كان يتحدث إلى اليهود باللغة التي يفهمونها . لقد كان اليهود
يحيطون إبراهيم بأكثر من قصة من قصص الإيمان ، وعن طريق هذه الصور
نستطيع أن ندرك ما يهدف إليه «يسوع» في حديثه معهم على هذه الصورة .
ولو طلبنا من اليهود أن يفسروا لنا هذه الفقرة ، لقدموا لنا خمسة احتمالات
في طريق تفسيرها ..

(١) فإبراهيم منذ نهاية حياته على الأرض حتى ذلك الحين ، يحيا في الفردوس ،

وفى امكانه أن يرى كل ما يجرى على الأرض ، وإذا رجعنا الى مثل الغنى
ولعازر الذى تقدم به السيد ، نراه ينحو بنفس المنحى .

(لوقا ١٦ : ٢٢ - ٣١)

(ب) ولكن ليس هذا هو التفسير الصائب الذى كان «يسوع» يقصده ،
لقد قال «يسوع» : أبوكم «إبراهيم» تهلل .. فرأى وفرح بصيغة الماضى ،
واليهود يفسرون بعض نصوص التوراة بطريقة تشرح لنا هذا القول . لقد
كانوا يفسرونه فى نور الوعد الذى نطق به الرب لإبراهيم (تكوين ١٢ : ٣)
«فى تسلك تتبارك جميع قبائل الأرض» .

ويقول أحبار اليهود إنه حينما أعطى الرب هذا الوعد لعبده ، كان يقصد
الأشارة الى أن المسيا الذى فيه تتبارك جميع الأمم والشعوب ، سوف يأتى
من أحشائه ، وهكذا فاض قلبه بالفرح والتهليل فى ضوء أعجاز هذا الوعد
المبارك .

(ج) وهناك بعض الأحبار يرجحون أن الرؤيا التى رآها «إبراهيم» كما
أثبتت فى (تكوين ١٥ : ٨ - ٢١) ، قد اعلن له فيها كل مستقبل الأمة اليهودية
وهكذا لا بد وأنه رأى عهد المسيا المشرق بالرجاء .

(د) والبعض يتجهون الى ما ورد فى (تكوين ١٧ : ١٧) الذى يخبرنا
كيف أن «إبراهيم» ضحك حينما سمع بأنه سيكون له ابن ، ولم تكن هذه الضحكة ،
ضحكة السخرية او عدم الإيمان ، بل كانت ضحكة البهجة والتهليل حينما
رأى بان المسيا سوف يأتى من نسله .

(هـ) وهناك تفسير آخر خيالى يتجه إليه البعض ، استناداً الى ما ورد فى

(تكوين ٢٤ : ١) : « وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام » ، وعلى هذا الأساس يتصورون أن كلمة تقدم في الأيام ، تعنى أنه دارت به عجلة الزمن ، فوصل إلى الأحقاب القادمة ، ورأى في تاريخ أمته يوم المسيا وعهده المجيد !

من هذه الصور مجتمعة ، نستطيع أن ندرك بوضوح ، أن اليهود كانوا يؤمنون بأن إبراهيم في حياته ، بصورة أو بأخرى ، قد كانت له الرؤيا عن تاريخ اسرائيل ، وعن عهد المسيا . وهكذا حينما قال المسيح ، إن «إبراهيم» قد رأى يومه وفرح ، كان يؤكد ضمنا ، أنه ليس أقل من المسيا المنتظر « رجاء اليهود في كل العصور والأجيال . .

فالمسيح يقصد هنا أن يقول لسامعيه : « إنكم تؤمنون بأن إبراهيم قد وهبه الله الرؤيا عن يوم المسيا وأنه رآه . لقد رأى خليل الله يومى . . رآنى منذ آلاف السنين » . « أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح » .

أما بعض المسيحيين الأولين فلهم تفسير خيالى للغاية . فهم يتجهون إلى ما ورد في رسالة بطرس الأولى (٤ : ١٨ - ٢٢) و (٥ : ٦) ، إلى الفقرتين الغامضتين ، اللتين منهما نشأت عقيدة نزول المسيح إلى الهاوية ، واللتين بسببهما دخلت كلمة «ونزل إلى الجحيم» ضمن قانون الإيمان المسيحى . ومن الملاحظ أن الكلمة التى ترجمت «الجحيم» هى فى الأصل «هاذز» أى الهاوية . فكلمة جحيم تعطى الفكرة الخاطئة ، بأن المسيح قد ذهب إلى مكان العذاب المخصص للأشرار والعصاة حيث يتعذب الأثمة والفجار . إن الهاوية فى الفكر اليهودى ، هى أرض الأشباح ، أو الأرواح ، الخيرة والردية على حد سواء ... أرض الأنخيلة التى آمن اليهود بوجودها ، قبل أن يشرق عليهم الاقتناع الكامل بالخلود . وضمن أحد كتب أبو كريف العهد الجديد ، ويعرف باسم انجيل

نيقوديموس أو أعمال بيلاطس ، نجد فقرة تشير إلى روح إبراهيم، وكيف
تهلل حينما اشرق نور «يسوع» على أرض الظلمة وظلال الموت ، وحينما نزل
المسيح إلى أرض الموتى .

القصة تبدأ يوم صلب المسيح ، حين يظهر اثنان من الموتى الذين استيقظوا
يوم تشقت القبور ، وقام كثيرون من الراقدين . وهذان يرويان ما حدث
هناك في وادى الأرواح ، فيبدأن القصة بالقول . .

«أيها الرب يسوع المسيح ، يا قيامة وحياة كل الوجود . هبنا نعمتك
حتى نخرج بقيامتك ، وبالأعمال العجيبة التي قمت بها في وادى الموتى في
الهاوية . لقد كنا معهم جميعا . . . مع اولئك الذين رقدوا منذ بدء
الخليقة . وفي ظلمة نصف الليل التي كانت تسود هناك ، اشرق نور كنور
الشمس في وقت الظهيرة وأضاء كل شيء حتى استطعنا أن يرى أحدنا
الآخر .

وعند ذاك هتف أبونا إبراهيم مع الآباء والأنبياء بفرح عظيم : «هذا
النور يأتي من النور العظيم المشرق على العالم كله» .

وهكذا نرى في هذه القصة ، كيف أن الموتى رأوا «يسوع» وأعطيت لهم
الفرصة ليتوبوا عن خطاياهم ، ويؤمنوا به ، حتى لا يكون لأنسان أدنى عذر
في يوم الدين . إنه لم ير المسيح ولم يسمع عنه . . . وضمن الأرواح التي
شاهدت هذا المنظر البهيج «إبراهيم» ، فرأى وتهلل وفرح . . .

هذه الآراء قد تبدو غريبة لدينا: ولكنها تكن كذلك بالنسبة لساميعها .
ولقد أفضنا في ذكر الصور ، التي دعت اليهود إلى الإيمان ، بأن إبراهيم رأى
يوم المسيا ، ومع ذلك استمر اولئك في عنادهم وتمسكهم بحرفية الكلام ،

فهتفوا معترضين بالقول : « ليس لك خمسون سنة بعد فكيف رأيت إبراهيم ! » ولماذا عدد الخمسين ؟ لقد كانت سن الخمسين هي السن التي يعتزل فيها اللاويون الخدمة (عدد ٤ : ٣) . ولذلك فقد قصدوا أن يقولوا ليسوع : « إنك بعد شاب في عنفوان قوتك ، ولم تصل بك السن إلى اكتمال خدمتك . فكيف رأيت إبراهيم ؟ هذا كلام مختل فقد عقله » . فاذا ليسوع يجابههم بأروع شهادة صريحة نطق بها عن نفسه : « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » إن السيد رب المجد الأزلي لا يقول هنا « قبل أن يكون إبراهيم أنا كنت » بل ينادى « أنا كائن » إشارة إلى أزليته ، وأبديته ، وعدم تقيده بحساب الزمن .

فالزمن لا يحده . لا نعلم أنه وجد وقت لم يكن هو فيه ، ولن يوجد زمان ينقطع هو فيه عن الوجود . لا ينبغي أن يقال عن يسوع : لقد كان ، ينبغي أن نقول عنه هو الكائن .

ترى ماذا يعنى «يسوع» بقوله هذا ؟

إنه لا يعنى بالطبع أن «يسوع» الناسوت قد وجد منذ الأزل .

فنحن نؤمن أن «يسوع» بالجسد مقيد ببدء . فهو قد ولد في بيت لحم . ولكن المقصود أعمق من هذا . لا يوجد في الوجود كله إلا واحد لا يتقيد بالزمن . لا يوجد إلا واحد هو اسمى من مقاييس الزمن ، وأعمق من أن تصل إليه حدود الوقت . . إنه وحده الذى يستطيع أن يقول عن نفسه : أنا الكائن الكائن . . أهيه الذى أهيه .

وهذا الواحد هو الله . .

لقد كان يسوع يقول لليهود « إن وجودى ليس أقل من وجود الله .
وحياتى ليست أقل من حياة الله . وفى كيانى يمتزج الأزل بالأبد ، بصورة
تسمو على مقاييس الزمن المادى . أو كما عبر عن ذلك كاتب العبرانيين
بصورة أكثر بساطة : «أمسا ، واليوم ، وإلى الأبد» . فى يسوع نرى ليس
فقط ابن الإنسان الذى جاء إلى عالمنا ، وجال بين الناس يصنع خيراً ،
وانتهت حياته بالصليب . . لكن فيه نرى الاله غير المحدود بالزمن ..
إله إبراهيم واسحق ويعقوب . . الذى كان قبل أن يكون الزمن ، والذى
يكون بعد أن يبتلع الزمن فى الأبد . . هو الكائن على الدوام . . فى
يسوع اعلن الاله السرمدى ذاته للبشر . .

الأصحاح التاسع

نور للعيون المظلمة

وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وَلَادَتِهِ .
فَسَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ يَا مُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ
حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى . أَجَابَ يَسُوعُ لَا هَذَا أَخْطَأَ وَلَا أَبَوَاهُ
لَكِنْ لِيَتَّظَهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ . يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ
الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ . يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لَا يَسْتَطِيعُ
أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ . مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ

(يوحنا ٩ : ١ - ٥)

هذه هي المعجزة الوحيدة في البشائر ، التي كان فيها المريض مصاباً منذ ولادته . في سفر الأعمال نجد أيضاً حالتين قيل عنهما إنهما كانا عاجزين منذ ولادتهما : الأعرج من بطن أمه الذي كان يستعطي عند باب الهيكل الذي يقال له الجميل (أعمال ٣ : ٢) وكذلك المقعد من بطن أمه في مدينة لسترة (أعمال ١٤ : ٨) . وهذا الإنسان هو الوحيد في البشائر الذي ورد عنه أنه أعمى من بطن أمه . ولعله كان شخصاً معروفاً للجميع لأن التلاميذ كانوا يعرفون كل شيء عنه . وحينما رأوه

انتهزوا الفرصة ليستوضحوا من معلمهم مشكلة كانت تشغل بال الفكر اليهودي ، كما أنها مازالت تشغل بال البعض منا في وقتنا الحاضر : مشكلة الألم وعلاقته بالخطية . لقد كان اليهود يقرنون بلا تردد ، آلام الإنسان بخطاياهم . كانوا يستندون على أساس أنه حيثما وجد الألم فلا بد وأن تكون هناك الخطية .

« هذا الإنسان أعمى » هكذا تساءلوا « هل هذه الإصابة نتيجة لخطاياهم ، أم أوقعها الله عليه عقاباً لخطايا ارتكباها أبواه ؟ » أما كونه أخطأ ، فهذا غير منطقي ، لأن العمى أصابه منذ ولادته . ترى بماذا يجب أحبار اليهود على هذا التساؤل ؟

١ - البعض يتمسكون بعقيدة غريبة عن خطايا ما قبل الولادة . فهم يعتقدون أنه في الإمكان أن يبدأ الإنسان في ارتكاب خطاياهم حتى ولو لم يولد بعد ! وهو في بطن أمه . وضمن الأدب اليهودي القديم ، وردت حادثة خيالية بين المدعو « أنطونيوس » وبين الحبر « يهوذا » البطريك فيها يسأله الأول : من أي وقت يبدأ الشيطان عمله منذ لحظة تكوينه في بطن أمه ، أم منذ ولادته ؟ فيجيبه الحبر اليهودي « منذ أن يبدأ تصويره في البطن » ويعترض أنطونيوس على هذا الرأي ، محاولاً بالحجة أن يقنع محدثه بخطأ رأيه ، فيقول « لو كان الشر يبدأ منذ تكوين الجنين » ، لتضايق الجنين من السجن الذي يحيا فيه ، وراخ يرفس ويمزق أحشاء أمه وربما أدى ذلك إلى موتها ، أو إلى خروجه قبل الأوان ، أما الحبر فيبحث في كتب الناموس فلا يجد إلا الآية الواردة في سفر التكوين (٤ : ٤٧) « هناك خطية رابضة عند الباب » أي أنه عند باب الرحم تكمن الخطية منتظرة اللحظة التي يتكون فيها الإنسان ، ملازمة إياه طيلة فترة الحمل ، مولودة معه بولادته . ولعل مثل هذا الفكر

كان يراود مخيلة المرثم حينما نطق بالقول المعروف : « بالآثام صورت وبالخطية حبلت بي أمي » لقد كانت لليهود الفكرة عن بداية الخطية منذ بداية حياة الإنسان ، وتكوينه .

٢ - وفي عصر المسيح ، تأثر اليهود بالثقافة اليونانية أيماءاً تأثر وبنظريات «أفلاطون» عن الوجود السابق لروح الإنسان . وهكذا آمنوا بأن أرواح جميع الأجيال كانت موجودة منذ البدء في جنة عدن ، قبل خلق العالم ، وقال آخرون إنها كانت في السماء السابعة ، بينما اعتقد غيرهم بأنها كانت في مكان غير معروف أعده الله لها ، وهي تنتظر وجود الجسد وتكوينه لتدخل فيه ، وكان اليونانيون يعتقدون أيضاً ، وعندهم نقل اليهود أن هذه الأرواح خيرة بطبيعتها وأنها لا تتلوث إلا عند دخولها الأجساد ولكن بعض اليهود آمن أن هناك أرواحاً طيبة وأخرى غير صالحة ، وضمن سفر الحكمة ، وهو أحد الأسفار الأبوكريفية نقرأ القول .. « كنت طفلاً طيباً بطبيعتي ، وكان من نصيبي النفس الطيبة » (حكمة ٨ : ١٩) .

وهكذا في عصر المسيح ، كان البعض يؤمنون بأن المصائب التي تحل بجسد الإنسان منذ ولادته هي بسبب خطايا نفس رديئة اتحدت به - عقيدة غريبة ولا شك ، لا يمكن أن يقبلها العقل . ولكن من خلفها تكمن عقيدة العالم الذي وضع في الشرير .

وبحسب عقيدتهم قد يكون من الجانب الآخر خطايا الوالدين . إن الفكر بأن الأطفال يرثون نتيجة خطايا والديهم ، نجده منتشرأ في صفحات العهد القديم . « أنا الرب إلهك إله غيور ، افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع .. » (خروج ٢٠ : ٥ ، ٣٤ : ٧ ، عدد ١٤ : ١٨) وعن الإنسان الشرير ، وهي نبوة طبقت فيما بعد على «يهوذا الأسخريوطي»

الذى أسلم سيده ، نجد المرنم يقول : « ليذكر إثم آبائه لدى الرب ولا تمنح خطية أمه » .. (مزمور ١٠٩ : ١٤) ، يتحدث «إشعياء» بلسان الله عن خطايا الشعب وخطايا الآباء قائلا : هكذا اكتبب أمانى ولا أسكت بل أجازى . آثامكم وآثام آبائكم معاً » (إشعياء ٦ : ٦ ، ٧) لقد كان أحد مفاتيح عقيدة العهد القديم ، أن الأطفال يرثون خطايا والديهم . ولسنا ننكر أن شر الإنسان لا يكون وفقاً على ذاته : وأن نتائج فعالة لا تحقيق به فحسب ، بل بالآخرين أيضاً ، وعلى الأخص أبنائه فلا أحد يحيا لذاته ، ولا أحد يموت لذاته ، وحينما نخطئ الإنسان فإنه ينشر سلسلة من النتائج ، التى لا يعلم مدى تأثيرها إلا الله .

نور للعيون المظلمة (تابع) (يوحنا ٩ : ١ - ٥)

وإذ نتقدم فى دراستنا لهذه الفقرة يتضح أمامنا مبدأ أساسيان :

١ - فنحن نرى «يسوع» لا يحاول أن يستجلى غوامض العلاقة بين الخطية والآلم ، أو يفسر مدلولها . بل يقول لتابعيه إن الآلام قد حلت بهذا الإنسان لكى يعطى فرصة لقدرة الله لتظهر فيه ، حتى يتمجد الله بواسطته . وهذا حق يتمشى مع منطق البشارة الرابعة فى صورتين .

(١) فالمعجزة فى عرف «يوحنا» هى علامة قوة الله ومجده . البشائر الثلاث الأخرى تتجه اتجاهات أخرى فى تفسيرها للمعجزة . فهى ترى فيها فيض حنان يسوع من نحو المتألم والمحتاج . فحين قام «يسوع» بمعجزة اشباع الجماهير فلذلك لأنه رأى الجموع الجائعة وتحزن عليها لأنهم كانوا كغنم لا راعى لها (مرقس ٦ : ١٤) . وحينما أتى المريض المصاب بالبرص بحالته الرهيبة إلى طبيب الأنسانية الأعظم ، طالبا منه التطهير ، نجد «يسوع» يتحنن عليه ويمد يده ويبرئ (مرقس ١ : ٤١) .

وهنا نرى منطق البشارة الرابعة فى تفسيرها للمعجزة يغير المنطق التفسيرى الذى درج عليه البشرون الآخرون . البشائر الأخرى ترى فى المعجزة عنصر العطف ، والحنان من جانب السيد ، ودافع الحاجة والألم من جانب المحتاج والمتألم . أما البشارة الرابعة فهى ترى فى المعجزة أظهار قوة الله ومجده . ولا تناقض بين هذا المنطق وذاك . فهما مجرد نظرتين متكاملتين لحقيقة واحدة . ووراء هذه وتلك يكمن الحق الأعظم : إن مجد الله يتبلور ويظهر فى فيض عواطفه وحنانه ، وإن مجد الله لا يظهر فى ملء جلاله وسموه ، إلا حينما يكشف عن أحساسه الفائضة ، ويمد يده للمتعب والمتألم والمحتاج .

(ب) وهناك معنى آخر يظهر به الألم مقدرة الله ومجده . فالحزن ، والمرض ، والضيق ، والانكسار ، والخسائر ، كلها تظهر مدى ما يستطيع الله أن يقدمه للإنسان . فحينما يأتى سيل المتاعب ، ويصدم كيان إنسان لا يعرف الله ، فمن المحتمل جدا أن تتداعى قوته وينهار بنيانه . ولكنها حينما تحمل بإنسان يحيا مع الله ، ويسير معه ، فهى تزيد بهاء ، واحتمالا ، وصبرا ، وتصهر معدنه فيزداد نقاء . وهكذا تصفيه المتاعب وتنقيه التجارب .

يقال عن أحد القديسين إنه فى ساعته الأخيرة حينما كان يتقلب على فراش الألم والمرض ، أرسل يطلب أفراد أسرته قائلا : تعالوا لتنظروا كيف ينتصر المسيحى على آلامه وموته . فحينما تهب علينا عواصف الحياة فى ملء قسوتها تكون لنا الفرصة لتمجيد الله فى ملء قوته فى حياتنا وتظهر للعالم أجمع كيف يمكن أن يحيا المسيحى فى آلامه ، وكيف يمكن بالتالى لو اقتضى الأمر ، أن يموت . إن أى نوع من أنواع الألم ، هو فرصة الله ، ليظهر مجده فى حياتنا وآلامنا .

كما أن الألم يعيننا على الاحساس بالآلام الغير ، وهكذا نمد لهم يد المعونة حاجاتهم ، فنظهر مجد الله في عمل الرحمة الذي نقوم به . ولفرانك لوباخ رائد محور الأمية المسيحي ، فكر عظيم في هذا الصدد فقد كان ينادى أنه حينما يتحد المسيح بحياتنا ، وهو وحده الطريق ، نصبح نحن جزءا من طريق الله ، ويمر طريق الله السلطاني فينا . أننا حينما نمد يد المعونة باذلين نفوسنا لخدمة الآخرين في الامهم وضيقاتهم ، وامراضهم ، واحزانهم ، يستخدمنا الله طريقا رئيسيا يوصل به عونته وتعزياته إلى قلوب شعبه . وتقديم المعونة لإنسان يحتاج إلى المعونة ، هو إظهار لمجد الله ومقدرته بواسطتنا .

ثم يستمر يسوع قائلا : إنه ينبغي عليه ، كما ينبغي على أتباعه ، أن يعملوا أعمال الله ، ما دامت الفرصة تسمح بذلك . إن الله قد أعطى الإنسان نهار العمل ، وليل الراحة ، واليوم شمس تشرق ، وفرصة العمل فيه تنتهي . لقد كان هذا الحق صحيحا بالنسبة ليسوع ، لأن نهار حياته على الأرض كان وشيك الانتهاء ، وليل الصليب كان يزحف في الأفق . وهو أيضا حق بالنسبة لكل واحد منا . فنهار الحياة قصير محدود .

وما ينبغي أن نعمله ، لنعمله بأوفر سرعة . هناك مزولة (ساعة شمسية) في مدينة جلاسكو ، نقشت عليها هذه الكلمات : «فكر في الزمن قبل أن يهرب الزمن» . اننا لا نستطيع أن نؤجل واجب اليوم إلى الغد ، فقد لا يأتي للغد على الإطلاق . ومن واجب المسيحي أن يستغل كل لحظة اعطاها الرب له في خدمة الله وخدمة اخوته . ولا صرخة يأس تعدل صرخة إنسان يهتف بعد فوات الفرصة : «مضى الصيف ، وانتهى الحصاد» .

على أن السيد يقول : مادمت في العالم قانا ، نور العالم ، وهذا يأتي بنا

إلى معنى جديد في إستغلال الفرصة . فهذه الكلمة لا تشير إلى أن حياة «يسوع» محدودة ووقته ضيق . بل تشير بالتالي، إلى أن فرصتنا نحن في الأمسك بالحياة ضيقة محدودة . . . فرصتنا في الحياة . . . في النور . . . في الخدمة الحية . فقد تأتي علينا فرصة العمر ، لنقرر إن كنا نقبل المسيح مخلصاً ورباً وسيداً في حياتنا . فإذا لم نغتنمها قد تذهب ولا تعود .

يحدثنا أحد الثقات^(١) ، عن السن التي يبدو فيها الإنسان أكثر قابلية للحصول على التجديد فيقول . إن التجديد يمكن أن يبدأ في السابعة أو الثامنة من العمر وتزداد قابلية الإنسان لقبول المسيح مخلصاً حتى العاشرة ، أو الحادية عشرة من عمره . حتى تصل إلى منهاها في سن السادسة عشرة .

فإذا وصل إلى سن العشرين بدأت تتناقص فرصة قبوله للمسيح حتى إذا تقدمت به العمر إلى الثلاثين دون أن يقبل المسيح ، كان تجديده نادراً .. إن الله يقول لنا : « هو ذا الآن وقت مقبول هو ذا الآن يوم خلاص . إن سمعتم اليوم صوته فلا تقسوا قلوبكم » . إن قوة يسوع لا تتناقص بمرور الوقت ، ونوره لا يتضاءل . ولكننا إن لم نغتنم الفرصة يوماً بعد يوم ، وإن أجلنا اتخاذ القرار الحاسم في حياتنا، نصبح إقل مقدرة وقابلية بعد ذلك ، حينما نتقدم بنا السنون . ينبغي أن نعمل عمل الله . . . ينبغي أن نتخذ قرار الله في حياتنا ، ما دام نهار ، لأنه يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يتخذ فيه قراراً ، أو يعمل فيه عملاً .

(١) ا . د . ستاربك .

خطوات معجزة

قَالَ هَذَا وَتَفَلَ عَلَى الْأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا
وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الْأَعْمَى . وَقَالَ لَهُ أَذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي
بِرْكَةِ سِلْوَامٍ . الَّتِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ . فَمَضَى وَاغْتَسَلَ
وَأَتَى بِصِيرًا .

فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلًا أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى
قَالُوا أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطَى .
آخَرُونَ قَالُوا هَذَا هُوَ . وَآخَرُونَ إِنَّهُ يُشَبِّهُهُ ، وَأَمَّا هُوَ
فَقَالَ إِنِّي أَنَا هُوَ . فَقَالُوا لَهُ كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ .
أَجَابَ ذَلِكَ وَقَالَ . إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِينًا
وَطَلَى عَيْنَيَّ وَقَالَ لِي أَذْهَبُ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامٍ وَاغْتَسِلُ .
فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ . فَقَالُوا لَهُ أَيْنَ ذَلِكَ .
قَالَ لَا أَعْلَمُ .

(يوحنا ٩ : ٦ - ١٢)

هناك معجزتان، ورد فيها عن «يسوع»، أنه شفى مريضه عن طريق البصاق.
هذه المعجزة، وأيضا معجزة شفاء الأصم الأبكم، الواردة في بشارة مرقس
(٧ : ٣٣)

واستعمال البصاق هنا قد يبدو في نظرنا شيئاً غريباً منفراً وغير عادى، ولكنه كان شيئاً عادياً في تلك العصور. السحيفة في القدم . لقد كان القدامى يعتقدون بأن البصاق، وبخاصة بصاق إنسان عظيم له خواصه الشافية. ومحدثنا المؤرخ الرومانى « تاسيتوس » عن الامبراطور قاسباسيان ، إنه حين كان في زيارة لمدينة الاسكندرية ، جاء إليه إثنان من المرضى ، الواحد بعينين لا تبصران ، والآخر بيد شلاء جامدة ، وهما يتضرعان إليه هاتفين ، بأن الآلهة طلبت منهما أن يسرعاً إليه ليجدا الشفاء على يديه . أما الأعشى ، فقد رجاه أن يبلى مقلتيه الغائمتين ببصاقه ، بينما توسل إليه الثانى أن « يطأ يده العاجزة بقدمه . ولكن قاسباسيان تردد بادىء الأمر . ولما ألح عليه الذين حوله لم يجد بداً من القيام بهذا العمل . ويؤكد المؤرخ الرومانى بأن « اليد العاجزة قد عادت إليها قوتها في الحال ، واستعادت العينان المظلمتان إبصارهما (١) » .

أما « بلىنى » الرومانى الذى اشتهر بتحقيق كل ظاهرة ومناقشتها من الناحية العلمية ، فقد أفرد فصلاً كاملاً للحديث عن البصاق وجدواه ، فهو ترياق ملوكى لسم الثعابين ، وهو للوقاية من داء الصرع ، وإذا كان البصاق لصائماً ، انقطع مدة عن تناول الطعام ، فهو يشفى بقع البرص البيضاء ، أما الرمد فهو يستجيب لدهنة من هذا البصاق تطفى بها العينان كل يوم ، حتى داء سرطان العنق يمكن شفاؤه كذلك !

ثم وصل الأمر إلى أن دخل البصاق ميدان السحر . . . فهو يقي من العين الشريرة . وعن الفرس نقرأ أن خالة الطفل أو جدته ، إذا كانت تقية.

(١) أنظر كتاب تاريخ تاسيتوس .

تخاف الآلهة ، تستطيع أن تقى الطفل شر الحسد ، بأن ترفعه من مهده على ذراعيها وتدهن جبينه بالبصاق اللامع بأصبعها الوسطى .

ولعلنا نجد أثراً لمثل هذه التقاليد ، حينما يلمس الإنسان بأصبعه جسماً ساخناً ، فيسرع بوضع أصبعه في فمه ، ويبلل مكان الأصابة بريقه . بل هناك البعض يعتقدون أن الثآليل يمكن شفاؤها ببصاق الصائم .

أما كون المسيح قد استخدم هذه الوسطة المعروفة فلعله أراد أن يزيد في إيمان الرجل الأعمى باستخدام هذه الوسيلة ، وهكذا تتلاقى قوته المعجزية مع إيمان المريض فتتم المعجزة .

وهناك تأويل آخر ، ولا نقول عنه إنه تفسير ، يرجح بأن مقتل ذلك المولود أعمى ، لم تكونا موجودتين أصلاً . وكما قام الكلمة الخالق في بدء الخليقة بخلق آدم من الطين ، هكذا صنع الكلمة المتجسد من الطين واسطة لتعويض العينين الناقصتين وخلقهما . فأثبت المسيح بهذه المعجزة أنه الخالق الأزلى ، الذى أبدع بأصابعه آدم من تراب الأرض ..

قصارى القول ، أن المسيح كالطبيب الأعظم الحكيم ، لم يصدع مريضه باستخدام وسيلة فوق الطبيعة ، بل كسب ثقته ، وزاد في إيمانه ، باستخدام واسطة معروفة في عصره . ليس لأنه آمن بهذه الوسطة أو تلك ، بل ليزيد من ثقة مريضه فيه ، ويزيد فيه روح الرغبة ، والتوقع فيما سوف يتم له . ولعله أراد أن يلقننا درساً ألا نقلل من ثقتنا ، في الوسائط التى بين أيدينا ، وألا ننبد ما يقدم إلينا من وسائل في طريق الشفاء .. وكلنا نعرف قيمة

ثقة المريض وإيمانه ، التي ربما تعادل في مفعولها ، ما يزيد على فاعلية الدواء المقدم له .

وبعد أن طلى «يسوع» عيني المريض بالطين ، أمره بأن يذهب ليغتسل في بركة سلوام . ولقد كانت بركة سلوام واحدة من المعالم المميزة لأورشليم ، كما كانت ثمرة أحد الأعمال الهندسية البارعة في العالم القديم .

ونحن نعرف كيف أن ينابيع المياه ، لا وجود لها في قلب المدينة المقدسة ، فاذا حدث حصار على المدينة ، يكون مصير أبنائها الموت ظمأً ، وهناك ينبوع رئيسي واحد خارج المدينة هو ينبوع العذراء ، أو ينبوع جيحون ، ويقع في وادي قدرون . وللوصول إلى هذا الينبوع ، نحتت في الصخر درجات تبلغ الثلاثة والثلاثين درجة ، ينزل بها الإنسان إلى مستوى المياه . وهناك كانت تتوافد نسوة أورشليم ، للاستقاء ، فاذا حدث حصار ، يمكن قطع هذا المصدر الرئيسي المياه فتكون الطامة الكبرى . .

وهكذا ، حينما هدد «سنحاريب» ملك آشور المدينة المقدسة بالحصار والهلاك ، لم يكن بد من أن يعجل «حزقيا» الملك ، باكتشاف وسيلة لنقل مياه الينبوع ، بطريقة سرية إلى داخل المدينة ، فأمر بحفر القناة المعروفة باسمه . (راجع أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٢ - ٨ ، ٣٠) وكذلك (أشعيا ٢٢ : ٩ - ١١ وملوك الثاني ٢٠ : ٢٠)

أما حفر هذه القناة ، فكان عسيراً للغاية لأنها تقع قلب الصخر الصلد .

ولو كان الحفر مستقيماً ، لما زادت المسافة عن ثلثمائة وستة وستين ياردة . ولكن لأن المهندسين القدامى اتبعوا خطأ متعرجاً . إما لصعوبة الحفر في الصخور ، أولتجنب بعض المواقع المقدسة ، فقد وصل طول القناة إلى ما يقرب من ستمائة ياردة . أما اتساع النفق أو القناة ، فهو يضيق في بعض المواضع ، فلا يكاد

يصل إلى قدمين في الاتساع . وارتفاعه يصل إلى ستة أقدام وتوفيراً للوقت قام المهندسون بالحفر في إتجاهين متقابلين من جانب المدينة من هنا ، ومن ناحية ينبوع من هناك ، حتى تلاقي النفقان المتقابلان ، وتدفقت المياه عبرهما .

ولقد اكتشفت لوحة تذكارية نقشت في جدار النفق لتخليد ذكرى هذا اللقاء الفريد ، ورد فيها « بينما كان العمال يضربون بمعاولهم في الجدران الصخرية ، سمع الفريقان صوت أحدهما ينادى الآخر ، فقد كان هناك شق في الصخر أوصل النداء . وفي نفس اليوم تدفقت المياه عبر القناة » .

أما بركة سلوام ، فقد كانت الصحن الذي تتدفق فيه المياه في قلب أورشليم . وكان إتساع هذه البركة ما بين العشرين إلى الثلاثين قدماً . ولقب سلوام معناه «مرسل» إشارة إلى أن المياه التي تحويها ، مرسله من ينبوع العذراء خارج المدينة عبر قناة حزقيا .^(١)

إلى هذه البركة الشهيرة ، أرسل «يسوع» ذلك الأعمى ، فمضى واغتسل هناك وعاد بصيراً . .

و حين شفى بدأت متاعبه . فلقد وصل الأمر إلى مسامع الكهنة والفريسيين وشيوخ الشعب . وكان من العسير على ذلك الرجل الأعمى أن يقنع طبقة الكهنوت اليهودي ورجال الدين بأن «يسوع» هو الذي أجرى معه هذه المعجزة الفريدة ، إن السيد على الدوام يقوم بأعمال من الصعب على عديم الإيمان أن يصدقها ، لأنها أكثر صلاحاً وأكثر إعجازاً من مستواه . إن عدم الإيمان يقف عاجز الفكر مكتوف اليدين ، أمام مجد «يسوع» وقوته المعجزية . .

(١) للاستزادة راجع الفصل الخاص بناربخ قناة حزقيا في كتاب « في خطوات السيد المسيح » للعرب .

الرأى المتحامل والاعتناع الكامل

فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلًا أَعْمَى
وَكَانَ سَبْتُ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ .
فَسَأَلَهُ الْفَرِيسِيُّونَ أَيْضًا كَيْفَ أَبْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ وَضَعَ
طِينًا عَلَى عَيْنَيَّ وَأَغْتَسَلْتُ فَأَنَا أَبْصِرُ . فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ
الْفَرِيسِيِّينَ هَذَا الْإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهُ لَا يَحْفَظُ
السَّبْتَ . آخَرُونَ قَالُوا كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ
يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ . وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ .

(يوحنا ٩ : ١٣ - ١٦)

وهكذا بدأت متاعب ذلك الإنسان الذى كان قبلًا أعمى . فقد كان
يوم السبت — ذاك الذى صنع فيه «يسوع» المعجزة . وفى عرف اليهود ، كان
عمله هذا كسرًا للوصية . وفى واقع الأمر كان «يسوع» قد كسر وصية السبت فى
صورة مثلثة ، بإجراء هذه المعجزة ...

١ — فقد كسره حين صنع بيديه الطين . إن القيام بأى عمل فى يوم
السبت هو كسر للوصية . هنا بعض الأمور التى لا يجوز مطلقاً القيام بها
فى يوم السبت بحسب الفكر اليهودى : لا ينبغي أن يملأ الإنسان طبقاً بالزيت ،
أو يضع فتيلًا فى الطبق لإشعاله . . .

لا يجوز أن يطفىء مصباحاً مشتعلًا فى يوم السبت لتوفير الزيت . لا يجوز

أن يشتعل في يوم السبت حذاءً به مسامير غليظة ، ويخرج به في الطريق .
لأن المسامير تعد ثقلاً .

وحمل الأثقال ممنوع في السبت . لا يجوز للإنسان أن يشذب أظافره
أو ينتف شعرة من لحيته أو رأسه . . .

فاذا قارننا هذه الأعمال بما صنعه «يسوع» ، يكون عمل الطين جريمة
كبيرة لا تغتفر .

٢ - وكسر «يسوع» أيضاً يوم السبت حين قام بشفاء الأعمى .
ولقد أباحت التقاليد تقديم المعونة الطبية للمحتاج . أما تلك المعونة الطبية
فقد كانت وفقاً على إنقاذ الحياة ، أو دفع الخطر الأكيد الذي يهدد حياة
الإنسان .

وحتى في مثل هذه الحالات، تتوقف المعونة عند حد دفع الخطر فحسب،
ولكنها لا تقدم العلاج الشافي . مثال ذلك محذور على إنسان يعاني من آلام
ضرس متسوس أن يمتص خلا ، لأن هذا علاج .

ومحذور على إنسان التوى قدمه أن يصب عليه ماء بارداً، فالماء البارد يعجل
بشفائه .

ومن الواضح أن الإنسان المولود أعمى ، قضى حياته حتى الآن بدون
رؤية الأشياء ، وليس هناك خطر يهدد حياته ، لوبقى يوماً آخر . أو
يومين ! .

٣ - بل إن هذا العمل الذي قام به «يسوع» ، قد منع في الزاموس المتواتر
تفصيلاً .

وقد وردت الوصية في التقاليد: «محظور أن يوضع بصاق على العينين في يوم السبت». يمثل هذه الفرائض النافلة، كان الفريسيون يتعالون على الشعب ويحملونه أحمالا عسرة، ويعتقدون أنهم بهذا يكسبون رضى الله. ولذلك لا غرابة أن يروا في «يسوع» معلماً خطيراً، وفي أعماله ظاهرة تدعو للقلق حين يشاهدونه بكل بساطة يكسر ناموس السبت.

والفريسيون في هذه الحادثة، رمز لكل طائفة، في كل جيل وعصر، تدين كل من يخالفها الرأي.

إنهم فصيلة البشر، الذين يظنون أن هناك طريقاً واحداً لخدمة الله، وذاك طريقهم هم وليس سواه.

ومع أننا نجد البعض منهم يخالفونهم في هذا الاتجاه، إلا إن هذا ينطبق عليهم بصورة عامة.

وهكذا أحضروا الرجل، وراحوا يستجوبونه. لعلك أنت الذى كنت أعمى؟ كيف تبصر الآن؟ من هذا الذى صنع معك المعجزة؟ وحينما سأله عن رأيه في «يسوع»، كان جوابه بملء اليقين، أنه نبي.

ففي العهد القديم كان النبي يؤكد حقيقة نبوته، بالدلائل والعلامات التى تؤيد ذلك.

ونحن نرى «موسى»، يؤيد إرساليته من الله بالمعجزات، التى أجريت أمام فرعون (خروج ٤: ١ - ١٨).

«وإيليا»، يثبت أنه نبي الله، بتفوقه في المعجزة على أنبياء البعل (ملوك الأول ص ١٨).

بما لاشك فيه ، أن مثل هذه الصور ، كانت تترأى فى مخيلة ذلك الإنسان وهوينادى بإيمانه بيسوع كنبى . .

ومهما قيل عن ذاك الذى أجريت معه المعجزة ، فهناك أمر واحد يقينى : إنه إنسان شجاع .

ولقد كان يعرف أفكار الفريسيين عن «يسوع» ، وكان يعلم أنهم يبغضونه ويريدون أن يوقعوا به ، بل كان يعلم أيضاً أن من يعترف به كنبى أو معلم ، سيكون مصيره الطرد من الهيكل ، والغزل من المجمع . ولكنه ثبت فى موقفه وتمسك برأيه : « أرى أنه نبى ، وسوف أتمسك به لأجل كل ما صنعه معى . سوف أتمسك به ، ولو وقف العالم كله ضدى » .

. هنا نرى مثلاً لإيمان عظيم قوى . . .

يسوع يتحدى الفريسيين

قَالُوا أَيْضاً لِلْأَعْمَى مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ . فَقَالَ إِنَّهُ نَبِيٌّ . فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيْ الَّذِي أَبْصَرَ . فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينَ أَهَذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولَانِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى . فَكَيْفَ يُبْصِرُ الْآنَ . أَجَابَهُمَا أَبَوَاهُ وَقَالَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا ابْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى . وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الْآنَ فَلَا نَعْلَمُ . أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلَا نَعْلَمُ . هُوَ كَامِلُ السِّنِّ . أَسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ . قَالَ أَبَوَاهُ هَذَا لِأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ . لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنْ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرِجُ مِنَ الْمَجْمَعِ . لِذَلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ أَسْأَلُوهُ .

فَدَعَوْا ثَانِيَةً الْإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ أَعْطِ مَجْدًا لِلَّهِ . نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ خَاطِيٌّ . فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ أَخَاطِيٌّ هُوَ . لَسْتُ أَعْلَمُ . إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئًا وَاحِدًا . أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالْآنَ أَبْصَرُ . فَقَالُوا

لَهُ أَيْضاً مَاذَا صَنَعَ بِكَ . كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ . أَجَابَهُمْ
 قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا . لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً
 أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تَلَامِيذَ . فَشَتَمُوهُ
 وَقَالُوا أَنْتَ تَلْمِيزُ ذَاكَ . وَأَمَّا نَحْنُ فَأَيْنَا تَلَامِيذُ مُوسَى .
 نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ . وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ
 أَيْنَ هُوَ . أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ إِنْ فِي هَذَا عَجَباً إِنَّكُمْ
 لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ . وَنَعْلَمُ أَنَّ
 اللَّهَ لَا يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ
 مَشِئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ . مِنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا فَتَحَ
 عَيْنَيَّ مَوْلُودٍ أَعْمَى . لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ
 يَفْعَلَ شَيْئاً . أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ فِي الْخَطَايَا وَلِدْتَ أَنْتَ
 بِجُمْلَتِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُنَا . فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً .

(يوحنا ٩ : ١٧ - ٣٤)

لا توجد صورة رسمتها ريشة كاتب مبدع ، تضارع الصورة التي أمامنا في هذه
 الفقرة ، والتي صورها كاتب البشارة الرابعة .

هنا نجد يوحنا ، يغمس ريشته في ألوان أخاذاة ، بحيث تبدو كل شخصية حية
 تتحرك أمام أنظارنا وكأنها بعثت للحياة . .

١ - فهناك الرجل الذي كان قبلاً أعمى . وهو يبدو أمامنا ، وقد فقد

أعصابه أمام إلحاح الفريسيين ، وعدم تصديقهم له رغم تكراره لقصة شفائه المرة تلو الأخرى . فنستمع إليه بهتف بهم : تقولوا بما شئتم أن تقولوا عن هذا الإنسان ، فأنا لا أعرف شيئاً عنه ، ولكنى أعلم شيئاً واحداً ، إنى كنت أعمى ونلت على يديه نعمة البصر .

هذا هو اختبار الإنسان البسيط . الذى نال النعمة من شخص المسيح ، إنه قد لا يستطيع أن يضع اختباراً فى كلمات منمقة ، أو معايير لاهوتية ، ولكن يكفيه أن ينطق بهذه الكلمات البسيطة ، الرائعة فى بساطتها ... يكفيه رغم عدم معرفته ، أن يشهد بكم صنع به الرب ورحمه .

لا حاجة بالإنسان أن يصبح لاهوتياً ، حتى ينال النعمة من المسيح ، فهو وإن كان لا يفهم كل شئ بعقله ، إلا أنه يستطيع أن يدرك كل شئ باحساس قلبه . . .

جميل أن نحب «يسوع» ، فنؤمن به ونقبله فى قلوبنا ، ونحبه أكثر مما نحب النظريات اللاهوتية عنه ، ونعرفه بعقولنا ثم نقف عند هذا الحد .

٢ - وهناك والداه . إنهما لا يمدان يد المعونة إليه ، ليس لأى دافع ردى سوى دافع الجبن والخوف .

لقد كان للمجتمع اليهودى سلاحه الذى يهدد به كل مارق عن الحق . وكان هذا السلاح هو مصادرة الأملاك ، والعزل من مجمع المؤمنين وعدم السماح بدخول المجمع ، أو الهيكل .

ومنذ عهد «عزرا» الكاتب والنبي ، نعرف ، أن من لا يطيع السلطات - والسلطة هنا مدنية دينية معاً ، تصادر ممتلكاته ويعزل من المجمع ، ويحرم عليه دخول أماكن العبادة (عزرا ١٠ : ٨) .

ولقد حذر «يسوع» تلاميذه من أن اسمهم سيفترى عليه كفاعلى شر (لوقا ٢٢ : ٣٠) . بل أخبرهم بكل صراحة أنهم سيخرجونهم من المجمع (يوحنا ١٦ : ٢) . بل إن هذا الخطر الذى كان يهدد كل من يؤمن بالمسيح ، قد دفع الكثيرين من الرؤساء رغم إيمانهم به ، إلى عدم الاعتراف به علناً ، لئلا يصيروا خارج المجمع . (يوحنا ١٢ : ٤٢) .

ولقد كان هناك نوعان من العزل . النوع الأول ، الإيقاف لمدة محدودة ، ربما لبضعة أسابيع قد تصل فى أقصى الحالات إلى شهر كامل . وهناك الحرم « شريم » . أو العزل من المجمع طيلة العمر ، وفى هذه الحالة يحرم المخالف جهازاً عياناً على رؤوس الملأ . ويلعن اسمه أمام الجميع ، ويعزل عن الناس وعن الله .

أما خوف اليهود من تلك الحالة ، فيكمن فى حرمانهم من الله . لهذا السبب ، كان خوف الوالدين ، وهكذا قال للفريسيين : « هو كامل السن . استجوبوه » لقد كان الفريسيون فى عداوتهم ليسوع ، على استعداد أن يستخدموا السلطان الدينى فى أبشع مظاهره ، ليصلوا إلى أغراضهم الحاقدة .

٣ - وهناك الفريسيون . إنهم لم يصدقوا فى بادئ الأمر ، أن ذلك الإنسان كان قبلاً أعمى . لقد ظنوا أن فى الأمر خدعة . وأن هناك اتفاقاً مسبقاً بين ذلك الإنسان وبين يسوع ليكون داعية له ، وينشر اسمه بين الناس . وحتى وإن كانت المعجزة صحيحة لا غبار عليها ، ففى إمكانهم أن يقولوا استناداً على ماورد فى الناموس ، بأن فى إمكان الأنبياء الكذبة ، أن يقوموا بمعجزات مضلة لتضليل الجموع . وفى سفر التثنية (١٣ : ١ - ٥) يرد التحذير ضد الأنبياء الكذبة ، الذين يقومون بخداع الجماهير بالعجائب المضلة .

وهذا أيضاً ما حدث به «يسوع» تلاميذه عندما أنبأهم عن علامات الساعة ، وقيام المسحاء الكذبة الذين يضلون العالم بمعجزاتهم وآياتهم حتى يضلوا ولو أمكن المختارين أيضاً « (إنجيل متى ٢٤ : ٢٤) .

وهكذا يبدأ الفريسيون في استجواب الرجل : « أعط مجداً لله » - ولقد كانت تلك الجملة التقليدية التي يبدأ بها فحص المتهم تعنى بالفعل : « تحدث بالصدق كما في محضر الله ، وفي اسمه » . وحينما وقف «عخان» أمام «يشوع» وبدأت محاكمته عن الجريمة التي ارتكبها، وكان من نتيجة هزيمة شعب الرب أمام الأعداء . بادره «يشوع» بالقول « يا ابني أعط الآن مجداً للرب إله اسرائيل واعترف له ، وأخبرني الآن ماذا عملت . لا تخف عني » (يشوع ٧ : ١٩) .

وأفحم الرجل دكارة اللاهوت بمنطقه البسيط المبني على الكتب . وكان دفاعه هكذا : « لقد صنع «يسوع» معجزة عظيمة . وهذه الحقيقة معناها أن الله استمع له ، واستجاب لطلبته . ولا يمكن أن الله يسمع ويجيب طلبه إنسان شرير . وهكذا لابد وأن يكون «يسوع» هذا إنساناً صالحاً . أما كون الله لا يسمع صلاة إنسان شرير . ولا يستجيب لطلبته ، فهي حقيقة لاهوتية تتردد في ثنايا العهد القديم . ونحن نستمع إلى قول «أيوب» عن الإنسان الفاجر الأثيم « أفيسمع الله صراخه إذا جاء عليه ضيق .. هل يدعو الله في كل حين ؟ » (أيوب ٢٧ : ٩) . أما المرغم فيقول : « إن راعيت إنما في قلبي لا يستمع لي الرب . » (مزمور ٦٦ : ١٨) وعلى لسان اشعيا يهتف الله لأمة ضالة : « حين تبسطون أيديكم - وقد كان اليهود في صلواتهم يرفعون أيديهم إلى أعلى بأكف مبسوطة - أسترعيني عنكم ، وإن كثرت الصلاة لا أسمع » (اشعيا ١ : ١٥) ، وعلى نفس القياس ،

يهتف الله على لسان «حزقيال» «وإن صرخوا في أذنى بصوت عال لا أسمعهم
(حزقيال ٨ : ١٨) . أما صلاة البار فهي على الدوام مسموعة مقبولة
«عينا الرب نحو الصديقين . وأذناه إلى صراخهم » (مزمور ٣٤ : ١٥) ،
«يعمل رضى خائفه يسمع تضرعهم فيخلصهم » (مزمور ١٤٥ : ١٩) ،
«الرب يعيد عن الأشرار ويسمع صلاة الصديقين » (أمثال ١٥ : ٢٩) لقد
تقدم الرجل البسيط بحجة لاهوتية ، لم يستطع الفريسيون أن يقفوا أمامها
أو يدحضوها .

ولما عجزوا عن مقارعة بالحجة ، تصرفوا تصرف العاجز الذى لا يملك
إلا القوة الحمقاء . فهددوه ثم شتموه ثم اتهموه بأنه ولد فى الاثم ، أى أن
روحارديثة قد حلت فيه قبل مولده . وأخيراً لجأوا إلى السلاح الذى بين
أيديهم ، فاصدروا قراراً بحرمه ، وإخراجه خارج الجمع .

أحيانا نكون لنا الآراء التى تختلف مع من حولنا . وقد يستخدم النقاش
بيننا وبينهم ، لكن لتكن لنا الأعصاب الهادئة التى نحفظنا من أن نخرج عن طورنا .
فالبصوت المرتفع والثورة الحمقاء ، واستخدام الألفاظ الجارحة ، ليست
دليل الاقتناع ولاهى سبيل الاقتناع . ولئن دل هذا على شئ ، فانما يدل على
أننا لا نستطيع أن نقابل الحجة بالحجة . والمنطق بالمنطق .

الإعلان والدينونة

فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ قَاوِلَ
لَهُ أَتُؤْمِنُ يَا بَنِي اللَّهِ . أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ
لِأُوْمِنَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ قَدْ رَأَيْتَهُ وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ
مَعَكَ هُوَ هُوَ . فَقَالَ أُوْمِنَ يَا سَيِّدُ . وَسَجَدَ لَهُ .
فَقَالَ يَسُوعُ لِدَيْنُونَةِ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ
حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ .
فَسَمِعَ هَذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ
أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمَيَّانُ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ لَوْ كُنْتُمْ
عُمَيَّانَا لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيئَةٌ . وَلَكِنْ الْآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا
نُبْصِرُ فَخَطِئَتُكُمْ بَاقِيَةٌ .

(يوحنا ٥ : ٣٥ - ٤١)

هذه الفقرة تبدأ باعلان حقين عظيمين...

١ - أما الحق الأول المبارك ، فهو أن «يسوع» قد بحث عن
الرجل ، ليجده . وكما يقول ذهبي الفم : « لقد أخرجه اليهود
خارج الهيكل ، ولكن رب الهيكل بحث عنه ووجده » إن «يسوع»
لا يترك إنسانا قبل أن يشهد عنه شهادة حية بمفرده . إن كانت شهادة

إنسان مسيحي تفصله عن إخوته أو تعرضه للمتاعب ، فإن «يسوع» يسرع ليكون بالقرب منه ... ليعضد إيمانه ويسنده . إن متاعبنا المترتبة على شهادتنا للمسيح ، تقربنا أكثر فأكثر منه . ويسوع أمين وصادق لكل من هو أمين وصادق من نحوه .

٢ - والحق الثاني ، أن «يسوع» قد أعلن لذلك الإنسان عن شخصه العجيب .. لقد أعلن له أنه ابن الله . هنا الحق العظيم : إن إخلاصنا لسيدنا ، يجلب ، الرؤيا المباركة لنفوسنا ... يكشف أمام عيوننا حقيقة مخلصنا ومركزه الأسمى . وللإنسان الأكثر إخلاصا في خدمته ، والشهادة له ، يكشف المسيح بصورة أوضح عن ذاته وطبيعته . قد تكون عقوبة الإخلاص للمسيح من جانب البشر هي الأضطهاد والحرم والهوان . ولكن مكافأة الإخلاص من جانب السيد ، هي شركة أعمق مع المخلص ، وإعلان أسمى عن طبيعته الالهية .

ثم تختم القصة بواحد من أعظم الإعلانات التي نادى بها «يسوع» ..

١ - فقد جاء المسيح إلى العالم ، وفي ذات محبته كانت دينونة العالم . إنه هنا لا يتحدث عن دينونة حلت بالفعل . فحينما يلتقي الإنسان وجهها لوجه بيسوع ، يكون الحكم له أو عليه فاما أن يقبله . فيكون الحكم له . أو يرفضه فيكون الحكم عليه . إن كان لا يجد في «يسوع» مشتهى الأجيال ، إن كان لا يرى فيه ما يدعو إلى محبته فقد حكم على نفسه بنفسه ، وإن كان يرى فيه ما يدعو إلى العجب ، فيدفعه العجب والدهشة إلى البحث ، ثم يدفعه البحث إلى الاستجابة والقبول ، فإن قدميه تسيران في الطريق القويم . إن الإنسان الذي يشعر بعماه .. الذي يشق إلى رؤية أسمى .. الذي يمتليء بالرغبة في معرفة أعمق ، هو الذي نتوقع له أن تفتح عيناه ، وأن تصعد قدماه مدارج جبل الحق .

أما الإنسان الذى يظن فى نفسه بأنه يعلم كل شىء .. الإنسان الذى يغفل عن حقيقة عماه ، فهو الذى ولد بالطبيعة، أعمى وسيظل طيلة العمر لا يرى الحق ، فلا رجاء له بالشفاء — الذى يعرف عجزه هو الذى ينال القوة .. الذى يدرك عماه هو الذى تنفتح عيناه.. الذى يعلم بخطيئته ، ويشعر بعدم استحقاقه هو الذى ينال الغفران والنعمة ..

٢ — ويسوع بالتالى يعلن أنه كلما زادت معرفة الإنسان زادت أيضاً دينونته .. كلما عرف أكثر طريق البر وامتلاً قلبه بالعناد، فسار فى طريق أهوائه . كانت دينونته أقسى وأمر . لو كان الفريسيون ضمن الجهلاء، لا يعرفون شيئاً عن المكتوب . لكان يلتمس لهم العذر . ولكن دينونتهم . تكمن فى كونهم يعرفون أكثر ، فلذلك يطالبون بالأكثر ... إنهم يعتقدون فى أنفسهم أن لهم الرؤية الأفضل . فلماذا لم تنفتح عيونهم، فيعرفوا حقيقة ابن الله .

إن المسئولية تزداد، بزيادة الامتيازات التى يتمتع بها الإنسان . هذا ناموس أدبى يسرى على بنود الحياة العادية .

أعظم فاعظم

« الأصحاح التاسع بجملته »

قبل أن نترك هذا الأصحاح نعمل حسنا ، لوقمنا بدراسته بصورة كاملة من البداية إلى النهاية . لنقرأه بروح التأمل ، فنصل إلى دروس غاية في الروعة والجمال . وضمن هذه ، يتألق أمامنا إيمان الرجل الأعمى ييسوع بصورة مجيدة .

هنا نرى خطوات ثلاث تصاعدية في طريق إيمان هذا الإنسان ، وكل خطوة ترتفع به عن سابقتها في مدارج الثقة المباركة ..

١ — فهو في بادئ الأمر يتحدث عن «يسوع» كإنسان . « إنسان يقال له يسوع » (عدد ١١) إنه إنسان يتجلى فيه كمال الإنسانية في أروع مظاهر عطفها ونبالتها ..

إنسان معجزى ، يستطيع بوسيلة عادية ، أن يعيد النور إلى البصر المظلم والبصيرة المظلمة .. إنه لا يعرف من هو «يسوع» هذا . ولكنه لم يلتق من قبل بإنسان نظيره : وقد تكون هذه بداية مباركة يبدأ بها ابن التراب : أن يرى في «يسوع» أسمى صورة للإنسان الكامل . . جميل بنا أن نتأمل عظمة وسمو «يسوع» الإنسان ، جميل بنا أن نفسح له مكانا في كل متاحف الفن والبطولة في العالم ، وخلال الأجيال كلها . . جميل أن يتقدم اسم «يسوع» كل اسم عداه ، في كل كتاب يضم تاريخ حياة العظماء في الإنسانية .

مهما وجه المشككون من سهام النقد إلى شخصية المسيح .. مهما نقولوا عليه ، فإن الحقيقة الواحدة التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك هي أن «يسوع» كان الإنسان ... الإنسان بكل ما في الكلمة من معان .

٢ - ثم يخطو عليه خطواته التالية ، فيرى في «يسوع» نبيا .. فحينما سأله اليهود عن رأيه في يسوع من حيث أنه قام بمعجزة إعادة البصر إليه ، كان جوابه « أرى أنه نبي » (عدد ١٧) ، أما النبي فهو الذي يأتي برسالة الله إلى البشر .

« إن السيد الرب ... يعلن سره لعبيده الانبياء » (عاموس ٣ : ٧)
والنبي يعيش بالقرب من الله في شركة وثيقة معه . فهو في قوة هذه الشركة ، ونورها ، يصل ببصيرته الروحية إلى أعماق مشورة الله . وحينما نقرأ كلمات الحكمة النابعة من شفهي «يسوع» ، حينما نستمع إلى صوته الخالد ، يتحدث بأقواله المباركة وتعاليمه السامية ، فإننا نقول بحق « هذا هو النبي »
مهما شكك البشر في أي شيء عن «يسوع» ، فإن الحقيقة الخالدة تبقى إننا لو استمعنا حقاً إلى تعاليمه ، وأطعناها ، وتمثلناها في حياتنا ، فإن مشاكلنا العائلية ، والاجتماعية ، والسياسية على الصعيد المحلي ، والدولي ، لا بد وأن تختفي وتجد حلا لها . إن كان هناك في جميع الأجيال والعصور ، من ينادي بأن له الحق في أن يكون نبي الله ، الذي يتحدث بلسان الله للبشر ، فإن «يسوع» هو الأول بأن يكون ذلك الإنسان .

٣ - ثم نرى الرجل الذي كان أعمى ، يصل أخيراً إلى نور الأعلان الكامل ، فيرى في «يسوع» ابن الله ، لقد وصل إلى الحقيقة الخالدة. إن كل ألقاب البشر وأمجادهم ، لن تكفي للتعبير عن حقيقة «يسوع» . فلقد صنع «يسوع»

أشياء ، هي فوق طاقة البشر أجمعين . . ونادى بأمور هي فوق معرفة
البشر أجمعين . .

فيما يروى عن عاهل فرنسا الخالد شهيد سانت هيلانه ، أن مجلسه ضم
يوما جماعة من الملحنين والمتشككين . ودار الحديث عن «يسوع» ، فاكتمل
الحاضرون بالإشارة إلى أنه إنسان عظيم وكفى . وعند ذلك قال «نابليون» :
«أيها الأخوان إن لي معرفة بالكثير من البشر ، ولكن أقول لكم ، إن يسوع
المسيح هو فوق البشر أجمعين» .

وما أروع ما قاله أحد الشعراء .

«إن كان يسوع المسيح إنسانا وابن الإنسان..

فأني أقول ..

«إنني سأعلق به دون البشر..

«وسألتصق به على الدوام ..

«وإن كان يسوع المسيح إلها والإله الواحد ..

فأني أذكر ..

«أنني سأتبعه للسماء أو للجحيم ..

«أو إلى البحر وأجواز والفضاء .

إن أعظم حق نخبره عن «يسوع» ، هو أننا كلما ازددنا معرفة به ، وتعمقا
فيه ، يزداد أماننا سموا وعظمة واجداداً . إن اختباراتنا البشرية في معاملتنا
مع الآخرين ، تؤكد لنا أننا كلما ازددنا معرفة بصديق ، وتأصلت روابط

صداقتابه ، فإننا نكتشف نقط الضعف فيه . فى أخطائه وفى انجاءاته .. فى تصرفاته . ولكنا كلما إزددنا معرفة بيسوع ، تهر أعيننا صفاته وأجاده .. نحس فى أنفسنا بالضعف والصغار ، كما يحس الطفل بضعفه وصغاره أمام المحيط العظيم ، بالكنوز التى يطويها فى أعماقه .. نعم سنزداد عجباً واندعاشاً كلما تعمقنا فيه وفى معرفته ، فى هذا الزمن . وفى الأبدية . أيضاً ..

الأصحاحُ العاشرُ

الراعى ورعيته

الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الَّذِي لَا يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ
إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ بَلْ يَطْلُعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ فَذَلِكَ سَارِقٌ
وَلِصٌّ . وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ .
لِهَذَا بَفْتَحِ الْبَوَّابُ وَالْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَدْعُو خِرَافَهُ
الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا . وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ
يَذْهَبُ أَمَامَهَا وَالْخِرَافُ تَتَّبِعُهُ لِأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ .
وَأَمَّا الْغَرِيبُ فَلَا تَتَّبِعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ صَوْتَ
الْغُرَبَاءِ . هَذَا الْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ . وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ
يَفْهَمُوا مَا هُوَ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ

(يوحنا ١٠ : ١٢ - ٦)

لا توجد صورة تظهر «يسوع» أكثر إشراقاً وجمالاً ، وأقرب إلى
قلب كل مسيحي ، من صورة الراعى الصالح . والراعى الصالح يتخلل
صفحات الكتاب ، ويحتل أكثر من موضع في أدب الأسفار المقدسة .
وهذا ولا شك أمر طبيعي . فمعظم مساحة اليهودية ، يحتل مسطحةً طويلاً يمتد

من بيت إيل إلى حبرون، مسافة طويلة تقرب من خمسة وثلاثين ميلاً ، في عرض لا يتجاوز سبعة عشر ميلاً . أما طبيعة الأرض فهي صخرية قاسية ، ولذلك فمن العسير جداً أن تنجح فيها الزراعة . إنها لا تصلح للمرعى ، وذلك في أفضل أراضها . وهكذا فإن الصورة التي تتكرر كل يوم أمام أنظار الإنسان ، هي صورة الراعي يقود رعيته . أما الراعي الفلسطيني ، فحياته هي أشق حياة . إنه على الدوام في يقظة دائمة . . لا يفارق رعيته ليلاً ولا نهاراً . وهو على الدوام ، يبحث عن البقعة الخضراء المعشبة ، وما أندرها هناك . وهو لا بد وأن يكون مفتوح العينين لكل فرد من أفراد قطيعه ، فالأرض صخرية تنحدر في كثير من الأحيان إلى وهاد سحيقة . ولا توجد أسوار تحمي القطيع من التردى في هوة الموت ، أو الضلال والشرود وسط الجبال . كما أن مناطق الخضرة النادرة ، تغرى وتجذب الرعية بعيداً . زد على ذلك الوحوش الضارية التي تختفي في الكهوف والمغائر . لذلك فقد كان عمل الراعي مرهقاً ، مخفوفاً بالمخاطر ، مستمراً لا يتوقف ساعة واحدة أثناء الليل وأطراف النهار .

وكما يقول «جورج آدم سميث» ، الذي قام برحلاته في ربوع فلسطين : « وإنك لتلتقي به في ظلام الليل ، على هضبة معشبة تحيط به رعيته ، ومن حوله يتهاذى عواء الذئاب ، وهو يقف ثابتاً في مكانه ، مستنداً على عصاه ، عيناه ساهرتان لكل صغيرة وكبيرة في قطيعه الذي يرعى حوله ، أما وجهه ، فقد لوحته الشمس ، وسودته المتاعب . إن الذي يرى هذا المشهد مرأى العين ، يستطيع أن يدرك لماذا احتل الراعي مركز الصدارة في تاريخ هذه الأمة وفي أدبها الديني . . لهذا أصبح لقب الراعي من ألقاب الشرف ، التي تطلق على عاهل البلاد . . ولهذا أيضاً اتخذ المخلص مثالا للتضحية والبذل . »

هذه هي صورة الراعى .. يقظة دائمة .. شجاعة لانهاب الموت ..
ومحبة باذلة لكل فرد من أفراد قطيعه .

وفى العهد القديم، نرى الله يصور كراعى شعبه . أما الشعب فهو القطيع .
فالمرنم، نستمع إليه يقول فى مزموره المعروف : « الرب راعى فلا يعوزنى
شئ » فى مزاع خضر يربضنى إلى مياه الراحة يوردنى » (مزمور ٢٣ : ١)
وفى مزمور آخر « هديت شعبك كالغنم بيد موسى وهارون » (مزمور ٧٧ : ٢٠)
وآساف يطلب من الله ألا يذكر ذنوب الأولين « لأننا نحن شعبك وغم
رعايتك .. نحمدك إلى الدهر » (مزمور ٧٩ : ١٣) ويستهل « آساف » أيضاً
المزمور الثمانين بالقول : « ياراعى إسرائيل اصغ .. يا قائديوسف كالضأن
(مزمور ٨٠ : ١) فإذا جئنا إلى المزمور الخامس والتسعين، نستمع إلى
المرنم هاتفاً : « هلم .. نجثو أمام الرب .. لأنه هو الهنا ونحن شعب
مرعاه ، وغم يده » (مزمور ٩٥ : ٧) . ونفس النغمة تتردد فى المزمور
المائة « هو صنعنا وله نحن شعبه وغم مرعاه » (مزمور ١٠٠ : ٣) .

أما مسيح الله فقد صور أيضاً فى صورة الراعى وسط قطيعه « كراع
يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان . فى حضنه يحملها ويقود المرضعات
(إشعياء ٤٠ : ١١) ، وفى مزامير سليمان، أحد الأسفار الأبوكريفية، يتحدث
عن المسيا بالقول : « سوف يرعى قطيع الرب بأمانة وبر ولن يدع
واحدة تتعث فى المرعى . سوف يقودها فى الطريق القويم » (مزامير سليمان
١٧ : ٤٥) .

أما قادة الشعب ، فقد أطلق عليهم أيضاً الرعاة .. رعاة الشعب والأمة
فى نبوات أرمياء نقرأ القول : « ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي

يقول الرب .. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل ... أنتم بددتم غنمي وطرستموها ولم تتعهدوها هأنذا أعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي التي طردتها إليّ وأردها إلى مربضها فتثمر وتكثر . وأقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد بعد . ولا تفقد يقول الرب » (أرميا ٢٣ : ١-٤) والنبي حزقيال يتقدم باللعة على الرعاة المضللين الكذبة الذين يبغون مصلحتهم الذاتية . وليس خير الرعية : « ويل لرعاة إسرائيل الذين يرعون أنفسهم ... ألا يرعى الرعاة الغنم ؟ » (حزقيال ص ٣٤ الأصحاح بأكمله) .

وهذه الصورة تنتقل إلى العهد الجديد . فيسوع هو الراعى الصالح .. الراعى الذى يبذل نفسه عن خرافه . لينقذ حملا واحداً شرد عن القطيع (متى ١٨ : ١٢ ، ولوقا ١٥ : ٤) وهو يتحنن على شعبه لأنهم كانوا كغنم لا راعى لها . (متى ٩ : ٣٦ ومرقس ٦ : ٣٤) . أما تلاميذه ، فهم قطيعه الصغير ، الذى يوجه إليه الوعد بالأمان . والرجاء بالأعجاد (لوقا ١٢ : ٣٢) فإذا حلت الساعة وضرب الراعى تبددت الخراف (مرقس ١٤ : ٢٧) (متى ١٢٧ : ٣١) وهو راعى النفوس وأسقفها العظيم (رسالة بطرس الأولى ٢ : ٢٥) . أما كاتب العبرانيين فيلقبه بـ الراعى الخراف العظيم (عبرانيين ١٣ : ٢٥) . وكما نرى فى العهد القديم ، هكذا نجد قادة الكنيسة فى العهد الجديد هم الرعاة . والشعب هو القطيع ، ومن واجب الرعاة أن يطعموا الرعية ، ويسهروا عليها ، ويتولوا حراستها . وأن يفعلوا ذلك بكل غيرة ليس رغبة فى المال ، ولا حباً فى المركز والسلطان . بل أن يكونوا مثالا للرعية فى التضحية والبذل والإخلاص . (١ بطرس ٥ : ٢ . ٣) . أما رسول الأمم ، فهو يطلب من شيوخ كنيسة أفسس . أن يسهروا

على القطيع ، الذى أقامهم الرب عليه رعاة ومرشدين (أعمال ٢٥ : ٢٦) ،
وآخر وصية تقدم بها الرب لتلميذه بطرس : « ارع غنمى .. ارع خرافى »
(يوحنا ٢١: ١٥-١٩) بل إن ذات الكلمة الواردة فى (أفسس ٤ : ١١) .
والمترجمة رعاة هى الأصل اللاتينى لرعاة الخراف .

هناك قصة متواترة فى التقليد اليهودى لانتحلو من طرافة ومعنى
تكشف لنا لماذا اختار الله «موسى» قائداً للشعب . تقول القصة : إنه حينما
كان «موسى» يرعى غنم حميه فى البرية إذا بعنزة صغيرة شردت مسرعة فى
الهروب ، وأسرع موسى خلفها حتى رآها تندفع إلى بئر لتروى ظمأها .
وحينما وصل إليها قال بحنان «لم أكن أعلم أنك هربت لأنك عطشى .
ولعلك الآن مجهدة » . قال هذا . ثم حملها برفق على منكبيه . وعاد
من حيث أتى ، وعند ذاك جاءه الصوت الإلهى من السماء : «لأنك
أظهرت مثل هذا الرفق بفرد من أفراد قطيع يملكه سواك . سوف أجعلك
راعياً لقطيعى المبارك إسرائيل » .

حينما نلتقى باسم الراعى . فلترسم فى مخيلتنا صورة محبة الله ، وعنايته
بشعبه . ولنذكر أيضاً واجبنا تجاه إخوتنا فى البشرية ، وعلى الأخص
إذا كانت لنا مكانتنا التى نحتلها فى خدمة كنيسة المسيح وشعبه .

الراعى ورعيته (تابع)

(يوحنا ١٠ : ١-٦)

ولاضير علينا ، إذا توسعنا قليلا فى دراسة عادات وطباع الراعى فى
فلسطين ، وصلته بالرعية التى يسهر عليها ويرعاها .. فهذا يوضح مركز
المسيح ، وجهاده ، وتضحيته كالراعى الصالح . أما عتاد الراعى فهو قليل
ضئيل ، يحمل على ظهره مزوداً من الجلد يحمل فيه طعامه وهو
لا يزيد عن الخبز ، والتمر أو التين المجفف ، وشيء من قطع الجبن الخشن ،

وحبات الزيتون - وفي المذود يحتفظ الراعي بمقلعه . وللراعي في فلسطين مهارته في استخدام المقلع . فهو يستطيع أن يصيب أدق هدف ولا يجيد عنه قيد شعرة (قضاة ٢٠ : ١٠) . والمقلع لدى الراعي وسيلة دفاع .. بل إن له أيضاً منفعة أخرى ، فكلاب الحراسة يندر وجودها . ولذلك إذا أبتعدت شاة عن القطيع ، فإن الراعي سرعان ما يوجه إليها بمقلعه حجراً ، يرتكز بين قدميه ، ويكون هذا بمثابة إنذار لها بالعودة من حيث أتت . وللراعي أيضاً عكازه ، وعصاه . أما العكاز فغليظ سميك ، قصير ، ينتهي في طرفه بمسامير ، ويعلقه الراعي في المنطقة التي تحيط بحقوية - هذا العكاز هو سلاح الراعي ضد اللصوص ، والوحوش على السواء ، يدافع به عن نفسه وعن رعيته .

أما العصا فهي طويلة ، رفيعة ، في غالب الأحيان من أعواد الخيزران ، وتنتهي في أعلاها بطرف ملتوى ، بهذا الطرف الملتوى ، يستطيع صاحبها أن يجتذب أية شاة تحاول الهروب . وفي نهاية اليوم ، حينما يلتئم شمل القطيع ، يضع الراعي عصاه قريباً من الأرض ، معطلا مرور أى فرد من القطيع ، حتى يفحصه جيداً ، ليرى إن كانت به إصابة . وعلى كل شاة أن تمر تحت العصا (راجع حزقيال ٢٠: ٣٧ ، لاويين ٢٧ : ٣٢) لفحصها والتأكد من سلامتها .

والصلة بين الراعي ورعيته في فلسطين ، قوية وثيقة . في معظم بلدان الغرب ، كما في مصر ، تسمن الخراف لاستهلاك لحومها . أما في فلسطين ، فإن الهدف الأساسي من تربيتها ورعايتها ، الانتفاع بصوفها . ولذلك فهي تعاشر راعيها سنين طويلة . وهذه العشرة الطويلة تدفع الراعي إلى تدليل رعيته ، وإطلاق الأسماء عليها ، بحيث يعرف كل فرد منها باسمه ، وهذه الأسماء في غالب الأحيان تشير إلى صفات مميزة في الرعية .

فهذه البلقاء ، والثانية الحمراء ، والثالثة ذات الأذن السوداء وهكذا .

وإن كانت صور الرعاة في الغرب ، تظهر الراعي وهو يسير خلف الرعية ، والرعية تتقدمه ، فإن الراعي الفلسطيني على النقيض من ذلك . إنه يسير أمام قطيعه والخراف تتبعه . فهو يختبر كل خطوة يخطوها ، وكل طريق يسير فيه ، لكي يجنب رعيته المتاعب . ويواجه بنفسه كل خطر ، لكي يدافع عنها . وأحياناً ، حتى يشجع أفراد القطيع على اتباعه ، يحمل على منكبيه أحدها . يقول أحد السائحين إنه شاهد أحد الرعاة يحاول أن يغري قطيعه بالسير عبر مخاضة ضحلة من المياه ، ولما عجز عن ذلك ، أمسك بحمل صغير ، وحمله بين ذراعيه ، فما إن شاهدت أم الحمل وليدها ينزع منها حتى اندفعت خلفه ، ومن خلفها بقية القطيع — هذه صورة من بلاد الغرب ، فأراضي فلسطين جافة تنذر بها المياه ، ولا توجد بها مخاضات .

وقد قال « يسوع » ، إن الخراف تتبع راعيها لأنها لا تعرف صوت الغرباء ، وهو يصور حقيقة يلمسها رجل الشارع كل يوم في فلسطين . يقدم هـ.ف . مورتون في كتابه « في خطوات السيد المسيح » ، صورة رائعة للطريقة التي يتفاهم بها الراعي مع قطيعه فيقول :

« في بعض الأحيان ، يتحدث الراعي إلى قطيعه بلغة هي أقرب إلى اللحن أو الأغنية ، منها إلى الكلام » ثم يضيف من اختباره « كنت يوماً على التلال خلف أريحا ، حينما سمعت لأول مرة نداء الراعي . فلقد هبط

قطيع الجداء مع راعيه إلى الوادى ، وأسرع يصعد التلال المقابلة . بينما تخلفت جماعة ترعى بقعة معشبة . وأطلق الراعى نداءً أشبه بثغاء الماشية المتقطع ، فى نغمة حلوة يحسدها عليه الإله «بان» فوق جبل الأولب . وبعد برهة توقفت واحدة أو اثنتان عن الرعى ، وأدارت رأسها تجاه الصوت ، وأجابت بمأمة هادئة ثم عادت إلى الرعى مرة أخرى ، وعاد الراعى يطلق نداءه . وفجأة استدارت عنز ، وأسرعت نازلة إلى حيث القطيع ، فأمسك بها الراعى ، واستدار معها ، واختفى خلف هضبة قريبة ، وإذا بالرعب يملك القطيع كله . فيتوقف عن الرعى ، ويسرع خلف راعيه . بينما تندفع الجماعة الشاردة منضمة إلى القطيع .

أما و . م . طومسون فى كتابه الشهير « الأرض والكتاب المقدس » ، فيقدم لنا صورة أشبه بالسابقة فيقول : « ينادى الراعى على رعيته بين حين وآخر بصوت حاد ليذكرها بوجوده ، فتعرف صوته وتتبعه ، فإذا أطلق النداء شخص غريب ترفع رؤوسها فى قلق ، وكأنما تحاول أن تميز الصوت الجديد . فإذا عاد الغريب للنداء ، تملكها الخوف ، وأسرعت هاربة لتكدس حول الراعى ، فهى لاتعرف صوت الغريب . هذه التجربة أعدها بنفسى مرة بعد أخرى ، وفى كل مرة كنت أتأكد من صدق كلمات البشارة » .

ويعود ه . ف . مورتون ، ليصور لنا مشهداً رآه فى كهف بالقرب من بيت لحم . فقد آوى اثنان من الرعاة قطيعهما خلال فترة الليل فى كهف واحد . ولما أسفر الصباح ، أراد كل منهما أن يعزل أفراد قطيعه عن الآخر . كيف يمكن أن يتم هذا ؟ ابتعد أحدهما عن الآخر ، ثم أطلق

الواحد النداء الخاص الذي يطلقه لغنمه ، فانعزلت عن القطيع الآخر
مسرعة تجاهه ، لأنها تعرف صوته ولاسواه .

إن كل التفاصيل التي يقدمها السائحون عن حياة الراعي في فلسطين،
تلقى أضواء عظيمة على صورة الراعي الصالح ، الذي تسمع رعيته،
صوته فتتبعه ، والذي يرعى غنمه باذلاً .. محتملاً .. محباً .. ساهراً .

الباب المؤدى إلى الحياة

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
أَنَا بَابُ الْخِرَافِ . جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ
وَلُصُوصٌ . وَلَكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ . أَنَا هُوَ الْبَابُ .
إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى .
السَّارِقُ لَا يَأْتِي إِلَّا لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ . وَأَمَّا أَنَا
فَقَدْ أَتَيْتُ لِيَكُونَ لَهُمْ حَيَوَةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ .

(يوحنا ١٠ : ٧ - ١٠)

لم يفهم اليهود مثل الراعى الصالح ، وهكذا لم يجد المعلم العظيم بداً من
أن يطبق المثل على نفسه صراحة وعلانية فراه يبدأ حديثه بالقول : أنا
هو الباب إلى حظيرة الخراف .

وفي المثل ، نراه يتقدم لسامعيه مشيراً إلى نوعين من الحظائر : النوع الأول
كان موجوداً في المدن ، كما في القرى . وقد كانت هناك حظائر جماعية تأوى
إليها كل قطعان المدينة ، أو القرية في عودتها عند حلول المساء . هذه الحظائر
كانت لها أبوابها الحصينة ، التي يشرف على كل منها حارس بيده وحده مفاتيح
الحظيرة . لمثل هذا النوع من الحظائر الجماعية ، يشير السيد في العديدين الثاني
والثالث من هذا الأصحاح .

وأحياناً كان يقدر للرعاة أن يسهروا بالليل حتى يرعى القطيع مرعى الليل فلا يعود الراعى بقطيعه إلى مدينته ، أو قرية . في هذه الحالة تبيت الخراف في حظائر أقيمت في سفوح التلال ، تجمع فيها حتى يسفر الصباح . هذه الحظائر كانت مجرد مساحات مكشوفة ، مسورة بأسوار بها فتحة تدخل منها الخراف وتخرج ، ولكن ليس لها أبواب على الإطلاق ، وأثناء ساعات الليل ، ينام الراعى في مدخل هذه الحظائر المكشوفة ، فلا تخرج واحدة من رعيته إلى الخارج إلا على جسده ، ولا يمر وحش إلى داخل الحظيرة إلا على جسده أيضاً أو بمعنى آخر ، يصبح الراعى في هذه الحالة باباً للخراف .

وهذا ما قصد به المسيح بعد ذلك بقوله ، أنا باب الخراف ، ففيه ، وفيه وحده لا سواه ، يستطيع بنو البشر أن يصلوا إلى الله . كما يقول رسول الأمم ، في رسالته إلى أهل أفهس : « كنتم أجنيبين عن رعية إسرائيل » (أفسس ٢ : ١٨) . وكما يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين : « طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أى جسده » (عبرانيين ١٠ : ٢٠) . إن «يسوع» يشق الطريق إلى عرش الله . لقد كان الناس قبل مجيء «يسوع» ، يتطلعون من بعيد إلى إله السماء . فيرون فيه غريباً عنهم . أو في أسوأ الحالات ، عدواً لهم . فاذا ببسوع يأتي إلى العالم ، لينقل إلى البشريه صورة جديدة عن الله الأب .. ليفتح الطريق أمام أذهان الناس ، للوصول إلى حقيقة الإله المحب . . . لمعرفة قلبه الكبير ، كما أعلن في الإبن الحبيب . وكأنما جاء «يسوع» مقدماً للعالم الفصل الرئيسي في كتاب معرفة الله . كأنما جاء طريقاً حياً للبشر إلى الأب . إنه الباب الذي بواسطته استطاع أبناء الطين والتراب أن يصلوا إلى جلال الله ..

وحتى يصور «يسوع» معنى الوصول إلى الله ، نراه يستخدم جملة كانت مألوفاً لسامعيه من العبرانيين : يدخل ويخرج . أن يكون للإنسان القدرة على .

الدخول إلى مكان ما ، والخروج منه . يعنى الحرية ، والراحة . حينما يدخل الإنسان ويخرج دون خوف . معناه أن نوااميس العدالة ، والنظام في مجتمعه سليمة قوية مسيطرة . فهو في أمان في الحياة ، لا يقع به ما يؤذيه ، ورئيس البلد يحرسها بعين ساهرة ، ويمسك بمقاليدها بيد حازمة . وكما ورد في سفر العدد . « يخرج أمامهم . ويدخل أمامهم . ويخرجهم ويدخلهم . لكي لا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعى لها . . (عدد ٢٧ : ١٧) . وعن الرجل البار الخائف الله ، يرد القول ، بأنه مبارك في خروجه وفي دخوله . . (تثنية ٢٨ : ٦) . أما الطفل فلا مقدرة له على الخروج والدخول (ملوك الأول ٣ : ٧) . وفي سفر المزامير ، يؤكد المرنم ثقته بأن الله يحفظ خروجه ودخوله (مزمور ١٢ : ٨) »

إن الإنسان الذي يتحد بالمسيح إتحاداً روحياً مباركاً ، يمكنه أن يكتشف من هو الله ، ويمتلئ بالثقة الكاملة في الأمان الحقيقي في إلهه . إن كانت حياتنا بين يدي إله نظير هذا الإله الذي أعلن لنا في المسيح يسوع . فلا محل للقلق أو المخاوف . .

ثم يعقد «يسوع» مقارنة بينه وبين من سبقوه ، فجميع الذين أتوا قبله هم سراق ولصوص . وحينما يقول السيد هذا ، فانه لا يقصد بطبيعة الحال من سبقوه من الأنبياء . إنه يشير إلى ذلك الرعيل من المتطرفين المضللين الذين يثيرون الشعب بأقوالهم الملتبهة ، وحياتهم بعيدة كل البعد عن أقوالهم . هؤلاء كانوا يمنون الشعب بإشراقة المجد العظيم ، عن طريق الكفاح ضد المستعمر الروماني .

في تلك الأثناء ، التي فيها ظهر «يسوع» على مسرح التاريخ ، يحدثنا المؤرخ اليهودي «يوسيفوس» أنه حدثت أكثر من عشرة آلاف انتفاضة ثورية . معظمها

انتهى بسفك الدماء . كما يقول المؤرخ أيضاً : « لقد كانت طائفة الغيورين وراء معظم هذه الثورات . كانت تعرف أنها تسوق الجماعات إلى الموت المحقق . لكنها ما كان يهمها شيء في سبيل ما تهدف إليه من تحقيق مطامعها . في الوصول إلى السلطة . أو الانتصار المزعوم . لقد كان يسوع يرمى إلى القول : « إنكم تعرفون كثيرين أتوا قبلي . وكان أولئك ينادون لكم بأنهم مرسلون من الله . ولقد كانوا يؤمنون بالحرب والاغتيال ، وسفك الدماء . والموت . وطريق أولئك تنأى بالناس بعيداً عن الله . أما طريقى أنا فهي طريق السلام ، والمحبة ، والحياة . والذي يتخذها سبيلاً له . يقترب أكثر فأكثر من الله » . وما أعظمه من مبدأ ، يتقدم به « يسوع » للوصول إلى النصر . . إنه مبدأ الانتصار لا بالعنف ولا بالقوة ولا بسفك الدماء أو المرارة والأحقاد . انه الانتصار عن طريق المحبة والبذل والتضحية . وطريق « يسوع » هو الذي يقرب الإنسان إلى إلهه ... هو الذي يعجل بمقدم العصر الذهبي في هذا الوجود .

ولقد نادى « يسوع » ، بأنه ما جاء إلى الناس ، إلا لكي تكون لهم حياة ، لتكون لهم الحياة الأفضل والأكثر غنى وفيضاً . والترجمة العربية التي بين أيدينا ، ترجمة فاندليك ، هي الأكثر مطابقة للأصل : ليكون لهم أفضل أي زيادة وبأكثر غنى . اننا بمعرفتنا بيسوع . : باتباعه . . بالتمسك بنفس الهدف الذي يهدف إليه ، والسير في نفس الطريق ، ننال الحياة الأفضل ، أي الحياة الفائضة الغنية . .

هناك قصة تروى ، عن جندي روماني ، أتى إلى « يوليوس قيصر » ، بطلب رجوة فيه أن يسمح له بازهاق روحه بيديه ، وارتكاب جريمة الانتحار ، فهو يائس . . ، تعس . . لا نفع فيه . . وعند ذلك ثبت قيصر أنظاره

عليه وهو يقول في تودة : «أيها الإنسان تقول إنك تعس، فاشل ، هل تعلمت كيف تحيا الحياة الحقّة ؟ »

إننا حينما نحيا حياتنا الذاتية ، تصبح الحياة فاشلة نعسة ، جوفاء ، لا هدف لها . ولكن حينما نلتقى بيسوع ونضع أيدينا في يده ، ونسير في طريقه ، ونختبر قوة وبركة محضره في حياتنا ينفخ فينا حيوية جديدة .. وتفيض فينا الحياة الأفضل . عند ذاك تستحق الحياة أن نحياها . . . وهكذا نصبح بالتالي أحياء ، بكل ما في الكلمة من معان . .

الراعى الصالح والراعى الزائف

أَنَا هُوَ الرَّاعِى الصَّالِحُ . وَالرَّاعِى الصَّالِحُ يَبْذُلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ . وَأَمَّا الَّذِى هُوَ أَجِيرٌ وَلَيْسَ رَاعِيًا الَّذِى لَيْسَتْ الْخِرَافُ لَهُ فَيَرَى الذَّبَّ مُقْبِلًا وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ . فَيَخْطَفُ الذَّبُّ الْخِرَافَ وَيَبْدُدُهَا . وَالْأَجِيرُ يَهْرُبُ لِأَنَّهُ أَجِيرٌ وَلَا يُبَالِ بِالْخِرَافِ . أَمَّا أَنَا فَإِنِّى الرَّاعِى الصَّالِحُ وَأَعْرِفُ خَاصَّتِى وَخَاصَّتِى تَعْرِفُنِى كَمَا أَنَّ الْآبَ يَعْرِفُنِى وَأَنَا أَعْرِفُ الْآبَ . وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِى عَنِ الْخِرَافِ .

(يوحنا ١٠ : ١١ - ١٥)

فى هذه الفقرة يعقد « يسوع » مقارنة ، بين الراعى الصالح والراعى المضل ، الطالح . . بين الراعى الأمين ، والراعى الذى يرعى مصلحته الشخصية . فى فلسطين ، حينما يسلم إنسان اغنامه إلى الراعى ، يصبح الراعى مسئولاً عنها بالكلية . فاذا حدث شىء لاحداها ، عليه أن يثبت أن ذلك لم يكن بسبب تقصير من جانبه . . عليه أن يقدم الدليل على ذلك . ونحن نجد النبى « عاموس » يتحدث عن الراعى ، وهو يختطف من بين انياب الوحش ربما بقايا أذن ممزقة أو فخذ ملوثة بالدماء . (عاموس ٣ : ١٢) . والهدف من ذلك ، هو أن يثبت أن الضحية

قد ماتت فعلا ، وأن موتها كان خارجا عن ارادته . وفي سفر صموئيل الأول (١٧ : ٣٤-٣٦) نستمع إلى « داود » يحكى للملك « شاول » ، كيف أنه ، أثناء حراسته لأغنام أبيه ، اضطُر إلى أن يدخل في صراع دموى مع أسد ودب ، هاجما القطيع . ويدعو « اشعيا » الرعاة إلى القيام بواجبهم ومقاومة الأسد (اشعيا ٣١ : ٤) لقد كان من الأمور الطبيعية أن يدافع الراعى عن رعيته ، ولو تعرضت حياته لخطر الموت .

عن « الدكتور طومسون » فى كتابه « الأرض والكتاب المقدس » نقراً : « كثيراً ما كنت استمع إلى قصص الرعاة ، وأخبار صراعهم مع الوحوش ، للصوص . وكيف أنهم فى عراكلهم ، لا يحسبون حساباً لحياتهم . بل لأننى أعرف أكثر من حالة ، بذل فيها الراعى نفسه عن رعيته . وآخر ما بلغنى من أنباء ، عن راع فقير كان يرعى رعيته بالقرب من طبرية ، حينما هاجمه ثلاثة من البدو المسلحين بالخنجر . وبدلاً من الهروب وترك الرعية للصوص ، واجههم بكل شجاعة ، وسقط جسداً ممزقاً دامياً وسط رعيته ، التى دافع عنها بكل أمانة .

ومن الجانب الآخر ، هناك الراعى الغاش غير الأمين . والفارق بين الاثنين أن الراعى الأصيل الصادق .. إنسان ولد مع الرعية ، بمعنى أنه بدأ حياته منذ نعومة أظفاره راعياً ، حتى أصبحت الرعية كأنما هى بعض خلانه أو أصدقائه فهو يحبها حبه لخلانه ، ويسهر على راحتها ، أكثر من تفكيره فى راحته الشخصية أما الثانى فهو اجير اتجه إلى مهنة الرعى ، ليكسب مالا ، أو لأنه لا يطبق حياة المدن ، ويجد لذته فى الحياة على سفوح الجبال . فهو بلا دعوة وبلا شعور بالمسئولية . إنه مجرد اجير ، ولا يهتم بما يهدد قطيعه ، والذئب على الدوام تهدد حياة القطيع . ونحن نقرأ القول الذى قاله « يسوع » لتلاميذه : ها أنا ارسلكم

كفتم في وسط ذئاب (متى ١٠ : ١٦) . وبولس يحذر شيوخ افسس ، من أنه ستأتي ذئاب لا تشفق على الرعية (أعمال ٢٠ : ٢٩) . هذه الذئاب ، تهاجم القطيع ، والأجير لا يهتم إلا بانقاذ حياته ، فيترك الرعية ويهرب .

في نبوات «زكريا» ، نقرأ أنه من علامات الراعي الكاذب ، أنه لا يبذل مجهودا في جمع شمل القطيع (زكريا ١١ : ٦) هناك قصة تروى عن والد الكاتب الإنجليزي «كارليل» الذي كان عضوا متقدما في كنيسة ، أنه نشبت بعض المتاعب بين الكنيسة وراعيا بسبب بعض الخلافات المادية ، وعقدت جلسة لفض النزاع ، فوقف والد كارليل ، وقال في ختامها .. « أعطوا الأجير أجره ، ودعوه يمضي ! » .

حينما يتحدث «يسوع» عن الأجير ، فانه يقصد القول ، أن الذي يعمل لأجل المال . . . لأجل الأجر ، يفكر في المال والأجر أكثر من أى شىء اخر ، أما الذي يعمل بدافع المحبة ، فهو يفكر في اولئك الذين يربطه بهم رباط المحبة . إن «يسوع» هو الراعي الصالح ، الذي احب رعيته بهذا القدر ، حتى أنه بذل ، نفسه في سبيل حياتها .

نلاحظ أمرين آخرين ، قبل ختام التأمل في هذه الفقرة ، فيسوع يلقب نفسه بالراعي الصالح . وفي الأصل اليوناني نجد كلمتين تعبران عن كلمة صالح . فهناك كلمة «أجاثوس» التي تعبر عن الجانب الأخلاقي ، وهناك كلمة «كالوس» التي لا تعنى أن ذلك الشىء ، أو ذلك الإنسان صالح فحسب ، من الناحية الأدبية ، بل أن في صلاحه رقة ، وجاذبية ، ولطفا ، يجعل منه صورة جذابة حلوة . فحينما يتحدث «يسوع» عن نفسه كالراعي الصالح ، فالكلمة هنا «كالوس» . إن فيه أكثر من الكفاية والاختلاص ، وفي صلاحه المحبة ، والفيض بجمال الجمال الكامل . قد يتحدث الناس في قرية أو مدينة عن .

طبيب صالح ، وحينما يتحدثون هكذا ، فانهم لا يقصدون كفايته من ناحية
فنه ومهنته فحسب ، بل يقصدون أيضا عطفه ، وحنانه ، ومحبتة التي
جعلت منه صديقا للجميع . إن في صورة « يسوع » ، كالراعى ، القوة ، والمقدرة
والصلاح وهذه كلها تحيط بهالة من المحبة والجمال .

والأمر الثانى الذى يهمنى أن نلاحظه ، هو أن المقصود بالقطيع فى هذا
المثال هو كنيسة المسيح . وقطيع المسيح يهدده خطر ان : فهو معرض للهجوم
من الخارج من الذئاب والوحوش والصوص ، وهو معرض من الداخل ،
للاقسامات ولأخطار الرعاة الاجراء الكاذبين .

فالخطر يهدده من الخارج والداخل ، هذا هو الخطر المزدوج . وكم
كانت المخاطر التى تتعرض لها كنيسة المسيح من القادة والرؤساء ، اعمق
أثراً وأقسى ضرراً . . . كم تمزق قطيع المسيح بسبب عدم امانة راع تعلق
قلبه بالمال ، لانه مجرد أجير ، اكثر من تعلقه بالقطيع . أما الخطر الثانى فهو
أكثر عمقا وضرارة . فقد ننبه إلى الخطر الخارجى . لكن الداخلى مستور
مقنع . والخطر ، الذى نتنبه له ، نعمل له كل الحساب لكننا لانحسب
حساباً للخطر الذى يهددنا من الداخل .

وحيثما تكون القيادة غير أمينة ، عند ذاك تكون الفرصة لاعداء المسيح ،
للوحوش والذئاب التى هى من خارج ، أن تعمل عملها ، فتهاجم وتذبح وتهلك
إن أعظم ما تحتاجه كنيسة المسيح رغبة على نمط الراعى الأعظم يسوع المسيح .

الوحدة القصوى

وَلِي خِرَافٌ أُخْرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ
بِتِلْكَ أَيْضاً فَتَسْمَعُ صَوْتِي وَتَكُونُ رَعِيَّةً وَاحِدَةً وَرَاعٍ
وَاحِدٌ .

(يوحنا ١٠ : ١٦)

من أقسى الأمور على نفس الإنسان ، أن يتعلم كيف يتخلص من ذاتيته
المميزة .. كيف ينبذ عنصريته ، ويدوب كيانه في إخوته أو مجتمعه . وما
ينطبق على الأفراد ينطبق على المجتمعات . ففي الوقت الذي تملك فيه الفكرة
على مجتمع من المجتمعات ، بأنه قد اختص بصفات مميزة يتمتع بها دون
سواه ، يصبح من العسير عليه أن يدرك ، أن تلك المميزات التي تفرد بها ،
باب الوصول إليها مفتوح أمام الآخرين . وأنه ليس هو الفرد العلم في كيان
البشرية الكبير ، وهذه هي غلطة الشعب اليهودي . لقد اعتقدوا في أنفسهم
أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا صلة لإله الكون بأي شعب آخر سواهم . فما
خلقت هذه الشعوب كلها ، وهذه الأجناس جميعها ، إلا لراحتهم .. لرفاهيتهم ..
ليكونوا عبيداً لهم . هذا إذا كان لتلك الشعوب مكانها في برنامج الخليقة ..
ولكنها على أسوأ حال ، مصيرها النهائي هو الإبادة ، والزوال . فلا مكان
لها في فكر الله . ان هذه الشعوب أشبه ما تكون بالدعائم الخشبية التي تسند
البناء عند تكوينه . ومتى تم البناء وارتفع وعلا شأنه ، واكتمل ، فما قيمة

هذه الدعائم ، وما جدواها ؟ . قد يكون من الخير أن تصبح وقوداً للنيران . .

والكننا نستمع هنا ، إلى رب المجد ، يهتف بأولئك الذين تملكهم روح العنصرية ، والكبرياء الكاذبة ، قائلاً إن له خرافه التي ليست من حظرتهم وأنه لابد وأن يأتي بهذه الخراف ، ليضمها إلى خرافه الأولى ، ليكون الجميع واحداً ، مع شخصه المبارك ، فيكون هو راعي العهد الجديد ، كما هو راعي العهد القديم .

أما ذلك اليوم العظيم ، الذي تتحد فيه الأمم والأجناس تحت راية المسيح الواحد ، فأننا نجد كثيراً من اللمحات المشرقة عنه . تسطع في ثنايا العهد القديم ، وبين سطوره ، وأول من يطالعنا ، النبي الإنجيلي «أشعيا» ليقدّم لنا في نبواته . حلمه المشرق عن ذلك اليوم السعيد . فان كان هناك فضل لإسرائيل — هكذا يقول — فهو لأنه قد وضع نور إعلان للأمم . وبركة لإسرائيل الأرض . إشارة إلى اشتراك الأمم أجمعين في بركات العهد والوعد . (أشعيا ٤٢: ٤٩ و ٤٩: ٦ و ٥٦: ٨) فهي ليست وقفاً على شعب أو أمة . بل إننا نجد صيحات متفرقة هنا ، وهناك ، تنادى أن إله الكون ليس ملكاً لإسرائيل فحسب ، وأن الهدف الأساسي لاختيار إسرائيل كأمة الأنبياء . والمواعيد ، هو إعلان الله للأمم ، والاقتراب بالأمم إلى الله .

وقد يبدو لأول وهلة ، أن العهد الجديد يتحدث في هذا الضدد برأين متناقضين . فهناك كلمات ومواقف للرب يسوع ، نقف منها في حيرة حينما تجابهنا . نخذ مثلاً حديث السيد لتلاميذه حينما أرسلهم للخدمة . كما أورد ذلك البشير متى : « إلى طريق أمم لا تذهبوا . وإلى مدينة للسامريين

لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت اسرائيل الضالة «
(متى ١٠: ٦) أو تأمل موقفه من المرأة الفينيقية السورية ، حينما صرخت
إليه طالبة معونته . فأجابها بأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ، وي طرح
للكلاب . (نفس اللقب الذى كان اليهود يطلقونه على الأمم) . وأنه لم يرسل
إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة . (متى ١٥ : ٢٤) ولكن
مقابل هذه توجد مواقف ليسوع يبدو فيها محبا ، ومشجعاً ، ومباركا
الأمم . فهو يذهب إلى السامرة ، ويبقى هناك يومين مبشراً ، ومنذراً .
وصانعاً لمعجزاته . (يوحنا ٤ : ٤٠) بل إنه يعلن للمرأة السامرية أن
التسلسل من «ابراهيم» ، ليس ضماناً للدخول إلى ملكوت الله (يوحنا ٨ : ٣٩)
وعن قائد المئة الأسمى الرومانى ، يتحدث «يسوع» قائلاً : لم أجد ولا فى اسرائيل
إيماناً مثل هذا (متى ٨ : ١٠) والسامرى الأبرص الذى نال الشفاء على يديه
نراه هو الوحيد الذى يرجع مقدماً للمجد لله . موبخاً بتصرفه هذا جحود
زملائه اليهود (لوقا ١٧ : ١٩) . وفى مثل السامرى الصالح نراه يختار سامرياً
كنثال للرحمة والقلب الكبير (لوقا ١٠ : ٣٧) ومن تعاليمه أن كثيرين يأتون
من المشرق والمغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكثون فى حضن «ابراهيم» .
أما بنو الملكوت ، (اشارة إلى نسل إبراهيم) فيطرحون خارجاً هناك يكون
البكاء وصرير الأسنان (متى ٨ : ١١ ، لوقا ١٣ : ٢٨) . وآخر وصية اوصى
السيد بها تلاميذه ، أن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها
(مرقس ١٦ : ٥ ، متى ٢٩ : ١٥) ويسوع ليس نور اليهود فقط ، إنه نور العالم
كله (يوحنا ٨ : ١٢) . فلماذا هذا التضارب الظاهرى ؟ لماذا هذه المواقف
أو الكلمات ، التى يبدو وكأنها تضع حدوداً لرسالة «يسوع» ، وتجعلها وقفاً على
اليهود دون الأمم ؟

الجواب على ما يبدو سهل يسير ، فهدف «يسوع» الشامل المتسع ، هو ربح العالم كله لله . ولكن كل قائد عظيم يعرف ، أنه إن كان يريد أن يصل إلى النجاح في أغراضه المتسعة ، عليه أن يضع أمامه في البداية دائرة محددة لهذا الهدف . فلن يصل إلى الانتصار في ميدان القتال ، إذا راح يضرب في جبهة متسعة شمالاً وجنوباً ، مبعثراً جهوده ، وجنوده ، موجهاً قواه وإمكانياته ، إلى أكثر من موقعة ومعركة . إنه بهذا لن يكسب انتصاراً . إن كان يريد النجاح عليه أن يحدد هدفاً محدداً . وهذا ما فعله «يسوع» في طريق الوصول إلى أهدافه العظيمة المتسعة الشاملة . لقد اختار في بادئ الأمر دائرة محدودة . فلو أرسل تلاميذه الأثنى عشر ، الواحد إلى بلاد الغال ، والثاني إلى إيطاليا ، والثالث إلى الجزائر البعيدة ، والرابع إلى آسيا ، هل كنا ننتظر نجاحاً لرساليته في هذه الدوائر العريضة ؟ لقد ركز في البداية على دائرة اليهودية ، لكي يصل في البداية إلى هدفه الشامل العظيم ألا وهو إخضاع العالم كله لسلطان مخلصه . . .

هناك حقائق ثلاث ، تتلمع بنور باهر في هذه الفقرة . .

١ - الحقيقة الأولى أنه في «يسوع» . . في «يسوع» وحده وليس سواه . يستطيع العالم أن يصبح واحداً . .

يقال عن المبشر «إجرتون يونج» ، إنه كان أول مرسل لقبائل الهنود الحمر . وحينما أعلن لهم محبة الآب السماوى ، كما ظهرت في المسيح ، كان هذا بمثابة إعلان جديد عن الله ، لم يعرفوه من قبل فهتف أحد زعمائهم . . « حينما كنت تتحدث عن الروح الأعظم ، هل سمعتك تقول عنه أبانا ؟ » وأجاب المرسل « نعم . إنه أبونا السماوى المحب » وقاطعه الزعيم المسن « هذا جميل .. حلو .. هذا يكفى . إنه إعلان جديد لى . إننا ما كنا نظن يوماً أن الروح الأعظم هو أبونا . لقد كنا نسمع صوته في زئير الرعد المدوى ،

ونرى صواعق غضبه في البرق الخاطف . لقد كنا نرى آثار جبروته في العاصفة الهوجاء ، فنلبذ في خوف في شقوق الصخر . ولكنك تأتي إلينا اليوم لتخبرنا أنه الإله المحب .. الآب السماوي الكبير القلب . هذا يكفيننا ، ثم صمت الزعيم العجوز قليلا وعاد يهتف ..

« أيها المرسل ، هل قلت بأن الله أبوك ؟ » وأجابه المرسل : « نعم » .
« وهل قلت بأنه أبونا نحن ؟ » « نعم » .

« إذأما دام الله أبى وأبوك ، فنحن أخوان » . لا توجد قوة في الوجود تربط القلوب وتوحيدها ، إلا قوة الإيمان المشترك ، في أبوة الله الواحد للجميع وبنوة الجميع لله . في العالم توجد أمم وشعوب ، وهذه الأمة قد تنقسم على الأخرى . وفي قلب الأمة الواحدة توجد طبقات ، وقبائل وعصبيات . وهذه تنقسم على تلك ، وتتعالى عليها . فلا توجد أمة عالمية واحدة ، ولا يوجد مجتمع تنتفى فيه الطبقات والعصبيات . القوة الوحيدة التي تستطيع أن تتخطى الحواجز ، والحدود ، والسدود ، من نعرات عنصرية ، أو جنسية ، أو طبقية أو طائفية ، هي قوة إنجيل محبة المسيح ، فهي التي تجعل البشر جميعاً إخوة في بنوة مباركة للآب السماوي ..

٢ - الحقيقة الثانية ، نجدها في إطار الكلمة : لتكون رعية واحدة وراع واحد . هذه الجملة مطابقة للنص الأصلي في ترجمتنا العربية . ولكنها تسربت بصورة مغلوطة في الترجمة الإنجليزية المعتمدة المعروفة بترجمة جيمس ، حيث وردت « لتكون حظيرة واحدة وراع واحد » . ويرجع هذا الخطأ ، إلى عهد « ابرونيموس » ، والترجمة اللاتينية الشائعة المعروفة بالفولجاتا . وعلى هذا الأساس بنت الكنيسة الكاثوليكية تعليمها . بأنه لا حظيرة إلا حظيرتها ، ولا خلاص خارج حدودها .

ولكن الترجمة الحقيقية كما أسلفنا هي « لتكون رعية واحدة وراع واحد »

إن الوحدة الحقيقية لا تنبع من أن كل الخراف تدفع دفعاً لحظيرة واحدة ،
أو ترغم على البقاء داخل أسوار عالية ، على أن تبقى في إطار واحد ، بل أن
تسمع صوت الراعى الواحد وتستجيب له طواعية واختياراً ، ولا تنساق
لصوت عداه. إن الوحدة ليست وحدة كنسية ، بل هى وحدة ولاء ليسوع
المسيح ، في إطار كل كنيسة وطائفة .

ولنأخذ مثلاً سياسياً ، ولو أنه أصبح غير مقبول في شرقنا العربى ، .
مثلاً مما يعرف بالكومنولث البريطانى . ان هذا الكومنولث يضم دولا متعددة
لكل دولة حكومتها وأنظمتها الخاصة . ودساتيرها التى تنظم علاقاتها الداخلية
والخارجية . لكنها جميعاً تدين بالطاعة والولاء للتاج البريطانى . إن المناذاة
برعية واحدة ، لاتعنى المناذاة بكنيسة واحدة ، أوبطابع واحد وتقليد
واحد ، ونظام واحد فى العبادة . ولكن يعنى أن الرعايا جميعها يضمها
إطار واحد : هو إطار الولاء ليسوع المسيح ، والتعبد له. إن بناء الوحدة
المسيحية لايقوم على أساس الخضوع لنظام معين ، أو الإلتواء لهذا النظام
الكنسمى أو ذاك ، إنه يقوم على أساس الولاء لشخص واحد .. «يسوع المسيح» .

٣ - الحقيقة الثالثة ، أن هذا الاعلان الذى نادى به يسوع المسيح .
هو نداء يمكن أن يخص كل إنسان .. أو بعبارة أخرى ، هو نداء شخصى
لكل إنسان . أن هذا الحلم الذى تراءى فى مخيلة «يسوع» ، يستطيع كل منا أن
يعاون فى تحقيقه .. بل إن المسئولية موضوعة على عاتق كل منا ليسعى لتحقيقه
فكيف يؤمن الناس إن لم تقدم لهم البشارة ؟ وكيف يسمعون بلا كارز ؟
وكيف يدخلون فى دين الله أفواجا ، إن لم يوجد من يسعى إليهم . ويجدهم .
ويدفعهم إلى حظيرة الإيمان الجديد ؟

هنا نرى الواجب المرسل الملقى على عاتق الكنيسة ، بل على كاهل كل

من آمن بالمسيح. وارتبط به ارتباط القلب والحياة ولا ينبغي أن نتصور، أن كلمة
الواجب المرسل، معناها الذهاب إلى منطقة نائية مثل مجاهل أفريقيا أو بين
القبائل المتبربرة في قارة استراليا . بل تعنى العمل في قلب الدائرة التي نحيا
فيها . فإن كنا نعرف إنساناً قريباً لنا خارج دائرة محبة المسيح وخلاصه .
فان المسئولية ملقاة علينا أن ندعوه إلى حظيرة الراعي الصالح . فالراعي
الصالح يحب الضال الشارد . وعلينا أن نسعى لنكتشف ذلك الضال . ونرده
إلى القطيع . هنا حدود دائرة حلم المسيح . وهنا الطريق لتحقيق ذلك الحلم .
إن تحقيقه يتوقف علينا نحن . وإذا كنا قد ارتبطنا برباط الإيمان براعينا
الأعظم ، فاننا قد ارتبطنا بالتالي برباط المسئولية لنسعى معه ليكون العالم أجمع
رعية واحدة لراع واحد . .

اختبار المحبة

لِهَذَا يُحِبُّنِي الْآبُ لِأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِأَخُذَهَا أَيْضًا .
لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي . لِي سُلْطَانٌ
أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ أَخُذَهَا أَيْضًا . هَذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبْلَتُهَا
مِنْ أَبِي

(يوحنا ١٥: ١٧، ١٨)

لا توجد فقرات كثيرة في العهد الجديد ، تقدم لنا في كلمات قليلة،
صورة شاملة عن «يسوع» ، نظير هذه الفقرة .

١ - فهي تخبرنا بأن «يسوع» قد رأى حياته كصورة للطاعة الكاملة
للآب . لقد اعطاه الآب هدفًا محددًا . ولهذا الهدف كرس الابن حياته -
حتى ولو انتهى به الأمر إلى الموت . لقد كان «يسوع» في علاقة فريدة
مع الله الآب ، وهذه العلاقة الفريدة مع أنها تقوم على أساس كونه الابن الأزلي
المبارك ، إلا أنها ما كانت تترك مجالًا لتصرف ذاتي ، بل كان تصرف «يسوع»
وفق مخطط ثابت . هو مخطط إرادة الله ، ورضاه . إن كون «يسوع»
ابن الله ، يتضمن اسمى امتياز ، كما يحمل أعظم مسئولية . ان البنوة لله
بالنسبة له ، كما أن البنوة لله بالنسبة لنا - نقولها بكل احترام ، ونحن ندرك
الفارق العظيم بين بنوة الأزلية ، وبين بنوتنا نحن المبنية على اساس التبنى
هذه البنوة لا يمكن أن تقوم ، إلا على اساس الطاعة الكاملة .

٢ - وهي تظهر لنا أن «يسوع» على الدوام كان يرى امجاده مقترنة بصليبه وهوانه . فلم يشك لحظة في أن الموت ينتظره ولم يساوره بالتالي ادنى شك ، في أنه بعد الموت ، سيقوم ظافراً منتصراً ، محطاً القبر والهاوية . أما سر هذه الثقة ، فهو ثقة «يسوع» في الآب . لقد كان واثقاً أن الآب السماوى لن يتخلى عنه . لقد كان يعرف أن الطاعة لله ، لا بد وان تجلب الالم والهوان والأضطهاد ، ولكنه آمن أيضاً أن الطاعة لله نهايتها الأمجاد . بل الأكثر من هذا ، أنه كان يؤمن بأن الهوان لساعة ، اما الأمجاد فهي لأبد الابد . وفي واقع الأمر ، كلنا نعرف ، أن الوصول لهدف من الأهداف ، لا بد أن ترافقه التضحية والمتاعب . هذا ناموس تبنى عليه كل اهداف الحياة . هناك ثمن لا بد أن يدفع ، مقابل ما نبغى الحصول عليه ، أو الوصول إليه . اسمى مراتب العلم يمكن الوصول إليها ، ولكن على حساب الدرس وسهر الليالى . النجاح فى حرفة من الحرف ، نستطيع ان نناله بالمثابرة والحكمة والاجتهاد . هناك كثيرون فاتهم قطار النجاح فى الحياة ، ولم يستطيعوا ان يصلوا الى اهدافهم ، لأنهم تراجعوا عن الكلفة والتضحية . لا أحد يستطيع أن يصل إلى المجد ، بالتسريح في الطريق الواسع . فطريق المجد والعظمة ، هو الطريق الضيق الكرب .

٣ - وهي تخبرنا بكل جلاء ، أن موت «يسوع» لم يكن اضطرارياً ، بل كان اختيارياً تطوعياً . هذه حقيقة يؤكدها «يسوع» المرة بعد الأخرى . وفى بيتان الآلام ، نجده يأمر تلميذه ان يردد السيف إلى الغمد . فلو اراد ان تراجع عنه الكاس ، أما كان فى استطاعته أن يطلب جيوشاً من الملائكة للدفاع عنه . (متى ٢٦ : ٥٣) . وأمام «بيلاطس» ، تحدث «يسوع» بصراحة أنه لاسلطان عليه البتة ، وأنه هو الذى يمسك بالكاس بمحض اختياره (يوحنا ١٩ : ١١) . فيسوع لم يكن ضحية الظروف ... لم يكن فى

موته نظير شاة تسلق رغم أنفها إلى الذبح ، وهي تحاول أن تتخلص من
يدي الكاهن الذي يمسك بها . لقد وضع «يسوع» حياته على المذبح ، لأنه
اختار ذلك .

يقال عن جندي فرنسي ، في الحرب العالمية الأولى ، أنه أصيب في
ذراعه إصابة قاسية ، حتى لم يكن هناك من بد ، من أن يجري له الجراح
عملية بتر للذراع ، ولقد كان وسيم الطلعة ، لدرجة أن الجراح عز عليه أن
مثل ذلك الشاب سيقضى بقية عمره بعاهة دائمة . وهكذا انتظر إلى جواره
حتى يزول تأثير المخدر فيواسيه ليخفف عليه الصدمة القاسية ولما فتح الشاب
عينيه أخيراً . قال له الجراح ، يؤسفني أن أخبرك أنك فقدت ذراعك
وبسرعة رد عليه الشاب : « فقدتها ؟ كلا لقد وهبتها في سبيل
فرنسا » .

إن «يسوع» لم تؤخذ أقدامه على غرة ، في شبكة الظروف الطارئة
وبصرف النظر عن قوته المعجزية – بصرف النظر عن القوة الإلهية التي
كانت تحت يديه . نقول إنه كان في وسعه حتى آخر لحظة . أن يلقى
بالكاس المرة من يديه . ويخلص نفسه . إنه لم يقتل قتلاً . لقد قبل الموت
طوعاً . لم يدفع دفعاً إلى الصليب ، بل احتضنه بملء رضاه واختياره في
سبيل خلاصنا .

مختل العقل ، أم ابن الله ! ؟

فَحَدَّثَ أَيْضاً أَنْشِقَاقُ بَيْنِ الْيَهُودِ بِسَبَبِ هَذَا
الْكَلَامِ . فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ بِهِ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْدِي .
لِمَاذَا تَسْتَمِعُونَ لَهُ . آخَرُونَ قَالُوا لَيْسَ هَذَا كَلَامَ مَنْ
بِهِ شَيْطَانٌ . أَلَعَلَّ شَيْطَاناً يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَ الْعُمَيَّانِ

(يوحنا ١٠: ١٩-٢١)

وأصغى اليهود إلى كلمات «يسوع» ، وتمسكتهم الحيرة . . . الحيرة
التي تمتلك كل إنسان ، حينما يغلق فمه أمام لغز عميق . فإما أن يكون
«يسوع» هذا انسانا به شيطان ، افقده اتزان العقل ، فراح يهذى بكلمات
لا يدركها ، وإما أن يكون حقاً ابن الله ، ولا مفر من التسليم بواحد
من الافتراضين- حينما يتكلم إنسان عن نفسه بذات التعبيرات التي يتحدث
بها «يسوع» عن الله ، فيجعل نفسه مساوياً لله ، فإما إن ذلك الإنسان هو
بالحقيقة معادل لله ، وأما أنه فقد سيطرته على التعبير السوي لسبب أو لآخر
كيف يمكن أن نثبت من كلمات المسيح عينا ، ودعاواه ، كذب
ادعاء اليهود ؟

١ - قبل كل شيء نقول إن كلمات المسيح ، ليست على الإطلاق
كلمات إنسان فقد اتزانه الفكري . نستطيع أن نقبس شاهداً بعد شاهد،
لإثبات أن كل كلمة نطق بها «يسوع» هي كلمات الصحيح الكامل، ومؤخراً

صدر في نفس الموضوع كتاب بقلم «ليونيل كورتس» يقول فيه: «إن هدف البشرية ينبغي أن يكون السعى لجعل العالم اجمع - على حد تعبيره - «كومنولث» لله، ثم يضيف قائلاً حينما سئلت ماذا تعني بهذا القول؟ واين نجد النواميس التي تنظم العلاقات الانسانية في إطار هذا الكومنولث الالهى الشامل؟ كان جوابي: «في النواميس الأدبية التي نادى بها المسيح في الموعدة على الجبل. إن مثل هذه النواميس تصلح أن تكون ذات صبغة سياسية اجتماعية تنظم العلاقات في كل مجتمع إنسانى . . .»

وهذه مجرد عينة من أقوال المفكرين وشهاداتهم، عن تعاليم «يسوع المسيح» وسموها. ان اسمى ما يحتاجه عالم مجنون، نظير العالم الذى نحيا فيه، هو التشبع بتعاليم المسيح والتمثل بها، واستخدامها في الحياة لكي يعود إلى صوابه. فيسوع هو الصوت الأوحى الصارخ في الوجود، الذى ينادى بحكمة الله أمام تخبطات الفكر البشرى.

٢ - وأعمال «يسوع»، هى أعمال الاتزان الكامل. وماذا كان يفعل؟ وأى شىء لم يفعله في موضعه كما شهد عنه اللص اليمين؟ إنه كان يحول بين الناس يصنع خيراً. يلمس الأجساد الكسيرة بلمسة الشفاء، كما يلمس القلوب الكسيرة بلمسة الغراء. يضحى بوقته وراحته وجهده وصحته وطعامه ونومه في سبيل خدمة البشرية. أين هو من أولئك المجانين، الذين ظهروا في التاريخ، واحاطهم المجتمع بهالات البطولة، وكان كل هدفهم، رسم صورة ضخمة لأشخاصهم بدماء الآخرين، ودموعهم؟ لقد كانوا يصنعون من أشلاء الضحايا، تماثيل لهم. ويرتفعون على الام الآخرين. أما «يسوع» فكما قال عنه اليهود أنفسهم، كيف يمكن أن انساناً به شيطان، يفتح عيني المولود أعمى؟ . . . يقدم خيراً للانسانية؟ . . . يجبر القلوب الكسيرة المحطمة؟

٣ - وتأثير «يسوع» على الآخرين، ليس تأثير إنسان فقد اتزانه العقلي.
إن الحقيقة التي لا تدحض - ولعلها حجة المسيحية الأولى على الديانات
جمعاء - أن ملايين الملايين من البشر في كافة العصور والأجيال والأجناس
قد تغيرت حياتهم وتبدلت ، واتخذت طريقا جديدا ، وهدفا مباركا ، بقوة
«يسوع المسيح» وفاعلية نعمته، وإلا فإذا كان في جماعة التلاميذ البسطاء، الذين
لم ينل غالبيتهم أدنى حظ من العلم ، أو الثقافة، حتى يشقوا طريقهم بنجاح
ساحق في وجه دهاء اليهود وحكمة اليونان ، وقوة الرومان . ماذا في «بطرس»
الصيد الجليلي . حتى يتحول إلى شاهد ، ومبشر ، ونذير ؟ وفي كل جيل
نجد الضعيف يلبس قوة ، والأثافي يضحى بكل شيء ، والمهزوم أمام
شهواته ، ينال الانتصار والمضطرب القلب ، يمتلئ بروح السلام، والسكير
ينتزع الكأس من حياته . وكل هذا بقوة «يسوع» وفاعلية نعمته . فهل مجنون
به شيطان هذا الذي استطاع أن يعطي البشرية كل هذا الغنى والمجد !؟ أنه
بلا شك كامل الحكمة ، وكامل العقل .

إن كل مفكر سليم ، يدرس إرسالية المسيح العظمى ، وتعاليمه ، في
نور النتائج المباركة التي عادت على الإنسانية بالخير الوفير ، لا بد وأن
يقر بأن «يسوع المسيح» قد أشرق على الإنسانية بنور العقل الأعظم . . .
نور الله . .

الدعوى والوعد

وَكَانَ عِيدُ التَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ وَكَانَ شِتَاءُ .
وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي الْهَيْكَلِ فِي رُواقِ سُلَيْمَانَ .
فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ إِلَى مَتَى تَعَلِّقُ أَنْفُسَنَا .
إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا ، أَجَابَهُمْ يَسُوعُ
إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ . الْأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا
بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي . وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لِأَنَّكُمْ
لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ . خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا
أَعْرِفُهَا فَتَتَّبَعْنِي . وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ
إِلَى الْأَبَدِ وَلَا يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي .

(يوحنا ١٠ : ٢٢ - ٢٨)

هذه الفقرة يبدأها البشير «يوحنا» ، بإثبات التاريخ والمكان الذي حدثت فيه المناقشة التي دارت فيها . فالوقت كان عيد التجديد . وعيد التجديد هذا عند اليهود ، كان آخر الأعياد لعظمى ، التي أدخلت مؤخرًا على التقليد اليهودي . وأحيانًا كان يلقب بعيد الأنوار : أما اسمه العبري فهو عيد «الهانوكاه» ، وتاريخه يأتي في التاسع عشر من الشهر الأخير من العام . أي

أنه يقرب جدا من بداية أعياد الميلاد عند الغرب ، وما زال اليهود يقدسون هذا العيد حتى يومنا الحاضر . .

أما أساس هذا العيد ، فيرجع إلى فترة حاسمة من أعظم قترات البطولة في تاريخ الأمة اليهودية . في الفترة ما بين عامي ١٧٥ إلى ١٦٤ قبل ميلاد المسيح ، اعتلى العرش في سورية ملك يدعى «أنطيوخوس إيفانوس» ، هذا كان معجبا بالثقافة اليونانية ، عاشقا لكل ما هو إغريقي ، فقرر في نفسه أن يستأصل شأفة الدين اليهودي ، والثقافة العبرية ، ويحل محلها الثقافة اليونانية ويدخل آلهة الأغريق في ربوع فلسطين — وفي بادئ الأمر حاول أن ينفذ خطته بالوسائل السلمية ، ونجح إلى حد ما . فقد رحب البعض من اليهود بهذا التطور ، ولكن معظمهم وقف وقفة رجل واحد ، متمسكين بالدين الأصيل .

وما أن اهل عام ١٧٠ قبل الميلاد ، حتى انفجرت العاصفة على رأس اليهود ، فقد حاصرها الملك السوري بجيش جرار ، واستمر الحصار وقتا طويلا ، هلك فيه ما يقرب من ثمانين ألف يهودي ، وسبي عدد مماثل لهم . أما الهيكل فقد نهبه الجنود ، ويقال إن ١٨٠٠ وزنة — والوزنة تعادل ١٤٠ جنيهاً بالعملة الإنجليزية — قد نُهبت من خزانة الهيكل . وفرض «أنطيوخوس» قوانين غاية في القسوة والصرامة على اليهود . كان مجرد الاحتفاظ بنسخة من التوراة يعد جريمة عظيمة تستحق الإعدام ، وكذلك ممارسة الختان ، وكل أم يقبض عليها وهي تحاول ختان أبنائها ، يكون مصيرها الموت ضليبا ، وأطفالها يعلقون في عنقها . أما ساحة الهيكل فقد دنست ، وأروقتها حولت إلى مواخير للفساد وأخيرا اتخذ الملك الوثني الخطوة النهائية لتحويل مذهب المحرقات النحاسي ، إلى مذهب للآله زيوس ، وأعد العدة ليقدّم عليه ذبائح من الخنازير ، تكريما لذلك

الإله . فى هذه الفترة ظهر «يهوذا مكابىوس» أو «يهوذا المكابى» ، وأشقائه
ليقفوا وقفهم البطولية فى وجه الملك الغاشم ، ويحرروا بلادهم من سلطة
المستعمر ، وتم لهم ذلك فى عام ١٦٤ ق.م. وفى تلك السنة عينها ، طهر الهيكل
من رجاساته ، وأقيم المذبح مرة أخرى ، وطهرت وأعيدت أوانى الخدمة
المقدسة ، بعد سنوات ثلاث من تدنيسها . لهذا أقيم عيد التجديد .. لتذكـار
حادثة تطهير الهيكل : وقد جاء فى البيان الذى أصدره «يهوذا المكابى» ،
أن أيام تجديد المذبح المقدس ، ينبغى أن تذكـر كل سنة .. ثمانية أيام ينبغى
أن يعيدها الشعب فى الشهر الأخير من كل عام بفرح وبهجة قلب . (مكابيين
الأول ٤: ٥٩) لأجل هذا السبب ، كان هذا العيد بلقب بعيد تجديد المذبح
وفى احيان أخرى تذكـار تطهير الهيكل .

وكما ذكرنا كان هذا العيد يدعى عيد الأنوار .

وقد كانت تضاء الأنوار فى كل جوانب الهيكل ، وكان كل بيت يهودى
يسطع منه النور — وما زالت هذه العادة سارية بين اليهود ، فى أيام ذلك العيد
حتى يومنا الحاضر : فى كل نوافذ البيوتات اليهودية ، كانت توضع
السرج أو المصابيح .. ثمانية مصابيح حسبما نادى «شماى» فى أول أيام العيد ،
تتناقص واحداً واحداً يوماً بعد يوم ، حتى إذا حل اليوم الأخير ، يكون هناك
مصباح واحد . أما التقليد الذى نادى به «هليليل» ، فقد كان يقضى بأن يبدأ
اليوم الأول بمصباح واحد ، يزداد يوماً بعد يوم ، حتى إذا حل اليوم
الثامن ، تتألف ثمانية مصابيح كاملة — وفى كل بيت يهودى متمسك
بتقاليده ، تحفظ هذه العادة حتى يومنا الحاضر .

أما هذه الأنوار ، فقد كانت لها دلالتان ، الدلالة الأولى ، أنها كانت رمزاً

لنور الحرية ، الذى عاد يشرق على أرض اسرائيل ، والدلالة الثانية ، كانت تعود بالعبرانى إلى تقليد قديم جدا . أما ذلك التقليد فيقول ، أنه حينما طهر الهيكل من رجاساته ، بحث الكهنة عما تبقى من الزيت المقدس الذى لم تنله أيدي العبث والدنس ، حتى يعيدوا ملاء السرج ، فلم يجدوا إلا قنينة زيت واحدة ، مختومة بخاتم رئيس الكهنة . وكان الزيت فى هذه القنينة ، لا يكفى بالكاد إلا يوما واحدا . ولكن بمعجزة سرية استمر الزيت لا ينقص يوما بعد يوم حتى انتهت أيام العيد الثمانية ، وأتاحت الفرصة لعمل زيت جديد حسبما تقضى التقاليد المقدسة . من هنا جاء تقليد إيقاد الأنوار ثمانية أيام فى كل بيوت الشعب اليهودى .

وليس بغريب أن يتطلع «يسوع» إلى هذه الأنوار المتألقة ، ويتخذ منها استعارة حلوة مشيرة بها إلى النور المشرق من العلاء فى شخصه المبارك . وكأنى به يقول . لسامعيه : « هل تشاهدون هذه الأنوار المتألقة فى الهيكل ؟ هل ترون هذه الأنوار التى تشع من كل بيت فى أورشليم تذكرون بها عهد الحرية الذى أشرق عليكم ، ونور التطهير الذى بدد الظلمات التى اكتنفت الهيكل المقدس ؟ تذكروا أنى أنا نور الحرية الذى جاء ليبدد ظلام الخطيئة ، ونور التطهير الذى يطهر قلوبكم من خطاياها ، بل أنا نور المعرفة الحية ، الذى يأتى بكم إلى محضر الله الحى .

و«يوحنا البشير» ، يقدم لنا مكان هذا الحديث ، فيقول إنه تم فى رواق سليمان ولقد كان الرواق الأول الذى يواجه الداخل إلى ساحة الهيكل هو رواق الأمم . وإلى جانبه كان رواق آخران ، الواحد منهما يدعى رواق سليمان ، والثانى الرواق الملكى . بهما أعمدة فخمة ، كان إرتفاع الواحد منها أربعين قدما مشغولة من أعلى . وكان العابدون يلجأون إلى هذه الأروقة للتأمل الهادئ

والصلاة . وكان الربيون أو الأحبار ، يستخدمونها في حلقات الدراسة ،
يجمعون حولهم تلاميذهم ، ويقدمون لهم شروح التوراة ، وأصول الإيمان .
هناك كان «يسوع» يتمشى ، وكان الجو بارداً والوقت شتاء ، وفي هذه
الفرصة ، التي امتزجت فيها الذكريات الوطنية ، التي تدعو كل واحد إلى تقديم
الشكر لله ، مع الروح الدينية الغيرة ، وارتفعت فيها أصوات المعلمين
اليهود ، كل ينادى بدروسه ، للحلقة الملتفة حوله من التلاميذ ، كان ذلك النقاش
والحديث بين «يسوع» واليهود .

الدعوى والوعد

(يوحنا ١٠ : ٢٢ - ٢٨)

وبينما كان «يسوع» يتمشى في رواق سليمان أحاط به اليهود قائلين : « إلى
متى تعلق نفوسنا ؟ ما بالك تتركنا في حيرة لا نستطيع منها خلاصاً ؟ إن
كنت أنت المسيح المنتظر ، فقل لنا صراحة » . ومما لا شك فيه ، أن البعض
تقدموا بهذا السؤال بروح الأخلاص .

صحيح أن مثال المسيا في مخيلتهم ، كان يختلف عن مثال المسيا في ذهن «يسوع
المسيح» ، ولكن هذا لا يمنع أن نقول ، إنهم كانوا ينتظرون تغزية إسرائيل
بظهور الرجاء المبارك ، ومجيء مشتهى الأجيال .

ولكن كان هناك فريق آخر ، ينتظر رد المسيح على هذا التساؤل ،
لكي يؤول هذا الجواب ، إما إلى تهمة تجديف ، يمكن أن تتمسك بها
السلطات الكهنوتية لمحاكمته وإدانته ، أو إلى جريمة خيانة ضد الرومان ، تصل
به إلى الوالى الرومانى .

وجاء جواب «يسوع» صريحاً حازماً : « لقد قلت لكم هذا . . . وقلت لكم بكل صراحة » .

صحيح إنه لم يردد هذا الحق كثيراً .

فهو قد نادى بأنه المسيا ، أمام المرأة السامرية ، في مقابلته الشخصية معها . (يوحنا ٤ : ٢٦) . كما أنه أعلن للرجل الذي ولد أعمى ، أنه ابن الله (يوحنا ٩ : ٣٧) . عدا ذلك ، هناك الفرصة التي نادى فيها «بطرس» أمامه بأنه المسيح ابن الله الحي ، وأيده «يسوع» في ذلك وطوبه .

ولكن لجمهور متعلم نظير ذلك الجمهور الذي أحاط ربه . . . لجمهور متعبد لا تخفى عليه دلائل الأشياء ، لم يكن هناك ما يدعو لأن ينادى «يسوع» علانية ، بحقيقة بديهية نظير هذه . فهناك شاهدان يشهدان ليسوع ، بأنه هو المسيح ...

١ - الشاهد الأول أعماله المعجزية . ولديهم النبوة التي نادى بها «أشعيا» النبي الإنجيلي منذ مئات السنين ، عن ذلك العصر المجيد المبارك ، عصر المسيا : « حينئذ تنفتح عيون العمى ، وآذان الصم تنفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ، ويترنم لسان الأخرس . لأنه قد انفجرت في البرية مياه . وأنهار في القفر » (أشعيا ٣٥ : ٥ ، ٦) وهذا هو بالذات ما كان يفعله «يسوع» . لقد كانت كل معجزة يجريها ، حقاً مدوياً ينادى بأعلى صوت ، وأجلى بيان ، أن عصر الله قد أشرق نهاره ... أن يوم المسيا قد جاء ... أن العهد الجديد قد أسفر منيراً متألقاً . ساطعاً بالأعجاز ...

٢ - والشاهد الثاني أقواله . ولقد هتف «موسى» لليهود ، بأنه في أخريات الأيام ، سيقم لهم الرب نبيا نظيره . وأن عليهم ، أن يستمعوا لتعاليمه . (تثنية ١٨ : ١٥) .

ونعمة السلطان التي بدت في تعليم «يسوع» .. والتي وقف فيها من القديم وقفة المكمل لنا موس ، يحتاج إلى التكميل ، والتي هتف فيها أمام الأجيال : « قد سمعتم أنه قيل للقديماء . . أما أنا فأقول » ، تثبت بأبعد ما يكون عن الشك أن الله كان يتحدث بلسانه ، وأنه كلمة الله المتجسد لأهل الأرض .

إن أي إنسان يرى معجزات «يسوع» ، ويصغى إلى تعاليم النعمة النابعة منه ، يقر بأنه هو المسيح الله الأجد الأوحد .

ولكن معظم اليهود لم يقبلوا هذا الادعاء ، بل ثاروا عليه . وكما درسنا آنفا ، هناك خراف تسمع صوت الراعي ، وتعرفه ، وتطيعه ، لأنها بالحقيقة خرافه وهناك خراف غريبة ليست من رعيته ، فهي لا تعرف صوته ، ولا تطيعه — وأولئك اليهود لم يكونوا من خراف يسوع . لقد كانوا غرباء عنه .

ووراء كل هذا ، يكمن ما يسمى بالاختيار السابق . إن مجريات الأحداث تتوالى على مسرح الوجود ، لكنها تجري بترتيب إلهي مسبق . وكأني بالبشير هنا يقول : « إن أولئك الخراف ليسوا من رعية «يسوع» .. ليسوا من المختارين لاتباع يسوع ولسماع صوته » . هذه العقيدة ، عقيدة الاختيار ، تثير أكثر من مشكل في أذهان الناس . وفي العهد الجديد ، نستطيع أن نرى الاختيار المسبق ، والإرادة الحرة ، تتمشيان جنبا إلى جنب . فكل شيء في الوجود ، يتم في حدود دائرة مقاصد الله وترتيبه ، لكنه في نفس الوقت يحدث ، بحيث يفسح المجال لمسئولية الإنسان في حدوثه ، ومديونيته أمام الله . فترتيب الله صحيح ، ولكنه لا ينفى إرادة الإنسان الحرة . هؤلاء اليهود ، علم الله منذ البدء ، ورتب ، أنهم لن يقبلوا «يسوع» . ومع ذلك كما يؤكد

البشير ، لن يكون في ذلك عذر لهم . أو ذريعة لتخفيف المسؤولية
والمذنبية الواقعة عليهم .

وهناك فريق غير أولئك ، فتح الصدر لقبول «يسوع» .

وهؤلاء يقدم لهم السيد مواعيد ثلاثة . .

١ - فهو يعدهم بالحياة الأبدية . وباكورة ثمار الحياة الأبدية نالها
من هنا . لأنها تبدأ معنا كحياة الله فينا . إن «يسوع» يعدنا بأننا إن قبلناه
ربا ، وسيداً على حياتنا . . . إن أصبحنا ضمن رعيته ، فإننا سننفصل
عن حياة الأرض وتفاهاات الأرض ، وتوافه الأمور الأرضية ، ونختبر
حياة الله في ملء جلالها ، وسموها ، وأمجادها ، ونحن على هذه الأرض .

٢ - وهو يعد من يقبله بحياة لا تعرف النهاية . فهي حياة لا تتوقف ولا
تعرف الموت . فالموت بمعناه الرهيب بالنسبة للبعيد ، لن يكون له سلطانه
على أبناء الحياة ... لن يكون ختاماً لقصة الحياة . بل الفصل الأول فيها .
لأنهم سيختبرون الحياة المحيطة التي لا تفنى ولا تضمحل .

٣ - وهو يعد المؤمنين به بحياة كلها أمان وسلام . « لن يخطفها أحد من
يدي » . ويا له من وعد : إن اليد القديرة الخالقة . . الحافظة . . المدبرة ،
التي تمسك بالكواكب في مجراتها ، تمسك بنا أيضاً - ليس معنى هذا الوعد
أنه يجنبنا الألم ، والضيقات ، والموت . ولكن معناه أننا في أقصى الظروف
وأمرها ، نتمتع بسلاماً وبقينا ، بأننا في اليد الرفيعة . . . نوقن في أنفسنا بأن
الأذرع الأبدية ترفعنا .

نتأكد تماماً صدق الوعد الإلهي ، على لسان « أشعياء » « أنا الرب إلهك الممسك
بيمينك . القائل لك لا تخف أنا أعينك » « إذا اجتزت في المياه فأنا معك ،
وفي الأنهار فلا تغمرك . إذا مشيت في النار فلا تلذع ، واللهيب لا يحرقك » .
هذه هي البركة التي تفيض على أولئك الذين تحفظهم اليد الإلهية .

إنهم حتى في وجودهم في عالم تتلاطم فيه أمواج الموت ، والهلاك ،
يشعرون بالاطمئنان الكامل في رحاب إله الثقة والعون .

الثقة الكاملة والحق الأعظم

أَبْنِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَلْكُلُّ وَلَا
يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي . أَنَا وَالْآبُ وَاحِدٌ

(يوحنا ١٠ : ٢٩ - ٣٠)

هذه الفقرة تظهر لنا ، ثقة «يسوع» الكاملة في الآب ، كما تنادى بالحق الأعظم عن طبيعة الابن الأزلي ، في صلته بالآب . إن ثقة «يسوع» كانت بهذا العمق ، حتى أنها كانت ترجع كل الأمور إلى الله . فنحن نسمعه الآن يتحدث عن خرافه وعن رعيته ، وها قد انتهى على التو من حديثه عن الأمان الذي تتمتع به رعيته ، وعن الامتيازات التي لها ، في كونها تحت رعايته ، فلن نخطفها أحد من يده ، ولن ينتصر عليها الموت إلى الأبد . وقد يبدو للناظر لأول وهلة ، أن «يسوع» يضع ثقته في حكمته الذاتية ، أو في مقدرته الشخصية . ولذلك نراه يرجع كل شيء إلى قوة الله ، وحكمته . «أبي هو الذي أعطاني هذه الرعية . وأبي هو الذي يحفظها» . إن «يسوع» إذا كان يضع ثقته في مقدرته الذاتية فما ذلك إلا لأنه يضع ثقته في الآب ومقدرته . إن موقف «يسوع» من الحياة ، ليس موقف الثقة الشخصية ، بل موقف الثقة بالأمان ، والنصرة الأكيدة ، ليس لأنه كان يضع ثقته في قواه الذاتية وحدها ، بل لأنه كان يضع ثقته في قواه الذاتية المؤيدة بقوة الله .

ثم يتلو ذلك الحق الأعظم... فينادى «يسوع» بما يؤدى إلى دهشة سامعيه ، ورعبهم

وئورتهم فى آن واحد ، إنه والآب واحد . ترى ماذا يعنى سيد الأجيال بهذا الحق الجبار الذى نادى به ؟ إن إعلاناً يكشف عن العلاقة الكائنة بين الابن والآب ، لابد وأن يغوص بنا إلى أعماق لاندري مداها ..

هنا نقرب من قدس أقداس المخلص . وعلينا أن نخلع نعالنا ، لأن الأرض التى نقف عليها أكثر من أرض مقدسة . ترى هل نستطيع بالقول بأنه سر عميق وكفى ؟ وهل نقف أمام هذا السر مكتوفى الأيدي ؟ أم هل نحاول أن نستجلي غموض هذا الحق المعلن ، ونصل إلى بعض متضمناته ؟ هل نفسر هذا القول على أساس التفسيرات الميتافيزيقية ؟ أم نغوص فى الشروحات اللاهوتية المتضاربة ، التى ظلت مثار الجدل بين الطوائف المسيحية المختلفة ومثار حرازت ، ومتاعب ؟ وهل يلزم أن يكون الباحث لاهوتياً ، حتى يصل إلى مضمون هذا الحق ؟ ..

هناك أكثر من تأويل تقدم به مفسرون عديدون . فالبعض قال إن تلك الكلمة مرتبطة بما سبقها من حديث ، هنا يتحدث «يسوع» عن الرغبة والاختيار والرعاية . والقدرة المعجزية ، والقطيع الآمن ، وكأنى به يقول لهم : «أنا والآب واحد فى القيام بكل هذه الأعمال » . أى أن الوحدة هنا وحدة عمل ، واتجاه ، وقدرة . وبمعنى آخر ، أنه يشترك مع الله الآب فى كل هذه المهام الجوهرية ، فى إتمام الخلاص ، وتكميل المفدين ..

وهناك اتجاه آخر لبعض المفسرين ، يستندون فيه على ما نادى به «يسوع» فى صلاته الشفاعية قبيل صلبه :

«أيتها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى ليكونوا واحداً

كما نحن « (يوحنا ١٧ : ١١) . هنا كما يقولون، نرى السيد يقرن وحدته مع الآب ، برباط الوحدة الذي يربط المؤمن بأخيه . ثم يستشهدون أيضاً بما ورد بعد ذلك (يوحنا ١٧ : ٢٠ - ٢٢) : « لست أسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك . ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني » . وهنا يصلي المسيح طالباً بكل جلاء أن يكون للمسيحيون واحداً - الواحد مع أخيه - كما أنه هو والآب واحد .

ومن هنا يصلون إلى الإستنتاج : ما هو الرباط الذي يوحد قلوب المسيحيين أحدهم مع الآخر ؟

ما هو الرباط الذي يوحد المسيحي مع المسيحي ؟

إنه رباط المحبة ، كما قال السيد في وصيته لتلاميذه : « وصية جديدة أنا أعطيكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً » (يوحنا ١٣ : ٣٤) ، إن وحدة المسيحيين تكمن في رباط المحبة . وكذلك في الطاعة « إن أحبني أحد يحفظ كلامي » . (يوحنا ١٤ : ٢٣) .

ومن هنا يصلون إلى القول ، بأن الوحدة التي نادى بها «يسوع» مع أبيه ، هي رباط المحبة الذي يربطه مع الآب ، كما قال : « إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي . كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته » (يوحنا ١٥ : ٩-١٠) . فيسوع واحد مع الآب ، يربطه به رباط المحبة ، كما يربطه به رباط الطاعة .. أي أن هذه الوحدة، ووحدة شركة وصلة ومحبة ، وليست وحدة طبيعة ، وذات ، وجوهر .

على أن أصدق تفسير لهذه الآية ، ما تقدم به « متى هنرى »^(١) وهو تفسير يتفق مع بنود إيماننا الأقدس ، ويؤيده أكثر من شاهد ، في أكثر من موضع من البشائر المقدسة .

وخلصته : أن السيد كان يقصد بالفعل ما فهمه اليهود ، واعتبروه خروجاً ، وتجديفاً ، وثارَت ثائرتهم بسببه : إنه واحد مع الآب في القدرة ، والمشيئة ، والجوهر أيضاً . فهو في الآية التي سبقت إعلان هذا الحق ، يقول : « أبى أعظم من الكل » (عدد ٢٩) أى أنه أعظم منكم ومن قوتكم ، ومؤامراتكم ، ولكى يزيل السيد من الأفهام أى أثر لفهم خاطيء ، نراه ينادى بموقفه هو من الآب ، وموقف الآب منه ، « أنا والآب واحد » وحينما ثار عليه اليهود ، وتناولوا حجارة ليرجموه ، لم يراجع عن هذا الإعلان ، ولم يقل لهم : « ليس هذا ما أرمى إليه » فهو واحد مع الآب في الجوهر ، « وكان الكلمة الله » . وهو واحد مع الآب في القدرة ، فكما أنه لا يستطيع أحد أن يخطف الرعية من يد الآب ، كذلك « لن يخطفها أحد من يدي » . وهو واحد مع الآب في الإرادة .

بسبب إعلان هذا الحق ثار اليهود عليه . وبسببه يحاول كل مفسر عصرى ، أن يتنكب طريق الإيمان القويم ، ويقدم تفسيراً يهدىء من ثائرة الثائرين .

ولكن هذا هو الحق الذى نؤمن به . وهو الحق الذى امتدح السيد «سمعان» بسببه قائلاً له : « طوبى لك يا سمعان بن يونا . إن لحماً ودماً لم يعلننا لك . لكن قد أعلن لك من قبل أبى الذى فى السموات » .

(١) هذه الفقرة مضافة بقلم المترجم .

الدعوة إلى الاختبار الحاسم

فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ . أَجَابَهُمْ
يَسُوعُ أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي . بِسَبَبِ
أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي . أَجَابَهُ الْيَهُودُ قَائِلِينَ لَسْنَا
نَرْجُمُكَ لِأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لِأَجْلِ تَجْدِيفٍ ، فَإِنَّكَ
وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهًا . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ أَلَيْسَ
مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ . إِنْ قَالَ
آلِهَةٌ لِأَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ . وَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ يُنْقِضَ الْمَكْتُوبُ . فَالَّذِي قَدَّسَهُ الْآبُ وَأَرْسَلَهُ
إِلَى الْعَالَمِ أَتَقُولُونَ لَهُ إِنَّكَ تُجَدِّفُ لِأَنِّي قُلْتُ إِنِّي ابْنُ
اللَّهِ . إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلَا تُؤْمِنُوا بِي .
وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَامِنُوا بِالْأَعْمَالِ
لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الْآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ . فَطَلَبُوا
أَيْضاً أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ .

(يوحنا ١٠ : ٣١-٣٩)

ولقد كان الحق الذى نادى به «يسوع» فى نظر اليهود تجديفاً قاسياً . لقد كان تعدياً على دائرة هى أبعد ما تكون عن طوق البشر . . دائرة تخص الله وحده .

ومهما سما الإنسان ، فلن يصل إلى دائرة تخص الله . ومهما كانت له أعباده ، فلن تتناول على مجد الله . لقد كان إعلان «يسوع» بأنه والآب واحد ، ليس أقل من تصريح بأنه مساو لله . وكان العقاب على التجديف كما يقضى بذلك الناموس الموسوى ، هو الموت رجماً بالأحجار . من جدف على اسم الرب فإنه يقتل برجمه كل الجماعة رجماً . الغريب كالوطنى عند ما يجدف على اسم الرب يقتل » (لاويين ٢٤: ١٦) وهكذا أعد اليهود العدة ليرجموا «يسوع» ، وهذا ماتعنيه الكلمات فى الأصل اليونانى . لقد أسرع جماعة منهم ، وأحضرت الأحجار من الوادى ، وكانوا على إستعداد ليخرجوه خارج الهيكل ، ويرجموه .

أما يسوع فقد واجه ثورتهم بمناقشة ذات بنود ثلاثة :

١ - فهو قد قال لهم ، إنه قضى حياته بينهم يصنع خيراً بهم . يشفى المرضى . . يشبع الجياع . . يعزى الحزانى . . يشفى منكسرى القلوب . . يبشر المساكين . . يكرز بسنة الرب المقبولة - أعمال كلها تشهد له أنه من عند الله جاء ، خيراً وهدى للعالمين . فعلى أى عمل من هذه يريدون أن يعاقبوه بالرجم ؟ وكان جوابهم ، إنهم لا يريدون أن يميتوه لأجل أى عمل حسن قام به ، ولكن لأجل الادعاء الخطير الذى نادى به .

٢ - وما هو هذا الادعاء ؟ إنه وهو إنسان قد جعل من نفسه إبناً لله ، مساوياً نفسه بالله . ولكي يؤكّد السيد هذه الحقيقة العسيرة على الأذهان

نراه يستخدم حجتين . الحجة الأولى ، عبرية مائة في المائة ، يقتبسها من سفر المزامير (مز ٨٢ : ٦) ، ولذلك تبدو عسيرة علينا في فهمها . في هذا الزمور يتحدث كاتبه بنغمة التحذير ، لأولئك الذين يحتلون مراكز السلطة ، وفي أيديهم سلطان الدينونة والقضاء ، أن يعملوا على إنصاف الفقير والمسكين ، إذ لا معين له . ثم يختم هذا التحذير بالقول « أنا قلت إنكم آلهة » .

إن القاضي ، أو الحاكم ، معين من قبل الله ، ليقم موازين العدالة بين البشر . . لينصف البائس من شر الظالم ، ويعين الفقير لبلوغ هدفه فهو بين البشر في مركز الله . أو بحسب تعبير كاتب الزمور ، القضاة هم الآلهة بين البشر . هذا القول يتضح بصورة أكمل ، في سفر الخروج . ففي الأصحاح الحادى والعشرين من العدد الأول للعدد السادس ، نجد الشرع اليهودى يحتم تحرير العبد في السنة السابعة ، سنة اليوبيل — في العدد السادس : نقرأ القول « يقلعه سيده إلى الله » أى إلى القاضي الحاكم ، وفي الأصل العبرى « الوهم » أى الآلهة . والقضاة آلهة . نفس التعبير يتردد أيضاً في سفر الخروج (٢٢ : ٩ ، ٢٨) . لقد كان الكتاب يلعب أولئك الذين يوكل إليهم عمل جوهري يتصل بمصائر البشر ، ويتحكم فيهم ، بأنهم آلهة . وهكذا يقول « يسوع » لسامعيه من اليهود : « إن كانت الكتب المقدسة تقول عن البشر إنهم آلهة ، فكم بالحري الابن المبارك ، قدوس الله الوحيد ، يتحدث هكذا عن نفسه ؟ ... »

ولقد نادى « يسوع » في هذا الصدد ، بحقين يتصلان به :

(أ) الحق الأول ، أنه قدوس الله المعين ، والمكرس من الله لهذا العمل الخاص والكلمة اليونانية المرادفة للفعل يكرس ، هى « أجيازىن أو هاجيازىن » ، ومنها

اشتقت الصفة « آجيوس » ، ومعناها قدوس ، التي تتردد ضمن قراءات القداس في الكنائس التقليدية .

هذا الفعل على الدوام ، يعطى الفكرة بإفراز شيء ، أو كائن ما ، وتخصيصه ، وتقديسه لعمل معين ، أو مهمة خاصة ، فيقال عن هذا الشيء أو هذا الشخص إنه مكرس ، أى أنه مخصص لهذا العمل ، الذى يختلف عن كل أعمال الحياة العادية .

— فيوم السبت مثلاً مقدس . (خروج ٢٠ : ١١) . أى أنه مخصص لغرض سام هو عبادة الله ، وهذا الغرض يختلف كل الاختلاف عن أغراض الحياة العادية . والمذبح فى الهيكل مقدس (لاويين ١٦ : ١٩) . ذلك لأن المذبح يختلف فى الغرض الذى خصص له ، عن أى بناء أو حجر يشبهه فى المظهر . والكهنة مقدسون (أخبار الأيام الثانى ٢٦ : ١٨) . لأن الكهنة رغم كونهم من بنى البشر ، قد تخصصوا وتكرسوا وأفرزوا للخدمة معينة ، وغرض خاص . والنبى مقدس (أرميا ١ : ٥) . لأن النبى يختلف فى خدمته ، وهدفه ، والعمل الذى كلف به عن بقية الناس .

فحينما قال « يسوع » لليهود ، إن الآب قدسه أو كرسه ، فمعنى هذا هو أن الآب قد خصصه وعزله وأفرزه لعمل وهدف وغاية تختلف به عن بقية البشر ، وتسمو به عنهم . إن مجرد هذا القول ، يثبت لنا بصورة لاتدعو للشك ، أن « يسوع » كان شاعراً بالواجب المقدس ، والمهمة العظمى ، التى كلفه بها الله الآب ، ألا وهى فداء البشرية وخلصها .

(ب) والحق الثانى هو أن الله قد أرسله إلى العالم . والكلمة هنا ، يمكن أن تستخدم فى إرسال رسول لمهمة خاصة . أو سفير ليمثل أمة ، أو جيش

ليقوم بعمل ما . فحينما قرن «يسوع» نفسه بهذا الفعل «أرسل» ، فإنه كان يشير إلى أنه رسول الله إلى العالم . إن مجيء المسيح إلى عالمنا كان عملا إلهيا ، وكان بتكليف إلهي . لقد جاء لمهمة محددة من قبل الله الآب ، وجاء ممثلا لله الآب . وجاء ليقوم بعمل محدد ، العمل الذي أعطاه له الآب .

وهكذا قال لهم «يسوع» ما خلاصته . « في الأيام الخوالي ، تحدث الكتاب عن القضاة بأنهم آلهة . لأنهم خصصوا وكلفوا من الله ، بأن يقيموا موازين العدالة بين البشر ، وهي مهمة إلهية . وها أنا أذكركم أن الله قد خصصني ، وكبرسني لعمل محدد . وأنه قد أرسلني إلى العالم لاتمام هذا العمل . فكيف بكم ثورون ضدي حين أقول لكم إني أنا ابن الله ؟ »

هذه واحدة من المحاجات العسيرة الفهم على عقولنا ، تلك المحاجات التي دارت بين «يسوع» وبين اليهود . ولكنها كانت محاجة مقنعة مفحمة ، وخاصة للحبر اليهودي ، أو القريسي دارس التوراة . لقد كانت حجة «يسوع» التي أوردتها هنا ، مبنية على الكلمة المقدسة التي يحترمها ويكرمها كل يهودي .

٣ - ثم يخطو بهم «يسوع» إلى الخطوة الحاسمة ، ويقدم لسامعيه الاختيار الحاسم قائلا : « انني لا أدعوكم لقبول كلامي ، لكنني أطلب منكم أن تؤمنوا بالأعمال التي أقوم بها » . فالتعاليم عرضة للاخذ والرد ، للقبول والرفض ؟ أما الأعمال ، فلا مجال للمقاومة فيها . إنها الحجة الدامغة التي لا تقبل أي مقاومة .

إن المناداة الكلامية بحق من الحقوق ، ونسبة هذا الحق للإنسان ، قد تثير الشك والاعتراض والمناقضة . ولكن أعمال الإنسان ، لامناقضة فيها . ويسوع هو المعلم الصادق ، لأنه لا يبنى حجته ، ولا يقيم حقه ، على أساس

كلمات ينادى بها ، بل على أساس طبيعته ، وعلى أساس أعماله الصادقة .
وهو يقدم الاختبار الحاسم لكل إنسان ، ويقدم له الاختبار الحاسم ، المبني
على الأعمال . ان دعوته لليهود ، تقوم على أساس ذاته ، وعلى أساس أعماله ،
وهذا هو محك الاختبار الذى يظهر معدن المؤمن ، ومعدن الكنيسة . ان
مأساة الكنيسة فى يومنا الحاضر ، هى أنها لاتستطيع أن تثبت أمام هذا
الاختبار الحاسم .

هدوء قبيل العاصفة

وَمَضَى أَيْضاً إِلَى عِبْرِ الْأُرْدُنِّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ
يُوحَنَّا يَعْمَدُ فِيهِ أَوَّلًا وَمَكَثَ هُنَاكَ . فَأَنَّى إِلَيْهِ كَثِيرُونَ
وَقَالُوا إِنَّ يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً . وَلَكِنْ كُلُّ مَا قَالَهُ
يُوحَنَّا عَنْ هَذَا كَانَ حَقًّا . فَأَمَّنْ كَثِيرُونَ بِهِ هُنَاكَ
(يوحنا ١٠ : ٤٠ - ٤٢)

لقد بدأت الأمور تتأزم بالنسبة ليسوع ، ولكنه كان يعرف ساعته .
لقد كان يضع كل شيء في موضعه . ولذلك لم يكن يستعجل الوقت ،
ولم يكن يلقي بنفسه إلى الخطر قبل وقوعه . ونحن لانتعبر هذا تراجعاً ،
ولانرى فيه هروبا من الخطر ، أو حفاظاً على الحياة . ولكن السيد أراد أن
يعتزل فترة من الوقت ، استعداداً للمعركة الأخيرة . لقد أراد أن يعتزل مع الآب ،
لينال القوة والعون . هكذا كان «يسوع» على الدوام يعد العدة للقاء البشر ،
بملاقاة الله أولاً . وهكذا نراه يلجأ إلى عبر الأردن ، في خلوته الروحية .
ولكن المكان الذى لجأ إليه ، لم يكن مكاناً حسبما اتفق لقد كان يحمل
أكثر من دلالة بالنسبة ليسوع . فهو المكان الذى إعتاد «يوحنا» ان يعمد فيه
تلاميذه . نعم لقد لجأ إلى المكان الذى نال فيه معموديته على يدى «يوحنا
المعمدان» . فى هذا الموضع ، هبط الروح القدس عليه ، فى هيئة جسمية
مثل حمامة ، ودوى الصوت من عند الآب : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به
سررت له اسمعوا » . فى هذا الموضع تأكد «يسوع» من أصله .

ومن هدفه ، وتحددت أمامه أو مساليته . وليس بغير دلالة أو معنى ، أن يعود «يسوع» إلى مكان القوة والذكريات المحيطة ، قبيل هبوب العاصفة . وفي العهد القديم نرى «يعقوب» أبا الأسباط ، كان يعود إلى بيت إيل (تكوين ٣٥: ١-٥) كلما تأزمت الظروف حوله . إنه كان يعود إلى المكان الذي وجد فيه العون الإلهي . وهكذا نرى «يسوع» ، عند اقتراب نهاية خدمته على الأرض ، يعود إلى مكان البركة ، الذي منه بدأ خدمته ، وإلى مكان القوة ، الذي نال فيه ملء القوة — ما أجمل أن نعود بين الحين والحين ، إلى المكان الذي وجدنا فيه الله ، أو وجدنا فيه من الله ، لأن هذا نافع لنفوسنا .

وإلى هذا المكان القصي ، توافد اليهود أيضاً ، وهناك تذكروا «يوحنا المعمدان» ، وخدمته القصيرة ، وارساليته الملهية . هناك تذكروا أنه تقدم إلى البشرية بكلمات نبى ، ولكنه لم يعجل معجزة واحدة .

هنا يكمن الفارق بين رسالة الله في المعمدان ، ورسالته في المسيح يسوع . ففي «يسوع» تأيدت رسالة المعمدان ، بقوة الله المعجزية . لقد شخص يوحنا المعمدان الداء ، لكن «يسوع» جاء ليقدّم العلاج الفعال ، ويواجه بنعمة الله الحالة المستعصية القاسية .

ولقد كان اليهود يؤمنون بالمعمدان كنبي عظيم ، وهنا آمنوا بيسوع ، على أساس ما تنبأ به عنه «يوحنا المعمدان» .

كم من إنسان في الوجود ، ظهر وسط خللاته ، وكأنما المستقبل يبسم له ، وكأنى بكل قريب يرى تحقيق آماله فيه . فاذا به يخيب آمال الجميع . ولكننا نرى «يسوع» يفوق رجاء المعمدان ، ويتحقق فيه أكثر مما نادى به من نبوات ، ويتفوق على الجميع . هنا تكمن عظمتة وسموه .

إن «يسوع» هو الوحيد في الوجود ، الذى لم يخيب رجاء من وضع رجاءه فيه ، ولم يطأطئ رأس من رفع عينيه نحوه .

الأصحاحُ الحادى عشرَ

فى الطريق إلى المجد

وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضًا وَهُوَ لِعَازَرُ مِنْ بَيْتِ عَنِيَا مِنْ
قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتَيْهَا . وَكَانَتْ مَرْيَمُ الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ
أُخُوها مَرِيضًا هِيَ الَّتِي دَهَنَتْ الرَّبَّ بِطِيبٍ وَمَسَحَتْ
رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا . فَأَرْسَلَتْ الْأَخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ يَا سَيِّدُ
هُذَا الَّذِى تُحِبُّهُ مَرِيضٌ .

فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ
بَلْ لِأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ لِيَتِمَّحَدَّ ابْنُ اللَّهِ بِهِ . وَكَانَ يَسُوعُ
يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ .

(يوحنا ١١ : ١ - ٥)

جميل أن يكون للإنسان بيته . البيت الذى يستطيع أن يلجأ إليه
فى أى وقت من الأوقات ، وفى أى ظرف من الظروف ، فيجد بين
جدرانهِ الراحة والتفاهم ، والسلام والمحبة . فالبيت الهادىء نعمة عظيمة
من نعم القدير على الإنسان ومع أن يسوع لم يكن له بيت بالمعنى

الذى نفهمه . فهو الذى قال : « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ،
وأما ابن الإنسان فليس له أين بسند رأسه » (لوقا ٩ : ٥٨) إلا أنه قد وجد
لنفسه بيتا مع أسرة بيت عنيا . هناك وجد قلوبا ثلاثة تحقق له خفقات
الحب . وإلى هناك كان يلجأ بين وقت وآخر ليجد الراحة من العواصف
التي كانت تهب عليه .

وأعظم هبة يستطيع الصديق أن يهبها لصديقه ، هي المحبة والسلام . أن
يكون للإنسان في دائرة الحياة ، واحد يستطيع أن يلجأ إليه ، فلا يسخر من
أحلامه ، ولا يضحك أمام متاعبه ، ولا يخيب ثقته فيه ، هذا شيء
جميل . ونحن نستطيع جميعا أن نجعل بيوتنا بهذه الصورة . نستطيع
أن نفتح بيوتنا وقلوبنا ، لتكون ملجأ للصديق الصادق ، وهذا لن
يكلفنا مالا كثيرا ، ولن يتطلب موائد فاخرة . إنه يحتاج فقط إلى القلب
الفائض والعواطف المرهفة .

في طريق الحياة القاسى ، لاعطية تعادل الراحة للأقدام المتعبة .
وهنا يجد «يسوع» راحة لقدميه ، في بيت حبيب ، هو بيت عنيا ، حيث
كان يعيش ثلاثة إخوة «مريم» «ومرثا» مع أخيهما «لعازر» .

أما اسم «لعازر» فمعناه في الأصل : « الرب عونى » وهو يعادل
نفس الاسم «أليعازار» - ودارت دورة الأيام ، وسقط «لعازر» مريضا .
وأرسلت الأختان رسالة مركزة في كلمات قليلة ، ولكنها تغنى عن خطاب
طويل . هذه الرسالة لم تكن تحوى أدنى طلب أو رجاء موجه ليسوع .
لقد كانت الأختان تعرفان ، أنه لا لزوم لذلك . فالحقيقة المجردة ؛
أو الظرف المتأزم . حينما يوضع تحت أنظار «يسوع» ، كفيل بأن يتحدث
إليه بأفصح لسان ، وأرق رجاء ، كما يقول «القديس أوغسطينوس» ،

يكفى أن يعرف «يسوع» حالتنا ، وحاجتنا . فكيف يمكن أن إنسانا
يحب إنسانا آخر ويتخلى عنه في محنته ؟

يتحدث كاتب قديس^(١) عن اثنين من الجند ، كانا يخدمان معاً في كتيبة
واحدة في الحرب العالمية الأولى . وفي أثناء القتال جرح الواحد ، وترك
في مكانه ينزف في آلامه . وحيدا ، لا يستطيع إنسان أن يمد يد المعونة
إليه ، أما زميله إذ عرف الحقيقة ، قام تحت جناح الظلام ، ووسط أزيز
الرصاص ، ودوى المفرقات ، تحت خطر الموت ، وزحف من خندقه
حتى وصل إليه ، ونظر إليه الجريح وقال بابتسامة : « لقد كنت أعرف
أنك لا بد وأن تأتي .. !! إن حقيقة الحاجة الملحة ، لا بد وأن تدفع
«يسوع» إلى الوقوف إلى جوارنا في أقل من لمح البصر .

وحينما يأتي السيد إلى بيت عنيا ، فلا بد أن يعرف عمله ، ولا بد أن
يظهر قوته . ولكننا نستمع إليه يقول لتلاميذه : « هذا المرض ليس للموت
بل لأجل مجد الله » . وكان هذا القول صحيحا من وجهتين :

١ - لإقامة ميت من الأموات ، لا بد أن تظهر مجد الله في ملء
قوته وعمله .

٢ - ولكن هناك وجهة نظر أبعد من هذه . فبين سطور البشارة
الرابعة ، يتحدث «يسوع» مرة بعد الأخرى ، قارنا أمجاده بصليبه . في
الأصحاح السابع ، والعدد التاسع والثلاثين ، نرى كاتب البشارة يتحدث

C.F. Andrews (١)

قائلا: إن الروح لم يكن قد أعطى بعد ، لأن «يسوع» لم يكن قد مجد بعد .
والمقصود بهذا القول ، أن «يسوع» لم يكن قد مات على الصليب بعد .
وحينما أتت سفارة اليونانيين إلى «يسوع» ، نسّمعه يقول : « قد أتت الساعة
ليتمجد ابن الإنسان » (يوحنا ١٢ : ٥٣) ، أما هذا التمجيد ، فيفسره الكلام
الذي يتبع هذا ، حيث نجد «يسوع» يتحدث عن موت حبة الخنطة ، لتأتي بشعر
كثير . وفي يوحنا (١٢ : ١٦) نجد كاتب البشارة يقول إن التلاميذ
تذكروا ما كتب عن «يسوع» ، وما قاموا هم بآتمامه دون أن يعرفوا ،
وذلك بعد أن تمجد «يسوع» ، أى بعد أن مات وقام من بين الأموات .

— في البشارة الرابعة ، يتضح كل الوضوح ، أن «يسوع» كان يعتبر
الصليب الطريق إلى أمجاده ، بل أعظم أمجاده ، وهكذا حين قال إن شفاء
«لعازر» ، أو إقامته من الموت ، سيمجده ، فقد كان يقصد تماما أن ذهابه إلى
بيت عنيا ، وقيامه بهذه المعجزة ، معناه خطوة سريعة تقترب به إلى
الموت ، إلى الصليب . وهذا هو عين ما حدث بالفعل .

وقبل «يسوع» بكل رضى ، أن يتقدم تلك الخطوة المرة . . الخطوة إلى
الموت ، في سبيل إنقاذ حبيبه «لعازر» . لقد كان يعرف الثمن الباهظ ،
ولكنه لم يتردد ، ولم يتراجع . . . حينما تحيط بنا بعض التجارب ، أو
تكتنفنا بعض الضيقات ، وخاصة إذا كانت تلك التجارب ، أو الضيقات
نتيجة ولائنا لشخص ربنا يسوع ، وخلصتنا له ، تتغير نظرتنا لكل شيء ،
ونرى في الصليب الذى نحمله ، مجدنا ، بل نرى فيه الطريق إلى أمجاد أعظم ،
سوف تعلن لنا فيما بعد . فما أجد أن يتألم الإنسان في سبيل «يسوع» ،
ولا شرف يدانى هذا الشرف العظيم .

وإذا كنا نؤمن بما قاله السيد ، علينا أن نثق بأن الذى يحمل صليبه ،
ويتبع « يسوع » بكل رضى وتسليم ، لا بد فى النهاية ، أن ينال إكليل المجد
الذى وعد به الرب الذين يحبونه فى غير فساد .

بالنسبة لرب المجد ، لم يكن هناك من سبيل إلى أمجاده إلا طريق
الصليب ، وأتباعه أيضاً لا سبيل لهم إلى الأمجاد ، غير هذا السبيل .

وقت كاف ، ولكنه ليس كثيرا

فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي
كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِتَلَامِيذِهِ لِنَذْهَبْ
إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضاً . قَالَ لَهُ التَّلَامِيذُ يَامُعَلِّمُ الْآنَ كَانَ
الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنَّ يَرْجُمُوكَ وَتَذْهَبُ أَيْضاً إِلَى هُنَاكَ .
أَجَابَ يَسُوعُ أَلَيْسَتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ . إِنْ
كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي النَّهَارِ لَا يَعْثُرُ لِأَنَّهُ يَنْظُرُ نُورَ هَذَا
الْعَالَمِ . وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي اللَّيْلِ يَعْثُرُ
لِأَنَّ النُّورَ لَيْسَ فِيهِ .

(يوحنا ١١ : ٦ - ١٠)

قد يبدو غريباً لأفهامنا ، أن يمكث «يسوع» حيث هو يومين كاملين ،
بعد أن تلقى نبأ مرض حبيبه «لعازر» . كثيرون حاولوا أن يفسروا هذا
التأخير .

قال البعض إن «يسوع» مكث حيث هو حتى تقع بالفعل حادثة موت
لعازر .

وعند ذلك تصبح المعجزة أبجد وأقوى وقعا . فلمسة الشفاء للمريض ، مهما كان مرضه قاسيا مستعصيا مهما شأنها ، لن تعادل عودة ميت من قبره إلى الحياة ، وخاصة إذا كان قد بقي أربعة أيام في القبر ، فتحلل جسده واثن .

والسبب الأساسي الذي يهدف إليه البشير من تقرير هذه الحقيقة ، ليصور لنا أن «يسوع» يعمل بميعاده هو ، وبحسابه هو ، وليس بحساب ، أو إغراء أي إنسان آخر - في معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل ، (يوحنا ١: ٢ - ١١) ، نجد «يسوع» يتحدث إلى العذراء المطوبة قائلا : «فأنتي أولئك يا امرأة . لم تأت ساعة بعد» ، أي لا تحاولي أن تفرضي ساعة معينة علي . دعيني أعمل حسب مواعدي وحسب ساعتى أنا . . . وحين يعرض «يوحنا» لمحاولة إخوة «يسوع» أن يدفعوه للذهاب إلى أورشليم (يوحنا ٧ : ١ - ١٠) نجده يرفض أن يذهب للعيد تحت إلحاح إخوته ، ولكنه يذهب أخيراً في ميقاته المعين . لقد كان هدف البشير على الدوام ، أن يظهر لنا «يسوع» وهو يعمل بوحى من ساعتة ، وميقاته المحدد ليس لأنه دفع لهذا العمل ، أو قام به تحت إلحاح من آخرين ، أو إغراء من سواه . وهنا يتبع البشير نفس الطريقة في سرده للأحداث . إنه يصور لنا «يسوع» وهو يختار ميعاده هو .

وكم من المرات نحاول نحن أن نتعجل مسيحتنا في طريق عمله . أن ندفعه وليعمل سريعاً . ينبغي أن نتركه لوقته المعين ، لساعته التي يختارها . . .

وحينما أعلن «يسوع» أخيراً أنه ذاهب إلى اليهودية ، كان هذا القرار بمثابة صدمة قوية أصابت التلاميذ . فقد كانوا يذكرون أنه في الزيارة الأخيرة التي كان فيها هناك ، حاول اليهود أن يقتلوه . إن الذهاب إلى

اليهودية في تلك الآونة كان عملية انتحارية ، بحسب النظرة البشرية .

وعندها هتف «يسوع» لتلاميذه بهذا المثل الخالد : « ليست ساعات النهار اثنتى عشرة ساعة . . » ترى ماذا يعنى السيد بهذا القول ؟ :

١ - إنه يعنى أن اليوم لا ينتهى ، قبل أن تنتهى ساعاته . ففي كل يوم توجد اثنتا عشرة ساعة ، والمقصود باليوم هنا ، هو النهار من مشرق الشمس إلى مغربها - وهذه الساعات لابد وأن تأخذ مجراها ، وتتم معها حدث من أحداث . إن ساعات النهار ، محددة ثابتة ، لا يقصرها ولا يطيلها شيء . فإن اختار الإنسان أن يخدم الله ، فيوم الحياة بالنسبة لذلك الإنسان ، لن ينتهى قبل أن تنتهى ساعاته المحددة . إن هناك حدوداً في تدبير الله لكل شيء في الوجود . وكل إنسان ، له يومه المحدد ، طال هذا اليوم أم قصر .

٢ - على أن هذا المثل يعنى أيضاً ، أن يوم الحياة ليس بالقصير . وقت كاف ليعمل الإنسان ويتم كل ما يعمل . لا داعى لليأس ، داعى أيضاً للعجلة . فلو استخدم الإنسان ساعاته الاثنتى عشرة بكل دقة يستطيع أن يتم كل واجباته وزيادة . إن اثنتى عشرة ساعة ليست بالوقت القصير . إنها فرصة كافية ، نستطيع أن نتم فيها مقاصد الله في حياتنا . .

٣ - ولكن ، حتى وإن كانت هذه الساعات كافية ، إلا أنها بالرغم من كل هذا ، محددة . فهي اثنتا عشرة ساعة وكفى ، ولا يمكن أن تطول دقيقة واحدة .

ولذلك فلا مجال لأضاعة دقيقة منها . ينبغي أن نستخدم كل لحظة ،
على قدر ما نستطيع .

هنا تبدو أمامنا حقيقة من أقوى الحقائق الرهيبة ، التي تهدد حياة
الإنسان . . حقيقة الزمن ، ومحدوديته ، وعدم عودته . فساعات النهار وافرة
تصل إلى اثنتي عشرة ساعة ، لكنها لا تزيد عن اثنتي عشرة ساعة . لا داعي حقاً
للتعجل ، كما أنه لا مكان لإضاعة دقيقة واحدة . هناك وقت كاف للمهام
الحياة ، لكن لا توجد لحظة واحدة زائدة نضيعها فيما لا يفيد .

النهار والليل

(يوحنا ١١ : ٦ - ١٠)

ثم يستمر معلم الأجيال والدهور ، موسعا في حديثه عن الزمن
والإنسان فيقول ، إنه إذا أغتئم الإنسان فرصة النهار ، فرصة النور ، فانه
يستطيع أن يسلك في الطريق ولا يتعثّر . ولكن إن سار في الليل فهناك
أكثر من احتمال لسقوطه ، وتعثره .

حسبنا اعتدنا على الدوام ، أن نجد في كلمات المسيح المدونة في
البشارة الرابعة - نجد هنا معنيين : المعنى الأول ظاهري سطحي ، والمعنى
الثاني عميق خفي . . والمعنيان لا يقل الواحد منهما في حقيقته عن الآخر .

١ - فهناك المعنى الظاهري الذي ينبغي أن ندركه ونتعلمه ، وهو
يدور حول حقيقة النهار وساعاته . فقد كان اليوم اليهودي ، كما كان
أيضاً اليوم عند الرومان . مقسماً إلى اثنتي عشرة ساعة . يبدأ من شروق
الشمس ، وينتهي بمغيبها . تبعاً لفصول السنة المتتابعة . فالساعة الزمنية في
الصيف طويلة ، والساعة في الشتاء قصيرة . لقد كان اليوم يبدأ بيقظة

الشمس ، ويستمر باستمرارها ، وينتهي بنومها . وهذا اليوم كان يقسم بالتساوى ، إلى ساعاته الإثنتى عشرة .

وهكذا ، حينما نادى «يسوع» أن من يسير فى النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم ، فقد كان يعنى بالفعل ، أن من يسير فى النور لا يسقط ، طالما كان النور ينير له طريقه . ولكن حينما يأتى الليل ، وتختفى الشمس ، فإنه لن يستطيع أن يتبين جيداً ملامح الطريق . إذ لم تكن هناك أنوار صناعية تنير السبل ، نظير ما نراه فى أيامنا الحاضرة .

وربما كانت هناك بعض المناسبات كالأعياد ، وغير ذلك ، التى يشع فيها النور من الهيكل . ولكن الحقيقة أنه فى القرى ، والضياح ، وفى معظم أيام السنة ، كان الظلام يسود الطرقات . وهكذا حين كان يحل المساء كان ينتهى وقت الرحيل ، ويلجأ الإنسان إلى داره ، أو إلى دار صديقه ، للمبيت حتى يسفر صباح اليوم التالى .

هنا نرى «يسوع» يقول ، إن على الإنسان أن يستغل فرصة النهار ، وينتهى من عمله لأن الليل يأتى ، حيث تنتهى فرصة العمل إن كانت للإنسان رغبته ، أو هدفه الذى يريد أن يتممه ، ليصل إلى نهاية هذا الهدف ، وإتمام تلك الرغبة خلال ساعات النهار ، إن مظاهر القلق والخوف ، والعجلة ، والإرتباك الذى تقع فيه ، سببها أننا نريد أن نتخلص من أعباء قد نراكم علينا بسبب تكاسلنا فى الأيام الماضية ، عن إنهاؤها والتخلص منها . ينبغى علينا أن نحسب حساباً للوقت ، عارفين أنه ذخيرة مباركة بين أيدينا . ولكنها ذخيرة معرضة للنفاذ يجب ألا نبعتها ونلهو بها كما نشاء . فالיום حين يمضى لن يعود ، والساعة حين تنتهى لا ترجع ، وتبقى الواجبات مكثمة علينا كما هى .

٢ - ولكن وراء هذا المعنى الظاهري ، يوجد معنى أكثر عمقا . وأى إنسان منا ، لا يقف وقفة تأمل أمام كلمة «لأنه ينظر نور هذا العالم» ، ويرى فيها تذكيرا بالقول : «أنا هو نور العالم» ؟ من يسمع كلمة نور العالم ولا يذكر في الحال «يسوع» نور العالم ؟ هنا تتكرر المقارنة بين الظلمة والنور ، بين الليل والنهار ، لتقدم لنا صورة مقارنة للحياة بغير المسيح ، تحت سلطان الشيطان ، وللحياة مع المسيح في ملء البركة والنعمة . ونحن نجد نفس اللمسة في العدد الثلاثين من الأصحاح الثالث عشر من نفس البشارة حيث يتحدث «البشير يوحنا» عن «يهوذا» بعد أن أخذ لقمة الخبز من يد السيد ، «فخرج للوقت ، وكان ليل» . . . إن الليل التعس الشقي المر ، هو الذى يتخبط فيه الإنسان الخاطئ ، حينما يخرج بعيدا عن دائرة «يسوع» .

إن حجر الزاوية فى الإنجيل كله ، هو محبة الله ، ولكن هذه المحبة الإلهية ، لا تركنا بغير تحذير أو انذار . إن لنا لفرصة ، عريضة ، متسعة ، كافية ، لكى نرتب أمورنا ، ونتصالح مع الله فى المسيح ، فإذا لم نغتنم هذه الفرصة ، فلنا الظلمة واللعنة ، والدينونة الرهيبة . وهكذا يقول لنا «يسوع» : «اغتنبوا فرصتكم . أنجزوا هدف حياتكم الأعظم ، تصالحوا مع الله ، طالما كان الوقت نهار . يأتى الوقت الذى فيه تغرب الشمس ، ويبسط الليل ستاره الأسود . . . نعم يأتى عليكم ليل الضيقات ، أو المتاعب ، أو الأجزان ، أو الشيخوخة ، أو المرض ، أو الموت . . . وعندئذ قد تهرب الفرصة من أيديكم ولا تعود » .

«لا توجد بشارة بين البشائر الأربع ، تنادى بأن الله يحب العالم بهذا القدر العظيم العميق ، قدر البشارة الرابعة . ولا توجد بالتالى بشارة تنادى

بأن تلك المحبة يمكن أن تنقلب دينونة على صاحبها لأنه يرفضها ويزدريها ،
ولا يغتنم فرصتها ، قدر البشارة الرابعة أيضاً . إن نعمتين أساسيتين
نسودان على إنجيل يوحنا : أجماد الفرصة التي نغتنمها ، ومأساة الفرصة
التي نقلت منا ونضيع ..

الرجل الذي لم يشأ أن يترك يسوع

قَالَ هَذَا وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ . لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ .
لَكِنِّي أَذْهَبُ لِأَوْقِظَهُ . فَقَالَ تَلَامِيذُهُ يَا سَيِّدُ إِنْ كَانَ
قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى . وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ . وَهُمْ
ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ النَّوْمِ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ
عَلَانِيَةً لِعَازَرُ مَاتَ . وَأَنَا أَفْرَحُ لِأَجْلِكُمْ إِنِّي لَمْ أَكُنْ
هُنَاكَ لِتُؤْمِنُوا . وَلَكِنْ لِنَذْهَبَ إِلَيْهِ . فَقَالَ تُومَا
الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوَّامُ لِلتَّلَامِيذِ رُفَقَائِهِ لِنَذْهَبَ نَحْنُ
أَيْضًا لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ .

(يوحنا ١١ : ١١ - ١٦)

هنا يتبع البشير طريقته المعروفة في تقديم نقاش دار بين «يسوع» وسامعيه.
ونحن نرى نفس الطريقة في أكثر من مناسبة ، يدور فيها النقاش بين
المعلم وبين من حوله . فيتقدم «يسوع» بقول يبدو في ظاهره أنه عادي .
وهذا القول يسيء اليهود فهمه ، وعلى هذا النمط ، وهكذا ، يتقدم شارحاً
ومفسراً لم ما يرى إليه .

نحدث السيد مع «نيقوديموس» عن الولادة الجديدة (يوحنا ٣: ٣-٨)
وعلى هذا النمط أيضاً دار الحديث بينه وبين المرأة السامرية على بئر سوخار
(يوحنا ٤ : ١٠ - ١٥) . وهنا يبدأ حديثه لتلاميذه بإعلان يبدو في
ظاهره أنه عادي : «لعاذر حبيبنا قد نام» - وكان لهذا الخبر وقع طيب في
نفوس التلاميذ ، فلا دواء يعدل النوم الهاديء . كما أن النوم الهاديء علامة
قاطعة على أن حدة المرض قد خفت ، أو هي في طريقها إلى الزوال .
ولكن كلمة النوم التي تبدو عادية في ظاهرها ، كان لها في منطق «يسوع»
معنى أعمق ، وأكثر خطورة . فهناك في فرصة إقامة ابنة «يا برس» نرى
السيد يقول لسامعيه «إن الصبية لم تمت لكنها نائمة» ، (متى ٩: ٢٤) . وفي
سفر الأعمال ، يتردد نفس المعنى ، عن استشهاد «اسطفانوس» شهيد المسيحية
الأول ، فإرد عن موته القول : « وإذ قال هذا رقد » (أعمال ٧: ٦٠) .
أما رسول الأمم ، فنراه يكتب في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (٤: ١٣)
عن أولئك الذين يرقدون في الرب . وفي رسالته الأولى إلى كنائس
كورنثوس ، نراه يتحدث بنفس التعبير . عن أولئك الأخوة الذين شهدوا
قيامه الرب يسوع من الأموات ، فيقول عن بعضهم إنهم ، رقدوا
(اكورنثوس ١٥ : ٦) .

وهكذا أمام أذهانهم المغلقة ، لم يجد السيد بدا من أن يعلن لهم علانية ،
أن لعازر قد مات . ولكنه استمر قائلاً بأن هذا أفضل لهم ، لأنه
ستكون لهم الفرصة ليشاهدوا معجزة أعظم ، ويتعمق إيمانهم أكثر فأكثر .

إن حجة المسيحيين على الديانات جمعاء ، هو ما يستطيع الله في «يسوع
المسيح» أن يفعله في حياة البشر . قد تعجز الكلمات عن الإقناع ، وقد يضعف
المنطق عن تقديم الحجة . ولكن لاحجة أقوى من الله في العمل ، ولا منطق

أعلى من صوت معجزاته في الإنسان . إن الله في المسيح قد أجرى المعجزات في حياة الملايين من بني البشر، وما زال، وسيظل يجربها إلى نهاية الدهر . فقوته هي التي حولت «بطرس» الرعيد الذي أنكر سيده أمام جارية، إلى التلميذ الأول المقدم الذي نادى بحق المسيح في يوم الخمسين وسط جموع اليهود ، موجهًا الإتهام إلى شيوخ اليهود ورؤساء الشعب . و«توما» الممتليء بالشك، استطاعت نعمة المسيح المقام، أن تملأه بسلام اليقين . و«شاوول الطرسوسي»، الفريسي الممتليء سما وتعصبا وتهديداً، تحول إلى رسول المسيحية الأول ، و«أوغسطينوس» ، الشاب المستهتر، أصبح قديس المسيحية ومجامها الأول . و«يوحنا بنيان»، الرجل المحذوف نصف الأذى ، استطاع روح الله أن يلمس قلبه لمسة التجديد ، ويضع القلم الناري بين أصابعه ، حتى أن كتاباته أصبحت تدرس في جامعات الغرب . هذه حقائق لا تدحر . وهي بالتالي تضع على عاتق كل واحد منا مسئولية خطيرة عظمى . إن هدف الله في تجديدنا، هو أن يكون كل واحد منا دليلاً حياً ناطقاً على أثر فاعلية النعمة الإلهية ، وعمل المسيح في القلب ... أن يكون شاهداً حياً بين الناس بكم صنع به الرب ورحمه .

نعود فنقول، إن حادثة موت «لعازر» كانت فرصة للتلاميذ ، لإختبار أعمق ، وإيمان أقوى . وكما قال أحدهم مرة :

«إنني لأحب الأزمات ، ولكنني أحب الفرص التي تتيحها الأزمات»
لقد كان موت «لعازر» أزمة بالنسبة لشخصه ، وأزمة لشقيقته ، وأزمة ليسوع فقد كان مضطراً تحت إلحاح الظروف، أن يعود إلى اليهودية، والخطر يهدده ، وأزمة بالنسبة للتلاميذ ، فما كان يحق بسيدهم ، كان بالتالي يهددهم . ولكن ينبغي حيناً تحيط بنا الأزمات أن نشق بأنها بترتيب من الله ، وأن نرى فيها الفرصة لكي نمجد الله أكثر في حياتنا .

وتراجع التلاميذ أمام الخطر المائل، وأبدوا ترددهم في الذهاب مع «يسوع» إلى اليهودية . فلقد كان الذهاب إلى دائرة أورشليم بعد الذي حدث أخيراً ، بعد في نظرهم انتحاراً . وما كانوا على استعداد أن يلقوا بأنفسهم إلى الهلكة . ولكن صوتاً واحداً هتف إلى جانب «يسوع» . و كان هذا صوت توما الذي يقال له التوأم . لقد هتف قائلاً بشجاعة : « لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه » .

وأما عن لقب «توما» ، فقد كان الإسم المزدوج شائعاً بين اليهود . فكان الواحد له اسميه العبري الذي يعرف به في دائرته ، واسمه اليوناني الذي يعرف به في دائرة أوسع . و«توما» هو الإسم العبري ، أما «ديديموس» أو التوأم ، فهو الإسم اليوناني . هكذا كان للتلميذ الأول لقب «بطرس» في اليونانية ، وإسم «صفا» في العبرية ومعناه صخرة .

وأيضاً الفتاة التي أقامها «بطرس» من الموت ، كان اسمها «طابيثا» في العبرية ، «ودور كاس» أو «غزالة» في اليونانية .

لنترك هذا الفكر العرضي ونقول إن «توما» قد أظهر في تلك الفرصة أسمى آيات الشجاعة . أو لعلها كما قال أحد المفسرين « أسمى درجات الأخلاص المندفع بروح اليأس ، ليكن هذا . إن أسمى ما نصفه به أن نقول عنه ، بأنه الرجل الذي لم يشأ أن يترك «يسوع» .

وليس معنى البطولة أن يتخلى الإنسان عن مشاعر الخوف ، ألا يعتريه الخوف على الإطلاق ، فإن كنا لانشعر بالخوف يكون من السهل علينا القيام بأي عمل . إن الشجاعة الحقيقية تكمن في معرفتنا التامة للظروف المحيطة بنا ، وبالتالي في مواجهة تلك الظروف ، حتى ولو كانت قلوبنا ترتجف في صدورنا ، وهكذا كان «توما» . لا ينبغي أن نخجل من شعورنا بالخوف ، بل ينبغي أن نخجل إذا كان الخوف يشل حركتنا ، ويدفعنا إلى الجبن والتراجع عن القيام بالواجب .

بيت النوح

فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ
فِي الْقَبْرِ . وَكَانَتْ بَيْتُ عَنِيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ
خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً . وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا
إِلَى مَرْتَا وَمَرْيَمَ لِيُعْزُوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا .

(يوحنا ١١ : ١٧ - ١٩)

لكي نصور لأنفسنا المسرح الذي دارت عليه الأحداث التي أمامنا،
علينا أن نعرف معنى بيت النوح عند اليهود .

ففي فلسطين ، كما في الشرق عامة بسبب حرارة الجو ، عندما تنتهي
حياة إنسان، يقوم أهل الميت بدفنه بأسرع ما يمكن . أحياناً يتطلب الأمر
بقاء الجثة فترة حتى يلتئم شمل الأقارب ، والمعارف ، ولكن هذه الفترة
محدودة . ولقد كانت « تكاليف » الموت في البداية قاسية باهظة . فأنسب
العقاقير والأدوية والحنوط ، ينبغي أن تدهن بها الجثة، حتى لا يتطرق إليها
الفساد سريعاً . وكان أقارب الميت، يلفونها في أفخر الأكفان وأثمنها . وفي
عصر المسيح ، كانت مثل هذه التكاليف باهظة وفوق الطاقة .

كان الواحد يستدين ربما طيلة العمر ، ليظهر أمام الآخرين أنه ليس
أقل منهم مركزاً . حتى أتى الحبر «غمالايل الثاني» ، وكان هو أول من

كسر هذه التقاليد، فأوصى أنه عند موته، ينبغي أن يلف جسده في أرخص الأقمشة الكتانية وأقلها ثمنًا . وإلى يومنا هذا ، في الجنازات اليهودية يشرب أهل الميت كأساً، في ذكرى «غمالايل»، الذي أنقذ البيوتات اليهودية من الاستدانة والإسراف ، والتفاخر الباطل، في مثل هذه المناسبات .

وكان الموكب الجنائزى، يسير بالميت محمولاً على أكتاف الشباب، محاطاً بالأهل والأصحاب . وهم يبكون ويولولون - في قرية نظير بيت عنيا ، ما كانت حالة موت تحدث ، حتى تتوافد القرية كلها معزية ، ومواسية ومشاركة في تشييع جثمان الراحل - وثمة عادة غريبة نلاحظها أيضاً في الجنازات في ريفنا الشرقى كما في فلسطين ، منذ عصر المسيح ، أو ربما قبل ذلك ، كانت النادبات المعولات يتصدرن موكب الجنازة ، ويقدن البقية في الصراخ والعويل، وترديد آثار الميت ومناقبه . ويقال إن أساس هذه العادة وسرها، أن المرأة هي التى جلبت الموت على العالم أجمع بسقوطها، ولذلك فالمت مهمتها ، وقيادة الجمع للقبر هي عملها . وهكذا كانت تتصدر مواكب الموت إلى المقر الأخير .

وعند القبر ، كانت تتلى الخطب معددة آثار الراحل، ويتقدم الأصدقاء معزين أقارب الميت . ثم يكون الأقارب صفيين من هنا وهناك ، يسير بينهما الجموع . ويقال إنه كانت هناك عادة حميدة أن المعولات النادبات لا يرهقن أهل الميت بعد ذلك ، بمرافقتهم إلى البيت . بل يتركنهم لأحزانهم .

وفي بيت النوح ، كانت هناك عادات تراعى . فطالما كانت جثة الميت في المنزل ، كان يحرم أكل اللحم ، أو شرب الخمر ، أو لبس الأحجية أو أى نوع من الدراسة . أما الطعام فلا يجهز في المنزل ، وإذا وجد بالبيت

طعام ، فلا يجوز تناوله مع وجود الميت . وبعد أن تحمل الجثة إلى مقرها الأخير ، يقلب كل أثاث البيت ، ويجلس الأهل والأصحاب ، والمعزون على الأرض ، أو على مقاعد صغيرة قريبة من الأرض .

وبعد دفن الميت ، تتسابق كل أسرة في تجهيز الطعام ، وإرساله إلى العائلة المنكوبة . وفي الغالب ، كان الطعام لا يزيد عن البيض المسلوق ، والخبز ، وأطباق العدس .

أما الخبز ، فهو خشن جاف ، رمزاً لحفاف الحياة وقسوتها ، والبيض في استدارته يشير إلى عجلة الحياة التي تدور بنا بسرعة إلى الموت .

وكانت أيام النوح تصل إلى سبعة ، الثلاثة الأولى منها أيام بكاء . وخلال هذه الأيام السبعة ما كان مسموحاً بدهن الوجه أو الرأس ، أو انتعال الأحذية ، أو القيام بأي عمل أو دراسة ، أو حتى الإغتسال . وأسبوع النوح العميق ، كان يعقبه شهر نوح أخف في شدته .

وهكذا حينما أتى «يسوع» إلى بيت الحزن ، وجد قرية بيت عنيا بأكملها ، مجتمعة لتعزي الأختين المنكوبتين – وجد كل ما يمكن أن يلتقي به الإنسان في بيت النوح الشرقي .

ولقد كان واجباً مقدساً على اليهودي ، أن يحضر مواسياً أهل الميت مظهراً تعاطفه ومشاركته القلبية لهم في أحزانهم .

يقول التلمود ، إن كل من يقوم بزيارة المريض أو الحزين ، تنقذ نفسه من جهنم . وعن «موسى بن ميمون» الفيلسوف اليهودي الذي ظهر في القرون الوسطى ، أنه قال بأن زيارة المريض أو الحزين ، تفوق كل الفضائل الأخرى ، وتتقدمها . لقد كانت هذه العادات جانباً أساسياً من جوانب

الديانة اليهودية . وعن أحد الأجداد في تفسيره للآية الواردة في سفر التثنية الأصحاح الثالث عشر والعدد الرابع « وراء الرب الهكم تسيرون » أنه قال : إن علينا أن نتبع نفس الخطوات التي سار فيها القدوس المجيد ، والتي رسمت لنا في صفحات التوراة .

فعلينا أن نكسو العاري ، كما صنع الله أقمصه من جلد ، وكسا آدم وحواء ، (تكوين ٣ : ٢٧) وعلينا أن نزور المريض كما قام الله بزيارة المريض في سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر . وعلينا أن نعزي الحزين ، كما ورد ذلك عن الله في الأصحاح الخامس والعشرين من نفس السفر . وعلينا أن ندفن الميت (سفر التثنية ٣٥ : ٦) .

وفي هذه كلها نكون سائرين في خطوات الإله الصالح . أما اسم الميت فينبغي أن يحاط بكل احترام وتقدير ، ولا ينبغي أن يذكر بعد ذلك إلا مقترناً بطلبة الرحمة عليه . وحينما يغادر المشيعون القبر ، يقولون للميت « ارحل بسلام » . أما روح العطف والمواساة ، فقد كانت الواجب الأول نحو أهل الراحل — صورة كريمة تستحق التأمل .

إلى هذا البيت الذي يسوده الحزن العميق ، والذي ضاق بجماهير المواسين ، والمعزين ، أتى « يسوع » في ذلك اليوم .

القيامة والحياة

فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْتَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لَأَقْتَهُ . وَأَمَّا مَرْيَمُ
فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ . فَقَالَتْ مَرْتَا لِيَسُوعَ يَا سَيِّدُ
لَوْ كُنْتُ ههنا لَمْ يَمُتْ أَخِي . لَكِنِّي الْآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ
كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ
سَيَقُومُ أَخُوكَ . قَالَتْ لَهُ مَرْتَا أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي
الْقِيَامَةِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ
وَالْحَيَاةُ . مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا . وَكُلُّ مَنْ كَانَ
حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ . أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا .
قَالَتْ لَهُ نَعَمْ يَا سَيِّدُ . أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ .

(يوحنا ١١ : ٢٠ - ٢٧)

في هذه القصة أيضاً نرى «مرثا» صديقة مخلصنا لطيفتها، كما رأيناها قبل ذلك . في الأصحاح العاشر من بشارة لوقا، يصور لنا البشير هذه السيدة، في صورة العاملة النشطة التي لا تهدأ . الدائبة الحركة في القيام بواجبها ،

الكريمة المضيفة، التي لا تألو جهداً في سبيل راحة ضيفها . وهكذا نراها هنا .
فحالما سمعت أن «يسوع» قد أصبح على مشارف قرية بيت عنيا ، أسرع
على عجل ، لتلاقيه ، أما شقيقتها، فقد ظلت جالسة في البيت في حزنها
المادىء الوقور ..

وحينما التقت الأخت الحزينة بالسيد . تدفق قلبها في فيض من عواطفها
أمام مريح التعابي ، ومعزى الباكين المنكسرين . وكانت في حديثها نغمة
العتاب الرقيق الممزج بروح الإيمان والثقة والمحبة .. الإيمان الذي لا تزغزه
الأحداث ، مهما كانت قاسية تدعو لليأس . « ياسيد لو كنت ههنا ، لم يمت
أخى » . وخلال هذه الكلمات نستطيع أن نقرأ ما كانت تريد أن تقوله
للسيد - ولعل أفكارها كانت على النحو التالى « ياسيد لماذا لم تحضر إلينا
حالا ، حينما وصلت إليك رسالتنا ؟ والآن لقد انتهى كل شيء ، فقد
تأخرت عن موعدك » . ولكن الإيمان سرعان ما عاد إلى نفسها قوياً منتصراً
ساطعاً ، يبدد ظلمات اليأس أو الشك . فإذا بها تقول « ولكنى أعلم أن كل
ما تسأله من الآب إياه يعطيك » .

وتقدم «يسوع» إليها بتأكيد، كان له وقع الصاعقة على نفسها : « سيقوم
أخوك » . وأجابته الأخت وقد ظنت أنه يعنى بذلك القيامة الأخيرة ..

« أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة العامة في اليوم الأخير » . وهنا أيضاً
جواب يدعو للتأمل ، ويشير بلمحة خاطفة إلى العقيدة اليهودية عن
الخلود^(١) .

(١) للاستزادة راجع الفصل بهذا العنوان ، من كتاب « الموت والخلود » الذى
صدر مؤخراً للمغرب ، وهو من مطبوعات الدار .

ولقد كان العبرانيون القدامى ، يؤمنون بأن الأرواح جميعها ، أرواح الأبرار والأشرار ، تذهب بعد الموت ، إلى منطقة تدعى «شأول» أى الهاوية . وقد ترجمت خطأ إلى الجحيم . فالهاوية ليست مكان عذاب بحسب عقيدتهم ، بل هى أرض الظلال والظلام والنسيان .. الأرض التى لا يذكر فيها اسم الله . هناك نجبا أرواح الجميع سواء بسواء .. حياة بلا ذاتية .. ولا رؤية ولا سرور ، ولا بهجة ، فى صورة أشباح هائمة فى ظلامها ونسياتها . هذا الإيمان البدائى يسود على كتابات العهد القديم ، ويتبلور فى أكثر من موضع ، وعلى الأخص فى سفر المزامير .

« لأنه ليس فى الموت ذكرك . فى الهاوية من يحمذك ؟ » . (مزمور ٦ : ٥) . « وما الفائدة من دى إذا نزلت إلى الحفرة ؟ هل يحمذك الرب ؟ هل ينجز بحقك ؟ » . (مزمور ٣٠ : ٩) . وفى المزمور الثامن والثمانين نرى كاتبه ينعى نفسه « لأنه قد شبت من المصائب نفسى وحياتى إلى الهاوية دنت . حسبت مثل المنحدرين إلى الجب . صرت كرجل لا قوة له . بين الأموات فراشى . مثل القتلى المضطجعين فى القبر الذين لا تذكرهم بعد . وهم من يدك انقطعوا » (مزمور ٨٨ : ٣ - ٥) . وفى نفس المزمور : « أفعلك للأموات تصنع عجائب ؟ أم الأخيلة (أشباح الموتى) تقوم تمجذك ؟ هل يحدث فى القبر برحمتك . أو بحقك فى الهلاك ؟ هل تعرف فى الظلمة عجائبك ، وبرك فى أرض النسيان ؟ » (مزمور ٨٨ : ١٠ - ١٢) . وفى المزمور المائة والخامس عشر : « ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت » . (عدد ١٧) . فاذا تخطينا المزامير وجدنا بجانبها سفر الجامعة لسليمان الملك .

« كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها » . (جامعة ٩ : ١٠) .

وفي سفر «أشعيا» ، نجد «حزقيا الملك» يناجي إلهه قائلا : « لأن الهاوية
لا تحمدك . الموت لا يسبحك لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك »
(أشعيا ٣٨ : ١٨) فبعد الموت لا شيء هناك غير أرض السكوت . .
أرض النسيان . . الأرض التي تهيم فيها أشباح الموتى منفصلة عن الله وعن
التناس . .

على أننا نجد في مواضع أخرى ، لمحات من إشراقة الإيمان ، في ليل هذه
العقيدة المظلمة . ففي المزمور السادس عشر نقراً : « لأنك لن تترك نفسي
في الهاوية لن تدع ثقلك يرى فساداً . . أمامك شبع سرور . في يمينك
نعم إلى الأبد » . . وفي مزمور آساف الشهير (٧٣ : ٣ ، ٢٤) . يهتف
المرنم « لكني دائماً معك . أمسكت بيدي اليمنى . برأيك تهديني وبعد إلى
مجد تأخذني » . هنا نستمع إلى نغمة الثقة ، أننا إن كنا حقاً في شركة مجيدة
مع الله ، فلن نستطيع أي شيء أن يحطم هذه الشركة حتى ولو كان هذا
الشيء هو الموت نفسه . فشركة الإنسان مع إلهه ، لا بد وأن تدوم وتدوم ،
وتتحدى الزمن .

ولعل أقوى صيحة في هذا المجال ، تتصاعد من قلب «أيوب» في تجربته
المررة القاسية ، فهو في وسط مرارته وأحزانه ، ومرضه . ويأسه ،
ونحدي الأصدقاء له ، يتخذ من رجائه الحي في الخلود ، أجنحة يرتفع بها
فوق مستوى متاعبه فيهتف :

« أما أنا فقد علمت أن وليي حي ، والآخرة على الأرض يقوم
وبعد أن يفني جلدي هذا . وبدون تجسدي أرى الله »

هنا في «أيوب» ، ترى بذرة الإيمان اليهودى فى الخلود . .

ولقد كان التاريخ اليهودى تاريخ مأس ، وسبى ، وعبودية ، وهرطقة
ومرارة ، ومع ذلك فقد كان يقين ذلك الشعب بأنه شعب الله المختار ،
هو الذى يرفعه فوق كل الظروف والمتاعب .

وإذا كان العالم الحاضر لا يقر ذلك ، فالعالم الآتى . . . الدهر الآتى ،
لابد وأن يصحح الأوضاع . هكذا آمن ذلك الشعب . فإن كانت مشاريع
الله لابد وأن تتم . وإن كانت مواعيده لابد وأن تكون أمينة وصادقة ، وإن
كانت عدالته لابد وأن تكمل ، وإن كانت محبته لابد وأن تصل إلى أقصى
درجات عمقها ، واكتفائها ، فلا بد بالتالى أن يكون هناك عالم آخر ، وحياة
أخرى ، يعوضان عن هذا العالم الحاضر ، وعن هذه الحياة الحالية . وكما قال
أحد الكتاب «ان لغز الوجود سوف يكون أقل تعقيدا ، حينما نصل إلى
اليقين الكامل ، بأن الحياة الحاضرة ليست هى الفصل الأخير فى دراما الإنسانية ،
مثل هذا الأحساس العميق ، هو الذى دفع العبرانيين إلى الإيمان بوجود
حياة قادمة .

صحيح أنه فى عصر المسيح ، كانت هناك طائفة الكهنوت ، أو طائفة
الصلوقيين . وأولئك ما كانوا يؤمنون بأى نوع من الحياة بعد الموت .
ولكن القرينيين ، وجميع الشعب ، كانوا يؤمنون بالخلود . ومن أقوال
القرينيين أنه ساعة الموت يتعاقب العالمان : عالم الزمن وعالم الأبد ، وحينما
تنتطق الروح تعان على التو مجد الله . لذلك فهم ليسوا بالموتى . لكنهم أحياء
عند ربهم ينعمون .

إنه «مراثيا» حينما ردت على كلمات المسيح بهذا الجواب ، كانت تنادى
بأسمى ما وصل إليه إيمان أمة عن الحياة بعد الموت . .

القيامة والحياة (تابع)

(يوحنا ١١ : ٢٠ - ٢٧)

وحينما أعلنت «مرثا» إيمانها بالعقيدة اليهودية عن الحياة القادمة ، سطع «يسوع» على ذلك الإيمان بنور جديد زاده ضياء وإشراقا ، وأعطاه معنى جديدا .
فنادى لها ، والأجيال جمعاء هاتفا :

« أنا هو القيامة والحياة . من آمن بي ولومات فسيحيا . وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد » . . ترى ماذا يعنى رب الحياة بهذه الكلمات ؟ .

صحيح أننا نقولنا القاصرة ، لن نصل إلى مدى عمق المعاني المستترة خلفها ، ولوقضينا العمر كله في البحث ، والدراسة ، فلن نصل إلى مضمونها . فلن نعلنها لنا ولن تكشفها إلا أنوار الأبد . ولكن دعنا نحاول قدر ما نستطيع .

شيء واحد ينبغي أن نضعه في أذهاننا قبل أن نبدأ بحثنا : أن «يسوع» لم يكن يعنى على الإطلاق الجانب المادى من حياتنا الجسدية ، فليس صحيحاً أبداً أن من يؤمن بالمسيح لا يذوق الموت ، ولا يتجرع كأسه .

فالمؤمن بيسوع شأنه شأن سواه ، يجتاز مياه البحر الأسود ويغوص في لججه ، وتطغى عليه تياراته . إن عجلة الزمن لا تتوقف بالنسبة له . فيمر من الحداثة إلى الشباب ، ومن الرجولة إلى الهرم ، فالشيخوخة ، فالمرض والموت .

لذلك علينا أن نتجنب كل تفسير مادى لقول «يسوع» هذا . إذاً ماذا كان قصد السيد من هذا القول ؟ .

١ - أولا ، كان «يسوع» يقصد بقوله هذا ، الموت الروحي ، الموت بالذنوب والخطايا . إنه يقول . . « ولو وصل إنسان إلى حد الموت في قبر خطاياه وآثامه . . ولو تغلغل فيه عاداته الرديئة فأصبحت كمرض الموت يخنق أنفاس الحياة فيه . . . ولو انقطع عن عالم الأحياء بالمعنى الروحي ، فمرلته خطيئته وعاره بعيدا عن الأحياء ، ولو فقد كل مقومات الحياة النقية الطاهرة التي تدعى بالحق حياة ، وفاحت منه رائحة الموت والفساد ، فأنى استطيع أن اعيد إليه الحياة ، والحياة الأفضل . هذا هو وعد «يسوع» الصادق . . وهكذا ينادى ويدعو موتى الذنوب والخطايا ، لأنه لهذا جاء . بل هذا حق يشهد له منطق التاريخ والاختبار . .

محدثنا أحد الكتاب بمثل حديث عن مجرم بابائي يدعى «توكيشي ايشي» . أما «إيشي» هذا فقد اغتال العديد من الضحايا ، من الرجال ، والنساء ، وحتى الأطفال ، ومثل بأجساد ضحاياه بوحشية لا يتصورها عقل . أى إنسان كان يعترض طريقه ، كان الأيسر عليه أن يزججه من طريقه بطعنة خنجر . وأخيراً ألقى القبض عليه ، وتمت محاكمته ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام . ولم يبق سوى تنفيذ الحكم . وبينما كان في السجن ، قامت بزيارته سيدتان كنديتان لتحدثا إليه عن «يسوع» . وبطبيعة الحال ما كان يستشع لإثبات أن يتدخل إلى مجرم خطير نظير هذا الإنسان ، فكانتا تتحدثان إليه من خلال القضبان الحديدية .

أما هو ، فكان مفرس كان يزجر في قفصه الحديدى ، وهو يلعن الله والناس . وأخيراً لم تجد السيدتان جدوى من محاولة الحديث إليه ، فقدمتا إليه الإنجيل . فألقى به على الأرض وداسه بقدميه . غير أنه يبدو أنه تناوله بعد ذلك ، حينما صار بمفرده ، وراح يقلب صفحاته ، ثم استهواه ، فانغمس

في قراءته حتى وصل إلى قصة الصليب ، ورنث في أذنيه كلمات المسيح ، وهو يطلب الغفران لصالبيه « ياأبتاه اغفر لهم لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون » . والآن لندع « إيشي » المحرم سفاك الدماء ، يتحدث إلينا في اعترافاته . .

« توقفت عند هذه الكلمات . وشعرت وكأن خنجرا حاداً يمزق قلبي . . وكأنني بالمسامير التي دقت في يدي المسيح وقدميه ، تدق في صدري . ماذا أقول ؟ هل هي محبة المسيح الفائقة ، هي التي مزقت فؤادي ؟ أم تنازله العجيب ، وصفحته ؟ أم ماذا أسميه ؟ لست أدري . إنما أعلم شيئاً واحداً : أن غفرانه أصبح يشملني أنا المحرم . وأن قلبي القاسي ، قد ذاب كالشمع أمام نار محبته . وآننى عرفت القلب الجديد فيه »

وحينما وافي آخر يوم في حياة « إيشي » ، وأنت الساعة الحاسمة ، وفتح السجان الباب الحديدى ، ليمضى المحكوم عليه بالموت إلى مصيره ، لم يجد أمامه وحشا مزجراً ، ولا مجرماً يلعن ويجدف ، بل وجد إنساناً وديعاً كالحمل ، يتسم ابتسامة الرضى والسلام .

لقد أعاده المسيح الحى إلى مجمع الأحياء بعد أن كان كالمجنون يعذب نفسه في قبور جرائمه ، ووحشيته وآثامه .

هذه حقيقة لا تنكر ، فلا حاجة بالإنسان أن يكون له منطق درامى ليصورها ، أو ريشة فنان مبدع ليضفى عليها جمالا

نعم . قد تصل الأنانية بالإنسان إلى الحد الذى يصبح فيه قلبه جامدا كالصخر ، ويصبح الصخر جزءاً منه ، فلا يرق لحاجة المحتاجين ، ولا يتألم

لآلام المنسحقين ، . . قد تصل به الأثمانية إلى جمود الموت أمام مشاعر الآخرين . .

وقد يصل الإنسان إلى حضيض المهانة والعار ، فتموت في أعماقه أحاسيس الكرامة الآدمية ، ويأتى من الأعمال المشينة ما يحجل الحيوان من القيام به . . . وقد يندفع الإنسان في ضيقه النفسى ويأسه . فتظلم الشمس في عينيه في وقت الظهيرة ، ويصبح في عداد الموتى . . وقد يصنع من ماله ومقتنياته صنما يبخر أمامه صباح مساء ، ويحرق زهرة العمر في التعب له ، فإذا أتى «يسوع» في دائرة الموت هذه . . في دائرة أولئك وهؤلاء ، فإنه يبعث الحياة في وادى العظام اليابسة ، فيقوم الموتى ويبعثون .

إن ملايين الملايين خلال حقب التاريخ المختلفة ، تستطيع أن تشهد أنها نالت الحياة على يديه . فما ضعفت لمسة «يسوع المسيح» يوما ، وما تناقصت قوته . . .

٢ - ولكن «يسوع» كان يشير أيضا إلى الحياة القادمة . لقد أدخل في قاموس البشرية كلمة جديدة هي الإنتصار على الموت . فلم يعد الموت بعد ذلك الشبح الرهيب ، الذى ترتعد أمامه القلوب خوفا وفزعا . ولم يعد صاحب الكلمة الأخيرة والفصل الأخير في حياة الإنسان . قال «ادوارد المعترف» في لحظاته الأخيرة للذين حولوه : «كفكفوا دموعكم فلا تموت هناك ، بل إنتم حينما أغادر أرض الموت ، ستشرق على فى «المسيح يسوع» شمس الحياة» ، فى «أرض الأحياء» .

ما أروع التعبير عن العالم بأرض الموت . . . إننا نسمى عالمنا عالم الأحياء ، ولكن ما أحرانا بأن نلقبه بوادي ظلال الموت . ولكن أروع منه ذلك اليقين الأسمى الذي يملأ قلوبنا . بأننا حينما نغادر هذه الدار ، فإننا لانهجر أرض الأحياء ، بل نهاجر إلى أرض الأحياء في المسيح يسوع . في المسيح وحده وليس سواه ، لنا كل الثقة في الانتصار على العدو البشرية الأخير . . . لنا كل الثقة أننا لانتترك أرض النور إلى وادي الظلام ، بل نترك أرض الغروب ، إلى أرض الشمس المشرقة .

وكما قالت « ماري وب » « إننا لاترى في الموت سوى بوابة تفضى إلى الحياة . وبكل ماتحملة الكلمة من معان نوقن في أنفسنا أننا لسنا في طريقنا إلى الموت ، بل إننا في طريقنا إلى الحياة . . الحياة الأسمى والأجد بما لا يقاس . .

كيف يمكن أن يحدث هذا التغيير الجذري في حياتنا ، وأفكارنا ؟ حينما نضع كل ثقتنا في المسيح «يسوع» . . حينما نؤمن به كل الإيمان . وماذا نعني كلمة نؤمن ؟ أن نؤمن بيسوع ، معناه أن نقبل كل ما قاله «يسوع» ، كالحق الأوحد الأجد ، الذي نعتنقه في حياتنا ، ونبنى عليه بنود الحياة ، في ثقة كاملة . حينما نعمل ذلك ، ندخل في شركة لها جانبان :

١ - الجانب الأول ، يتضمن شركتنا مع الله . حينما نؤمن بأن الله هو كما أعلنه لنا «يسوع المسيح» البار ، وكما أعلن لنا فيه ، نتأكد تمام التأكيد ، بأن إلهنا هو قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، إله الفداء . وعندما ينتهي خوف الموت ، لأن الموت لن يستطيع أن يواجهه محب البشرية الأعظم .

٢ - أما الجانب الثاني، فيتضمن « شركة » جديدة مع الحياة نفسها.
حينما نقبل طريق « يسوع » للحياة، حينما نسلم نفوسنا بالتمام بين يديه، ونستودع
قواتنا لديه، ونتخذ وصاياه ناموساً لنا... حينما نوقن بأنه معنا. يعيننا في
الحياة، الحياة التي نريدنا هو أن نحياها، عند ذاك يضيف هذا نورا جديداً
على حياتنا. فتحيط بها هالة من الجمال الجديد، والقوة الجديدة، أو بمعنى
آخر، تصبح الحياة تستحق أن نحياها... تصبح جميلة... نافعة...
نقية، بحيث لا نتصور أن الموت يهاجمها. وينهيا ويتركها ناقصة مبتورة.
« الخلاصة » أننا حينما نؤمن بيسوع، ونقبل ما ينادى به عن الله، وعن
الحياة، نتخبر بالفعل بركات القيامة، لأننا نتحرر من مخوف أولئك الذين لا إله
لهم ونتحرر من فشل الحياة الراضية تحت سلطان الخطية، ونتحرر من عقم
الحياة التي بلا مسيح، وتقام أجسادنا من موت الخطية: وتصبح أكثر
غنى حتى أنها لن تموت، لأنها سوف تجد في الموت انتقالا إلى حياة أسمى،
وأجيد.

عواطف يسوع

وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أَخْتَهَا سِرًّا
قَائِلَةً الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ وَهُوَ يَدْعُوكِ . أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا
سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعًا وَجَاءَتْ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ
قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاقَتْهُ فِيهِ
مَرثًا . ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ
يُعْزُونَهَا لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلًا وَخَرَجَتْ تَبِعُوهَا
قَائِلِينَ إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِي هُنَاكَ . فَمَرْيَمُ لَمَّا
أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ
قَائِلَةً لَهُ يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي . فَلَمَّا رَأَاهَا
يَسُوعُ تَبْكِي وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ أَنْزَعَجَ
بِالرُّوحِ وَأَضْطَرَبَ

(يوحنا ١١ : ٢٨ - ٢٣)

وأسرعت «مرثا» إلى البيت لتخبر شقيقها ، بأن «يسوع» قد جاء إلى بيت
العناء . ولكنها أسرت لها بهذا الخبر وحدها ، حتى لا يعلم الذين حولها

بمحضور السيد ، لأنها كانت تريد أن يلتقي «يسوع» بها سراً ، ويتحدث إليها بكلمة أو كلمتين ، قبل أن تعرف الجموع بوجوده وتسرع إليه ، وتتكدس حوله . ولكن حينما أبصرها المعزون ، وهى تهب مسرعة إلى الخارج ، قالوا فى أنفسهم إنها ذاهبة إلى القبر لتبكي هناك . فقد جرت العادة أن تقوم النسوة بزيارة قبر الميت ، خلال الأسبوع الأول من دفن جسده للبكاء هناك .

وتحدثت «مريم» بنفس الكلمات التى هتفت بها شقيقتها «يا سيد ما كان ممكناً أن يحدث ما حدث ، لو أنك أسرعت بالحضور ، وكنت ههنا . لو كنت هنا ، ما كان ممكناً أن تنتهى حياة شقيقى العزيز »

ورأى يسوع مريم تبكى . ورأى الذين حولها من اليهود يسكبون الدموع . ولم تكن تلك الدموع هادئة رزينة ، بل كانت ممزجة بالصراخ ، والعيول ، وقرع الصدور ، ولطم الحدود . وما زالت مثل تلك العادات سارية فى شرقنا العربى ، لأننا نظن أننا بكثرة دموعنا ، وعويلنا ، وتعدد آثار الراحل ، نقدم له اكراماً أعظم . .

ورأى «يسوع» هذا ، وكما تقول الترجمة المعتمدة الانجليزية تحركت روجه فيه . أما هذه الكلمة فهى ترجمة لكلمة يونانية معقدة هى «إمبر ماستاى» . وقد وردت نفس الكلمة ثلاث مرات أخرى فى العهد الجديد . فى إنجيل متى (٩ : ٣) ، نقرأ حادثة الأعميين اللذين نالا الشفاء على يدي يسوع ، «فأنتهرهما» ألا يقولوا لأحد : وفى إنجيل (مرقس ١ : ٤٣) نقرأ عن الأبرص الذى شفى بلمسة «يسوع» «فأنتهره» وأرسله للوقت ، وأمره ألا يخبر أحداً . وفى نفس البشارة ترد نفس الكلمة عن الجموع (مرقس ١٤ : ٥) حينما

كان «يسوع» في بيت سمعان الأبرص ، وجاءت امرأة ومعها قارورة طيب ناردین كثر الثمن ، فسكبته على رأسه ، وكانوا يؤنبونها « لأنهم كانوا يظنون أن مثل هذا العمل اتلاف لا مبرر له .

ومن الملاحظ أنه في كل واحد من هذه المواقف الثلاثة ، تشير الكلمة إلى الانتهاز المصحوب بالغضب أو التأنيب . إنها تعني التوبيخ ، أو النهي بقسوة . وهكذا يتراءى لبعض المفسرين أن يفسروا الكلمة في فرصة لقاء المسيح باليهود الباكين في جنازة بيت عنيا ، على نفس الأساس ، فيقولون ان السيد قد انزعجت روحه بالغضب المقدس ، ولماذا انزعج غاضبا ؟ ربما لسببين على الأقل . أما السبب الأول فقد كان الدموع التي يسكبها المعزون ، ومظاهر الحزن التي تبدو عليهم ، والمسرخة الباكية التي يقومون بأدائها . لقد كان «يسوع» يعرف ان كل هذه المظاهر ليست سوى رياء . فلا حزن هناك في قلب أحد ، ولا مواساة في دموع إنسان . وكما يقول المثل الدارج : النار لا تحرق إلا من يمسك بها . لقد كانت مريم ومرثا ، هما المكتويتان بنار الحزن وحدهما . أما هذه المظاهرة الجوفاء ، فقد كان يعرف أنها بدافع الكذب والرياء .

ولكن إن كان «يسوع» قد انزعج غاضبا ، بسبب دموع المعزين لأنها دموع التماسيح ، فماذا نقول في دموع الشقيقتين ؟ هل كانت دموعهما غير حقيقية ؟ ومن الجانب الآخر ، هل من المنطقي أن كل المواسين كانوا مراثين ؟ ألم يوجد فيهم من رقق قلبه لمأساة اختين لا عائل لهما إلا ذلك الشقيق الذي أطبق عليه القبر ؟ إن كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نبحث عن تفسير آخر للقول « انزعج بالروح واضطرب » .

يقول « د. موفات » في ترجمته الشهيرة : أن « يسوع » « أثير في الروح »
وهي كلمة قريبة جداً من ترجمتنا العربية « انزعج بالروح واضطرب » .
ولكن كلمة أثير أضعف من أن تعلن لنا حقيقة ما حدث . وهناك الترجمة
الأمريكية المنقحة^(١) ، وهي لا تختلف كثيراً في تعبيرها عما أسلفنا : اضطرب
« يسوع اضطراباً عميقاً في الروح » “Jesus was deeply moved in spirit”
على أن هناك ترجمة حديثة^(٢) أخرى تورد هذا التعبير على النحو التالي
« استسلم يسوع لحزن عميق للوحة جعلت جسده يختلج » . هنا نقرب من
المعنى المقصود ، ولا نقول هذا اعتباطاً ، بل استناداً إلى معان للفعل في
الأصل اليوناني في الأدب الكلاسيكي القديم . فالفعل « أمبر ماستاي »
يطلق على الحيل حينما تصهل فتهز جوانحها . وكأني بكاتب البشارة
يقصد أن يقول : لقد استسلم « يسوع » لعواطف غامرة من الحزن العميق ،
حتى تصاعدت من أعماقه أنه هزت كيانه .

هنا نرى لمسة من أروع اللمسات ، التي نجدها في الإنجيل عن « يسوع » .
هنا نرى يسوع يتغلغل إلى أعماق النفس البشرية ، يشاركها آلامها وأحزانها
وأفاتها ، ودموعها . وينوب قلبه حزناً مع القلوب الحزينة المنكسرة .

« في حزننا ينوب قلبه أسى لحزننا .

« وكيف لا ؟ وهو رجل الأحران الذي جاز ضيقنا ؟

لكن هناك أكثر من هذا . فكما نعرف ، كتبت البشارة الرابعة لتناقش
العقيدة اليونانية . ولتقدم لها المسيح . ولقد كانت هذه الصورة التي أثبتناها

(١) American Revised Standard.

(٢) Rien هي ترجمة

“He gave way to such distress of spirit as made his body tremble”

آنفا ، عن المسيح المتألم الحزين ، الذى يهتز ويختلج جسده فى حزنه وأشجانه ، والذى يشارك البشرية آلامها إلى أبعد حدود المشاركة ، صدمة كبرى للذين رضعوا لبان الثقافة والفلسفة اليونانية . فان كان «يسوع» قد جاء إلى العالم ليقدم لنا فكر الله ، . . ليظهر لنا فى حياته صورة حية لله ، فالصورة التى يثبتها البشير هى أبعد ما تكون عن تصورهم ، بل هى صدمة كبرى لمثلهم وأفكارهم عن الله العظيم . لقد كانت أول صفات الألوهية فى نظرهم ، ما أطلقوا عليه لقب «أبائيا» . والكلمة هنا ليست مرادفة للصفة المعروفة فى الإنكليزية «أبائى» (apathy) ومعناها الجمود أو عدم الاكثارات لآلام الغير ، ومشاركتهم أحزانهم ، بل إنها كانت تصل إلى أبعد من هذا . لقد كانت تعنى عدم القدرة على التعاطف مع البشر ، أو عدم إمكانية الله أن يعرف ما هى مشاعر البشر ، ويشاركهم أحزانهم أو أفراحهم . كيف يمكن لليونان أن يقبلوا هذه الصورة عن الله ، وأن يلصقوا بالله صفة التعاطف مع البشر ؟ إن التعاطف صفة من صفات البشر واختبار من اختباراتهم .

— هكذا كان منطقهم — إن كنا نشعر بفرح الغير أو بحزنهم ، إن كنا نبتهج لسرورهم ، وبالتالي تدمع عيوننا مع عيونهم الباكية ، فمعنى هذا أننا تأثرنا بهم ، وضعفنا أمام هذا التأثير ، فتسلط علينا ، فاستسلمنا له ، وهكذا خرجنا عن طورنا فى أفراحهم ، وخرجنا عن الطور أيضاً فى أحزانهم . أى أننا بالتالى أصبحنا أضعف منهم ، فنحن فى مركز أقل ..

أما الله فإنه لسمى من أن يهتز لهزاتنا فيفرح لفرحنا ، أو يتألم لحزننا . فلا أحد يستطيع أن يهبط بإله ، إلى مستوى أحاسيس البشر . لقد كان الإغريق يؤمنون بإله أو آلهة تعيش فى محيطها العظيم الذى يسمو على محيط البشر .

ومستواها الذى يرتفع فوق مستوى البشرية . لقد كانوا يؤمنون بآلهة
لا مشاعر لها .

ولكن ما أبعد ذلك الفكر عن الصورة التى قدمت لنا فى « يسوع المسيح » .
هنا نرى فى آلام « يسوع » ، اشتراك قلب الله فى آلام البشر وأحزانهم . هنا
نرى فى دموع « يسوع » ، وأنيته ، وكيانه المختلج بالحزن ، إلها ، فى كل
ضيقتنا يتضايق ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

إن « يوحنا » حيناً أمسك بريشته ، وممزج ألوانه الرائعة ، قدم لنا على
صفحات بشارته الخالدة ، صورة جديدة كل الجدة ، عن إله المحبة والقلب
الكبير الذى وأعظم دما قدمه « يسوع » للبشر ، صورة إله يهتم بآلامهم ،
وأحزانهم ، ندود دموعهم .

النداءُ الذى يوقظ الموتى

وَقَالَ أَتَيْنَ وَصَعْتُمُوهُ . قَالُوا لَهُ يَا سَيِّدُ تَعَالَي وَانْظُرْ .
بَكَى يَسُوعُ . فَقَالَ الْيَهُودُ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ .
وَقَالَ بَعْضُ مِنْهُمْ أَلَمْ يَقْدِرْ هَذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الْأَعْمَى
أَنْ يَجْعَلَ هَذَا أَيْضاً لَأَيِّمُوتُ

فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضاً فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ .
وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ . قَالَ يَسُوعُ ارْفَعُوا
الْحَجَرَ . قَالَتْ لَهُ مَرْتَا أُخْتُ الْمَيِّتِ يَا سَيِّدُ قَدْ أَنْتَنَ لِأَنَّ
لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ
أَمْنْتَ تَرَيْنَ مَجْدَ اللَّهِ . فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيِّتُ
مَوْضُوعاً وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ أَيُّهَا الْآبُ
أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي . وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ
حِينٍ تَسْمَعُ لِي . وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ .
لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي . وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ

عَظِيمٍ لِعَازَرُ هَلُمَّ خَارِجاً . فَخَرَجَ أَلْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ
مَرْبُوطَاتُ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ . فَقَالَ لَهُمْ
يَسُوعُ حُلُّوهُ وَدَعُّوهُ يَذْهَبُ

(يوحنا ١١ : ٣٤ - ٤٤)

وهكذا نأتى إلى ختام المنظر . هنا نرى « يسوع » بعنصره الألم اعتصاراً
للمرة الثانية ، مشاركاً المتألمين فى آلامهم .

وكما أسلفنا فى السطور السابقة ، كانت الجملة القصيرة التى
أوردها البشير « بكى يسوع » صدمة قوية للعقلية اليونانية ، إذا كانت بشارة
يوحنا تقدم لنا صورة الله فى المسيح . فها هو ابن الله الحى ، صورة الله
المتجسد . . رسم الله وجوهه ، يبكى متألماً كالضعيف - صورة فوق
مستوى العقلية اليونانية ، وحتى يتصور القارئ المنظر كله ، لا يضيره أن نقدم
له صورة المقابر فى فلسطين ، وهى لا تختلف كثيراً عن صورة المقابر فى
الشرق ، سوى أنها منحوتة فى الصخر ، أو متخذة فى كهوف طبيعية داخل
الصخر . وكان الكهف عادة لا يزيد طوله عن ستة أقدام ، فى عرض
تسعة أقدام . أما ارتفاعه فهو فى العادة عشرة أقدام .

فى مثل هذه المقبرة ، كانت هناك ثمانية رفوف منحوتة أيضاً فى الصخر ،
أى أن القبر كان يتسع لثمانى جثث . على الجانب الواحد ثلاثة رفوف ،
يقابلها من الجانب الآخر مثلها ، وفى أقصى الداخل مواجهها للمدخل يوجد
اثنان . على هذه الرفوف كانت توضع جثث الموتى .

وكانت جثة الميت ، تلف فى ثوب واحد من كتان نقى . أما البدان

والقدمان ، فكانت تربط بشرائح من الكتان ، تلف عليها في طيات . أما الرأس ، والوجه ، فكان يلف بفوطة أو منديل .

أما المقبرة فلم تكن لها أبواب ، لكن أمام المدخل كان ينحت مجرى ، يدرج فيه حجر دائري يغلق باب القبر تماما .

طلب «يسوع» من الذين حوله ، أن يدرجوا الحجر عن القبر . وظنت مرثا أن السيد يريد من فتح القبر أن يتملى برؤية حبيبه للمرة الأخيرة ، قبل أن يتحلل جسده . و أثارها هذا التصرف . فماذا في رؤية جثة ميت متعفن له أربعة أيام في القبر ؟

وهكذا قالت ليسوع : « ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام في القبر » . ولقد كان اليهود يعتقدون أن أرواح الموتى ، تحوم حول الجثة مدة أربعة أيام كاملة ، محاولة أن تصل إلى الجسد وتدخل فيه . ولكن بعد هذه الأيام الأربعة لا يستطيع الروح أن تتعرف على الجسد الذي كانت تقطنه ، بسبب التغيرات التي تحدث فيه .

وأخيرا يقول رب الحياة للميت المسجون في قبره ، الملتف المقيد بأكفانه ، ويناديه : « لعازر هلم خارجا » . .

وأصغى إليه ، فهبت عليه . نسأئمه . . . فاستعاد الحياة .

وتحرك الميت من مرقده ، وجلس في موضعه ، وحاول أن يقوم من مكانه متعثراً في أكفانه – معجزة لم يكن ممكناً أن تتم إلا على يدي رب المجد . . رب الحياة والخلود . وعندئذ أمر السيد من حوله قائلا . . « حلوه ودعوه يذهب » .

وهناك بعض اللوحات نحب أن نثبتها هنا . .

١ - إن «يسوع» قبل القيام بمعجزته ، تقدم بصلاته إلى الآب . فالصلاة تصنع المعجزات ، وكما يقول « بروفيسور جوديه » اللاهوتي المعروف « ما المعجزات إلا صلوات مستجابة » .

٢ - ولقد كان هدف «يسوع» من المعجزة ، هو مجد الله الآب . فلم يقيم بها لمجده هو . ونحن نرى «ايليا» في معركة الشهيرة مع أنبياء البعل يصلى قائلا : « استجبني يا رب استجبني ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله » (ملوك الأول ١٨ : ٣٧) . على هذا القياس ، فإن المعجزات التي قام بها «يسوع» كانت تتم عن طريقه لمجد الله الآب .

وما أعظم الفارق ، بين الدافع الذي كان يدفع يسوع ، للقيام بمثل هذه الأعمال العظيمة ، وبين الدافع الذي يدفعنا للعمل والجهاد ؟ فنحن نعمل في قوتنا ، ولحمداً أنفسنا وليس لمجد الله ، أما «يسوع» ، فقد استعان بقوة الله ، وعمل لمجد الله .

وكم كان ممكناً أن يجرى الله عجائب بواسطتنا ، لو أننا أرجعنا له - له وحده وليس لسواه - القدرة والمجد .

إقامة لعازر من الموت

(يوحنا ١١ : ١ - ٤٤)

حاولنا في الصفحات السابقة ، أن نسرّد قصة «لعازر» مع التعليق عليها ، كما وردت في البشارة الرابعة . ولكن هذه المعجزة تنفرد عن سواها من المعجزات ، بأمور تحتاج إلى التأمل والتفكير .

١ — فهناك معجزات إقامة موتى ، ذكرت في غيرها من البشائر . ففي بشارة منى (٩ : ١٨ — ٢٦) نقرأ عن معجزة إقامة ابنة « يائرس » من الموت . ولقد وردت أيضاً نفس المعجزة في بشارتي مرقس ولوقا (مرقس ١٥ : ٢ — ٤٣ ، لوقا ٨ : ٤٠ — ٥٦) ، وتنفرد بشارة لوقا بذكر معجزة إقامة « يسوع » لابن أرملة قرية نايين (لوقا ٧ : ١١ — ١٦) ، وأمام هاتين المعجزتين الأخيرتين يقف الناقدون متشككين ، محاولين أن يقللوا من قيمة عمل المسيح . فهم يقولون ألا يمكن أن تكون حالة ابنة « يائرس » ، وحالة ابن أرملة نايين مجرد إغماء وليس موتاً حقيقياً ؟ ابنة « يائرس » اقيمت على الفراش ، وقد نسلم معهم جدلاً أنها ربما كانت في حالة إغماء شديد . ولكن ما رأى في ابن أرملة نايين الذي كان محمولاً في نعشه إلى المقبرة ؟ يجيبون أن جو الشرق الحار يدفع أهل الميت إلى الإسراع بتجهيزه للدفن ، وحمله إلى مقره الأخير ، خوفاً من سرعة تحلل الجسد . وكم من حالات إغماء حدث فيها الدفن خطأ .

وإذا كانوا يتشككون في هذه المعجزة أو تلك ، فإنهم بطبيعة الحال لن يستطيعوا أن ينكروا حقيقة العمل المعجزي في إقامة « لعازر » ، الذي مضى على موته أربعة أيام كاملة ، ودب الفساد في جسده وتورم ، وتغير لون جلده ، وابتدأ السائل العفن ، يسيل من فتحات جسده — ماذا يقولون في هذه المعجزة ؟

٣ — يقولون إنها لم تحدث مطلقاً ، بدليل أن البشائر الثلاث الأخرى صمتت عن الإشارة إليها ، فكيف يمكن أن يصمت البشائرون الثلاثة عن كتابة ولو ملخص موجز لها ، أو مجرد الإشارة لحدوثها ؟

يجيب بعض المفسرين بأن السبب هو أن « بطرس » ، الذي استقى منه « مرقس » بشارته وهي أقدم البشائر ، لم يكن حاضراً أثناء حدوث المعجزة . وهذا واضح من أن « سمعان بطرس » لا يرد له ذكر في الأصحاحات الخامس والسابع إلى الثاني عشر .

ولكن حتى وإن لم يكن «بطرس» أحد الحضور عند حدوث هذه المعجزة الفريدة ، ألم يسمع بنجرها من غيره من التلاميذ ، وكيف يمكن أن يغفل ذكر معجزة مذهلة نظير هذه ؟

٣ - على أن أعظم صعوبة تكن في هذه المعجزة ، هي أنها ، كما يؤكد «يوحنا» ، كانت السبب المباشر ، الذي دفع رؤساء الكهنة لحبك مؤامرتهم ، والإصرار بالقبض على يسوع ، لإزاحته من طريقهم (يوحنا ١١ : ٤٧ - ٥٤) . أى أن إقامة «لعاذر» من الموت ، كانت السبب المباشر لصلب المسيح - في البشائر الثلاث الأولى ، نجد أن السبب الأساسي للقبض على المسيح حادثة تطهير الهيكل ، فلو كانت هذه المعجزة قد حدثت بالفعل ، وكانت السبب في اشتعال نار العداوة ضد المسيح بصورة رهية ، كان يجدر بالبشائر الثلاثة أن يشرروا إلى ذلك ؟

٤ - ولقد حاول البعض أن يجد تعليلا لذكر هذه المعجزة من الناحية العقلية . .

(أ) فوصلت الغباوة بالكاتب الفرنسي «رينان» إلى حد القول بأن القصة كلها «مؤامرة» دبرها «يسوع» مع الأختين ، ومع «لعاذر» ، فتظاهر «لعاذر» بالموت ، وحمل إلى المقبرة ، حتى أتى «يسوع» وأخرجه ؟ وبالطبع يصح أن تناقش مثل هذا الرأي بعد ذلك .

(ب) وقلل البعض إن «لعاذر» كان في غيبوبة . ولكن إذا جاز لنا أن نتمسك بكل حرف ورد في تفاصيل القصة نرى أن هذا غير معقول ، فتفاصيل القصة واضحة تفند هذا الادعاء .

(ج) وقال آخرون ، إن القصة مثل رائع رمزي ، يدور حول قول يسوع «أنا هو القيامة والحياة» . وهكذا ألفت هذه القصة ، لتوضح هذا القول ولكي

وتصبح إطاراً جذاباً له . ولكن هذا التعليل مسرحي أكثر من اللازم ولا يمكن التسليم به .

(د) وقال غيرهم ، إن القصة ملحقة بمثل الفنى ولعازر (لوقا ١٦ : ١٩ - ٣١) . فنهاية ذلك المثل : « إن لم يؤمنوا بموسى والانبياء ، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون » وهكذا نسجت هذه القصة لتظهر أن «لعازر» قد قام من الأموات بالفعل ، حتى يحذر إخوته من المصير القاسى ، ولكن إخوته - أى اليهود - لم يؤمنوا بما قال بل استمروا فى عناد قلبهم حتى ، يومنا الحاضر.. فاقامة «لعازر» تخرج رمزى ، ونسيج تطورى ، للمثل الذى نادى به المسيح قبل ذلك .

هـ - على أننا نؤمن بالفعل ، بأن المعجزة حقيقية مائة فى المائة . وبغض النظر عن أنها تتفق ومعجزات المسيح ، ولها نظائرها الأخرى ، إلا أن هناك الكثير من الملابس التى تؤكد صحتها .

(أ) فهناك موكب المسيح الانتصارى الذى التقى فيه سكان أورشليم بالسيد وهتفوا له هتافهم للملك متصر . وكيف يمكن أن نفسر هذا اللقاء الخالد ، إلا على أساس حدوث هذه المعجزة التى انتشر ذكرها ، وأصبحت حديث كل لسان ؟

(ب) وهناك منطق التاريخ . فإذالت قرية بيت عنيا تقوم فى موضعها إلى الآن ، قرية تدعى لعازرية إشارة إلى «لعازر» .

(ج) على أن هذا ، لا يفسر لنا ، لماذا صمت البشرون الثلاثة : يقول البعض ، إن البشائر الثلاثة الأولى قد اقتضت تقريباً على ذكر أحداث الجليل ، بينما اتجهت البشارة الرابعة ، إلى تسجيل الأحداث التى واجهت المسيح فى اليهودية ، ومع أننا نجد هنا وهناك ما يناقض هذا الرأى ، إلا أننا نكتفى بالقول بأنه لم يحاول واحد من البشرين عامة ، أن يقدم لنا سجلاً كاملاً وافياً ، عن كل ما صنعه «يسوع» من معجزات

خلال خدمته القصيرة التي بلغت ثلاث سنوات ونصف على وجه التقريب. ولم يكن غرض أحدهم ، أن يكتب لنا تاريخاً مفصلاً عن ذلك . وإنما ذكر كل منهم الأحداث التي حدثت في حياته ، وكانت معروفة لديه ، أو تسلمها شفاهاً من باقي التلاميذ ، أو من العذراء المطلوبة .

(د) على أن أقوى رأي هو الذي نادى به «فردريك فراء» في كتابه «حياة المسيح»^(١) حيث يقول إنه كانت هناك أسباب خاصة عند تدوين البشائر الثلاث الأولى ، لتجنب ذكر تلك المعجزة التي أثار رؤساء الكهنة وجعلهم يدبرون المؤامرات لاغتيال «لعازر» . فقد كان «لعازر» على قيد الحياة . لقد تجنبوا ذكر تلك المعجزة حتى لا يسببوا المتاعب لأختين وادعتين . ويعرفوا حياة إنسان أحبه المسيح لخطر محقق . وهكذا صمتوا عمداً عن ذكر المعجزة .

أما إشارة يوحنا ، فقد كتبت بعد ذلك بوقت طويل . ومن المحتمل جداً أن يكون «لعازر» قد مات موتاً طبيعياً آنذاك . وهكذا لم ير البشير الرابع حرجاً في ذكر تفاصيل تلك المعجزة الخالدة .

٦٠٠ هـ ومهما تقول المتقولون ونادى المتشككون ، فإن الحقيقة الخالدة تبقى : إن هناك معنى روحياً يستتر وراء هذه القصة الخالدة . وهو أن ذاك اللذيق أحياناً يؤثماً جسد ميت ، بعد أن مكث في القبر أربعة أيام فأتى وتخلل ، هو على استعداد أن يحيى في كل حين أولئك الذين ماتوا روحياً ، وفاحت نواته عطايلهم ، وآثامهم . . . إنه على استعداد أن يعيدهم إلى ملء البركة والحياة والقوة .

(١) «الفترة لما بعثنا إلى القرب»

يقول « روبرت مكفى » وقد خدم فترة من الزمن كواعظ فى الجيش الأمريكى ، أنه كان مرافقاً لكتيبة يبلغ تعدادها ألفاً وخمسمائة جندى . كانت عائدة من اليابان للتسريح ، حينما اقترحت عليه جماعة منهم أن يعقد حلقات للدراسة انجيل يوحنا . وقرب نهاية الرحلة وكانوا قد وصلوا إلى هذا الأصحاب ، أسرع إليه بحار وهتف له : « إن كل كلمة فى هذه القصة صحيحة وهى تشير إلى . ثم روى كيف أنه قضى شهوره الستة الأخيرة فى نيران الجحيم . فهو قد انقطع عن دراساته . وانخرط فى سلك العاملين فى البحار . ووصل به المطاف إلى بلاد اليابان ، وانغمس فى الشر لأذنيه . وضاق ذرعاً بالحياة كما ضاقت الحياة به . وأوقعه الشيطان فى ورطة مشينة كان يخشى أن يلاقى بها أسرته . وما كان أحد يعلم عن هذا شيئاً إلا هو والله . وأحس بأنه خسر كل شيء وانتهى أمره ، وأنه الآن ميت . . . ميت لاهياة له بعد ثم يقول . .

« ابتدأت أعود إلى كتابى المقدس ، حتى وصلت فى دراستى إلى هذا الأصحاب ، وقرأت قصة إقامة «لعازر» من الموت . وبكى حينما سمعت صوت السيد يهتف ليس له فقط بل لى أيضاً قائلاً : «هلم خارجاً» . وهكذا عدت للحياة » ، ثم يضيف « والآن أنا أعرف أن هذه المعجزة صحيحة مائة فى المائة ، لأن «يسوع» قد أجراها هنا معى . لقد أعادنى من قبر خطاياى إلى ملء الحياة المباركة » .

وهذا خلاصة الأمر كله . فقد يقول البعض إن معجزة «لعازر» لم تحدث ولكننا نؤمن أنها حدثت بالفعل . لأنها خلال كل يوم ، منذ عشرين قرناً من الزمان ، مازالت تتكرر فى حياة ملايين الملايين من البشر الذين كانوا موتى فى قبور خطاياهم وآثامهم ، وأعادهم «يسوع» إلى الحياة .

مكتبة
AL-AZHAR
ALEXANDRIA

ولكننا نؤمن عن يقين ، أنه لاصعوبة هناك تعترض طريق إيماننا بهذا الحق الخالد الذي نادى به « يسوع » حين قال :

« أنا هو القيامة والحياة . من آمن بي ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد » .

أؤمن بهذا ؟ !

المفارقة الساخرة

فَكثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ وَنَظَرُوا
مَا فَعَلَ يَسُوعُ آمَنُوا بِهِ . وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى
الْفَرِيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ . فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ
الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيُّونَ مَجْمَعًا وَقَالُوا مَاذَا نَصْنَعُ فَإِنَّ هَذَا
الْإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً . إِنَّ تَرَكَنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ
الْجَمِيعُ بِهِ فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا .
فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ . وَهُوَ قَيَافَا . كَانَ رَئِيسًا لِلْكَهَنَةِ
فِي تِلْكَ السَّنَةِ . أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئًا . وَلَا تَفَكَّرُونَ
أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلَا تَهْلِكَ
الْأُمَّةُ كُلُّهَا . وَلَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيسًا
لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ
عَنِ الْأُمَّةِ . وَلَيْسَ عَنِ الْأُمَّةِ فَقَطْ بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللَّهِ
الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ

فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ .

(يوحنا ١١ : ٤٧ - ٥٣)

هذه الفقرة تقدم لنا صورة حية للسلطات اليهودية . فلقد أثارت أحداث بيت عنيا ثائرة اليهود . فأصبح من المستحيل في نظرهم ، أن يستمر « يسوع » في عمله على هذه الصورة . فإن استمر هكذا صانعاً معجزاته ، فلا بد أن الأمة كلها تلتف حوله .. وها هي النذر تبدو . وها هي الجموع تتكدر عليه . ولذلك فلا بد من عمل حاسم .

وهكذا التأم مجمع السنهدريم . وفي ذلك المجمع كان ممثلون عن الكهنة وممثلون عن الفريسيين ، أما الفريسيون فلم يكونوا يوماً ما حزباً سياسياً على الإطلاق . لقد كان كل هدفهم الحفاظ على الناموس ، وحفظ الشعب في دائرته ، وعدم التعدي على حرف واحد فيه . فهم ما كان يهمهم أمر الرومان ، أو ما يحدث في البلاد من هزات سياسية ، طالما كانوا يعيشون حسب الناموس في ملء الحرية . أما الصدوقيون ، فقد كانوا حزباً سياسياً عنيفاً ، و كانوا يمثلون طبقة الكهنوت . . . الحزب الأرستقراطي . والحزب الثرى . إن كل همهم كان في مراكرهم .. في أموالهم .. في مقتنياتهم . ولذلك كانوا دائماً على استعداد ، أن يمدوا يد التأييد لروما ، طالما كانت روما تسندهم وتؤيدهم . ولقد كان كل الكهنة من طبقة الصدوقيين . ومن الواضح أن الصدوقيين هم الذين دبروا إجتماع السنهدريم ، واستدعوا أعضاءه وأنهم هم الذين يسيطرون عليه . أى أن الصدوقيين هم أصحاب الكلمة فيه . وبلسمات سريعة خاطفة يصور لنا « يوحنا » طبيعة أولئك ، وموقفهم من « يسوع » . فهم يمتثلون حقداً عليه ، وبغضاً له . يقول « يوسفوس » عنهم « إن سلوك الصدوقيين فيه وقاحة حتى في تصرف أحدهم مع الآخر ،

وفى تعاملهم مع زملائهم جفاء ، كأنما مع الغرباء . « أنتم لا تعرفون شيئاً .
- هكذا يقول قيافا أى أنكم بله فقدوا عقولهم . هنا نشاهد لمسة من تعالى
الصدوقين وكبريائهم وغرورهم ، بالقياس إلى محبة يسوع وعطفه وحنانه .

الأمر الثانى ، أن هدف الصدوقين الأساسى كان أموالهم . ومركزهم .
وكان خوفهم من «يسوع» أن تؤدى شعبيته إلى التفاف الجماهير حوله .
فيحدث شغب فى الشعب ، يؤدى إلى الثورة على المستعمر . وتكون النتيجة
أن يلجأ الرومان إلى القوة . وربما انتهى الأمر إلى عزل الكهنة من مراكزهم ،
ولم تكن روما على سعة صدرها وتسامحها ، إلا مضطرة فى بعض الأحيان
أن تضرب بيد من حديد على كل من يحاول إثارة الشغب فى إمبراطورية
عظيمة مترامية الأطراف كالإمبراطورية الرومانية . فإن كان «يسوع» سيرفع
الروح المعنوية فى الشعب ، فتتف حول الجماهير ، وتظن أنها تستطيع
بقوته المعجزية ، أن تقف فى وجه الحديد والنار ، فنهاية اليهود دانية ،
ولن يقف الرومان مكتوفى الأيدي ، ونهاية الكهنوت أيضاً والهيكل ،
سوف تكون على كف القدر . - لايمهم إن كان «يسوع» على حق ، أو على
باطل ... لايمهم إن كان هو مسيح الله أو يدعى ذلك . . المهم مراكزهم
جيوبهم . . ممتلكاتهم . المهم أثر هذه الحركة الجديدة التى يتزعمها ذلك
الشاب الجليلى على سلطانهم وأموالهم . لقد كانوا ينظرون إلى الأمور
بمنظار واحد : ذاتهم ومنفعتهم . هكذا كان مقياسهم . وعلى هذا ما كانوا
يهتمون بارادة الله ، أو خدمة الله .

ثم تأتى الحملة الدرامية الساخرة ، التى وقف التاريخ ضاحكاً منها ،
وضحكت معه الأجيال ..

أحياناً يحدث أن تدور على المسرح أمام الجمهور أحداث مسرحية .

وقد يحدث أن ينطق ممثل بجملة ... جملة عارضة لا يدرك معناها ، ولكنها
تحتوى من المعانى أكثر مما يظن ، وأكثر مما يتصور . فجمهور الناظرين
يدرك معناها أكثر مما يدركها هو . وهذا ما حدث بالتمام مع « قيافا » ..

لقد نطق بجملة لم يكن يدرك عمق معناها . . لم يكن يعرف أنها نبوة.
لم يكن يدرك العمق البعيد الذى تنطوى عليه كلماتها . لقد نادى بأنه
خير أن يموت « يسوع » عن الشعب من أن تهلك الأمة بأسرها .

ووافق الصدوقيون على قوله . واهتزت العمائم واللقى ، وما كانوا
يدرون ، أنه لن يمضى على هذه النبوة أربعون عاماً حتى يتحقق ما كانوا
يخشونه .

ومدة أربعين عاماً ، ليست بالفترة الطويلة فى حياة وتاريخ أمة . وهكذا
بجيش جرار حاصر « تيطس » المدينة المقدسة .. فى فرصة أعياد الفصح قام
بمحاصرتها ، حينما تجمع فيها ما يقرب من مليونين من الأنفس البشرية
فهلك منها فى الحصار من هلك ، وصلب منها من صلبه الرومان ، والباقيون
من الشباب ، حملوا أسارى إلى روما . وخرب الهيكل واحترق مجد اليهودية
وحرثت المدينة المقدسة بالمحراث^(١) . ما أعظم الفارق الذى كان ممكناً أن
يتم فى حياة ذلك الشعب ، لو اتخذوا طريقاً آخر غير تضحيتهم بالمسيح .

لقد أراد الكهنة أن ينقلوا الموضع المقدس ، وفى محاولتهم إنقاذه خربوه .
ولقد كتبت بشارة يوحنا حوالى العام المائة بعد ميلاد المسيح ، أى بعد
ثلاثين عاماً من خراب أورشليم . ومما لاشك فيه أن كثيرين كانوا يقرأون

(١) للاستزادة يستطيع القارئ أن يرجع إلى قصة « سقوط أورشليم » للمعرب .

القول الذى أثبتته البشير عن «قيافا» ، وكانوا يضحكون ساخرين ، وصورة المدنة الخربة فى مخيلتهم .

نعم . لقد نطق «قيافا» وهو واقف على مسرح الأحداث بجملته . ولكنه ما كان يدرك أنها نبوة . وما كان يدرك عمق هذه النبوة ، وما كان يدرك أنها نبوة ساخرة ، هزأ منها التاريخ والأجيال . ومع أنها قد تحققت فى موت المسيح عن الأمة بأسرها ليجمع أبناء الله المتفرقين فى العالم أجمع ، إلا أنها تمت بصورة مقلوبة على أورشليم ، وأبناء اليهودية .

تنبأ قيافا بنبوته ، كرئيس للكهنة أمام المجمع اليهودى المقدس . ولقد كان اعتقاد اليهود ، أنه حين يسأل رئيس الكهنة مشورة الله بخصوص مستقبل أمته ، كان الله يتحدث بواسطته ، ويقدم رسالته عن طريقه . أى أنه يصبح فى هذه الفرصة فى مركز نبي . فى سفر العدد نقرأ عن يشوع خليفة موسى الذى أصبح قائداً لبني إسرائيل ، أنه أراه مشورة الله .

فاصطحبه «موسى» إلى «العازار» رئيس الكهنة «فقال الرب لموسى خذ يشوع بن نون .. وأوقفه قدام العازار الكاهن» .. . فيقف أمام العازار الكاهن فيسأل له . . . أمام الرب حسب قوله يخرجون وحسب قوله يدخلون . . . كل الجماعة» (عدد ٢٧ : ١٨ - ٢١) . هنا نرى رئيس الكهنة وسيطاً بين الله ، والناس ، وقناة توصل كلمة الله وأوامره إلى الشعب . وهكذا كان قيافا فى ذلك اليوم . لقد نطق بنبوة ، ولكنه لم يدرك عمقها ، ولم يفهم مداها . لقد كان يقصد أنه من الأيسر أن يضحى بفرد واحد فى سبيل إنقاذ أمة بأكملها . وكان هذا حقاً عظيماً ، ولكن بصورة أخرى ، وبطريق آخر أمجد - إن الله فى مقدوره جل وعلا ، أن يتحدث برسالته عن طريق أى إنسان ، وبأية واسطة ، دون أن يعرف ذلك الإنسان

أوتدرك تلك الواسطة . . في مقدوره أن يستخدم حتى أبواق اللعنة ليوصل حقه للآخرين . كما حدث حينما تقدم « بلعام » بنبواته في القديم ..

ولقد كان مقدراً ليسوع أن يموت ، لا لنجاة أمة واحدة ، ولا عن جنس واحد ، بل عن أبناء الله المتفرقين في العالم أجمع خلال العصور والأجيال - في كتاب نظام الكنيسة المعروف « بالديداكي » أو تعاليم الأثنى عشر رسولاً ، وهو كتاب أثري يرجع تاريخ كتابته إلى القرن الأول للميلاد ، كانت من الأقوال التي تردد عند كسر الخبز : « كما أن هذا الخبز جمع من الحنطة على الجبال ، في هذا الرغيف الواحد ، هكذا لتجمع كنيسة من أقصى المسكونة إلى أحضان ملكوتك » (ديداكي ٩ : ٤) . إن الحنطة التي تكون رغيف الخبز ، جمعت من أكثر من بقعة ، وهكذا سيأتي اليوم الذي فيه تتجمع عناصر الكنيسة وتتوحد في المسيح الفادي الواحد .

يسوع الخارج على القانون

فَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ أَيْضاً يَمْشِي بَيْنَ الْيَهُودِ عَلَانِيَةً
بَلْ مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْكُورَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَرِّيَّةِ إِلَى
مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمُ وَمَكَثَ هُنَاكَ مَعَ تَلَامِيذِهِ

وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً . فَصَعِدَ كَثِيرُونَ مِنْ
الْكُورِ إِلَى أُورُشَلِيمَ قَبْلَ الْفِصْحِ لِيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ .
فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ وَاقِفُونَ
فِي الْهَيْكَلِ مَاذَا تَظُنُّونَ . هَلْ هُوَ لَا يَأْتِي إِلَى الْعِيدِ . وَكَانَ
أَيْضاً رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمراً أَنَّهُ
إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ لِكَيْ يَمْسِكُوهُ

(يوحنا ١١ : ٥٤-٥٧)

لم يكن «يسوع» في حياته مجازفاً يسعى إلى المخاطر بغير داع . لقد كان
على استعداد أن يضحى بنفسه ، ولكنه ما كان ليضحى بها بلا جدوى .

كما أنه لم يكن يخاف الموت لكنه ما كان يسعى إليه حباً في الموت . إن لكل شيء ميقاته لديه ، فلا فضيلة في التهور . وهكذا لجأ إلى قرية تعرف بقرية أفرام ، وتقع في المنطقة الجبلية شمالى أورشليم بالقرب من بيت إيل . ولقد ذكرت بيت إيل ، وقرية أفرام ، معاً في أخبار الأيام الثاني (١٣ : ١١) .

في تلك الأثناء ، كانت الجماهير من كافة بقاع العالم الكائن حينذاك ، تتوافد على المدينة المقدسة ، استعداداً لعيد الفصح . وكان على كل يهودى ذكر بالغ أن يحضر إلى الهيكل في فرصة العيد ، ليقدّم الذبيحة عن نفسه . وكانت المراسم تقضى ، بأن من يشترك في العيد ، عليه أن يكون طاهراً . وكانت النجاسة الطقسية بحسب الفكر اليهودى ، تأتي عن طريق لمس أشياء ، وأشخاص . وعلى كل «نجس» أن يجتاز في طقوس ، وتقديمات وغسلات حتى يصبح طاهراً مؤهلاً للاشتراك في العيد . كانت وصية الناموس .. من يريد أن يشترك في ممارسات العيد ، عليه أن يطهر نفسه ..

وكان التطهير يجرى في الهيكل . وحيث يجتمع اليهود معاً في حلقات ، وتلدور بينهم المناقشات . وبطبيعة الحال كانت تلك المناقشات تدور حول أحداث الساعة .

وكان أكثر النقاش يدور حول « يسوع » ، ووقوفه في وجه رجال الدين ، فقد كانت المواقف الشجاعة تستهويهم . ولكنهم ظنوا أنه تراجع أمام العاصفة ، وأنه لن يحضر إلى أورشليم . فلا حول لهذا النجار الجليلي المتواضع ، يواجه به جبايرة الكهنوت اليهودى ، وعتاولة السياسة الثائرين لقد كانوا يقللون من قدر « يسوع » بالرغم من المعجزات التي أجراها أمام عيونهم ، وبين جموعهم .

فلما وافت الساعة التي حددتها «يسوع» ، صعد إلى العيد. لما وافت الساعة لم تستطع قوة في الوجود، أن تمنعه من الصعود . إن كان هذا هو تدبير الله بالنسبة ليسوع ، فإن يسوع على إستعداد أن يواجه الموت ، والصلب وكل شيء في سبيل إتمام إرادة الله . يحدثنا التاريخ عن «لوثيروس» أنه كان يتحدى الأصدقاء الحذرين ، الذين كانوا ينصحونه بالحكمة والتريث ، والتبصر بعواقب الأمور .

وهكذا استمر في الطريق الذي اعتقد أنه حق ، رغم السكرا دلة ، والبابوات ، والملوك ، والأباطرة ، وكل الشياطين ، وقوات الجحيم معهم ، وحينما استدعى إلى ورمز لي قدم استجوابه ، عن «الإهانات» التي وجهها إلى مفسد المجتمع الكنسي آنذاك ، وحذره الأصدقاء من الفخاخ التي قد تنصب له ، كان جوابه : «سوف أذهب إلى هناك ، ولو كانت ورمز مزدحمة بالشياطين ، بعدد الأشواك المعدنية التي على سطوح المنازل» .

و حينما قيل له إن «الدوق جورج» سوف يقبض عليه أجاب : «سوف أذهب ولو أمطرت السماء دوقات نظير «جورج». هذا لا يعني أن لوثيروس لم يكن يحس بالخوف ، لأننا نعلم بعد ذلك أنه في لقاءه مع أعدائه . وفي أثناء إدلائه بدفاعه أمامهم ، كانت ركبته تصطكان ، وصوته يضطرب ، ولكنه كان يملك من الشجاعة ماتغلب به على مخاوفه . ينبغي ألا يخشى المسيحى عواقب القيام بالواجب . وليكن أخشى ما نخشاه ، هو عواقب عدم القيام بالواجب .

ومن الآيات الختامية لهذا الفصل ، نفهم أن «يسوع» قد أصبح بعد ذلك «طريد» العدالة اليهودية . ولعل السلطات الكهنوتية قد عينت مكافأة لمن يدلى بمعلومات تساعد على القبض عليه . ولعل هذا هو الذى دفع يهوذا

إلى خيانتة المعروفة طمعاً في مكافأة الدم التي نالها . في هذه المرة أتى يسوع إلى أورشليم ، وظل الموت يحيم عليه .. أتى لامتخفا عن عيون الناس ، ولا مختبئاً في بيوت أصدقائه ومعارفه ، بل أتى علانية ، أمام عيون الجميع مجتذبا أنظار الكل — مهما قال الأعداء عن يسوع فينبغي أن يحنوا رؤوسهم لإجلالا وإكباراً أمام هذه الشجاعة النادرة في مواجهة الموت الرهيب .

المحبة المتلفة

الأصحاحُ الثَّانِي عَشَرَ

ثُمَّ قَبْلَ الْفُصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ
عَنِيَا حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ الْمَيِّتُ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ ..
فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً . وَكَانَتْ مَرْتًا تَخْدُمُ وَأَمَّا لِعَازَرُ
فَكَانَ أَحَدَ الْمُتَكَيِّينَ مَعَهُ . فَأَخَذَتْ مَرِيَمُ مَنًّا مِنْ طِيبِ
نَارِدِينَ خَالِصٍ كَثِيرٍ أَلْثَمَنِ وَدَهْنَتْ قَدَمِي يَسُوعَ وَمَسَحَتْ
قَدَمِيهِ بِشَعْرِهَا . فَأَمْتَلَأَ أَلْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطَّيِّبِ . فَقَالَ
وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ الْإِسْخَرِيُّو طَى الْمَرْمَعُ
أَنْ يُسَلِّمَهُ .. لِمَاذَا لَمْ يُبْعَ هَذَا الطَّيِّبُ بِثَلَاثِ مِئَةِ دِينَارٍ
وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ . قَالَ هَذَا لَيْسَ لِأَنَّهُ كَانَ يُبَالَى بِالْفُقَرَاءِ
بَلْ لِأَنَّهُ كَانَ سَارِقًا وَكَانَ الْصُّبْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ
مَا يُلْقَى فِيهِ . فَقَالَ يَسُوعُ أَتَرْكُوهَا . إِنَّهَا لِيَوْمِ

تَكْفِينِي قَدْ حَفِظْتُهُ . لِأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ .
وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ

(يوحنا ١٢ : ١ - ٨)

حتى ذلك الحين ، كان يسوع أقرب ما يكون إلى ختام حياته على الأرض .
إن حقيقة حضوره إلى أورشليم ، للاشتراك في ممارسات عيد الفصح ، كان
عملاً غاية في الشجاعة . فقد أصبح بالفعل في مركز الطريد الخارج على
القانون ، الذي تطالب العدالة به لتقتص منه (يوحنا ١١ : ٥٧) . ولقد
كانت أورشليم مزدحمة بالمعيدين القادمين من مختلف البقاع ، حتى لم يعد
هناك بد من أن يلجأ «يسوع» إلى بيت أحبائه في قرية بيت عنيا ، التي أباح الكهنة
اللجوء إليها رغم أنها خارج دائرة المدينة المقدسة ، وذلك لزيادة الحجاج
المعيدين في تلك السنة .

وحينما جاء «يسوع» إلى بيت عنيا ، ذهب على التو إلى بيت لعازر ، وقامت
الأختان بعمل وليمة له . ولم يقل لنا كاتب البشارة صراحة ، إن «يسوع» قد
ذهب إلى هناك . ولكن يبدو من قرائن الحديث ، أن هذا حدث بالفعل
وإلا فآين كانت تخدم «مرثا» إلا في بيتها ؟ هناك فاض قلب «مريم» بالحب
الغامر لسيدها ، ومعلمها ، الذي أنقذ أخاها من الموت ، وأعادته إلى الحياة .
وكانت تملك قنينة طيب نادر كثير الثمن ، يلقيه البشير بنا ردين خالص . والكلمة
التي ترجمت ناردين ، وردت في بشارة مرقس بلفظ «بستكوس» في
الأصل اليوناني (مرقس ١٤ : ٣) . ومن الغريب أنه لأحد حتى يومنا
الحاضر يعرف على وجه التحديد ، ما هو «البستكوس» أو الناردين .

قال البعض إنه من الأصل «بستكوس» كلمة معناها الأصلي الذي لاغش فيه ، وقال آخرون إنه يأتي من فعل في اليونانية يشير إلى مشروب ، وهذا يعني أن ذلك الطيب كان سائلا وليس متجمدا . وقال غيرهم إن الكلمة تشير إلى علامة تجارية كانت مشهورة في ذلك الوقت ، حتى أنها لا يجب أن تترجم إلا إلى « بستك نارد » كما وردت . وهناك من قال بأنها مشتقة من كلمة « بستاكيو » وهي ثمار الفستق . وأن الطيب كان مستخرجاً منه . على أية حال كان هذا الطيب ثميناً نادراً . بهذا الطيب النادر دهنت « مريم » قدمي المسيح . أما يهوذا الأسخريوطي ، فقد رأى في هذا العمل إتلافاً لامبرر له . فقد كان في الإمكان أن يباع هذا الطيب بثمن غال ، ويوزع ثمنه على الفقراء . ولكن « يسوع » أفحمه قائلاً ان عمل الرحمة مع الفقراء ممكن في كل حين ، لأن الفقراء بين ظهرائهم في كل وقت . ولكن إظهار روح الكرم من نحو المسيح لن يتاح لهم بعد الآن ، لأن وقته منذ الآن مقصر .. في هذه الفقرة نرى لمسات رائعة للشخصيات التي تعرض لها .

١ - فهناك شخصية « مرثا » . إنها دائماً أمام المائدة . . تعد الأطباق ، وتملؤها بالطعام ، وتجهز الخبز ، والفاكهة . هي على الدوام خادمة المطبخ . . إنها سيدة عملية تريد أن تظهر محبتها ليسوع بعمل ما . فهي لاتفهم الجلسة الروحية الهادئة ، وهي لاتدرك معنى الحياة الحاملة التي تحياها أختها . إن دليل محبتها هو عمل يديها . فهي على استعداد أن تعطي لحبيبها ، كل ماتستطيع أن تقدمه .

كم من عظيم في المجتمع ، ما كان مقدراً له أن يرتفع شأوه ويقف على قدميه ، لولا محبة وعناية إنسانة في البيت ، إما كانت ، أو أختا ، أو زوجة . . . إنسانة تضحي براحتها ، وبوقتها . وبمجهودها ، وبصحتها سبيل راحتها وإكرامه .

ومن جهة خدمة «يسوع» نقول ، إننا نستطيع أن نقدم له في خدمتنا لإخوته ، خدمة المطبخ والأوعية واليدين العاملتين في الخفاء ، مثلما يقدم له الآخرون بخدمة الفم ، والتأمل ، والمنبر القوى .

٢ - ثم هناك شخصية «مريم» . و«مريم» فوق كل شئ وقبل كل شئ أحببت «يسوع» وفي محبتها ليسوع نرى صورة مثلية للمحبة الصادقة .

(١) فنرى أولا إسراف المحبة . . كدت أقول إتلاف المحبة . فالمحبة الصادقة ، محبة متلافة ، لا تحسب حسابا لشيء . لقد أخذت «مريم» أئمن ما تملكه وسكبتها سكيناً إكراما ليسوع . إن المحبة لن تكون محبة حقيقية ، إذا كانت تحسب حسابا للنفقة . إنها تعطى كل مالديها . وتأسف لأنه ليس لديها أكثر من هذا الكل .

هناك قصة معروفة ، كنا نقرأها ونحن صغار ، عن إسراف المحبة ، أو المحبة المتلافة ، التي لا تحسب حساب النفقة ولا تقدر العواقب ، وهي للكاتب الأمريكي «أو هنرى» كاتب القصة القصيرة المعروف . أما أحداث القصة فتدور حول عروسين «ديلا وجيم» كانا يجبان أحدهما الآخر للدرجة للعبادة ، وكانا فقيرين لا يملكان الكثير من حطام الدنيا . أما «ديلا» فقد كانت تنبه على صويحباتها بشعرها الجميل الذي يصل إلى خصرها . أما «جيم» فقد كان يفخر بساعته الذهبية التي ورثها عن أبيه . واقتربت فرصة عيد الميلاد . ولم يبق سوى يوم واحد . وراح كل من العروسين يفكر بمفرده في الهدية التي يفاجئ بها شريك حياته . أما «ديلا» فقد ذهبت إلى محلّ الشعور الصناعية لتبيع هناك أئمن ما تملك ، خصلات شعرها الذهبي الطويل ، وبالأئمن الذي قبضته ذهبت ، واشترت سلسلة ذهبية لساعة حبيبها .

أما العريس فقد عاد في مساء العيد ، ووقف واجما في مكانه ، وهو يتأمل شعر عروسه وقد قص إلى ما فوق الرقبة . « ليس لأنى أحبك الآن أقل . . ولا لأن هذا قد أثر على جمالك ، ولكن » هكذا قال بأسى وهو يسلمها هدية العيد ، وكانت عبارة عن مجموعة من الأمشاط النادرة المصنوعة من درقة السلحفاة ، محلاة بالأحجار الكريمة ! وتمالكت نفسها ، وأسرعت لتحضر له هديته : السلسلة الذهبية ، وأمسك بها والدموع تملأ عينيه . . فقد باع ساعته النادرة ليشتري لها مجموعة الأمشاط !

لقد أعطى كل منهما أخاه كل ما يملك ، ولو أنها هدايا لم تقدر العواقب . إن المحبة الصادقة لا تفكر في النتائج حينما تعطى .

(ب) ونرى ثانيا إتضاع المحبة . لقد كان من علامات إكرام إنسان ، أن يمسح رأسه بمسحة الطيب . ونحن نجد المرنم يهتف بروح الإمتنان لحالقه قائلا : « مسحت بالدهن رأسى » . (مزمور ٢٣ : ٥) ولكن « مريم » لم تطمع في مثل هذا الشرف العظيم ، أن تلمس بكفيها رأس المخلص . وهكذا مسحت بالطيب قدميه . لقد كان كل هدفها أن تكرم يسوع . ولكنها لم تحسب نفسها مستأهلة أن تقدم له بيديها هذا الإكرام .

(ح) ونحن نرى عدم شعور المحبة بكرامتها ، إنها لم تعمل حسابا لذلك . لقد مسحت مريم قدمي يسوع بشعر رأسها أمام أنظار الجميع . لقد جرت العادة في فلسطين ، في زمن المسيح ، ألا تكشف المرأة الوقورة عن شعرها أمام الجميع . فحالما تصبح الفتاة عروسا تلتف طيات شعرها ، وتربطه ، فلا يشاهد إنسان شعرها محلولا في مكان عام . لقد كان حل الشعر وتركه سائبا ، دليلا على أن صاحبه امرأة مستهترّة وزانية . ولكن مريم لم تفكر في كل هذا . لقد نسيت

مشاعرها ، وكرامتها ، وحديث الناس عنها . لقد كانت تحب يسوع ،
وفى جو الحب عاشت معه فى ذهول عن أى شئ آخر ، أو أى مشاعر
أخرى .

وهل يجوز لنا أن نتخذ من محبة أهل العالم منلاً لتلك المحبة القدسية
الصوفية ؟ ألم نر حبيبين يسير أحدهما مع الآخر وقد تأبط الواحد ذراع
أخيه ؟ والحديث يحلو ويطول ، والعيون يلتهم أحدهما الآخر ، والحركات
السكرى تبدو واضحة أمام الناظرين ، وهما ، لا يحسبان حساباً لشئ ؟ بل
ألا يحدث أن يتعمد الأثنان إظهار هذه المحبة أمام الآخرين وكأنهما يقولان للناس :
نحن نحب أحدهما الآخر ، وما لكم أنتم ؟ هل وصلنا نحن إلى هذا الحد . .
إلى حد المحبة الذاهلة التى لا تشعر بشئ ؟ هل ارتبطنا بيسوع بهذا الرباط
القوى . وأحببناه هذا الحب ، وحرصنا على أن نعلن محبتنا له أمام الآخرين ؟
أم أننا نخشى حديث الناس ، وأقوالهم ، وانتقاداتهم ؟ لقد أحببت مريم
يسوع بهذا الفيض العميق الذى يغمر المشاعر ، ويغرق الكيان ، ويمتلك
الأحاسيس ، ويترك الإنسان فى ذهول عن كل شئ سوى . . . هذا الحب ؟

(د) ولكن هناك شيئاً آخر عن المحبة هنا : تقول الآية « فامتلاً البيت
من رائحة الطيب . . . » ونحن نعرف أن يوحنا البشير حينما يسجل لنا
حدثاً من الأحداث فإنه يرمى إلى معنيين : المعنى الظاهرى ، ومعنى آخر
خفى أكثر عمقاً ودلالة . وهناك الكثيرون من آباء الكنيسة ومن علماء
الكتاب قد رأوا فى هذا القول معنيين :

أما المعنى الخفى فهو أن الكنيسة كلها - وما البيت الذى امتلأ بمحضر
يسوع وبركاته حضوره إلا رمز الكنيسة - وقد امتلأت إلى أجيال الأجيال ،

بذكر محبة مريم العطر ، وتضحيتها التي^١ فاحت كرائحة الطيب . إن العمل الطيب لا يصبح ملكاً لصاحبه فحسب ، بل ملكاً للعالم كله ، إنه يضحى شيئاً ثميناً خالداً لا يستطيع الزمن أن ينتصر عليه أو يمحوه . وما قصص الحب الخالدة إلا أخلد القصص في هذا الكون . .

تطرف المحبة

(يوحنا ١٢ : ١ - ٨)

٣ - على أن هناك أيضاً شخصية «يهوذا الإسخريوطى» ، وحول شخصية يهوذا . . . نلاحظ أموراً ثلاثة .

(أ) فيسوع يضع ثقته فيه ، بالرغم من أن كاتب البشارة ، يؤكد قبل ذلك بوقت طويل أنه عرفه كمسلمه (يوحنا ٦ : ٧٠ - ٧١) . ولعل «يسوع» أراد أن يلمس قلبه بلمسة الحنان ويجعله يستيقظ لنفسه حين عينه جامل الخزانة ، ومدير شئون الجماعة . فهو بهذا العمل ، كأنى به يقول له : «يهوذا» هذا دليل على أنني أحبك . واحتاج إليك ، وأثق بك . فلا تخيب ثقتي فيك . ولقد فشل «يسوع» مع «يهوذا» ، لأن «يهوذا» اختار طريق الفشل - إن أسلم طريق نحاول أن نرجع به أنساناً إلى صوابه ، لا أن نعامله بالريبة والحذر ، بل أن نظهر له أننا مازلنا نضع ثقتنا فيه . لنعامله كأنما ننتظر منه السلوك الأفضل ، وليس السلوك الأرداً .

(ب) ولكن التجربة تراوده . وهنا نرى أحد نواميس التجربة . فلم يضع يسوع تلميذه يهوذا خازناً للهيئة لأنه كان يرى فيه بعض المؤهلات التي تؤهله لهذا العمل التدبيرى . يقول «وستكت» فى تفسيره . .

« إن التجربة تأتي الينا عن طريق مؤهلاتنا واستعداداتنا الطبيعية . . . عن الطريق الذى نكون أكثر تأهلا فيه » . فإن كان هناك انسان أعطيت له موهبة الحكمة فى جمع المال ، فإنه يجرب بأن يرى فى المال الصم الأكبر الذى يعبد . وإن كانت لأنسان مؤهلات المركز والزعامة بين الناس ، فإن التجربة تدفعه للسعى بكل جهده فى هذا السبيل ، وإفناء عمره وجهوده للوصول إلى مطامعه . إن كانت لأى انسان موهبة خاصة فإن تجربة الغرور والكبرياء والاندفاع ، تسلب إليه عن طريق إحساسه بهذه الموهبة الممتازة . لقد كانت ليهودا موهبة تدبير المال ، وشغف يهودا بجمع المال بكل الطرق والوسائل ، حتى أضحي فى النهاية لصا وسارقا ، وخائنا لسيدته . فى الترجمة الانكليزية المعتمدة ، يرد عن يهودا القول إنه كان « يحمل » الصندوق ، أو الخزانة . وكلمة يحمل فى الأصل هى « بستازين » . وهى تعنى يرفع ، ويحمل ، وينشل ! والفعل ينشل بالمعنى العربى الدارج ، يختص بحرفة النشالين . وهكذا كان « يهودا » حاملا للصندوق ، وناشلا له أيضا . لقد تسلبت إليه التجربة من حيث ازدهرت مواهبه

(ج) ونرى فى تصرف « يهودا » فى تلك الفرصة ، كيف يمكن أن ينقلب مدلول الشيء فى نظر من يتطلع إليه . لقد شاهد « يهودا » عملا مجيدا نجري أمامه عملا غاية فى الجمال والجلال ، ولكنه لم يره فيه مجدا ولا جمالا ولا جلالا . بل على النقيض من ذلك ، رأى فيه اتلافا لا مبرر له . إن نظرة الإنسان لشيء ما تنبع من أعماقه . . . من الداخل . . . من طبيعته الداخلية . إن كنا نحب إنسانا ، فإن كل ما يقوم به حلو ومجيد فى أنظارنا . ولكن إن كنا نبغض ذلك الإنسان ، فإن أجد خدماته ، وأعماله ، وصفاته ، تصبح فى نظرنا أنانية ، ونفعية . ودناءة . ولقد كان « يهودا » إنسانا يفيض قلبه

بالحقد والمرارة ، فأصبح الحلو مرأً في عينيه . . . إن كانت لنا العين المظلمة الناقدة ، فإننا نرى في النور ظلاماً كثيباً . إن العقل الملتوى يفهم كل شيء قتماً وظلاماً . فإذا وجدنا أنفسنا وقد انسقنا في يوم من الأيام بصورة عكسية ، والعين المعتمدة ترى كل شيء في تيار نقد الآخرين ، وإذا اكتشفنا أننا نبحث عن مثالبهم ، وعبوبهم ، ونرجع كل أعمالهم لدوافع غير نبيلة ، علينا أن نكف عن تقديمهم ، ونتجه بالأولى إلى فحص أنفسنا . فإننا نكون حينذاك أولى بالفحص والنقد ، والاختبار .

(د) وأخيراً نكتشف في العمل الذي قامت به «مريم» حقاً عظيماً عن الحياة : إن فرصة الخدمة قد تأتي أمامنا مرة واحدة لا غير ، وعلينا أن نغتنمها ولا نضيعها . كثيراً ما يراودنا الأحساس والرغبة ، بأن علينا أن نعمل عملاً كريماً ، كبيراً في خدمة الآخرين .

فنؤجله من حين لآخر ، ونرجئه إلى الغد . ولقد لا يأتي غد الخدمة على الإطلاق ، فتضيع الفرصة وتنتهي إلى غير رجعة ، أو يموت الدافع لها في أعماقنا ، ونحمد نداؤها .

إن الحياة غير ثابتة غير أكيدة . ومشاعرنا أيضاً غير ثابتة بل متقلبة . أحياناً نود أن نعمل واجباً ، أو نقول كلمة شكر ، أو نعبر عن محبتنا لإنسان ما . فنؤجل ذلك يوماً بعد يوم . فلما أن نحمد الرغبة الكريمة في أعماقنا ولما أن تنتهي حياة ذلك الإنسان وفي قلبه غصة من نحونا . وهكذا يتبخر الواجب ، وتضيع الخدمة الطيبة ولا يبقى لها مجال .

عن الكاتب الانكليزي والمفكر المعروف «توماس كارليل» ، يروي التاريخ أنه كان يحب زوجته «جان» حبة صادقة ، ولكنه كان عصبياً

سريع القلب ، حتى انها ما وجدت في الحياة معه ساعة هنيئة . وعلى حين غرة فاجأتها المنية - استمع إلى ما يقوله الناقد « ج . ا فرود » عن مشاعره آنذاك . . « أحيانا ، كان يقضى الساعات مع مذكراتها ، وأوراقها . وأحيانا ، كان يدفن رأسه في حاجياتها وملابسها . وعادت إليه الذكريات القديمة ، في إطار أحزانه القاسية الأليمة ، تقض مضجعه ، ولا تدعه ينعم بليلة من النوم الهادىء . وفي لياليه المؤرقة الطويلة ، اكتشف أخيرا أنه كان السبب في متاعبها وآلامها، وربما في موتها المبكر . وبدأت أخطاؤه مهولة رهيبة، تجلس على كرسي القضاء وتدينه .

فكان يصرخ من أعماق ضميره المعلنب . . آه لو أراها مرة واحدة .. مرة واحدة فقط لمدة خمس دقائق ، إذآ لجعلتها توقن انى أحبها . . حبا جمآ . . أحبها حتى في ساعات غضبي وثورنى . ومع ذلك ما عرفت . . ما عرفت يوما هذه الحقيقة . .

لقد كانت شكوى يهوذا أنه كان ممكنا استثمار هذا الطيب في خدمة الفقراء - كما يقول سفر التثنية . . « أعط . . . لأنه بسبب هذا الأمر يباركك الرب إلهك في كل أعمالك . لذلك أنا اوصيك قائلا افتح يدك لأخيك المسكين » (تثنيه ٣٥ : ١١)

ولكن الفقراء لا ينقطعون من الأرض ، ومساعدة الفقراء في وسع الإنسان القيام بها في أية ساعة ، أما تقديم الإكرام ، لمسيح على وشك أن يحتضنه الصليب القامنى ، فينبغى ان يتم قبل فوات الأوان . ينبغى أن نسرع بالقيام بالواجب الآن، فلعل الفرصة لا تأتى على الإطلاق . ولعلنا نقضى بعد ذلك سخابة الغمر ، نعص بنان الندم والحسرة ، حيث لا ينفع الندم ولا تجدى الحسرة .

محاولة لتحطيم الدليل الناصع

فَعَلِمَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِّنَ الْيَهُودِ أَنَّهُ هُنَاكَ فَجَاءُوا لِيَسْ
لِأَجْلِ يَسُوعَ فَقَطُّ بَلْ لِيَنْظُرُوا أَيْضاً لِعَازَرَ الَّذِي أَقَامَهُ
مِنَ الْأَمْوَاتِ . فَتَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ لِيَقْتُلُوا لِعَازَرَ
أَيْضاً . لِأَنَّ كَثِيرِينَ مِّنَ الْيَهُودِ كَانُوا بِسَبَبِهِ يَذْهَبُونَ
وَيُؤْمِنُونَ بِيَسُوعَ

(يوحنا ١٢ : ٩ - ١١)

لقد أصبح قادة اليهود الآن في موقف لا يحسدون عليه . نقول على وجه التحديد طبقة الصدوقيين ، وكل الكهنة كانوا من الصدوقيين . فقد أصبح الموقف بالنسبة لذلك الحزب الكهنوتي متأزماً من جانبيين .

فمن وجهة النظر السياسية ، كان الموقف حرجاً للغاية . فلقد أسلفنا أن حزب الكهنوت ، كان الحزب الارستقراطي الثرى . ولذلك لا نخطيء النظرة إذا قلنا إنهم كانوا ممالئين للمستعمر . يحاولون التوفيق بينه وبين الشعب .

لقد كان حزبهم هو حزب الممالة ومحاولة التوفيق . فهدفهم الأكبر كان الحفاظ على مراكزهم وثرواتهم . وطالما كانوا محتفظين بكرامة السلطة الكهنوتية ، طالما كان لهم سلطانهم على الشعب ، فقد كانوا على استعداد أن يمدوا يد الصداقة للمستعمر .

وقد كان لروما من سماحة الصدر ، وسعة الفكر ، ما يجعلها تهب المستعمرات التي تحت سلطانها ، أكبر قدر من الحرية ، والحكم الذاتي . ولكن عند ظهور أدنى بادرة من الثورة والتمرّد ، كانت تضرب ضربتها القاصمة بلا رحمة ولا هوادة . وكان أقصى الضرر يقع على رؤس المتريعين على كراسي الحكم ، فيتم عزلهم أو محاكمتهم إذا اقتضى الأمر ، لقد رأى الكهنة في «يسوع» بذرة ثورة وشبكة الانفجار بين الشعب أو على حد تعبير أحدهم ، كان الشعب نسيج الكتان المغموس في الزيت المشتعل ، وكان يسوع الشرر الملتب ، ولا بد أن يأخذ النسيج من الشرر فيشتعل ويلتهب .

لقد سرق «يسوع» قلوب الشعب . والتفت الأمة بأسرها حوله . وبدأت صناعة الكهنوت تبور .

وأصبح رجل الشارع ، ينظر في إستعلاء والتواء لصاحب العمامة والحية . فتكهرب الجو ، ولم يكن هناك بد من عمل حاسم يخدم حماسة الشعب ، ويقضى على الفتنة في مهدها ، ويعيد الأمور إلى نصابها — إذن فليذهب «يسوع» إلى غير رجعة .

ومن وجهة النظر الدينية ، كان «يسوع» خطراً لا يبارى على صناعة الهيكل ، وتعاليم الهيكل ، على الأقل في التعليم الأساسي الذي يعتنقه الصدوقيون ويزوجون له أيماناً رواج . فعلى النقيض من الفريسيين لم يكن الكهنة يؤمنون بقيامة الأموات . كانوا يؤمنون بأن حياتنا في هذا الوجود ، وحيثما يسدل الموت ستاره على الإنسان ، يكون هو الفصل الأخير في قصة الإنسان . وها هو يسوع يزلزل كيان هذا التعليم بمناداته بقيامة الموتى . . . ويؤكد تعليمه النظري بواقعة ملموسة محسوسة ، لا سبيل للحضنها أو انكارها ، هي إقامة لعازر من القبر ، وإعادته إلى الحياة . وها هم كثيرون يحجون إلى بيت

عنا جماعات ، ويصبح بيت لعازر قباتهم ، فيرون الميت حياً صحيحاً يسير على قدميه ، ويحرك يديه ، وينطق بشفتيه ، وشقيقته تلازمانه ملازمة الظل ، والبيت الذى كان ينطلق منه صوت البكاء والعويل ، أصبحت ، تنطلق منه ترانيم الفرحة ، وهتافات النشيد — وهكذا يؤمنون ويسجدون . وتتعالى أسهم المعلم الجليلي في انظار الشعب الأمي الذي لا يفهم الناموس .

ماذا يفعل أولئك الصدوقيون في هذه « المأساة » ؟

لقد تأمروا ليقتلوا لعازر ليعيدوه مرة ثانية إلى القبر ، فيختفي الدليل القوي . يذكر أحد الكتاب (١) ، ملاحظة صدرت من سيدتين عجوزتين . في الفترة التي نادى بها « دارون » بنظريته المعروفة عن ارتقاء الإنسان .

وفهمت نظريته المعروفة على أن الإنسان قد تصاعد ونشأ وارتقى من حيوانات أدنى في الرتبة ، حتى وصل إلى صورته الحالية ، قالت هاتان السيدتان إحداهما للأخرى : نأمل ألا يكون هذا صحيحاً . وإن كان صحيحاً دعينا نحمده بكل قوانا — حينما يقرر إنسان أن يقيم الدليل على صحة رأى بتحطيم كل الأدلة التي تناهضه ، فعنى هذا أنه على استعداد لاستخدام الطرق الملتوية لتأييد الباطل .

ولقد كان الصدوقيون على استعداد أن يحمدا الحق في سبيل مصلحتهم عند كثيرين . مصلحة الإنسان هي فوق كل اعتبار آخر . فهي أقوى الدوافع ، يتضاءل دونها كل دافع آخر . في ميدان الحياة الاجتماعية على سبيل المثال ، كثير من الاختراعات النافعة ، التي يمكن أن تؤدي إلى خفض سعر سلعة من السلع ، لا تظهر إلى حيز الوجود ، لا لسبب ، إلا لأن حفنة من

H.G. Wood. (١)

الرأسماليين المتفعين ، الذين تضار مصالحهم بسبب مثل هذا الاختراع ، يشتررون براءة الاختراع من المسئولين ويدفعون المبالغ الطائلة في سبيل ذلك . هذا ما يحدث في غالب الأحيان . فالمصالح الذاتية تقتضى الدهاء والعمل السريع .

ولكى يحافظ الكهنة على مرا كزهم ، ونفوذهم ، كانوا على استعداد أن يزيحوا البرهان الساطع من طريقهم .

وكم هو مؤسف أن يصل الإنسان إلى الحالة التى يخشى فيها الحق ، ويضع نصب عينيه مصالحه ، ومنفعته ، فوق كل اعتبار آخر .

اسقبال ملكى

وَفِي الْغَدِ سَمِعَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْعِيدِ
أَنَّ يَسُوعَ آتٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ . فَأَخَذُوا سُعُوفَ النَّخْلِ
وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ وَكَانُوا يَصْرُخُونَ أَوْصِنَا مُبَارَكُ الْآتِي
بِاسْمِ الرَّبِّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ . وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشًا فَجَلَسَ
عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ . لَا تَخَافِي يَا ابْنَةُ صِهْيُونَ .
هُذَا مَلِكُكَ يَأْتِي جَالِسًا عَلَى جَحْشٍ أَتَانِ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ
لَمْ يَفْهَمَهَا تَلَامِيذُهُ أَوَّلًا . وَلَكِنْ لَمَّا تَمَجَّدَ يَسُوعُ حِينَئِذٍ
تَذَكَّرُوا أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ مَكْتُوبَةً عَنْهُ وَأَنَّهُمْ صَنَعُوا هَذِهِ
لَهُ . وَكَانَ الْجَمْعُ الَّذِي مَعَهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ دَعَا لِعَازَرَ مِنَ
الْقَبْرِ وَأَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ . لِهَذَا أَيْضًا لَاقَاهُ الْجَمْعُ
لَأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ هَذِهِ الْآيَةَ . فَقَالَ
الْفَرِيسِيُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَنْظَرُوا . إِنَّكُمْ لَا تَنْفَعُونَ شَيْئًا .
هُذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ

(يوحنا ١٢ : ١٢ - ١٩)

لقد كان عيد الفصح ، وعيد الخمسين ، وعيد المظال ، هي الأعياد الثلاثة الملزمة لكل يهودى . فى عيد الفصح كان اليهود يقدون من كافة بقاع العالم إلى أورشليم .

فهما بعدت الشقة ، وقلت الإمكانيات ، فقد كان مطمح كل يهودى أن يحج إلى أورشليم ، للمشاركة فى ممارسات الفصح ، ولو مرة واحدة فى العمر . بل إن اليهودى فى بلد غريب ، حينما يلتقى بأخيه معيداً معه عيد الفصح ، يبادره بالتحية : « هذه السنة هنا ، والسنة القادمة فى أورشليم » . فى مثل تلك الفرصة كانت المدينة المقدسة تكتظ بجموع الوافدين ، القادمين إليها من كل بقاع الأرض .

وعلى حد تقرير «يوسيفوس» ، حسبت الذبائح التى قدمت من الخراف فى العيد فى سنة من السنوات فوصلت إلى مايزيد على ربع مليون ذبيحة . فاذا حسبنا عشرة من اليهود لكل رأس غنم ، فأننا نصل إلى رقم مذهل يصل إلى ما يزيد على مليونين ونصف مليون من الأنفس ، تكدسوا فى المدينة الصغيرة ، مدينة الملك العظيم فى عيد الفصح . وحتى إن كان هذا التعداد مبالغاً فيه إلى حد ما ، فالحقيقة تبقى ، أن الجموع التى تكدست فى أورشليم استعداداً لممارسات الفصح ، كانت بكثرة لاتصدق .

فى مثل تلك الفرصة فى عيد الفصح ، سرت الأنباء وسط الجموع ، أن يسوع الذى أقام ميت بيت عنيا ، فى طريقه مع تلاميذه إلى مدينة داود . وسارت قرية بيت عنيا تحيط بيسوع ، فى مظاهرة كبرى . وما أن اقتربت من أسوار المدينة الخالدة ، حتى التقت بها مظاهرة أكبر وأعظم ، قادمة من قلب أورشليم .

وانتفتحت المظاهرتان . في ظاهرة ظاهرة ، تهتف برؤس الموح الصانخب . أما « يسوع » فمما كان مركزها ، رتب على ججش ابن أتان . وارتجت المدينة كلها وهي تستقبل رب المجد الموديع استقبال الملوك ، أما الكهنة فقد جن جنونهم وتولاهم اليأس . وهم يرون حتى الجموع التي كانت مكدسة في ساحة الهيكل تشتري السباح وتنقيها ، وتستبدل العدة الأمية بشاقل الهيكل ، وتعد العدة للفصح القادم ، حتى تلك الجموع . أصابها ما يشبه مس الجنون ، فأسرعت مندفة من الهيكل ، صاخبة متداغمة كموج البحر ، وهي تتساءل : من هذا ؟ .

هذه حادثة هامة في حياة المخلص ، يجدر بنا أن ندرسها ونفهم ملامستها .
وندرس الجموع التي أحاطت به . . .

١ - فهناك بين الجموع من اتخذ موقف المتفرج ، فها هو إنسان تقول عنه الشائعات إنه أقام ميتاً من بين الأموات . كذا لابد أن يجتذب مثل هذا الخبر عدداً غفير من الناس لمجرد حب الاستطلاع . كثيراً ما يكون حب الاستطلاع - افما لكثيرين للالتفاف حول صورة من الصور . وهذه الظاهرة يستغلها أصحاب الإعلان بتسليط الأضواء على هدف من الأهداف . ولكن مثل هذه الظاهرة لاتدوم طويلا . إن الجموع التي التفت حول « يسوع » في تلك الفرصة بدافع الفضول وحب الاستطلاع لاغير ، دون أن تعرفه معرفة الاختبار ، وتتأصل فيه تأصل المحبة ، هي بعينها التي هتفت بعد أسبوع واحد قائلة : « اصلبه أصلبه » .

٢ - وهناك من هتف مرحباً بيسوع كالعظيم المنتصر . هذا هو الجو الذي يسود الصورة والذي تظهره أحداثها . لقد هتفوا أمامه هتافاً ملكياً قائلين : «أوصنا . مبارك الآتي باسم الرب » . . . وأوصنا كلمة عبرية ترجمتها ،

« خلصنا الآن » . . . إنها هتاف ملكي يرادف في وقتنا الحاضر ،
« عاش الملك » ! أو « حفظ الله الملك » الهتاف الذي يتردد في الدول التي
يسودها النظام الملكي .

أما الكلمات التي حيي بها الشعب « يسوع » ، فهي مقتبسة من المزامير (مزمور
١١٨ : ٢٥ ، ٢٦) . « آه يارب خلص . آه يارب أنقذ . مبارك الآتي
باسم الرب . باركناكم من بيت الرب » . أما هذا المزمور فله أكثر من طريقة
لأستخدامه ، وهو يرتبط في أذهان الشعب بأكثر من مناسبة ، فهو آخر
مزمور في مجموعة المزامير التي تعرف باسم « هلل » ، والتي تبدأ من المزمور
المئة والثالث عشر ، وتنتهي بهذا المزمور المئة والثامن عشر . . أما كلمة
« هلل » فتعني « سبح الرب » ، فهي مزامير تحفظ غيباً عن ظهر قلب .

وقد كانت هذه المزامير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، بالمارسات اليهودية في
الهيكل ، في أكثر من مناسبة من المناسبات الدينية . كانت تتلى في فرص
انشكر والحمد . وكانت جزءاً لا يتجزأ من تقاليد عيد الفصح . بل إن هذا
المزمور على وجه التحديد ، كان مرتبطاً بمراسم العبادة في فرصة عيد المظال .
وفي عيد المظال كان العابدون يحملون مظلات مصنوعة من سعف النخيل
وأعواد الصفصاف والريحان ، تعرف باسم « لولاب » . وكانوا يحضرون
بها لزيارة الهيكل كل يوم من أيام العيد . وفي كل يوم من أيام العيد ، كانوا
يدورون حول مذبح المحرقات النحاسي الكبير ، مرة في كل يوم من الأيام الستة
الأولى ، حتى إذا جاء اليوم السابع ، داروا حول المذبح سبع دورات .

وفي كل مرة ، كانوا ينشدون آيات من هذا المزمور ، وعلى الأخص
الآية التي رددوها عند دخول المسيح الانتصاري لأورشليم . ويقال إن هذا
المزمور ، كتب أول ما كتب ، في أول فرصة عيد مظال ، في أيام نحميا
رسول الجهاد ، حينما أعاد بناء الأسوار المهتمة ، ورسم المدينة الخربة ،

ليتمكن اليهود العائدون من سبي بابل أن يعبدوا الرب . (نحميا ٨ : ١٤ - ١٨) وقد ارتبط هذا المزمور ، بتلك الفرصة العظيمة ، وكان الشعب يعرف ذلك .

بل أكثر من هذا ، كان المزمور المئة والثامن عشر هو مزمور الانتصار . فلقد رددته الشعب هاتفين بمناسبة رجوع « سمعان المكابي » ظافراً منتصراً من حربه في سورية ، بعد أن انتزع عكا من قبضة السوريين ، بعد أن فرضوا سلطانهم عليها قرابة قرن من الزمان . وهكذا لم يكن اعتباطاً ، وبلا دلالات تاريخية مسبقة ، أن يهتف الشعب أمام « يسوع » بكلمات هذا المزمور الانتصاري . فقد كانوا يرون في « يسوع » المخلص المنقذ ، والمسيح المنتظر . . وليس غريباً بالتالي أن يحن جنون أصحاب العائم واللحى ، ويضربوا كفاً بكف ، ويقضموا أظافر الغيظ والحقد . لقد أصبح الشعب يضع « يسوع » جنباً إلى جنب مع أبطال الأمة اليهودية . ويرى فيه المنقذ المنتظر - قد يقول ناقد إن وعى الشعب لم يكن قد وصل بعد إلى المعنى الروحي ، والهدف الذي من أجله جاء « يسوع » . لقد فهم رسالته فهما خاطئاً ولكنه على أى حال كان يرى فيه بطلا عظيماً .

والمسألة لا تزيد عن فسحة من الوقت ، فيها يضرب بالبوق ، فيهب الشعب ثائراً ، حاملاً سيف النصر على أعدائه ، ساحقاً روما تحت النعال ، رافعاً راية اليهودية على العالم أجمع . لقد اختلط دخول المسيح إلى اورشليم بهتاف الظفر والانتصار . ودوت في أذنيه كلمات مزمور الأبطال . ولو أن هذا الهتاف قد أثقل نفس يسوع وآله ، فلم يفهم الشعب بعد حقيقة رسالته .

استقبال ملكى

(يوحنا ١٢ : ١٢ - ١٩)

٣ - وفى مثل هذا الموقف ، كان من الواضح أنه من المستحيل على يسوع أن يقدم رسالة للشعب ، أو يصحح خطأ وقع فيه أفرادهم . إن الجمهور الثائر ، لاطاقة له أن يستمع لنصح . إنه كال موج الهادر ، لن يقف فى وجهه شىء .

ولو حاول السيد أن يتكلم ، لما تلقى آذانا صاغية ، ولما استطاع أن يرفع صوته ، فيصل إلى كل مسمع فى هذه الجماعة . وهكذا قام «يسوع» بعمل رآه كل إنسان . لقد دخل المدينة على جحش ابن أتان ، ولهذا التصرف دلالتان ..

أما الدلالة الأولى ، فهى أن هذا التصرف كان إتماماً لنبوة قديمة ، نطق بها النبي «زكريا» ، قديماً ، واستشهد بها «يوحنا البشير» ، ولو أن هناك بعض الاختلاف البسيط فى المبنى ، وليس المعنى ، لأن «يوحنا» كان يسجل من الذاكرة : « ابتهجي جداً يا ابنة صهيون . اهتنى يا بنت اورشليم ، هوذا ملكك يأتى إليك وهو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان » (زكريا ٩ : ٩) . من الواضح جداً أن «يسوع» كان يربط هذا التصرف بتلك النبوة القديمة ، التى وردت عن المسيا بشخصه ، مثبتاً للشعب أنه هو المسيا المنتظر .

أما الدلالة الثانية ، فقد كانت ترتبط بعملية ركوب الحيوان الوديع الهادى ذاتها ، إننا نخطئ فهم مدلول عمل المسيح ، لو نظرنا إلى هذا العمل فى مفهومنا الخاطئ عن الحمار والأتان ، فلقد اسأنا فهم الحمار . إننا نرى فى هذا

الحيوان الهادىء رمز المذلة والمهانة والغباء . لكن هذا المفهوم لم يكن سائداً فى المجتمع اليهودى ، فى زمن المسيح ، وقبل عصر المسيح بأجيال وأجيال . لقد كانت صورة الحمار رمزاً للنبل والجلال – فى سفر القضاة نقرأ عن « عكسة ابنة كالب » أنها فى ليلة زفافها ، كانت تركب على حمار (قضاة ١ : ١٤) . وفى سفر القضاة أيضاً نقرأ عن قاض لإسرائيل يدعى « يائير الجلعدى » – والقاضى كان فى مركز الحاكم ، – هذا القاضى جلس على كرسي القضاة إثنين وعشرين سنة ، « وكان له ثلاثون ولداً يركبون على ثلاثين جحشاً . ولهم ثلاثون مدينة ... فى أرض جلعاد » (قضاة ١٠ : ٤) .

أما مفيوشث بن يوناثان بن شاول ، فقد جاء إلى داود راكباً على حماره . وعن « أختوفل » مشير أبشالوم ، ورد القول أنه كان يركب على حمار (٢ صموئيل ١٧ : ٢٣) .

لقد كان الملك يركب الجواد حينما يخرج على رأس جيشه للقاء أعدائه ، فإذا أتى إلى مدينة فى سلام ، فهو يمتطى حماره ، ولذلك حينما دخل « يسوع » مدينة السلام ، دخلها فى روح السلام راكباً على جحش ابن أتان .

فهو لم يأت فى صورة القائد الفاتح ، ولم يأت فى ثوب القائد المنتقم ، ولكنه أتى إلى مدينة داود كرئيس السلام – فى تلك الفرصة ، لم يدرك أحد المعنى الخالد الذى قصده المسيح . حتى ولا التلاميذ ، الذين كانوا أقرب الكل إلى قلب المخلص ، وفكره . لقد دارت أفكارهم فى دوامة هستيريا الجماهير الصاخبة .

وأخذتهم حماسة الجموع الثائرة، على أساس أحلامهم الوطنية الكاذبة .
وهكذا لم يكن فيهم ، نفس الفكر الذى كان فى المسيح يسوع ، ولم تكن
لهم نفس رسالته واتجاهه . لقد كان «يسوع» فى واد ، وكانت الجموع
ومعهم التلاميذ أيضاً ، فى واد آخر بعيد .

٤ - ولاننسى فى الختام موقف السلطات اليهودية ، لقد أحسوا بغزلتهم
ونخبة آمالهم ، . . وفشل جهودهم .

لقد كسب «يسوع» الجولة منهم . ونحن نستمع إلى نغمة اليأس فى
قولهم: «العالم كله قد ذهب وراءه» . هنا نرى صورة واضحة للأسلوب
الذى يتميز به البشير الرابع . فهو يستطيع فى كلمات قلائل ، أن يقدم حقاً
عظيماً ، بطريقة لا يستطيعها سواه . . . بل أن يقدم حقاً ينطق به شفاه
الأعداء ، دون دراية ودون قصد . لقد أتى المسيح الله إلى العالم ، حياة للعالم
لأجل خلاص البشرية . وهام رؤساء الكهنة يؤكدون ، أن الهدف قد تحقق ،
أو هو فى طريقه إلى التحقيق « فالعالم كله قد ذهب وراءه » .

وفى الفقرة التالية ، سنرى سفارة لليونانيين قادمة ليسوع ، ممثلة للأمم فى
تقديمها الأكرام لشخصه العزيز . . هنا يتحدث «يوحنا» عن دائرة اليهود ، وفى
الفقرة القادمة عن دائرة الأمم - حقاً لقد تحدث رؤساء السلطات اليهودية
بالصدق ، حينما قالوا بأن العالم كله قد ذهب وراءه . « والحق ما شهدت
به الأعداء » .

ونحن لانستطيع أن نترك التأمل فى هذه الفقرة ، دون أن نلاحظ شيئاً
بسيطاً . فلم يحدث فى تاريخ الأمم والممالك ، أن قدم مثل هذا الأكرام
لشخص فى مركز «يسوع» وموقفه ، ولم يحدث أن أحداً وقف فى موقفه

وتحدى السلطات الحاكمة نظيره ، ومع ذلك نال كل هذا الإكرام . لقد كان يسوع طريد العدالة اليهودية .. كانت المكافأة مرصودة لمن يرشد عنه ، أو يدل السلطات عليه . إن المكائد تدبر ضده ، والمؤامرات تحاك حوله ، وأعداؤه في طريقهم لتصفية الحساب العسير معه . ومع ذلك ، لم يحسب حساباً لشيء . لقد كانت الحكمة تقتضى أن يختفى «يسوع» قليلاً ، أو أن يجد ملاذاً له بين مواطنيه وأحبائه من أبناء الجليل . لقد كان في وسعه أن يعود إلى الجليل ، أو يقضى فرصة في البرية .

فإذا أراد أن يأتي إلى أورشليم ، فقد كان ممكناً أن يأتي متخفياً ، وليس علناً وعلى رؤوس الأشهاد .

لكنه أتى ، مسلطاً على نفسه كل الأضواء . لقد كان في عمله هذا في قمة الشجاعة والسمو ، والمحبة ، لأنه كان في عمله هذا ، فاتحاً أحضان محبته للمرة الأخيرة لأبناء شعبه ، وأمتة ، معطياً إياهم الفرصة النهائية ليعيدوا التدبر في طريق عنادهم وتمردهم .

اليونانيون ويسوع

وَكَانَ أَنَاثُ يُونَانِيُّونَ مِنَ الَّذِينَ صَعِدُوا لِيَسْجُدُوا
فِي الْعِيدِ . فَتَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ إِلَى فِيلِبُّسَ الَّذِي مِنْ بَيْتِ صَيْدَا
الْجَلِيلِ وَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ يَا سَيِّدُ نُرِيدُ أَنْ نَرَى يَسُوعَ .
فَأَتَى فِيلِبُّسَ وَقَالَ لِأَنْدَرَاوُسَ ثُمَّ قَالَ أَنْدَرَاوُسَ وَفِيلِبُّسَ
لِيَسُوعَ .

(يوحنا ١٢ : ٢٠-٢٢)

لم يذكر واحد من البشيرين في البشائر الثلاث الأولى هذه الحادثة ،
ومع ذلك نراها تلائم تماماً منطق البشارة الرابعة ، وهدفها . لقد كانت
الغاية الأساسية من البشارة الرابعة ، تقديم المسيح لليونانيين ، تقديم المسيح
لهم ، بصورة يدركونها ويصلون إلى معناها . ولذلك كان من الطبيعي في
بشارة لها مثل هذا الهدف ، أن تخصص لهذه القصة مكاناً .

وليس من الغريب أن يكون هناك يونانيون في فرصة الفصح ، حتى
ولو لم يكونوا من اليهود الدخلاء . لقد كان الشعب اليوناني يحب الهجرة ،
والمغامرة . وكانت له الرغبة في أن يكتشف كل جديد ، ويعرف كل
تعليم جديد .

يقول أحد القدامى : « إنكم أيها الأثينيون لا تهذبون في أماكنكم ،
ولا تدعون الآخرين ينعمون بالهدوء » .

ويقول آخر : « إنكم أيها الإغريق كالأطفال ، صغار على الدوام في أرواحكم ». وقبل عصر المسيح بما يزيد على خمسمائة عام ، قام «هيرودوت» المؤرخ اليوناني برحلته الشهيرة ، في العالم الكائن حينذاك ، ليكتشف كل شيء . وهناك في أقصى جنوب وادي النيل ، يقوم تمثال مصرى قديم نقش أحد الرحالة الأغريق اسمه على قاعدته ، كما يفعل كثيرون لمجرد الذكرى . لقد كان اليونانيون يجوبون البحار للتجارة ، وتوزيع بضائعهم ، ولكنهم كانوا يهاجرون إلى أكثر من بلد بعيد ، لمجرد حب الهجرة لاغير . لذلك ، لاغربة أن نجد يونانيين في فرصة عيد الفصح في أورشليم .

على أنه كان هناك دافع آخر غير التجارة ، والهجرة ، يدفع اليوناني لركوب الأخطار ، والهجرة للأمصار ..

فقد كان في طبعه البحث عن الحقيقة . ولم يكن من الغريب ، أن نجد اليوناني ينتقل من مدرسة في الفلسفة إلى مدرسة أخرى . ويتعلم على يدى هذا المفكر ، ثم يهجره إلى مفكر آخر ليعتق أفكاره ، ويؤمن بأرائه . ويدين بالطاعة لذلك الرعيل من الآلهة ، ثم سرعان ما يهجرهم إلى آلهة أخرى . لقد كان البحث عن الحق والحقيقة ، طبيعة ثانية في كل يوناني .

ترى كيف وصل أولئك اليونانيون إلى معرفة «يسوع» ؟ وكيف وصلت أخبار «يسوع» إليهم ؟ . يتقدم « ج . هـ برنار » بحل من المفيد إثباته . ففي الأسبوع الأخير من خدمته على الأرض ، قام «يسوع» بتطهير الهيكل . وطرده الصيارفة وباعة الحمام من ساحته . أما أولئك الباعة . والتجار ، فقد كان مكانهم في ساحة الأمم ، وهو أول رواق من أروقة الهيكل ،

وما كان مسموحاً لأى منهم ، بأن يتخطى هذا الرواق ولا عرض نفسه للموت .
لذلك فمن المحتمل جداً أن أولئك اليونانيين كانوا فى رواق الأمم ، وشاهدوا
بأعينهم حادثة تطهير الهيكل ، فأرادوا أن يعرفوا أكثر عن ذلك الشاب ،
الذى استطاع أن يتحدى الكهنة فى عقر دارهم ، ومهما يكن من أمر ،
فهذه واحدة من اللحظات العظيمة ، المهمة فى حياة المسيح ، التى تشع
أمامنا بنور باهر . ففى أول خطوة لإشراق نور الإنجيل على
الأمم ... وأتى اليونانيون إلى «فيلبس» أولاً ، ولماذا فيلبس ؟ لا أحد يستطيع
أن يحدد بالذات لماذا اتجهوا إلى ذلك التلميذ .

ولكن ربما يكون أن اسم فيلبس كان يونانياً . وهكذا ظنوا أن إنساناً يحمل
اسماً يونانياً ، يكون أكثر تعاطفاً معهم ، ومع أفكارهم . ولكن «فيلبس» كان
فى حيرة .. ماذا يفعل . وهكذا استعان بزميله «اندراس» . فأتيا بجماعة
اليونانيين إلى «يسوع» .

أما «اندراس» فقد اكتشف على الأقل شيئاً جديداً فى معلمه — أن
يسوع لا يعتريه الضيق من إنسان يبحث عنه . وأنه لن يخيب رجاء سائل
يسأله ، ولن يغلق الباب فى وجه من يقصده . لقد عرف أن باب
«يسوع» على الدوام هو الباب المفتوح .

اللغز المذهل

وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا قَائِلًا قَدْ أَتَتْ السَّاعَةُ
لِيَتِمَّجِدَ ابْنُ الْإِنْسَانِ . الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ
تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الْأَرْضِ وَتَمُتَ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا .
وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ . مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ
يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى
حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ . إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدُمُنِي فَلْيَتَّبِعْنِي . وَحَيْثُ
أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضًا يَكُونُ خَادِمِي . وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ
يَخْدُمُنِي يُكْرِمُهُ آبُ .

(يوحنا ١٢ : ٢٣ - ٢٦)

ولا توجد في العهد الجديد فقرة صدمت سامعها لأول مرة ، قدر
ما صدمت هذه الفقرة أسمع اليونانيين وأفكارهم . إنها تبدأ بتقرير حقيقة ،
تبدو في ظاهرها عادية منطقية . . يتوقعها كل إنسان . ثم تحتم بتصرّيات
أبعد من أن يتوقعها أى إنسان .

قد أتت الساعة لِيَتِمَّجِدَ ابن الإنسان ... هكذا بدأ «يسوع» حديثه .
وما هو مفهوم هذا التمجيد لدى «يسوع» ؟ لقد كانت الأمور تزداد تأزماً

بالنسبة له . الغيوم تتجمع في الأفق ، لكن مفهوم هذه الأزمة عند يسوع ،
كان يختلف عن مفهومها عند الآخرين .

وحيثما نسمعه يتحدث عن ابن الإنسان ، ينبغي أن نضع في فكرنا أيضاً.
أنه كان له مفهومه الخاص ، الذي يختلف عن مفهومه عند اليهود في ذلك الحين
ولكن نفهم معنى ابن الإنسان عند اليهود ، لنترجع إلى سفر نبوات دانيال
(٧ : ١٣ ، ١٤) . في هذه الفقرة ، أخفقت الترجمة الإنكليزية المعتمدة في
الوصول إلى المعنى ، فتقلت الكلمة « شبه ابن الإنسان » . ولكن الترجمة
الصحيحة ، توافق ترجمة فانديك العربية التي بين أيدينا : « كنت أرى في
رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام
فقرّبوه قدامه . فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبده كل الشعوب
والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدي مالن يزول . وملكوته مالا ينقرض »
وهناك خلاف كبير بين ابن الإنسان ، وشبه ابن إنسان .

ولو أردنا أن نعرف الفارق ، لنأمل الصورة كلها — في نبوات
دانيال (٧ : ١ — ٨) يصف كاتب السفر في رؤياه ، الممالك الوحشية التي
سادت على العالم القديم : الآشوريين ، والبابليين ، ومملكة مادي ،
وفارس .

ولقد كانت هذه الممالك من الوحشية ، حتى أنه ينطبق على كل واحدة
منها ، صور الوحوش التي ترمز إليها .

الأسد بأجنحة نسر ، والدب وفي فمه الثلاثة ضلوع ، والنمر بأجنحته
الأربعة ، ورؤوسه الأربعة . ثم الحيوان الرابع الرهيب ، بأسنانه التي من
حديد ، وقرونه العشرة . هذه الممالك ، رمز القوة والبطش والجبروت ،

ولكن ، ستأتى على العالم مملكة جديدة ممثلة فى شبه ابن انسان ، ليس فى صورة الوحوش الكاسرة ، بل فى شبه الانسان ، وفى روح الإنسانية الصادقة إن الرؤيا التى رآها النبي ، تشير إلى أن عهد الوحشية والبطش الدموى ، واستغلال الشعوب ، وامتصاص دمائها ، هو فى طريقه إلى الزوال ، وأن عهداً جديداً مباركاً ، سيشرق على الإنسانية جمعاء .

وهذا كان حلم اليهود . لقد كانوا يحلمون بعصر ذهبي سعيد ، تحلو فيه الحياة بالنسبة لهم فيجلس كل واحد تحت كرمته وتحت زيتونته ، وما من مضايق .

ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا ، وهم نفر قليل ، لاحول له ولا قوة ؟ تقول رؤيا « دانيال » إن ذلك العصر السعيد ، لن يأتى على الأرض بقوة البشر ، ودهائمهم ، بل سيأتى بتدخل إلهي من السماء . سوف يرسل الله مسيحه إلى العالم ، ليحقق ذلك الحلم المجيد . وما أنسب أن يلقب ذلك المسيح .. ذلك الرسول من السماء ، بلقب ابن الانسان ؟ وهكذا تحول الرمز إلى شخص وتركزت الرؤيا فى انسان . وأصبح لقب ابن الانسان ، يطلق على رسول الله أو مسيح الله ، الذى سيرسله إله السماء إلى العالم ، ليحقق ذلك الحلم ..

وإننا لنجد تأكيداً لهذه الحقيقة ، وتكراراً للقب ابن الانسان ، إبان السبي ، وفى وقت الأزمات التى كانت تحيط بالأمة ، فى فترة ما بين العهدين ، وهى فترة تقرب من خمسمائة عام ، تميزت بهزات عنيفة ، وصمت فيها السماء عن التحدث بلسان الأنبياء ، نرى مجموعة من الكتابات غير القانونية ، (الأبوكريفا) ، تظهر فى تلك الفترة . فى أحد هذه الأسفار ويدعى سفر أنخوخ ، نرى الكاتب يتحدث أكثر مما يتحدث عن ابن الانسان ، فيصوره فى صورة شخصية قوية يحتجزها الله لساعة معينة ثابتة . ومتى دقت تلك

الساعة ، سيطلق الله ابن الإنسان ، فيأتي إلى العالم بقوة غير عادية ، وسلطان معجزى ، ولاستطيع قوة بشرية أن تقف في وجهه ، فيرى الأمم بقضيب من حديد ، ويكسرهم كما يكسر إناء من خزف ، ويثبت أركان ملك إسرائيل من أقصى الأرض إلى أقصاها .

وعلى ذلك ، فقد كانت صورة ابن الإنسان في الفكر اليهودي ، هي صورة الفاتح العظيم المنتصر المرسل من الله . وهكذا قال «يسوع» لدهشة سامعيه « قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان » متخذاً ذلك اللقب لنفسه .

وحيثما نطق بهذا القول ، نكاد نقول إن الذين حوله ، قد أمسكوا أنفاسهم دهشة وتعجباً ، وتوقعاً لأحداث خطيرة . فليس بعسير على ذلك النبي الجليلي المعجزى ، الذي ينادى فيخرج الميت من قبره — ليس بعسير على ذلك النبي أن يدعو جحافل السماء وجيوشها لنصرة شعبه . بل من يدرى ؟ لعل صوت البوق سيدوى الآن ، ولعل العلامات المنتظرة ستفاجئ الحاضرين . ولعل رايات الانتصار ترفرف حولهم وهم لا يدرون . ولكنهم ما كانوا يدرون أن تمجيد ابن الإنسان في فكر «يسوع» ، كان يختلف كل الاختلاف عن تمجيده في تصورهم هم . لقد كان تمجيد ابن الإنسان في فكرهم ، هو إخضاع كل الأمم له ، وسجودهم عند قدميه . وكان تمجيد ابن الإنسان في نظر يسوع ، هو خضوعه لأقصى أنواع الموت ، موت العار والصليب .

حينما ذكر ابن الإنسان ، تصورت الجموع كتائب الملائكة في مركباتها النارية ، وحينما ذكر «يسوع» ابن الإنسان كانت في مخيلته صورة ثيران باشان وهي تهجم عليه ، وتثقب يديه وقدميه .

وهكذا أثارت أول جملة نطق بها يسوع ، قلوب سامعيه . ثم تبعها جمل أخرى ، جعلت السامعين يترنحون في دهشتهم . فقد نقضت كل قصور

أحلامهم ، وزعزعت بنيان رجائهم الأرضى . ولقد أعلن «يسوع» فى هذه الأقوال بنود انتصاره ، ولكن على أساس توضيحته وموته وعاره . ونحن لن ندرك موقف «يسوع» ، ولن ندرك موقف اليهود منه ، حتى نفهم كيف حول أمام أعينهم حلم الإنتصار ، إلى رؤيا الصليب . ولا عجب أن نراهم لا يفهمون . إن مأساتهم تكمن فى أنهم رفضوا أن يفهموه .

اللغز المذهل

(يوحنا ١٢ : ٣٢ - ٢٦)

وماذا كان يقصد «يسوع» ، بالكلمات التى نادى بها أمام اليونانيين ما هو هذا اللغز المذهل الذى نطق به ؟ وما هى التعاليم التى ينطوى عليها هذا اللغز ؟
أعتقد أن هناك ثلاثة أمور رئيسية ، تدور حول حق واحد جوهري وتتغلغل إلى أعماق الإيمان المسيحى ، والحياة المسيحية . . وكلها نجدها فى ثنايا هذه الفقرة . .

١ - لقد كان «يسوع» يؤكد فى أقواله أنه لاهياة بغير موت ، وأن الموت هو طريق الحياة . فحبة الحنطة لا تأثر لها ، ولا ثمر ، ولا ازدهار ، طالما ظلت محتفظة بكيانها وذاتيتها . ولكن حينما تلقى فى التربة ، وتدوسها الأقدام ، وتدفن فى الطين ، وتحلل ، تخرج إلى عالم النمو والازدهار . . بالموت تولد الحياة . . بموت الشهداء تتوالد الكنيسة وتزدهر ، كما ورد فى القول المأثور : « دم الشهداء بذار الكنيسة ، فلولا دماؤهم التى رويها نبتة الكنيسة الطفلة ، ما ازدهرت تلك النبتة وعلا ساقها ، وامتدت أغصانها ، ولن نتوقع أمورا عظيمة إلا عن طريق التضحية والبذل ، وسفك الدم ، والموت ».

بل إن هذا الحق ينطبق أيضاً على حياة الأشخاص . فإلم يصلب الإنسان ذاته ، ويموت عن رغائبه ، فإنه لن يصبح ذا نفع في ملكوت السموات .

هناك قصة تروى ، عن أحد رؤساء أساقفة كانتربرى ، ويدعى « كوزمو لانج » ، أنه كانت له مطامعه العالمية العظيمة . ولكن صديقاً أثيراً لديه . أشار عليه بدخول كنيسة إنكلترا ، ونبذ أحلامه الدنيوية .

وبينما كان يصلى في الكنيسة ، وكان وقتها طالبا يدرس اللاهوت ، إذا به يسمع نداء لا تخطئه أذن إنسان « أنت هو الشخص المطلوب » . ولو كان قد تمسك بمطامعه الأرضية ، لما استطاع أن يصل إلى مركزه الكنسى ، وخدمته المباركة . لكنه حينما عرف كيف يدفن أحلامه ، أصبح له مكانه في مجال خدمة الله — بالموت نصل إلى الحياة بالإخلاص للمبدأ الذى نعتنقه حتى الموت ، تولد الإنجازات العظيمة التى تفخر بها البشرية بموت الرغائب الذاتية والمطامع الشخصية ، يصبح الإنسان أداة نافعة وإناء مكرساً لخدمة الله .

٢ — أيضاً أننا بانفاق الحياة ، نحفظ بالحياة . وكلنا نحب الحياة ، ونود الحفاظ عليها . وهناك دافعان يستتران وراء حب الحياة . الدافع الأول هو الأنانية ، والثانى هو الرغبة فى الأمان . إن المصلحة الشخصية ، والأمان ، هما الدافعان لحب الحياة ، وهما القوتان العاملتان لاستمرار الحياة . وكم من مرة أعاد المسيح تأكيد الحق الذى نادى به ، إن الذى يخزن حياته ، ويجتهد فى الحفاظ عليها ، ويحيطها بأسوار منيعة ، هو الذى يخسر فى نهاية المطاف ، ولكن الذى ينفق حياته ، هو الذى يكسبها فى النهاية .

فى تاريخ العمل التبشيرى ، ظهر مبشر إنجيلى شهير يدعى « كرسما س إيفانز » ، وعلى الدوام لم يكن هذا المبشر يألو جهداً ، فى القيام بواجبه فى

خدمة المسيح ، وتقديم بشارة الحياة للنفوس الهالكة . وكثيرا ما نصحه أصدقاؤه بأن يخفف قليلا من الجهد الذى يبذله .

فكان جوابه « من الأفضل للحديد أن يلهب بالنار ويتوهج ، من أن يترك ليأكله الصدأ » . وهذا مبدأ عظيم — من أراد أن يكسب حياته فلينفقها . . .

وعندما تأزمت الأمور بالنسبة للشهيدة ، البطلة الفرنسية « جان دارك » وعرفت أن أعداءها يزدادون قوة ونفوذاً ، وأن الحبائل الماكرة تضيق حولها ، كانت صلاتها على الدوام : « لم يتبق لى فى هذه الحياة إلا عام أو بعض عام ، استخدمنى يارب كما تشاء » . وإننا لنجد يسوع يؤكد هذا الحق ويكرره مرة تلو الأخرى (مرقس ٨ : ٣٥ ، متى ١٦ : ٢٥ ، لوقا ٩ : ٢٤ ، متى ١٠ : ٣٩ ، لوقا ١٧ : ٣٣) .

وكم كان العالم يكون أكثر فاقة ، وأقل انتفاعا وتقدما ، وكم كانت الإنسانية تخسر الكثير ، لو لم يكن هناك أشخاص ، على استعداد أن ينسوا مصالحهم ، وأمانهم الشخصى ، ومنفعتهم ، فى سبيل خدمة الآخرين . وكم العالم مدين بالكثير ، لأولئك الذين أنفقوا قوتهم ، وحياتهم ، فى غير تحفظ ، وما حسبوا حساباً لشيء ، فى ميدان خدمة الله ، وخدمة إخوتهم .

صحيح إن الحياة الهادئة الحالية من الهزات العنيفة ، والتوتر ، والقلق ، قد تضمن لنا ، بحسب النظرة الجسدية ، عمراً أطول ، أو إن لم يكن الأمر كذلك ، حياة أكثر نعومة ، وهدوءاً . إن الزوج الجالس على الدوام بجوار المدفأة ، وإلى جانبه زوجة وفيه تهيئ له كل وسائل الراحة والسعادة ، أو الرجل الذى لاهم له ، إلا الحفاظ على صحته بكل السبل ،

قد يضمن لنفسه عمراً أطول ؛ لكنه لن يحيا على الإطلاق . . . لن يعرف معنى الحياة الحققة . .

٣ - ويؤكد «يسوع» أيضاً، أن الخدمة هي طريق العظمة الحقيقية . إن أولئك الذين يذكّرهم العالم بكل إجلال وإكبار ، هم الذين خدموا الإنسانية أكثر من سواهم .

من جدول أعمال جيش الخلاص في مدينة ليفربول ، نعرف أنه كانت هناك سيدة تعرف باسم « مسز برويك »، أدت خدمات جليلة هناك . وأخيراً تقدمت بها السن ، في الوقت الذي نشبت فيه الحرب العالمية ، وكانت آنذاك في مدينة لندن ، والغارات الجوية على أشدها . وكان أهل بلدها يتساءلون ماذا عساها فاعلة ، وقد قلّ جهدها ، وتضاءلت امكانياتها . .

ولكنها أرادت أن تقوم بخدمة ما ، وهكذا اشترت صندوقاً للإسعافات الأولية ، ووضعت لافتة على باب بيتها : « إن كنت في حاجة للإسعاف إطرق الباب » . هذا هو موقف المسيحى من إخوته . صحيح أنه من العسير علينا أن نتعلم درس الخدمة الإيثارية المضحية بالنفس والنفيس ، في مجتمع أنانى إقتنائى . وكثيرون يدورون في عجلة الخدمة العامة ، بدافع الوظيفة لا غير ، ويشتاقون إلى اليوم الذى فيه يستعفون من خدماتهم ، لينعموا بسنوات الهدوء والراحة . وغيرهم لا هم لهم إلا تكديس المال ، والأثراء السريع وجمع المقتنيات ، وقد يصل أولئك وهؤلاء إلى مبتغاهم . ولكنهم سيكتشفون على الأقل أمراً واحداً جوهرياً ، أنه لا توجد قلوب كثيرة تحفّق بالحب لهم . والحب هو اللؤلؤة الغالية الكثيرة الثمن ، التى إذا فقدها الإنسان يكون قد فقد كل شيء . .

لقد جاء يسوع إلى اليهود ، الذين كانوا ينظرون إلى الحياة في كافة صورها ، وشتى مجالاتها ، بمنظار السيطرة والنفعية ، والأناية ، والعنصرية ، جاءهم بنظرة جديدة للحياة . لقد كانوا يقيمون عناصر المجد على الانتصار الزمنى ، والوصول إلى التملك والسيطرة على الآخرين . فجاء يسوع ليعلم الناس ، أنه لا طريق إلى الحياة . . الحياة الزاخرة الفياضة . . الحياة التى تستحق أن نحياها ، إلا الموت ، وانا حينما ننفق حياتنا ندخرها ؛ وأن الخدمة هى طريق العظمة الحقيقية ، ومن العجب العجاب ، أن ذلك اللغز المذهل الذى نادى به «يسوع» منذ ألفى عام ، والذى بدا فى ذلك الوقت عسيراً على سامعيه ، ليس أكثر من الحق المنطقى المعقول .

من الاضطراب إلى اليقين

الآن نفسي قد اضطربت . وماذا أقول . أيها الآب
نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ . وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا أَتَيْتُ إِلَى
هَذِهِ السَّاعَةِ . أَيُّهَا الْآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ . فَجَاءَ صَوْتُ
مِنَ السَّمَاءِ مَجَّدَتْ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً . فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ
وَاقِفاً وَسَمِعَ قَالَ قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ . وَآخَرُونَ قَالُوا قَدْ
كَلَّمَهُ مَلَكٌ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ صَارَ
هَذَا الصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ . الْآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ .
الآن يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً . وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ
عَنِ الْأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَى الْجَمِيعِ . قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى آيَةِ
مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ . فَأَجَابَهُ الْجَمْعُ نَحْنُ سَمِعْنَا
مِنَ النَّامُوسِ أَنَّ الْمَسِيحَ يَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ . فَكَيْفَ تَقُولُ
أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ . مَنْ هُوَ هَذَا
ابْنُ الْإِنْسَانِ .

(يوحنا ١٢ : ٢٧ - ٣٤)

في هذه الفقرة، يصور لنا البشير حيرة «يسوع» وألمه واضطرابه ، ثم يقينه وانتصاره . وهو يظهر لنا أيضاً الأسباب التي حولت الاضطراب إلى يقين .

١ - فنحن لانجد «يوحنا» يعرض لصراع المسيح في جثسماني . ولكنه يظهر لنا «يسوع» وهو يخوض معركة الألم أمام شبح الصليب الرهيب . هنا في هذه الفرصة . أن يلتقي الإنسان بالموت ، أمر ليس مقبولا على الإطلاق وأن يموت في عنفوان شبابه أمر بغض ، وأن يموت على الصليب أمر قاس . لكن يسوع لم يكن أقل شجاعة من واحد من الشهداء الذين واجهوا الموت وعلى شفاههم ابتسامة الظفر . لقد كان الصليب يعني شيئاً آخر : أحمال البشرية ، وذنوبها وعارها ، منذ بدء الخليقة وإلى نهاية الأجيال . وكما قال المرنم عنه بروح النبوة « العار كسر قلبي فرضت » . لقد كان الصليب أكثر من مجرد ميتة قاسية مرة . لقد كان يعني العار ، والحزى ، واحتجاب وجه الله الآب ، وحسابه عار كل الشعوب ومحتقر كل الأمم .

وهناك رأى نادى به اللاهوتي الاسكتلندي «جورج ماثيسون» ، إن خوف يسوع أمام ميتة الصليب ، كان نابغاً من خشيته أن يصبح الصليب ، وهو قمة جريمة البشرية في حق ابن الله ، حاجزاً وحجاباً يحجب وجه الله عن الإنسان ، ويوقع الإنسان للأبد في دائرة غضب الله ، والبعد عنه . وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فكما يقول المؤلف : لو كان طريق الموت سهلاً عادياً عند يسوع ، بلا مشقة ولا اضطراب ، لما كانت هناك فضيلة في موته ، ولا كفارة في ذبيحته ، إن الشجاعة الحقيقية ، لا تستلزم عدم الخوف ، بل تقتضي أن تسير في طريق التضحية والموت حتى النهاية حتى ولو ساورنا الألم والخوف . وهنا تكمن شجاعة «يسوع» . كما يقول أحدهم « هنا تلتصر

غيرة الطاعة للآب، على خوف الموت، وأهوال الهاوية. هنا نرى المعركة
الرهبة التي خاضها رب المجد، في سبيل الطاعة الكاملة للآب، لقد كان
الصليب هو طريق الآب، وكان على الابن الحبيب أن يحارب معركته حتى
النهاية، في طريق إتمام إرادة الآب.

٢- ولكن القصة لا تنتهي بالإضطراب، بل بالظفر واليقين. لقد
امتلاً يسوع يقيناً أنه لو سار في طريقه، فلا بد وأن ينتهي الأمر بهزيمة الشيطان
وزوال سلطانه، وخرابه الأبدى، فإذا أطاع الآب، وأطاع حتى الموت..
وسار إلى الصليب بخطوات ثابتة، فإن السيف الذي استيقظ على راعي
الرعية، لابد أن يسدد ضربة قاصمة للأسد الزائر الذي ينبغي فريسته..
الشيطان عدو كل خير. لقد وثق بأن الصليب هو الصراع الأخير.. هو
المعركة الأخيرة مع الشيطان. وأنه حينما يرتفع عن الأرض، فاتحاً ذراعي
المحبة على خشبة العار، لجميع البشر، فإنه سيجتذب بمحبته وموته قلوب
الجميع، لقد كانت رغبة يسوع الأولى، أن ينتصر على عدو الخير، ويفسد
مخططه في الوجود.. لقد كانت رغبته الأولى أن يلتف حوله الناس.
وكان الطريق الأوحده لغلبة الشيطان، أو السيطرة على قلوب البشر، أن يرتفع
على الصليب. وهكذا بدأ طريقه برهبة المعركة، وانتهى بالانتصار...

٣- وما الذي حدث حتى تحولت الرهبة والاضطراب إلى انتصار؟
تقول الفقرة التي أمامنا، إن صوتاً من السماء توسط بين الاثنين.. لقد تحدث
الآب إليه. وليس هذا بغريب. فكم من مرة في التاريخ المقدس، في لحظاته
الحاسمة، تحدثت السماء بصوت مسموع. قاله جل جلاله يتحدث إلى
الصبي صموئيل (صموئيل الأول ٣ : ١ - ١٤). والله يعترض طريق
«إيليا» أثناء هروبه من وجه «إيزابل»، ويحادثه حديث الصديق المحب (ملوك
الأول ١٩ : ١ - ١٨). وفي مأساة «أيوب» نستمع إلى واحد من أصدقائه

الثلاثة - «أليفاز التيماني» - يؤكد أنه يصغى إلى صوت الله (أيوب ٤: ١٦) . ولكن في عصر المسيح ، وقبله بعدة قرون ، في الفترة التي يلقبها اللاهوتيون بفترة ما بين العهدين ، نرى السماء تصمت عن الحديث إلى البشر ، ونرى اليهود يقنعون بأن تتحدث السماء إليهم في وسيط أو معلم ، أو بطل يظهر في التاريخ . لقد مضت الأيام العظيمة القديمة ، وتباعد الله عن البشر . والصوت الذي تحدث يوماً إلى الأنبياء في كلمات واضحة مسموعة ، قد صمت عن الحديث . وهكذا في عصر المسيح قنع اليهود من صوت الله ، بما أسموه «الباث قول» وهي كلمة عبرية معناها بنت القول ، أو ابنة القول الإلهي - قبيل خراب أورشليم إبان حصارها عام ٧٠ ب.م. حدث للهيكمل حادث فريد .. فقد انفتحت على حين غرة البوابة الكورنثية التي كانت تحتاج إلى أكثر من عشرين شخصاً ، لكي تدور على أعقابها وسمع من داخل الهيكل زئير كزئير العاصفة ، يتلوه صوت وقع أقدام يبدو وكأنها لجمهور عظيم ، ينزل درج الهيكل ، ومن داخل قدس الأقداس ، سمع صوت جليل يهتف بوضوح باللغة العبرية «فلنغادر هذا المكان !»^(١) . أما الكهنة فقد اتكفأوا على وجوههم وهم يهتفون في رعب «الباث قول» .. الباث قول .. « . وبين الحضور ، كان الوحيد الذي استطاع أن ينطق بكلمة هو الجلد «يوحنا بن زكا» ، فإشار إلى البوابة المفتوحة وهتف في تأثر : «لقد دنت نهاية الهيكل . فهذا ما قيل بالنبي القائل «افتح أبوابك يا لبنان ، لتلهم النيران أرزك» .

هذه صورة تقرب فكر اليهود في عصر المسيح ، عن طريقة حديث الله إليهم ، ولقد كانوا يعتقدون أن «الباث قول» غالباً ما كانت تقتبس من كلمات الكتاب . فهي ليست صوت الله المباشر للبشر ، ولكن إن جاز

(١) راجع قصة «سقوط أورشليم» للمعرب .

التعبير ، هي صدى صوت الله البعيد ، .. صوت من البعد السحيق ، يأتي كالهمس العميق بديلاً عن الحديث المباشر ، ولكن السماء ما كانت تتعامل هكذا مع «يسوع» . فلم يكن يستمع إلى حديث الله في أعماقه ، ولم يكن يستمع إلى صدى صوت الله البعيد ، أو «الباث قول» ، بل كان الله يتحدث إليه بصوت واضح مسموع ، حديث الند للند .

نلاحظ أيضاً أن صوت الله كان يأتي ليسوع في الساعات العظيمة الفاصلة في حياته . فقد جاءه الصوت عند صعوده من مياه الأردن ، في فرصة عماده ، في مستهل إرساليته للعالم (مرقس ١ : ١١) . وجاء الصوت إليه على جبل التجلي ، حينما ثبت وجهه للصعود إلى أورشليم .. للصعود إلى جبل الجلجثة والموت (مرقس ٩ : ٧) . وهاهو الصوت يهتف له من الأعلى من عند الآب ... من الأجواء العليا السرمدية ، ليقدم له جرعة من الثبات أمام صليب العار والموت .

وما يقدمه الآب السماوي للإبن الحبيب ، على استعداد أن يقدمه لكل من يؤمن به ، ويحمل على كتفه نير الخدمة .

فالله لا يرسلنا للعمل في كرمه على انفراد . دون أن يؤيدنا بقوته ومعونته . إنه حينما يكل إلينا مهمة خاصة ، ويوفدنا للقيام بها ، فإنه لا يتركنا نقوم بهذه المهمة بأيد مرتخية في قوانا الواهية ، إنه يؤيدنا بصوت من السماء إن لم يكن بصورة مسموعة ، فهو يهمس لقلوبنا بهمسات العون ، والتشجيع والتأييد . إن إلهنا لا يصمت صمت عدم المبالاة . وفوق ضوضاء العالم ، وزئير الشيطان ، وضجيج أعداء الحق ، ومهمة أمواج المتاعب . يعلو صوت الرب واضحاً جلياً مشجعاً ، فنمضي في طريق الواجب وصوته يرن في أذاننا وقوته تملؤنا . إن مشكلتنا الحقيقية ليس لأن الله لا يتكلم إلينا ، بل لأننا لانستمع إلى صوته بما فيه الكفاية .

من الاضطراب إلى اليقين

(يوحنا ١٢ : ٢٧ - ٢٤)

وهكذا نادى «يسوع» بهذا الحق : إنه حينما يرتفع عن الأرض يجذب إليه الجميع . البعض فهم هذا القول على أنه يشير إلى صعوده بمعنى أنه حينما يتمجد «يسوع» في قوة قيامته ، وصعوده ، فانه يجتذب إليه الجميع . ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة . لقد كان «يسوع» يشير إلى صليبه . وواضح أن الذين حوله عرفوا ذلك ، وأنهم استمعوا إليه غير مصدقين . فما الذى يربط ابن الإنسان بصورته الممجدة بصليب العار ؟ أليس ابن الإنسان رسول الله المرسل إلى البشرية على رأس قوات الجند السماوى ؟ أى اتفاق لصليب العار مع أمجاد ابن الإنسان فى ملء قوته ؟ أليس ملكوته مالا يزول ، وسلطانه مالا ينقطع ؟ «سلطانه سلطان أبدي مالن يزول ، وملكوته مالا ينقرض » (دانيال ٧ : ١٤) ، أما ورد القول عن رئيس العصر الذهبى «وعبدى داود رئيس عليهم إلى الأبد» (حزقيال ٣ : ٢٥) أما قال «إشعياء» عن ملك العهد الجديد « لنمو رياسته وللسلام لانهاية » (إشعياء ٩ : ٧) ألم يترنم المرنم فى مزموره بأعجاد ذلك الملكوت الأبدى قائلا بلسان القدير ..

« إلى الدهر اثبت نسلك وابنى إلى دور فدور مملكتك » (مزمور ٨٩ : ٤) لقد كان اليهود يربطون ما بين ابن الإنسان ، وبين أمجاد الملكوت الأبدى والعصر السعيد القادم . وهاهو «يسوع» يربط ابن الإنسان بخزى الصليب ، وعاره ، وقسوته . فأى صنف يكون ابن الإنسان هذا ؟ . وأى ملكوت يكون هذا الذى ما إن يبدأ بدايته ، حتى ينتهى ؟

ولكن منطق التاريخ والاجتماع ينادى بأن «يسوع» كان على حق . لقد علق «يسوع» كل آماله ، ورجائه ، على جاذبية صليبه . ولقد ثبت بالفعل أن صليب المحبة والفداء ، كان وما يزال ، وسيظل للأبد قوة جبارة جاذبة تجذب الشعوب ، والممالك ، والأفراد إلى مسيح الجلجثة ، ويبقى خالداً رفيعاً مجيداً ، حتى بعد زوال قوة العالم ، وبطشه ، وسلطانه .

إن الحقيقة تبقى أن الإمبراطوريات التي قامت على السيف والنار ، تتوارى الواحدة بعد الأخرى . وأن الجبابرة الذين دوخوا الإنسانية في موكب مطامعهم وأحقادهم ، يطويهم التراب الواحد بعد الآخر ، . ولكن الملكوت العظيم الشامل الذي أسسه يسوع بالصليب ، يمتد ، ويتزايد ، وتتسع رقعته جيلاً بعد جيل .

في مسرحية «جان دارك» كما صورها الكاتب المسرحي الساخر «برناردشو» ، نرى شهيدة الرون تقترب من نهايتها ، وقد خانها أبناء أمها ، وهي تنظر إليهم وتقول .. «سوف أمضى .. نعم سأمضى إلى أولئك البسطاء أصحاب القلوب الفائضة .. نعم سأذهب إليهم ليعوضني بريق الحب في عيونهم عن التعزيات التي التمسها ولم أجدها في أحقادكم . ولعلكم سوف تستريحون حينما تشاهدون النيران تشتعل في جسدي ، ولكني أقول لكم إنني في وسط النيران سأجتاز إلى قلوبهم الرحبة ، إلى أبد الآباد » . هذا رمز لما حدث ليسوع ، وصورة مصغرة . لقد كان موته على الصليب هو الطريق الذي اجتاز فيه إلى البشر إلى أبد الدهور ، قد يكون مسيح اليهود الظافر المنتصر ، قد استنزف أجمل ساعات العمر ، في حياة أكثر من كاتب وأديب ليسطر عنه بنات أفكاره . واقتضى من المؤرخين الجهد والعناء ، ولكن رئيس المحبة والسلام على صليب العار ، ملك قد تأسس عرشه الخالد السرمدي في قلوب البشر أجمعين ، إن الأساس الثابت الوطيد لأي ملكوت عظيم خالد ، هو المحبة الباذلة المضحية .

أبناء النور

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ النُّورُ مَعَكُمْ زَمَانًا قَلِيلًا بَعْدُ .
فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمْ النُّورُ لِئَلَّا يُدْرِكَكُمْ الظُّلَامُ . وَالَّذِي
يَسِيرُ فِي الظُّلَامِ لَا يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ . مَا دَامَ لَكُمْ
النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ . تَكَلَّمَ يَسُوعُ
بِهَذَا ثُمَّ مَضَى وَاخْتَفَى عَنْهُمْ

(يوحنا ١٢ : ٣٥ - ٣٦)

في هذه الفقرة نجد الوعد الأكيد . جنبا إلى جنب مع التهديد والوعيد .
وكل من الوعد والوعيد له مكان في جوهر الإيمان المسيحي .

١ - فهناك الوعد لنا بالنور : « النور معكم » إن الذي يسير برفقة « يسوع »
يسير في النور . الذي يسير مع يسوع يتخلص من الظلال ، والظلام . هناك
أكثر من ظل تتخبط في استاره البشرية .

هناك ظل الخوف . ألم يحدث لنا ، أننا خشينا أن نتطلع إلى ما هو أبعد من
موطئ أقدامنا ؟ ألم يحدث أننا توقعنا تغييرات عديدة أن تحدث في فرصة
الحياة أما منا ، وكنا في توقعنا أكثر من خائفين ؟ ألم تعترنا الرهبة في
إنتقالنا من بلد إلى بلد ومن مجتمع إلى مجتمع ؟ ألم نشعر بالخوف في

اللحظات الحاسمة من حياتنا : عند إقدامنا على اختيار مهنة الحياة ، أو عند الارتباط بشريك الحياة ؟

وهناك ظل الشك والتردد : حينما نقف في مفترق الطرق ، ولا نعرف أى الطريقين نسلك . فالضباب أمام عيوننا يلف كل شيء ، فتتخبط في طريقنا ولا ندرى ، وهناك ظل الأحزان ، حين تختفى الشمس ساعة الظهيرة ، وتنطفيء النجوم في ليلنا . ونحس كأن الدنيا خلت من الحبيب أو الصديق .

واكن الذى يختار «يسوع» رفيق الطريق ، يتحرر من مخاوفه . . من شكوكه ، ويمتلئ بثقة كاملة لا تستطيع أية قوة أن تنزعها من قلبه . . بفرح عظيم لا تقوى أحزان العالم أن تنزعه أو تطفئه . فطريقه في النور ، نور العالم ، وليس في الظلام ، ظلام هذا الدهر . لأن محضر «يسوع» يحول الظلام إلى نور .

٢ - ولكن هناك التهديد : إن عزمنا على اتباع «يسوع» .. على السير معه .. على إبداع نفوسنا ، وحياتنا وكياننا ، ومصيرنا ، وأبديتنا ، بين يديه ، ينبغى أن يتم في الحال ، وإلا فلن يحدث على الإطلاق . هناك واجب نستطيع أن نتممه ، . ولكن إذا كانت لنا القوة ، وإذا غنمنا الفرصة . ، فإن الدرس والتحصيل واجب ، ولكننا لا نستطيع القيام به إلا في قوة الذاكرة وصفاء الذهن . الكلمة في وقتها واجب ما أحسنه . ولكن إذا ضاعت الفرصة ، ضاع أثرها وأصبحت في غير موضعها ، وهكذا الأمر في السير مع «يسوع» .. في اختياره رفيق الحياة ورفيق الطريق . في نفس اللحظة التي نادى فيها «يسوع» بكلماته هنا ، كان يتقدم لليهود ربما بالفرصة الأخيرة ليؤمنوا به ، فينالوا الحياة . ليسيروا برفقته فيشرق عليهم النور لينتتموا الفرصة قبل أن يرتكبوا خباياهم الكهري ، ويقف الصليب كالجرمة

العظمى ، التى تجعل الآب ينتزع الملكوت من أيديهم . ويفتح الباب
لأمة أخرى تعطى ثماره . من الأمور المؤسفة أن فرص التجديد تزداد
تصاعدياً حتى سن السابعة عشرة ، ثم تقل تنازلياً حتى تصل إلى منتهاها
فى الثلاثين . وبعد الثلاثين ، يكون من الصعب جداً على الإنسان أن يغير
طريق حياته ، ويبدأ بداية جديدة مع «يسوع» . إن الذى يرفض الفرصة
المقدمة إليه مرة بعد أخرى ، يتقسى قلبه ، ويزداد توغلاً فى طريقه ، حتى
يصبح من الأمور القاسية عليه ، أن ينتزع نفسه إنتزاعاً فى المسيح يقدم الله
للإنسان اسمى مراتب البركة والنعمة — من الجانب الواحد ، يقول الله لنا
إن الفرصة مازالت أمامنا ، ومن الجانب الآخر ، يحذرنا من أنها قد تفلت
منا ، وأن علينا أن نغتنمها فى التو واللحظة .

عدم الإيمان الأعمى

وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هَذَا عَدَدُهَا
لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ . لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الَّذِي قَالَهُ يَارَبُّ
مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا وَلِمَنْ اسْتَعْلَنْتُ ذِرَاعُ الرَّبِّ . لِهَذَا
لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا . لِأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضاً . قَدْ أَعْمَى
عُيُونَهُمْ وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ لئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَشْعُرُوا
بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَاشْفِيَهُمْ . قَالَ إِشَعْيَاءُ هَذَا حِينَ
رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ .

(يوحنا ١٢ : ٣٧ - ٤١)

هذه الفقرة سببت الحيرة والارتباك لكثيرين . إن البشير يورد فيها
إقتباسين من نبوات إشعياء . الواحد من العديدين الأولين للاصحاح الثالث
والخمسين ، وفيه يتساءل النبي عما إذا كان هناك من عرف قوة الرب حينما
استعلنت ، أو آمن بخبره حينما نادى به . أما الاقتباس الثاني فهو أصعب
الاثنين ، وهو الذي يقف أمامه العقل البشري في حيرة . هذا الاقتباس
الثاني نجد له قريناً في (اشعياء ٦ : ٢ ، ١٠) « فقال - أي الرب - .
إذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا ، وابصروا إبصاراً

ولا تعرفوا . غلظ قلب هذا الشعب ، وثقل أذنيه ، واطمس عينيه .
لئلا يبصر بعينه ، ويسمع بأذنيه ، ويفهم بقلبه ، ويرجع فيشفي .» نفس
الفقرة نجدها تتردد صريحا ، أو في اقتباس ، في (متى ١٣ : ١٤ ، ١٥ ،
مرقس ٤ : ١٢ ، لوقا ٤ : ١٠ ، رسالة رومية ١١ : ٨ ، كورنثوس
الثانية ٣ : ١٤) . على أن اللغز المحير الذي تنطوى عليه ، والمبدأ الخطير
الذي تعلنه ، إن جاز لنا التعبير ، أن الله هو الذي يدفع بالإنسان إلى
قساوة القلب وعمى البصيرة ، وانسداد الأذنين ، فينتهي به الأمر إلى
المصير الرهيب . أوبكلمات أخرى ، أنه حينما تلتوى السبيل بالإنسان ، فيجتاح
إلى طريق الخطأ والشر ، ويغلق أمامه باب الإيمان ، فإن الله هو الذي أغلق
الباب أمامه ، أو أغلق قلبه وبصيرته وضميره ، حتى لا يدخل فيجد الحياة .

مهما حاولنا أن نجد من التبريرات ، أو التأويلات ، لمثل هذه الآية ، فمن
العسير جداً أن نصل إلى تفسير مرض . فكيف يمكن أن يقسى الله قلب
إنسان حتى يهلك في خطاياهم ؟ في هذه الحالة لابد وأن تلتفت مسئولية البشر ،
وتنتهي بالتالي مديونيتهم ومدنوبيتهم في نظر الله ، وكيف نضع هذه
الحقيقة بجوار حقيقة إله المحبة الذي أحب العالم كله حتى بذل ابنه
الحبيب في سبيل خلاصه ؟

هناك أمران يمكن أن نواجه بهما هذه الفقرة .

١ - الأمر الأول أننا ينبغي أن نتبع التسلسل المنطقي في سياق حديث اشعيا ،
أو حديث الله لأشعيا . لقد تقدم النبي إلى شعب اسرائيل ، برسالة
الله ، وأعلن لهم حق الله . لقد تقدم إليهم برسالة الله بكل ما آتاه الله
من قوة وتأثير ، فاذا بهم يصمون آذانهم ، ويقسون قلوبهم . وكأني
باشعيا يقول : « لقد تقدمت إليهم برسالة الصلاح والمحبة كالم يتقدم

إليهم بها إنسان آخر . وبدلاً من أن تأتي الرسالة بالثمر المطلوب .. بدلاً من أن ترفعهم إلى مستوى أفضل ، إذا بهم يندفعون إلى حال أردأ . إنهم بعنادهم وقساوتهم ، وتمرد قلوبهم ، كأني بهم قد حولوا واسطة البركة والنعمة ، إلى واسطة لعنة وقساوة . . كأني بالله يقول لي أذهب قس قلوبهم .. زد عما هم عمي .. صم أذانهم ، لئلا يحسوا بقلوبهم ويسمعوا بأذانهم ، ويبصروا بعيونهم ف يرجعوا وأشفاهم » . هذا قول «أشعيا» نفسه . وهو قول نابع من نفس متمرمة ، وقلب منكسر . من نفس اكتشفت أن رسالة الحياة قد تحولت في قساوة سامعيها إلى واسطة موت . ورسالة البركة قد تحولت في عناد من قدمت إليهم إلى واسطة لعنة . إن علينا قبل أن نقرأ هذه السطور في حرفيتها الجامدة ، أن نضع في مخيلتنا مرارة قلب من نطق بها ، وانكساره بسبب جحود سامعيه . إنها كلمات مبشر ألقى البذار على تربة ممتلئة بالشوك ، وقاد محرائه ولكن على الصخر الصلد ، وروى التربة بعرقه ودموعه ، فاذا بها تنبت له الحسك والقناد.

٢ - ولكن هناك أمراً آخر، ينبغي أن نضعه في الاعتبار . فلقد كانت إحدى العقائد الرئيسية في الإيمان اليهودي ، أن الله وراء كل شيء . . كل أمر يحدث في الوجود . فلا شيء يحدث خارج دائرة مقاصد الله ، حتى جحود الإنسان وعدم إيمانه ، حتى عدم الإيمان هذا، هو داخل دائرة هدف الله الأزلي . فهو الذي يسيطر على قلوب الناس، وهو الذي يتسلط حتى على عدم إيمانهم وجحودهم .

وإذا جاز لنا أن نترجم هذه العقيدة إلى لغة العصر ، فإننا لانقول إن عدم إيمان البشر هو هدف الله وقصده ، بل إن الله في حكمته وقدرته السرمدية ، يستطيع أن يستغل حتى عدم إيمان الإنسان وجحوده

وتمرده لاطهار مجده ، وإتمام مقاصده . فلن يعوقه عائق عن إتمام أغراضه بل حتى شر الشرير ، لا بد وأن يتمم أغراض الله ومقاصده . هذه هي طريقة رسول الأمم ، حينما تعرض لهذا المشكل . فعدم إيمان اليهود ، وقساوتهم ، وعنادهم ، قد استخدمه الله واسطة لخلاص الأمم ، وفتح الباب أمام البعيدين . إن عدم إيمان اليهود ، لم يعطل إتمام مقاصد الله ، بل بالحرى كان الطريق لإتمام تلك المقاصد . وإغلاق الدائرة الضيقة ، قد فتح الباب لدائرة أعظم وأكثر إتساعاً .

حينما تعرض لنا فقرة نظير هذه ، علينا أن نذكر أن الله غير مجرب بالشور ، وهو لا يجرب أحداً . وإلا فلما إذا يدين الخاطيء ؟ بل علينا أن نعرف بأن المقصود ، هو أن الله في حكمته وقوته السرمدية ، يستطيع أن يستخدم حتى خطية الإنسان لإتمام أغراضه . لقد جاء مسيح الله إلى اليهود . مقدما لهم رسالة الله ، كاشفا لهم قلبه . . . معلنا لهم حبه . لكنهم رفضوا الرسالة ، وتمردوا على المحبة ، وتآمروا على الرسول . هذه خطيتهم هم التي عليها يدانون ، وبسببها يتحملون النتائج المرة . . . ولكن حتى هذه الخطية لها مكانها في دائرة مقاصد الله . . . في برنامج الله الأزلي وهكذا استخدمها الله واسطة لخلاص شامل . إن الله أعظم وأسمى من أن نغيظه بخطايانا ، ونعطل إتمام مقاصده بعصياننا . فهو يستخدم حتى خطيتنا وعصياننا لتمجيد اسمه ، وإتمام قصده .

إيمان الجبناء

وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَيْضاً
غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ لئَلَّا يَصِيرُوا
خَارِجَ الْمَجْمَعِ . لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ
مَجْدِ اللَّهِ .

(يوحنا ١٢ : ٤٢ ، ٤٣)

إن «يسوع» لم يتحدث على الدوام إلى آذان صماء . لقد كان هناك البعض حتى من رجال السلطات اليهودية ، يقبلون تعاليمه ، ويؤمنون به ، ولكن في قلوبهم . لقد كانوا يخافون أن يعلنوا إيمانهم على رؤوس الأشهاد . لأنهم كانوا يخشون عقاب السلطات ، والفرز من الهيكل . هؤلاء كانوا يتبعون سياسة مستحيلة : لقد أرادوا أن يكونوا تلاميذ ليسوع ، ولكن خفية في السر . وكما يقول الكاتب ، مناقضة في التعبير ، فلا يوجد ما يسمى بالتلمذة الخفية ..

إما أن السرية تقتل روح التلمذة ، أو أن التلمذة الحقيقية تنتصر على السرية ، وتنتهي وجودها . فلا يوجد في الإيمان المسيحي أدنى توفيق بين الحالتين ، ولكن أولئك أرادوا أن يصنعوا المستحيل . لقد كانوا يخافون أن يصبحوا مسيحيين ، لأن كونهم يصبحون مسيحيين معناه ، أن يخسروا الكثير . وكم من المرات تختلط القيم في نظر الناس ، ولا تبدو الحدود واضحة . وكم من

المرات ، يتخلى الناس عن مساندة مبدأ عظيم ، لأن هذا المبدأ يتعارض مع مصالحهم التافهة .

حينما عرفت « جان دارك » أن الكل قد تخلى عنها ، وأنها أصبحت وحيدة هتفت « نعم . لقد أصبحت وحيدة معزولة ، وطيلة العمر كنت كذلك . لقد طلب أبى من إخوتى أن يغرقونى فى مياه البحر ، إن رفضت أن أبقى معهم لحراسة أغنامه . لقد كانت فرنسا تنزف دما ، ولكن ماذا يهم أبى ؟ لتذهب فرنسا إلى الجحيم مادامت أغنامه تبقى سليمة » وكم من واحد نظير هذا الفلاح الفرنسى ، يفضل حفنة من الأغنام على شعب وأمة بأسرها .

هكذا كان أولئك الرؤساء . لقد كانوا يعرفون فى قرارة نفوسهم أن « يسوع » على حق .. كانوا يعرفون أن زملاءهم يسعون سعياً حثيثاً ليهلكوا « يسوع » ، ويهلكوا — إن أمكن — عمل الله فيه وبواسطته . ولكنهم ما أرادوا أن يتحملوا مسئولية الوقوف إلى جواره ، واحتمال التضحية إلى جانبه ، والاعتراف به علناً أمام الجميع ، مما يجبر عليهم الكثير من المتاعب . لقد كان الاعتراف بيسوع يعنى بالنسبة لهم نهاية مراكزهم ، ومطامعهم ، ومقتنياتهم وكل شىء . كان هذا يعنى العزل من الحياة الاجتماعية ، والعزل من المجتمعات الدينية أو المحامع ، وهذا أقسى من أن يحتمله يهودى . لقد كان الثمن باهظاً ، وهكذا عاشوا فى أكدوبة كبرى ، لأنهم لم يحسوا بأن لهم الكفاية التى يلاقون بها الحق ويسرون فى ركابه ..

وفى جملة واحدة ، يشخص « يوحنا » موقفهم . لقد فضلوا أن يقفوا مع الله . لقد فضلوا أن تكون لهم العلاقة الطيبة مع الناس ، على أن يكونوا فى علاقة طيبة مع الله . وفى موقفهم هذا كانوا يظنون أن هذا عين الحكمة والتصرف الصائب .. كانوا يظنون أنهم يلعبون على الجواد الرابع . ولكنهم

ما كانوا يعرفون أن رضى البشر لساعة ، وأن دينونة الله وعدالته إلى قيام الساعة . إنهم قد يصرفون أعواماً قليلة في سلام مع البشر ، لكنهم بهذه الأعوام يبيعون أبديتهم ، ومكافأتهم . من الحكمة والتصرف السليم أن نفضل رضى الله ، على رضى الناس ... أن نحسب حساباً للأبدية الطويلة على سنوات الحياة القليلة .

الدينونة الحتمية

فَنَادَى يَسُوعُ وَقَالَ . الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ
بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي . وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي .
أَنَا قَدْ جِئْتُ نُورًا إِلَى الْعَالَمِ حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي
لَا يَمُوتُ فِي الظُّلْمَةِ . وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلَامِي وَلَمْ يُؤْمِنْ
فَأَنَا لَا أَدِينُهُ . لِأَنِّي لَمْ آتِ لِأَدِينِ الْعَالَمَ بَلْ لِأُخَلِّصَ
الْعَالَمَ . مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلَامِي فَلَهُ مِنْ يَدَيْنِهِ .
الْكَلَامُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ .
لِأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الْآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ
أَعْطَانِي وَصِيَّةً مَاذَا أَقُولُ وَمِمَّاذَا أَتَكَلَّمُ . وَأَنَا أَعْلَمُ
أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَوَةٌ أَبَدِيَّةٌ . فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَا قَالَ
لِي الْآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ

(يوحنا ١٢ : ٤٤ - ٥٠)

هذه بحسب الترتيب المنطقي للأحداث في البشارة الرابعة ، هي آخر
كلمات نطق بها المسيح للجماهير ، بعد هذا نجده ينفرد مع تلاميذه ، معلما

إياهم ، ومشدداً قلوبهم ، وبعد ذلك نراه واقفاً أمام «بيلاطس» متحدثاً إليه ،
ولسكن في هذه الفقرة نرى ختام حديثه إلى الجموع .

في هذه الكلمات ، نرى «يسوع» ينادى بالحق الأساسى ، الذى هو جوهر
حياته كلها : هذا الحق أن «يسوع» هو إعلان الله للبشر ، وأن البشر فى
مجاہتهم ليسوع ، يجابهون الله ، ويواجهونه ، ويحددون موقفهم منه .
فالذى يصغى إلى صوت «يسوع» ، يصغى إلى صوت الله ، والذى يرى
«يسوع» يبصر الله فيه ، والذى يقبل «يسوع» يقبل الله . هذا هو تفرد «يسوع» على
الأجيال جمعاء — فى «يسوع» يلتقى الله بالبشر ، وتواجه البشرية إلهها . وهذه
المواجهة لها نتيجتان . وكل من هاتين النتيجتين ، يحدد معنى الدينونة
وجوهرها بالنسبة للمسيحى .

١ — هنا يعيد معلم الأجيال ، نفس الفكر الذى يتكرر بين حين وآخر
فى البشارة الرابعة ، فلم يأت السيد إلى العالم ليدين البشر . بل جاء هدى
ورحمة وخلاصاً للعالمين ، لقد أتى ليخلص البشرية .. فالله لم يرسل
الإبن الحبيب إلى العالم بروح النعمة ، والغضب ، بل بروح المحبة . ومع
ذلك تبقى الحقيقة التى لا مفر منها ، إن مجيء «يسوع» إلى العالم يتضمن دينونة
العالم . وكيف هذا ؟ ذلك لأن الإنسان فى موقفه من «يسوع» من رفض أو
قبول ، يحكم على نفسه ، أو يحكم لها . يصدر حكم الدينونة على نفسه
بنفسه ، فإذا اكتشف فى «يسوع» الجاذبية العظمى ، فتعلق قلبه به وارتبط
ارتباطاً ، فهو قد دخل دائرة الأمان ، ولكنه إن لم يكتشف شيئاً فى يسوع
ولم ينجذب قلبه إليه ، وأدار له ظهره ، واحتقر خلاصه ، فهذا يعنى
أنه فى دائرة أبعد من دائرة مغناطيسية «يسوع» . وأن قلبه من الجمود بحيث
لم تؤثر فيه جاذبيته وقوته : فهو فى دائرة الحكم والدينونة — على الدوام

تكتشف في البشارة الرابعة هذا الحق الذي يبدو في ظاهره متناقضاً متضارباً ، أن يسوع أتى في روح المحبة ، وأن مجيئه يتضمن الدينونة . وكما قلنا نعود فنكرر ما قلناه من قبل بكلمات أخرى ، إننا قد نقدم في روح المحبة اختباراً أساسياً لإنسان ما . فنجده يفشل أمام هذا الاختبار ، ويخيب انتظارنا فيه ، ويظهر في كيانه ما لم نكن نتوقعه أو نكتشفه ، لو لم نتقدم إليه به ، إن ذلك الاختبار تقدمنا به في روح المحبة ، ولكنه حينما واجهناه به كشف في كيانه عيباً ، وأظهر قصوراً ، حتى أن نفس الاختبار الذي قدم في روح المحبة ، قد تحول إلى دينونة . إن « يسوع » هو حجر المحك الذي يتقدم به الله ليمتحن البشر . وبموقف الإنسان من « يسوع » يكشف الإنسان عن معدن ذاته ، ويصدر الحكم على نفسه .

٢ - ويقول « يسوع » أيضاً في هذه الفقرة ، إنه في اليوم الأخير تصبح نفس الكلمات التي سمعها البشر شاهدة عليهم ، وهذه هي إحدى الحقائق العظيمة في الحياة ، إن الإنسان لن يوجه إليه اللوم ، ولن يصدر عليه الحكم لأجل حق لم يسمعه على الإطلاق ، ولم تكن له الفرصة لسماعه ، ولكنه إذا عرف الحق ، واقتنع بصحته ، ولكنه سلك سلوكاً مغايراً لذلك الحق ، فدينونته تكون أشد وأقسى ، على هذا الأساس تكون كل كلمة .. كل تعليم .. كل وصية قدمت إلينا ، وكذلك كل فرصة عرضت لنا لنقبل الحق ، ونعمل به ، هي في النهاية ضمن الشهود التي تديننا في اليوم الأخير .. هناك لاهوتي معروف عاش في القرن الثامن عشر ، وقدم أصول الإيمان في صورة سؤال وجواب للبسطاء ، وفي ختام كتابه عرض لهذا السؤال : ماذا يحدث لإنسان يرفض الحق المسيحي ، ورسالة المسيح ؟ ثم يجيب : قد حلت به الدينونة ، وهو في انتظار الدينونة الأعظم . ثم يقول ، وعلى الأخص ، لأن مثل هذا الكتاب قد وقع في يديه ، وأعلن له الحق في كلماته .

إنه تحذير يتقدم به «يسوع» لكل واحد منا. إن كل ما سمعناه ، وما عرفناه ،
وما قدم إلينا ، سواء في الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، أوفى فرص الخلاص ،
أو في معاملات الله معنا ، لا بد وأن ينقلب شاهداً علينا ، يديننا في
اليوم الأخير .

التاج على رأس الخدمة

الأصحاح الثالث عشر

أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ
قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الْآبِ إِذْ كَانَ قَدْ
أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى .
فَحِينَ كَانَ الْعِشَاءُ وَقَدْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا
سِمْعَانَ الْإِسْخَرْيُوطِيَّ أَنَّ يُسَلِّمَهُ . يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ
الْآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجَ
وإِلَى اللَّهِ يَمْضِي . قَامَ عَنِ الْعِشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ
مِنْشَفَةً وَأَتَزَرَ بِهَا . ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَأَبْتَدَأَ يَغْسِلُ
أَرْجُلَ التَّلَامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَزَرًّا بِهَا .
فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ فَقَالَ لَهُ ذَاكَ يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ
رِجْلِي . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ لَسْتُ تَعْلَمُ أَنْتَ الْآنَ
مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ . قَالَ لَهُ بُطْرُسُ

لَنْ تَغْسِلَ رِجْلِي أَبَدًا . أَجَابَهُ يَسُوعُ إِنَّ كُنْتَ لَا أَغْسِلُكَ
فَلَيْسَ لَكَ مَعِيَ نَصِيبٌ . قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَا سَيِّدُ
لَيْسَ رِجْلِي فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي . قَالَ لَهُ يَسُوعُ
الَّذِي قَدْ أَغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَّا إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ
طَاهِرٌ كُلُّهُ . وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ . لِأَنَّهُ
عَرَفَ مُسَلِّمَهُ . لِذَلِكَ قَالَ لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ

فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ
أَيْضًا قَالَ لَهُمْ أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ . أَنْتُمْ
تَدْعُونَنِي مُعَلِّمًا وَسَيِّدًا وَحَسَنًا تَقُولُونَ لِأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ .
فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ
فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ .
لِأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالًا حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ
أَنْتُمْ أَيْضًا . الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ
مِنْ سَيِّدِهِ وَلَا رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ . إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا
فَطُوبَى لَكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ .

(يوحنا ١٣ : ١ - ١٧)

سوف نتأمل هذه الفقرة في أكثر من جانب ، ولكن علينا قبل كل شيء ، أن نتأمل فيها أولاً بصورة عامة .

هناك أحداث كثيرة في قصة الإنجيل ، مثل هذه الحادثة ، تكشف بحق عن شخصية «يسوع» ، وتظهر محبته . وبتأملنا في من هو «يسوع» ، وما كان عليه . وما دفعته المحبة إليه ، يملكنا العجب العجيب ، أمام محبته الفائضة .

١ - يقول البشير : «يسوع» وهو عالم أن كل شيء قد دفع إليه ، هذا هو الجانب الأول في الصورة التي أمامنا . إن «يسوع» كان يعلم أن كل سلطان قد دفع إليه ، في الوقت الذي كان يعلم فيه ، أن الآلام والعار والموت تنتظره . فساعته قريبة ، ساعة هوانه ، وساعته أيضاً قريبة ساعة أمجاده . إن عرش الصليب ينتظره ، وعرش المجد أيضاً ينتظره . مثل هذا الفكر ، وهذا الإحساس ، كان يمكن أن يملأه بالكبرياء والاستعلاء . ولكنه أخلى عنه كل شيء ، وفي اتضاع ، اتخذ مركز الخادم والعبد ، وغسل أرجل تلاميذه . وفي الوقت الذي كان ممكناً أن يرتفع فيه إلى أسمى درجات استعلائه ، وصل إلى أقصى درجات اتضاعه . هذه هي المحبة الصادقة . حينما يحدث في أسرة مئاسكة محبة ، أن فرداً منها يقع مريضاً ، فإن الشريك الآخر المحب ، يبدو على أتم استعداد أن يقوم بأوضع الأعمال وأكثرها هواناً ، ويجد سروره الكامل في ذلك . . . في بعض الأحيان يظن الإنسان أنه أرفع من أن يقوم بعمل من الأعمال . إن مكانته لا تسمح له بأن يمد يديه إلى عمل وضيع من شأنه ، بحسب تفكيره ، أن يحط من مقامه ومركزه . ولكن «يسوع» لم يكن كذلك . لقد كان رب المجد يعلم تمام العلم ، أنه رب على الكل . ومع ذلك خلع عنه ثياب الترفع ، واتخذ منشقة الخدم واثزر بها ، وصب ماء في مغسل ، شأنه شأن العبيد ، وراح يغسل أرجل تلاميذه .

٢ - ولقد كان «يسوع» يعلم كما أسلفنا ، أنه من عند الآب أتى وإلى الآب يمضى . وكان ممكنا أن يجربه هذا الشعور بالاستعلاء على أبناء التراب . بالاحتقار لهذا العالم وما فيه . فالرسالة قد أكملت . والرسول على وشك العودة إلى مرسله ، فماذا يهمه بعد من البشر وعالم البشر ؟ إن خطواته تقترب من الله ، فلماذا يهتم بالعالم ؟ ولكن يبدو لنا ، أنه كلما ازداد اقترابا إلى الله زاد إغراقا في محبته للبشر ، ونزولا إلى أقصى درجات الخدمة الوضيعة . لقد كان غسل أرجل الضيوف في وليمة محبة هو واجب العبيد ووظيفتهم . حتى التلاميذ التابعين لأى معلم ، لم يكن معلمهم ينتظر منهم أن يصلوا إلى هذا المستوى في خدمته . ولكن من العجب أن «يسوع» رغم وصوله إلى الخطوات النهائية في خدمته واقترابه من الآب وأعجاده ، ووقوفه على عتبة اتمام رسالته ، قد اقترب أكثر إلى قلوب تلاميذه ، ونزل درجة أعظم في مستوى خدمته الاتضاعية . إن الذى يكون أكثر قربا إلى الله ، هو الذى يكون أكثر اقترابا إلى البشر .

هناك تقليد يروى عن « القديس فرانسز الأسيسى » يقول إنه كان في شبابه ثريا إلى حد كبير . كان ارستقراطيا من أسرة ارستقراطية . وكان معتادا على نعومة العيش . ولكنه لم يكن مستريح البال . ولم يكن حاصلا على السلام في أعماقه . وفي يوم من الأيام ، كان راكبا جواده في طريق منفرد خارج المدينة . فإذا به يرى فجأة انسانا ممتلئا بالبرص الكريه ، وقد تحول جسده من هامة الرأس إلى باطن القدم ، إلى قرح واحد كثيب . كان الأبرص قادما في الطريق المقابل . ولقد كان طبيعيا أن الشاب المنعم يلوى عنان جواده ويسرع عائدا إلى المدينة ، أو يطلق العنان لجواده هاربا منه . ولكن شيئا تحرك في أعماق «فرانسز» فترجل

وتقدم مسرعا إلى ذلك التعس المعذب ، فاتحاً ذراعيه له ، ثم ضمه إلى صدره وقبله هاتفا : « ياأخى . . ياأخى . » وإذا بذلك الأبرص المشوه يتحول بين ذراعيه إلى شخص المسيح .

إننا في اقترابنا من الله، نقرب أكثر من أخوتنا. وفي اقترابنا من أخوتنا نقرب بالتالى من الله .

٣ - شئ آخر كان يعلمه «يسوع» : لقد كان يعلم أن واحداً سيخونه ويسلمه إلى الأعداء . هذه المعرفة كانت كفيلة بأن تحول مشاعر أى انسان عادى إلى الحقد والمرارة، أو على الأقل إلى الإنطواء الحزين . ولكن يبدو وكأن هذه المعرفة، قد زادت محبته للبشر أكثر من ذى قبل . لقد جعلت قلبه يفيض أكثر بروح الحب . إن الحقيقة العجيبة عن «يسوع» هى أنه كلما زاد الناس فى بغضهم له ، وتدبير المؤامرات ضده ، زاد هو محبة لهم - من السهل اليسير أن يوجب التصرف الرديء من نحو انسان ما ، نيران الحقد والغضب ، والمرارة . ولكن «يسوع» قابل أعظم اساءة فى التاريخ وأعظم خيانة عرضت لإنسان ، بروح الاتضاع والمحبة الفائقة .

التاج على رأس الخدمة

(يوحنا ١٣ : ١ - ١٧)

ولكن هناك سابقة لهذه الحادثة ، لم يذكرها «يوحنا»، لكنها وردت فى بشارة لوقا . ولو درسنا قصة العشاء الأخير، كما وردت فى بشارة لوقا ، لوجدنا فى مستهل القصة « وكانت بينهم مشاجرة من منهم يظن أنه يكون أكبر » لوقا ٢٢ : ٢٤) . وياله من تصرف لا يليق من جانب التلاميذ .. حتى فى طريقهم إلى الاجتماع الأخير مع السيد . . حتى وشبح الصليب

والموت والهوان، يبدو مخبياً على معلمهم، يتشاجر التلاميذ أحدهم مع الآخر
فيمن يكون الأعظم، ومن يحتل مركزاً أسمى .

يبدو لنا أن مشاجرة مثل هذه، أوحى للسيد بمثل هذا التصرف . بل
يبدو أن الضرورة أوحى بذلك . فطرقات فلسطين كانت غير معبدة ،
ممتلئة بالقاذورات ، وفي فصل الجفاف ، كانت الأقدام تغوص في الأوحال . زد
على ذلك أن الطبقات العادية ، نظير التلاميذ ، كانت تنتعل حذاء مكونا
من سيور متشابكة . وهذا يجعل القدم عارية ، أكثر عرضة للأوساخ .

وبسبب هذا ، كانت توجد أجران عند باب البيت أو مدخله ، ممتلئة بالماء ،
ولمّا جوارها يقف الخادم متزراً بمئذرة ، ومعه مغسلة ، ويحمل على كتفه
منشفة ، ويقوم بغسل أرجل الضيوف ، قبل دخولهم إلى المنزل . ولكن جماعة
«يسوع» لم يكن لهم من يخدمهم .

ولقد كان الواجب يحتم ، أن يقوم واحد من التلاميذ ، بهذا الدور
المتواضع . ولعل كل واحد نظر إلى أخيه في استعلاء ، خاصة وان
مشادة كانت قد وقعت بينهم قبل ذلك ، حول من يكون الأعظم — لقد كانت هناك
المنشفة ، والمغسل ، والماء للأغتسال . ولعل صاحب العلية قد أعد
أدوات الأغتسال ، على أمل أن يأتي «يسوع» وجماعته ، ومعهم خادمتهم .
وربما نلتمس له العذر ، أنه لم يكن له خادم — قصارى القول أنه كان
من المنتظر ، أن يقوم واحد من التلاميذ بهذا الواجب . فلما رأى «يسوع»
موقفهم ، أراد أن يعلمهم هذا الدرس ، فقام بنفسه بغسل أرجل التلاميذ .

وهكذا قام «يسوع» بما لم يكن أى واحد منهم ، على استعداد أن يقوم به ،
وبعد أن غسل أرجلهم قال لهم : «اتفهمون ما قد صنعت بكم . انتم تدعوننى

معلما وسيدا وحسنا نقولون لأننى أنا كذلك . فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم ، فأنتم يجب عليكم أن بغسل بعضكم أرجل البعض . الحق الحق أقول لكم أن ليس عبد أعظم من سيده ، ولا رسول أعظم من مرسله .. لأننى أعطيتكم مثالا حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً ..

إن تصرف السيد فى هذه الفرصة ، خليك أن يدفعنا للتأمل . فكم من مشادة تقع فى كنائسنا ومجتمعاتنا الروحية ، لأجل التنافس على المراكز . وكم من مشاجرة تنشب حتى بين أصحاب المنابر ، لأن الراعى المناسب لا يجد له المنبر المناسب . هنا يقدم لنا «يسوع» الدرس والمثال ، إنه لا يوجد سوى نوع واحد من العظمة ، هو عظمة الخدمة . إن العالم ملئ بأناس يقفون مكتوفى الأيدي ، رؤوسهم إلى فوق ، فى الوقت الذى كان ينبغى أن يركعوا فيه على ركبهم أمام حاجات إخوتهم . ان الأنانية ، وحب الذات ، والأثرة ، والمنفعة الذاتية ، والكبرياء ، كثيرا ما تفسد برنامجاً طيباً لخير المجتمع . فلا يوجد من يرضى بالمركز الوضع . ربما يقتضى الأمر فى وقت من الأوقات الاستدعى لآعب الكرة للأشتراك فى مباراة ، فيدفعه هذا التصرف إلى التخلي عن فريقه نهائياً . أحيانا تتخطى الترقية موظفاً ما ، ويفوز بمركز أفضل من هو أقل منه أهلية . فتكون النتيجة أن يهمل هذا الموظف عمله أو يهجره ..

وقد يحدث بين أعضاء الكنيسة ، أن يظهر الراعى حبا وتعاطفا نحو أحد الأعضاء ، ويختاره لخدمة تدبيرية أو منبرية . فيثير هذا غيرة زملائه . وتقاعدهم عن العمل . وفى فريق الترنيم ، قد يغفل رئيس الجوقة عن اسناد دور مهم لعضو بارز ، فيستقيل من عضوية الفريق . فى أى مجتمع

وفي أية دائرة، قد يؤدي خطأ غير مقصود ، إلى انطواء أحد الأعضاء على نفسه ، أو إلى ثورته ، وغضبه . وتشهيره بأخوته – حينما يجربنا عدو الخير بالثورة لكرامتنا ، أو مركزنا ، أو حقنا، لتأمل في الحال صورة ابن الله ، متزرا بمنشفة ، راکعاً أمام تلاميذه وهو يغسل أرجلهم .

إن العظيم حقاً .. هو الذي يعرف كيف يضع التاج الملكي على رأس الخدمة ، فيكون له هذا الأتضاع الذي يرفعه على عرش قلوب اتباعه ، ويتوجه بتيجان محبتهم وتقديرهم . في رواية « القائد المحبوب » . للكاتب «دونالد هانكي» ، نقرأ وصفا لعناية القائد بجنده بعد مسيرة شاقة : « لقد كنا نعرف جميعاً أنه رئيسنا – انسان له كيانه الذي يختلف عنا كل الاختلاف . لذلك عرفنا كيف استطاع أن يكون متواضعا إلى هذا الحد الكبير ، ولا يفقد باتضاعه جانباً من كرامته . لقد كان وديعاً متضعاً . وهذا أقل ما يقال عنه . إن أقل ضائقة تعرض لنا ، لم تكن أتعبه من ان تسترعى اهتمامه . فحينما طالت مسيرتنا ، وكان ذلك أول عهد لنا بالمشاق ، وتورمت والتهبت اقدامنا ، بدا لنا من اهتمامه وكأنها أقدامه هو . بطبيعة الحال كان هناك كشف على اقدام الجند بعد كل مسيرة . كان هذا عملاً روتينياً . لكنه بالنسبة له لم يكن كذلك . كان يأتي إلى مجموعتنا، فإذا اكتشف قدماً ملتهبة ، ركع على الأرض، وفحصها بكل عناية وكأنه طبيب . ثم وصف العلاج الذي في متناول يده ، والذي – يحمله أحد الجند في حقيبة خاصة . فإذا كانت هناك ثألولة تحتاج إلى تفريغ قام بذلك بكل دقة حتى لا تتلوث القدم . ولقد كان يقوم بذلك بكل بساطة ، واهتمام . لأنه كان يعرف أن أقدامنا لها قيمتها ، وأننا كثيراً ما نهمل العناية بأنفسنا . وهكذا بدا لنا في اهتمامه ولمساته المتواضعة الرقيقة رمزاً للمسيح فيما عمله مع . تلاميذه . وهكذا زاد حبنا واحترامنا له .

إن الذى يعرف كيف ينحن جيداً ، كما فعل السيد حين غسل ارجل تلاميذه ، هو الذى يرفعه اتباعه فى النهاية ويتوجونه ملكاً على قلوبهم ، وتظل ذكراه ناطقة خالدة لاتنقطع فى مخيلتهم ..

الغسل الألزم

(يوحنا ١٣ : ١ - ١٧)

من تأملاتنا السابقة ، نعرف أنه ينبغي أن نتوقع أن يكون لبعض الفقرات أو الآيات التى يوردها «البشير يوحنا» ، معنيان .. فهناك المعنى الظاهرى السطحى الواضح . وهناك المعنى الأعظم تحت السطح . وفى هذه الفقرة التى أمامنا ، نكتشف معنى خفياً . فى ظاهر الأمر تمجد هذه الفقرة روح الأتضاع والوداعة . ولكن هناك ما هو أكثر من هذا . فضمن سطور القصة ، ترد محاجة بين «يسوع» وبين تلميذه الأول المقدام ، «بطرس» وموضوعها غسل الأرجل . فيسوع يقول لتلميذه كلاماً غامضاً : « إن كنت لا أغسلك ليس لك معى نصيب » ، وبطرس يقول لسيده : « يا سيد ليس فقط رجلى بل أيضاً يدي ورأسى » : فيقول له معلم الأجيال «الذى قد اغتسل لا حاجة به إلا إلى غسل رجله ، وإلا فهو طاهر كله» هذه الآية الأخيرة الغامضة ، هى التى تحتل معنيين . فلها معناها السطحى ، ولها أيضاً معناها الخفى العميق .

مما لا شك فيه ، أننا نجد هنا إشارة إلى فريضة المعمودية فى المسيحية : « إن كنت لا أغسلك فليس لك معى نصيب . » بمعنى إن لم تجتز فى مياه المعمودية ، فلن يكون لك نصيب مع رعية المسيح ... مع كنيسته وشعبه . هذا هو المعنى الظاهرى الواضح .

ولقد كان غسل الأرجل، عادة سارية بين يهود فلسطين . فلقد جرى العرف أنه قبل ذهاب إنسان إلى حفل ما ، أو إلى وليمة يدعى إليها ، كان يغتسل جيداً .

فإذا أتى إلى بيت المضيف ، لا يكون به حاجة إلى الأغتسال مرة ثانية ، لأنه قد اغتسل قبل ذلك .

ولكنه يكون بحاجة إلى غسل رجله من تراب الطريق ، وهكذا قبل الدخول إلى المائدة كانت تغسل الأرجل وهذا العمل كان يقوم به العبيد أو الخدم . أو بمعنى آخر كان هذا الأغتسال هو إغتسال الدخول إلى البيت . على هذا الأساس يقول السيد لبطرس « إن أهم ما تحتاج إليه الآن ، ليس الإغتسال الكامل لقد إنتهى زمانه، وأنت لست بحاجة إليه . أما الإغتسال الذى أنت بحق فى حاجة إليه الآن، فهو الإغتسال الذى يفتح أمامك باب الدخول إلى أسرة الإيمان » .

وهذا يفتح المجال لمعنى آخر . إن «بطرس» فى البداية، بروح التأدب والأحتشام ، يعارض فى أن يقوم السيد بغسل رجله . وإذا بالسيد يقول له إنه إن رفض الإغتسال ، فلن يسمح له بأن يكون له نصيب فى المسيح . وكأنى بيسوع يقول : « هل تظن يا بطرس، أن فى إمكانك أن تقوم بالإغتسال بدون معونة آخر ؟ هل تظن أن فى إمكانك أن تقوم أنت بغسل قدميك ؟ هل تملكك روح الكبرياء، فترفض أن أقوم أنا بهذا العمل لك ؟ إذا فسوف تخسر كل شيء » .

لقد كانت فريضة المعمودية هى باب الدخول إلى كنيسة المسيح ، فى العصر الرسولى . كما هى فى أيامنا الحاضرة ، فالعماد هو غسل الدخول إلى بيت الله ، وإلى أسرة الله .

ليس معنى هذا ، أنه إن لم يعتمد الإنسان لن ينال الخلاص . فكثيرون لم تنح لهم فرصة المعمودية ، ولكنهم خلصوا بالإيمان بالمسيح ، نظير اللص الذى كان عن يمين المسيح أثناء صلبه . قد لا تتيسر الظروف ، ليقبل الإنسان فريضة المعمودية . ولكن إن كانت له الظروف المهيأة ، ومنعته روح الكبرياء من الخضوع لهذا الطقس المبارك ، والدخول من هذا الباب ، فما لاشك فيه ، أن كبرياءه ، تغلق الباب فى وجهه إلى النهاية فلا يكون له نصيب فى المسيح .

ولقد تغيرت الحال فى أيامنا الحاضرة ، فى الكنيسة الأولى ، كانت المعمودية ، من الصعوبة بمكان ، بالنسبة لأولئك الرجال والنساء . غن ، أو المتقدمين فى العمر ، الذين يريدون أن يعتنقوا الدين الجديد . زد على ذلك أن شهادة الإنسان بالدخول فى مياه المعمودية وهو بالغ ، ليست نظير دخوله فى المعمودية وهو صغير . ومعظم الطوائف المسيحية فى أيامنا الحاضرة ، عدا القليل منها ، شأن الطوائف المعمدانية ، تبيح معمودية الصغار . ومعظمنا نال المعمودية وهو بعد طفل صغير . فلا صعوبة لنا فى هذه الممارسة .

ولكن الصورة التى يقدمها لنا المسيح فى تصرفه هذا ، وفى حديثه الرمزي مع تلميذه ، تؤكد حتمية المعمودية ، كركن ثابت من أركان الفرائض المسيحية ، وحتمية الخضوع لها كختم الإيمان . وكشهادة حية أمام الآخرين ، بأننا قد خلعنا الإنسان العتيق ، ولبسنا الجديد الذى يتجدد حسب صورة خالقه .

وبعض اللاهوتيين ينادون برأى آخر . فالغسل الأول الذى أشار إليه السيد بالقول : « الذى قد اغتسل » ، يشير إلى غسل التجديد . إنه

عملية سرية معجزية تتم في أعماق الإنسان ، يقوم بها روح الله، عند الإيمان بالمسيح . وهذه العملية لا تتكرر ثانية في حياة المؤمن ، أما العملية الثانية (غسل القدمين) فهي إشارة إلى الغسل المستمر في حياة المؤمن، حينما يأتي إلى الينبوع المطهر بين حين وآخر ، فينال تطهيراً مما علق به من غيار الطريق ، وتقديساً لحياته إلى التمام .

عار الخيانة ومجد الاخلاص

لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ . أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ .
لَكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ . الَّذِي يَأْكُلُ مَعِيَ الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَى
عَقِبِهِ . أَقُولُ لَكُمْ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ
تُؤْمِنُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ . الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ الَّذِي يَقْبَلُ
مَنْ أَرْسَلَهُ يَقْبَلْنِي . وَالَّذِي يَقْبَلْنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي

(يوحنا ١٣ : ١٨ - ٢٠)

في هذه الفقرة نرى لمسات ثلاث واضحة ..

١ - في اللمسة الأولى ، نرى البشير يرسم لنا بأكثر وضوح ، ملامح
خيانة يهوذا . فيسوع يقتبس ، نبوة من سفر المزامير ، وردت في المزمور
الحادي والأربعين في العدد التاسع « رجل سلامتي الذي وثقت به آكل
خبزي رفع على عقبه » . ونحن نعرف من تقاليدنا الشرقية ، أن اقتسام
الخبز والملح دليل الأخلاص ، والصداقة ، والمحبة ، والعهد ، بالأخون
الواحد صاحبه . في سفر صموئيل الثاني الأصحاح التاسع ، يتكرر القول
كيف أن « داود » أعطى « مفيوشت » ابن يوناتان الحق بأن يأكل خبزاً على
مائدته ، في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يحذر منه كل الحذر ،
كواحد من سلالة عدوه ، ووريث طبيعي لعرش جده الملك . وفي

سفر الملوك الأول (١٨ : ١٩) ، نقرأ كيف أن أنبياء البعل كانوا يأكلون خبزاً على مائدة «إيزابل» الملكة زوجة «آخاب». ان ذاك الذى يأكل خبزاً على مائدة إنسان . قد قطع عهداً على نفسه ، ألا يتنكر لذلك الإنسان أو يضع يده فى أيدي أعدائه ، أو يخونه فى أى طريق ، فإذا حدث منه أى تصرف شائن ، يكون هذا أقسى من أن يتصوره عقل . ونحن نجد المرنم فى المزمور الخامس والخمسين ، يصور لنا مشاعره ضد صديق انقلب عليه : « لأنه ليس عدو يعيرنى فأحتمل . ليس مبغضى تعظم على فأجتهى » منه بل أنت إنسان عدلى إلفى وصديقى الذى معه كانت تحلو لنا العشرة . إلى بيت الله كنا نذهب فى الجمهور » (مزمور ٥٥ : ١٢ - ١٤) . إن كل الآلام والأحزان ، تركز فى نفسية إنسان إنقلب عليه صديقه ، فلا شيء يعدل فى مرارته مرارة الخيانة . إنها تكسر قلب المحب .

لاحظ أيضاً التعبير : « رفع على عقبه » . إنها استعارة من صورة حيوان تقدم منه صاحبه ، ليقدم له الطعام ، فإذا به يركله بكل عنف . ففيها الحيوانية ، وفيها النزول إلى مستوى البهائم ، وفيها القسوة فى الخيانة . فقد تصيب الركبة مقتلاً فى الإنسان فتميته . فى الأصل العبرى ، يرد القول حرفياً : « كبر عقبه وخشنه » دليل القسوة ومرارة الخيانة ، والعنف الرهيب . فى هذه الكلمة ، لانبجذ إشارة إلى غضب الذى أسىء إليه ، بل إلى حزنه وألمه وأنكىنتاره . إن «يسوع» هنا يعلن ، ليهودا حزنه العميق ، ويكشف له فى صورة أخاذة عن قلبه الكثير .

٢ - لكن هناك التأكيد بأن هذه المأساة من أولها إلى آخرها . لها مكانها في المخطط الألهي ، فهي بسماع منه وترتيب ، وان «يسوع» قبلها بكل ارتياح ، لأنها ضمن القصد الإلهي . لقد قال الكتاب هذا ، ولا بد أن يتم المكتوب . فمما لا شك فيه أن هدف الله هو خلاص العالم . وأن ذلك الخلاص على حساب دم المخلص وقلبه الكسير . ولقد كان «يسوع» يعلم ما لا بد أن يتم ، فهو لم يؤخذ على غرة ، ولم يكن ضحية الظروف ، لقد كان سيد موقفه . كان يعرف التكلفة و كان على استعداد لأن يدفع الثمن ، ولقد حرص بالتالي على أن يعلن لتلاميذه هذه الحقيقة . فهو ليس في طريقة إلى الأعتيال ، أو المؤامرات التي تنتهي بقتله عنفا وقسراً . بل إنه اختار الموت طواعية وعن طيب خاطر . في ذلك الوقت لم يكشف عن أعين التلاميذ ليبصروا ذلك . ولم يكشف عن أذهانهم ليدركوا هذه الحقيقة . ولكنه تنبأ بان يأتي اليوم الذي ينظر فيه رسله إلى الأحداث التي مرت بهم ، ويدكروا ما قاله لهم ، فيعرفوا كل شيء .

٣ - وهناك لمسة ثالثة علاوة على صورة الخيانة من جانب التلميذ الخائن ، ولمسة الرضى والتسليم من جانب «يسوع» . هناك لمسة تصور لنا مجد الانخلاص . فيوما من الأيام سيحمل اتباع المسيح رسالته إلى العالم أجمع - - - - - وحينما يفعلون ذلك لن يكونوا في عملهم ، في مستوى أقل ممن يضع يده في يد الله عاملاً معه لاتمام مقاصده . حينما يبعث سفير من دولة ما ، إلى دولة أخرى ، فانه لا يرسل إلى تلك الدولة بصفته الشخصية ولا يذهب هناك لمؤهلاته أو صفاته . إنه يذهب محوياً بكرامة أمة ، محملاً بمسئولياتها ، حاملاً لأعبائها .

وفي البلد الغريب قد لا يعرف الناس اسمه الشخصي ، لكنهم يعرفون عنه أنه سفير لتلك الدولة التي أرسلته . لنأخذ مثلاً ، سفير مصر في واشنطن ،

إنه يحمل كرامة الشعب المصرى ويتحمل أيضاً مسئولياته . فحين يتكلم
تصغى أمريكا فى صوته إلى صوت مصر .

حينما ينادى بحق من الحقوق ، ترى فى مناداته رأى الشعب الذى
أرسله ، وحينما يدعى إلى حفل تكريم ، يكرم البلد الذى أرسله فى
شخصه ، وحينما توجه إليه أدنى إهانة ، يكون فى ذلك إهانة لأمته ، لمن
أرسله . إن له أعظم الأجداد . وعليه أعظم المسئوليات .

إن كوننا قد أصبحنا مسيحيين يحيطنا بأعظم كرامة ، كما يفرض
علينا أعظم مسئولية... كوننا قد أصبحنا مسيحيين معناه أن «يسوع المسيح»
قد أرسلنا إلى العالم ممثلين عن شخصه ، وعن جلاله . فنحن نتحدث
بلسانه ونعمل لمجده ، ونسعى لرفعته . ونرفع صليبه ، وننادى بحقه ،
ونبذل الجهد لياتى ملكوته . إننا رسله الذين نعمل عنه . وهكذا فإن كانت
تحيط بنا أجداد مرسلنا فالمسئولية فى أعناقنا .

نداء المحبة الأخير

لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هَذَا أَضْطَرَبَ بِالرُّوحِ وَشَهِدَ
وَقَالَ الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيَسَلِّمُنِي .
فَكَانَ التَّلَامِيذُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُخْتَارُونَ
فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ . وَكَانَ مُتَكِنًا فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ
مِنْ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ . فَأَوَّمًا إِلَيْهِ سِمْعَانُ
بَطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ .
فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ .
أَجَابَ يَسُوعُ هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللَّقْمَةَ وَأَعْطِيهِ .
فَغَمَسَ اللَّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الْإِسْخَرْيُوطِيَّ .
فَبَعْدَ اللَّقْمَةِ دَخَلَهُ الشَّيْطَانُ . فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ مَا أَنْتَ
تَعْمَلُ فَأَعْمَلُهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ . وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ
مِنَ الْمُتَكِنِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ . لِأَنَّ قَوْمًا إِذْ كَانَ

الصُّنْدُوقُ مَعَ يَهُوذَا ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ
إِلَيْهِ لِلْعِيدِ . أَوْ أَنَّ يُعْطَى شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ

فَذَلِكَ لَمَّا أَخَذَ اللَّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ . وَكَانَ لَيْلاً .

(يوحنا ١٣ : ٢١ - ٣٠)

في تأملنا في هذه الفقرة تتضح لنا أكثر من صورة . . فهناك خيانة
«يهوذا» تبدو في أشنع صورها . لقد كان «يهوذا» ممثلاً على مسرح الرياء
أتقن دوره إلى أبعد حدود الاتقان . كان مرائياً ومنافقاً كبيراً . وهذه
مؤهلات في الأجرام لا تتوفر لكثيرين . فلو عرف بعض التلاميذ ما كان
مزمعاً أن يفعله .. لو ادركوا مخطط الخيانة الذي كان يدور في خلدته...
لو علموا أنه بعد ساعة أو بعض ساعة، سيأتي إليهم محوطاً بثلة الغدر والحقده
والدماء ، فمن الأكيد أنه ما كان ممكناً أن يغادر العلية حياً . بل كان سيلقى جزاءه
العاجل ، وتتوقف للنهية مهمته الدموية . لقد كان ليهوذا مظهر قديس ،
وقلب شيطان . كان في كل لحظة يتظاهر بعمل محبة ، أو يتحدث بكلمة
إخلاص ، أو يظهر روح التقوى ، حتى انخدع الجميع بمظهره — عدا
«يسوع» . لم يكن «يهوذا» مجرماً خلع عنه برقع الحياء فحسب ، بل كان
مرائياً ومنافقاً كبيراً . هنا تحذير لنا . إننا بمظهرنا قد نخدع إخوتنا .
ولكن لا شيء يخفى عن عيني القدير ...

ولكن هناك ما هو أكثر من هذا . حينما نتأمل في منطق الأحداث في
تلك الليلة ، فانبأ ترى فيها أكثر من نداء يدعو الحائن للتروى والرجوع
إلى عقله وضميره .

١ - فهناك وضع الأرائك حول المائدة . فلقد جرت العادة في تلك الأيام أن يتكىء الطاعمون على المائدة لا أن يجلسوا إليها معتدلين كما يجلس نحن في أيامنا الحاضرة . لقد كان الاتكاء من دلائل العز والرفاهية . لذلك فقد كانت الموائد منخفضة في مستواها ، مصنوعة من الخشب الصلد . وكانت الأرائك تصف حولها من الجوانب الثلاث . أما الجانب الرابع فقد كان مفرغا يصل إلى داخل المائدة بحيث كان منظرها يشبه حرف U في اللاتينية . وكان مركز الأعزاز أو الصدارة للضيف الممتاز هو في قلب الجانب المفرغ . وكان الضيوف يتكئون على جنوبهم مسندين رؤوسهم بالأيدى اليسرى ، أما اليمنى فيتناولون بها الطعام . بهذه الصورة يكون رأس الواحد بالفعل على صدر زميله المتكىء خلفه . ولقد كان « يسوع » يجلس في قلب المكان المفرغ من المائدة . وعن يمينه كان يتكىء التلميذ الذى كان « يسوع » يحبه ، كما أراد كاتب البشارة أن يخفى اسمه . فحين كان يرجع برأسه إلى الوراء كان يسند رأسه بالفعل على صدر « يسوع » - ومع أن المرجح أن التلميذ الذى كان « يسوع » يحبه هو يوحنا كاتب البشارة ، إلا أن هناك من ظن أنه « لعازر » ، لأنه قيل عن « لعازر » أن « يسوع » كان يحبه . (يوحنا ١١ : ٣٦) . وهناك من قال بأنه الشاب الغنى ، لأنه ورد القول عنه في بشارة مرقس ، إن « يسوع » نظر إليه وأحبه (مرقس ١٠ : ٢١) وهناك من قال إنه تلميذ آخر مجهول ، كان أثيراً عند « يسوع » وعزيزاً عليه معزة الأبن . وهناك من ظن أن هذا القول لا يشير إلى شخص مادي من لحم ودم ، بل هو إشارة إلى مثالية التلمذة في ارتباطها بقلب « يسوع » ! ولكننا نؤكد مرة أخرى ، إستناداً على أقوال الآباء ، ويشاركنا غالبية المفسرين في هذا الرأي ، إن التلميذ الذى كان « يسوع » يحبه ، لم يكن سوى « يوحنا » ، وأنه بصفته كاتباً البشارة ، كان ينجل من ذكر اسمه صراحة .

ولكن الذى يهمنى فى هذه الصورة هو مكان «يهوذا» . من الواضح من تفاصيل القصة ، أن «يهوذا» كان فى وضع قريب جدا ، بحيث يمكن أن يهمس إليه السيد محدث يسمعه هو ، ولا يسمعه بقية التلاميذ. و«يوحنا» يثبت لنا حديثا سريا أو شبه سري ، دار بين «يسوع» وبين «يهوذا». ولئن كان الأمر كذلك فهناك موضع واحد، لابد وأن يكون قد احتله ذلك التلميذ الخائن لابد وأنه كان متكئا على يسار «يسوع» . وكما كان يوحنا فى حضن «يسوع» ، هكذا كان «يسوع» إذا أسند رأسه إلى الورا يسنده على صدر «يهوذا» ! ! ومما يستدعى التأمل أيضا ، أن الوضع اليسار بجوار المضيف ، كان أسمى مراتب الشرف وكان يحتله أقرب الأصدقاء . وأننا نتصور المسيح فى بداية حفل العشاء يقول لتلميذه الخائن : «يهوذا . إن لى حديثا معك الليلة . تعال واتكىء إلى جانبي» لقد كانت دعوة السيد ليهوذا ، نداء من نداءات المحبة وجهه إلى قلبه .

٢ - ولكن ، هناك ما هو أكثر من هذا . فنحن نرى «يسوع» يغمس اللقمة ويضعها فى فم تلميذه . إن قيام المضيف بنفسه بكسر الخبز ، وغمسه فى الصفحة ، وتقديمه إلى ضيفه ، إشارة إلى أسمى مراتب الصداقة والألفة . فى العهد القديم فى سفر «راعوث» نقرأ عن «بوعز» أنه أكرم «راعوث» لإكراماً زائدا ، حينما دعاها لتغمس لقماتها فى صفحة الخل معه . (راعوث ٢ : ٤) ولكن ما هذا إزاء من يقوم بنفسه بكسر الخبز ، وغمسه فى الصفحة بيده ، وإعطائه لمضيفه !

فى لمسة طريفة من لمسات الحياة فى فلسطين ، يتحدثنا «ت.ى . لورنس» إنه جلس مع الأعراب فى خيامهم ، وكان مضيفه الثرى يكرمه . فيقطع قطعة كبيرة من الخروف المشوى بأكمله ، ويضعها فى يد «لورنس» - صورة للأكرام العربى الزائد - ثم يشبع ذلك ، الأصرار على أن يأكلها كلها

بشحمها المكتنز . وهكذا حينما كسر «يسوع» الخبز ، وغمس اللقمة ، وأعطى تلميذه ، كان يعلن له عواطف قلبه وحبه ، ومعزته لديه . نلاحظ أنه حين تقدم «يسوع» باللقمة ، لم يجد «يهوذا» في هذا تصرفاً غريباً . ولعل السيد اعتاد أن يعامله بهذا التدليل . لقد كان «يهوذا» أثراً عند المسيح .

هنا يكمن جوهر المأساة . لقد تقدم «يسوع» لهذا القلب المتحجر بأكثر من نداء من نداءات المحبة ، وبأكثر من تصرف ينطق بالاعزاز . ولكن قلب يهوذا كان موصداً متجمداً . . الرب يجنبنا هذه الحالة المرة التي تنتهى بصاحبها إلى المصير المظلم القاسى .

نداء المحبة الأخير (تابع)

(يوحنا ١٣ : ٢١ - ٣٠)

وهكذا تستمر أدوار الدراما الحزينة إلى النهاية ، فترى «يسوع» يكرر نداء المحبة المرة تلو الأخرى ، مقدما الفرصة بعد الفرصة لتلميذه ، لكي يرجع إلى صوابه ، فاتحاله أحضان محبته وحنانه وغفرانه . ساعيا ليخلصه من المصير القاسى الذى ينتظره .

ثم تأتى اللحظة الحاسمة فى المسرحية الكثيرة ، هنا يبدو أعظم انكسار فى تاريخ الإنسان ، حينما انكسرت محبة «يسوع» ، أمام عناد وقساوة وخيانة «يهوذا» . فاذا برز الجنود يهمس لتلميذه فى نغمة حزينة : « ما أنت تفعله فافعله بأوفر سرعة » . وكأنى بيسوع قد نقض يده منه إلى الأبد . . وكأنى به قد فشل فى إصلاح تلك الحالة ، فاستسلم فى النهاية للواقع المرير . . ما أنت فاعله ، فقم به ، واتممه دون ابطاء . .

ومع ذلك لم يدرك التلاميذ شيئا . لقد ظنوا أن الرب يأمر تلميذه بعمل استعدادات للفصح القادم ، أو أن يعطى شيئا للفقراء .. فلقد جرت العادة في العيد ، أن من له ينبغي أن يشارك من ليس له ، فالعيد فرصة الأحرار والعطاء للفقراء . إلى يومنا الحاضر جرت العادة في الأعياد على تقديم الهدايا للمعوزين ، وخاصة في الأعياد التي تعقب الأصوام المقدسة. وهكذا ظن التلاميذ أن «يسوع» أرسل حامل الصندوق على عجل ، لتقديم المعونة الواجبة للفقراء في مناسبة عيد الفصح ، حتى يشتركوا مع المعبد في طعامهم وأفراحهم .

وحالما أخذ «يهوذا» اللقمة من السيد ، وبلعها ، إذا بالشیطان يملأ كيانه. إنه لأمر مخيف حقاً أن الوسطة التي قدمت بروح المحبة ، وندائها الرقيق ، تتحول إلى واسطة لعنة وقساوة . ولا قوة تستطيع أن تفعل ذلك إلا قوة الشيطان ، في استسلام الإنسان له ، وطاعته العمياء لإرشاداته . فهو يتخذ حتى وسائل النعمة والحياة ، ليحولها إلى وسائل لعنة وهلاك . إنه يأخذ المحبة ، تلك الزينة الإلهية التي وهبت للخلقة بقصد إلهي مجيد ، ويحولها إلى شهوة ، وهو يأخذ القداسة في حياة إنسان ، ويحولها إلى غرور وتعال على الآخرين ، وهو يأخذ روح النظام ، ويحولها إلى مشادة واضطهاد . ينبغي أن نكون على حذر حتى لا يدخل الشيطان جنة حياتنا ، ويعيث فيها فسادا . ويستخدمها لأغراضه الشريرة .

هذه وتلك خرج يهوذا من الدائرة . وكان ليلاً : إن البشير يوحنا له القدرة على استخدام الكلمة القوية المعبرة المناسبة ، في وضعها المناسب . كان ليلاً لأن النهار كله قد مضى والشمس غولبت . وكان ليلاً من نوع أقسى وأشد مرارة بالنسبة للتلميذ الخائن . في الوقت الذي يتباطئ فيه الإنسان عن دائرة نور

العالم .. عن دائرة المسيح ، ليتبع أهواءه وشهواته ، يخرج إلى دائرة الظلمة الخارجية ، حيث البكاء وصرير الأسنان .. في الوقت الذي يصفى فيه إلى اغراءات الشرير ، ويتبع رغباته الباطلة يصبح كالأعمى ، في الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضى ، لأن الظلمة قد أعمت عينيه ... في الوقت الذي يعنى الحقد القاتل بصيرة الإنسان ، فيفعل كل شيء مدفوعا بروح الإنتقام ، يصبح النور أمامه ظلاما . في الوقت الذي يدبر فيه الإنسان ظهره ليسوع المسيح ، يدخل في دائرة الليل الأبدى .

إن أخضعنا ذواتنا للمسيح ، نسلك في النور . لكن إن أدركنا ظهورنا له نخرج إلى الظلمة . أمامنا طريقان : طريق الليل ، وطريق النهار ، ليت الإله السرمدي يعطينا الحكمة فنحسن الاختيار حتى لا نصل إلى مصير الخيانة والغدر ... ذلك المصير المظلم القاسى .

أركان المجد الأربعة

فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ الْآنَ تَمَجِّدُ ابْنُ الْإِنْسَانِ وَتَمَجِّدُ
اللَّهُ فِيهِ . إِنَّ كَانَ اللَّهُ قَدْ تَمَجِّدَ فِيهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُمَجِّدُهُ
فِي ذَاتِهِ وَيُمَجِّدُهُ سَرِيعاً .

(يوحنا ١٣: ٣١ و٣٢)

في هذه الفقرة نكتشف أركاناً أربعة للمجد :

١ - يقول «يسوع» الآن تمجد ابن الإنسان. هذا هو مجد الصليب، مجد
ميتة العار . لقد توقف الصراع وزالت الشكوك ، ومضى «يهوذا» إلى غايته ،
وأصبحت للصليب واقعيته . ولقد كان مجد «يسوع» في صليبه .. في تضحيته
العظمى .. في كفارته ، هذا هو الغرض من مجيئه . بل هذا هدف حياته .
إن أعظم مجد في الحياة ، هو المجد المبني على التضحية . ونحن نعرف
ذلك جيداً، وعلى الأخص في أوقات الحروب . فنحن نضع هالات المجد
لبس حول هامات الأحياء ، بل حول صور الشهداء .. أولئك الذين
ضحوا بحياتهم في سبيل غيرهم .

وفي ميدان الطب والتمريض ، لا نخلد ذكرى أولئك الذين كرسوا
الأموال ، واقتنوا الممتلكات ، بل للذين ضحوا في سبيل اكتشاف سر
مرض من الأمراض ، وطريق العلاج منه . إن منطق التاريخ ينادي ، أن
أولئك الذين بذلوا العرق والدم قد دخلوا إلى الأجداد . فقد تنسى
البشرية الرجل الناجح ، لكنها لا يمكن أن تنسى الرجل المضحي .

٢ - وفي «يسوع» «الابن المبارك»، في ابن الإنسان ، تمجد الله الآب . فطاعة الابن مجدت الآب . هناك طريق واحد يثبت فيه الإنسان محبته وإعجابه وثقته بقائده . وذلك بالطاعة وأمره حتى لو انتهت به إلى نهاية قاسية ، الطريق الوحيد الذى يكرم به الجندي قائده هو بالطاعة العمياء دون أدنى اعتراض أو تساؤل ، الطريق الوحيد الذى يكرم به الابن أباه ، هو طاعته له . ولقد أعطى «يسوع» المجد الأعظم ، والأكرام الأعظم لله ، في طاعته الكاملة للآب .. الطاعة التى أوصلته حتى إلى ميتة العار . . موت الصليب .

٣ - وفي «يسوع» مجد الله ذاته . لعله من الأمور العجيبة التى تدعو للتأمل ، أن مجد الله الأعظم ، يكمن فى التجسد وفى الصليب . فلا مجد يعدل مجد المحبة . لو بقى الله فى محيطه السرمدى بعيدا عن آلام البشر ومتاعبهم وحاجاتهم ، معظما ، ممجدا ، رفيعا ، لا تصل إليه مشكلات البشر ، لكان البشر يخشونه ، ويعبدونه عبادة الخوف ، لكنهم ما كانوا يحبونه محبة القلب . إن ناموس التضحية لا ينطبق على الأرض فحسب ، بل يسود أيضا على دوائر السماء العليا ، فى التجسد وفى الصليب أعلنت أعظم أمجاد الله .

٤ - وهذه الفقرة تؤكد لنا أن الله سيمجد «يسوع» .

هذا هو الوجه الآخر للمسألة . صحيح أن الصليب فى حد ذاته يمجّد يسوع المصلوب . لأنه أسمى مراتب التضحية والفداء . ولكن بعد الصليب ، والموت والقبر ، ستأتى أمجاد وأمجاد . فهناك القيامة ، وهناك الصعود . . وهناك انتصار المسيح النهائى ، فى مجيئه الثانى لإقامة الموتى ، وتمجيد المؤمنين .

لقد رأى « يسوع » فى الصليب مجده . ولكن اليوم أتى ، واليوم أيضا
سيأتى ، حينما يستعلن هذا المجد للعالم أجمع ، إن تمجيد المسيح ينبغي أن
يتبع انضاعه . وتتويج المسيح وجلوسه على العرش ينبغي أن يتلو
صلبيه وهوانه . إن إكليل الشوك ، ينبغي أن يتحول إلى تيجان
المجد . إن الحملة هى حملة الصليب ، ولكن الملك ينبغي أن يدخل إلى
الوجود فى موكب انتصارى يراه العالم كله .

وصية والوداع

يَا أَوْلَادِي أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا قَلِيلًا بَعْدُ . سَتَطْلُبُونَنِي
وَكَمَا قُلْتُ لِلْيَهُودِ حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنَّكُمْ
أَنْ تَأْتُوا أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمْ الْآنَ . وَصِيَّةٌ جَدِيدَةٌ أَنَا
أُعْطِيكُمْ أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا . كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا
تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا . بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ
أَنَّكُمْ تَلَامِيذِي إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضًا لِبَعْضٍ .

(يوحنا ١٣ : ٣٣ - ٣٥)

في هذه الفقرة، يقدم معلم الأجيال وصيته الوداعية لتلاميذه . لقد أصبح
الوقت مقصراً منذ الآن . وإن كان لهم أن يسمعوا صوت الحبيب ، فليستمعوا
إليه الآن وإلا فلا . إنه يعد العدة للرحلة المنفردة ، التي لن يرافقه فيها أحد منهم
إنه على وشك أن يبدأ السير في الطريق المنفرد ، الذي لا يشاركه فيه إنسان .
وهذا قبل أن يبدأ مسيرته إلى الوجود الذي خلف الحجاب ، فليتقدم إليهم
بوصيته الوداعية ، فيقول لهم : «وصية جديدة أنا أعطيكم أن ترتبط أحدكم
بالآخر برباط الحب ، الذي ارتبطت به معكم ، وأن يظهر أحدكم للآخر
روح الحب الذي أظهرته من نحوكم ، وأن يضحى أحدكم في سبيل الآخر ،
إن اقتضى الأمر ، بنفس التضحية التي ضحيتها من أجلكم ، والتي سوف

أضحى - وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا . كما أحببتكم أنا تحبون بعضكم البعض » ، ترى ماذا يعنى هذا بالنسبة لنا ؟ كيف أحب تلاميذه ؟

١ - أولا لقد أحب «يسوع» تلاميذه بكل إثارة وتفضيل . بكل نكران للذات ، فى أسمى درجات المحبة الإنسانية لابد وأن يوجد شىء من الذات . فنحن نحب ، و محبتنا تفكر فيما يمكن أن نفيده من وراء هذه المحبة على أقل تقدير إن لم يكن هناك الكسب المادى ، فالكسب الأدبى - السمعة الطيبة بين الناس ، ومحبة الآخرين لنا . أو السعادة التى نشعر بها حينما نحب الآخرين ونخدمهم ، وتجنب الفراغ الموحش إذا اعتزلنا عنهم فى دائرة الأنانية ، هكذا نفكر ، وهكذا يدفعنا تفكيرنا ، وعلى هذا الأساس نحب . ولكن «يسوع» فى محبته ، لم يفكر قط فى راحته ، ولا سعادته ، ولا كسبه الأدبى ، أو المادى . لقد كانت طبيعته أن يحب ، ويضحى ، ويبذل ، ولا ينتظر شيئا . هذه هى المحبة الأسمى .

٢ - ولقد أحب تلاميذه بأسمى درجات التضحية . فلم تكن هناك حدود للمحبة التى تقدم بها . إننا نحب فى دائرة محدودة ونتوقف عند حدود تلك الدائرة . ولكن يسوعنا ، أحب وضحى حتى وصل به الأمر أخيراً إلى التضحية بنفسه ، وكما قيل : « الجود بالنفس أسمى غاية الجود » . إن محبته لم تستعظم أية تضحية . ولم تراجع أمام عظم الكلفة . فلو اقتضت المحبة الصليب فمرحبا بالآلام ، والهزء ، والعار ، والجلجلة . و . الصليب . إننا كثيراً ما نخطئ فهم المحبة ، فنظن أنها ينبغى أن تضمن لصاحبها السعادة . ولكن طريقها قد يكون ممثلاً بأشواق الألم والتضحية ، وربما الموت . . . نعم قد تتطلب المحبة الصليب .

٣ - ويسوع أحب تلاميذه بوعى وإدراك . لقد كان يعرفهم ، ويدرك كل شى عنهم . كان يعرف ضعفهم ، وقصورهم ، وعجزهم عن الوصول إلى الكمال ، وتخلّفهم في مبادلتهم محبة بمحبة . ومع كل هذا أحبهم . كان يعرف خيانة «يهوذا» ، وجبن «بطرس» ، وشك «توما» . وعدم ثبات التلاميذ أمام العاصفة ، ومع هذا أحبهم . إن الذين يحبوننا . ويتفانون في حبنا ، هم أناس لا يعرفون حقيقةتنا ، وربما يتصورون فينا المثالية . فإذا ظهرت عيوبنا بردت محبتهم . انهم لا يعرفوننا ، لأنهم لا يعاشرّوننا ، وهكذا يشاهدوننا في أبهى زينتنا . ولكنهم إذا عاشوا معنا ، وكانت لهم العشرة ، فإنهم مهما حاولنا أن نخفى عنهم نقصاتنا ، لابد أن يكتشفوا الحقيقة ، يوماً أو آخر ، وهكذا نسقط من اعتبارهم . ولكن «يسوع» عاش تلاميذه ، أكل معهم ، وشرب ، وتعب ، ونام معهم تحت سقف واحد . عرفهم في القرية ، واختبرهم في السفينة في البحر ، وسار معهم في المسيرة الموحشة ، واختبر معهم حر الصيف وبرد الشتاء . لقد عرف كل شى عنهم ، ومع ذلك أحبهم .

قد يتمثل البعض بالقول ، إن الحب أعمى . ليس الأمر هكذا مع القادى ، لأن الحب المبني على الغفلة ، ينتهى حينما تنفتح العينان . أما المحبة الحقيقية ، فهي دائماً مفتوحة العينين . انها لا تحب ما تتخيله في الشخص المحبوب ولكنها تحبه كما هو ، بعيوبه وضعفاته ، وميزاته وحسناته . إنها لا تحب جانباً واحداً فقط من المحبوب ، ولكن المحبوب بأكمله . انها لا تحب للأحسن ، ولكنها تفيض بمحبتها على فرض الأسوأ . إن قلب «يسوع» كبير إلى هذا الحد حتى يحبنا كما نحن .

٤ - ولقد أحب السيد تلاميذه بروح الغفران . فأول من فيهم ، التلميذ المقدام ، «سمعان بن يونا» سينكره . وكلهم في الساعة الحاسمة سيهجروه

ويهرب بعيداً . - في وجوده معهم لم يفهمه واحد منهم . لقد كانوا عمياناً أو أقرب إلى العميان ، قلوبهم مغلقة ، أفهامهم بطيئة وفي النهاية قاموا بدور الجبان الرعديد ، فلم يثبتوا أمام العاصفة . ولكن رب الغفران لم يحتجز في قلبه أية اساءة . فلم توجد خطيئة أكبر من أن يغفرها . المحبة التي لا تعرف كيف تغفر مآلها إلى الذبول والموت ، فنحن بشر ضعفاء . وهناك طبيعة غبية في كياننا ، تدفعنا إلى أن نوجه الاساءة لمن تقدم إلينا بالخير . لهذا السبب عينه ، فإن المحبة الحقيقية ينبغي أن تكون محبة غافرة صفوحة ، فإن لم تكن كذلك فمصيرها إلى الانتهاء .

الوفاء المترنح

قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بَطْرُسُ يَا سَيِّدُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ . أَجَابَهُ
يَسُوعُ حَيْثُ أَذْهَبُ لَا تَقْدِرُ الْآنَ أَنْ تَتَّبِعَنِي وَلَكِنَّكَ
سَتَتَّبِعُنِي أَخِيرًا . قَالَ لَهُ بَطْرُسُ يَا سَيِّدُ لِمَذَا لَا أَقْدِرُ
أَنْ أَتَّبِعَكَ الْآنَ . إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ . أَجَابَهُ يَسُوعُ
أَتَضَعُ نَفْسَكَ عَنِّي . الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ لَا يَصِيحُ
الَّذِيكَ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

(يوحنا ١٣ : ٣٦ - ٣٨)

ترى ، ماهو الفارق بين «يهوذا الاسخريوطي» ، و«سمعان الملقب» بطرس؟
لقد أسلم «يهوذا» سيده . وأنكره «بطرس» في ساعة الحاجة المتأزمة ، بحلف
ولعن . ومع ذلك ففي الوقت الذي تذكر فيه يهوذا بكل احتقار ، ونجلاه
بالخزى والعار ، نحيط «بطرس» بهالة رقيقة حلوة . لماذا؟ أعتقد أن السبب
يكن في طبيعة السقطتين فخيانة «يهوذا» كانت اختيارية مائة في المائة ، قام بها .
صاحبها في ملء الصحو واليقين ، وخطط لها بتدبير سابق ، بتؤدة وروية .
أو كما يقول الإنجليز لقد ارتكب جريمته في الدم البارد His crime was
carried out in cold blood . ولقد دبر لجريمته وأصر عليها ، في الوقت
الذي تقدم فيه سيده إليه بنداء المحبة تلو النداء .

أما «بطرس» فلم يدبر لسقطته . لقد انتزعت العاصفة المفاجئة انتزاعاً من ثباته فسقط . لقد ضعفت ارادته ضعفاً مفاجئاً . ولكن القلب كان سليماً وكانت حالة مرضية ما لبثت أن زالت ، وعاد صاحبها سليماً معافى كما كان .

إن الفارق بين خطية «يهوذا» ، وخطية «بطرس» ، أن الأولى كانت إختيارية استغرقت في إعدادها ، وتدبيرها ، وتنفيذها وقتاً طويلاً ، أما الثانية ، فكانت اضطرارية بنت لحظتها وقعت ، وخلفت بعدها أسى العمر . هناك فارق بين الخطية الشاعرة بمكانها وبوجودها ، بقيمتها ، بدوافعها ، وبناتجها ، وبين الخطية القاهرة التي تباغت الإنسان في ضعفه . أو في ظروفه ، الخاصة حتى يفقد وعيه ، ولا يدري ما هو فاعل . الرب يحميننا من أن نفعل بأنفسنا ، أو باخوتنا شيئاً رديئاً !

وهناك طيف جميل جذاب ، في علاقة «يسوع» مع «بطرس» . فلم يعرف إنسان إنساناً ما ، قدر ما عرف «يسوع» تلميذه .

١ - لقد كان «يسوع» يعرف «بطرس» في ضعفه . كان يعرف أنه إنسان مندفع . فهو متقلقل متزعزع كاللوجة المتأرجحة . كان يعرف أن «بطرس» قد اعتاد أن يتكلم بدافع عواطفه قبل أن يجتر الكلام في فكره كان يعرف قوة اخلاص «بطرس» ، وضعف عزيمته ، لقد كان السيد يعرف تلميذه تمام المعرفة .

٢ - وكان يعرف «بطرس» في قوة محبته ، لقد كان يعرف أنه مهما ضعف أو تعثر فهو ما زال المحب الملتهب حباً . كثيراً ما نقابل بأساءة من أخ ، أو بعثرة من صديق ، أو بشيء يجرحنا من محب ، آه لو نعرف أن هذه الأساءة أو العثرة أو الجرح ، ليس نابعا من الإنسان الحقيقي ، وأن

خلف المظهر الجاف يوجد قلب ناصع البياض ؟ إن البعض كثرة جوز الهند التي تبدو جافية خشنة في مظهرها ، وفي الداخل بيضاء وصافية ، فالإنسان الحقيقي ليس هو الذي يجرحنا ... الجوهر ليس القضية الطارئة ، أو الكلمة المتسرعة ، إنه المحبة الكامنة ، لقد كان «يسوع» يعرف «بطرس» ، يعرف محبة «بطرس» ، وصدق «بطرس» ، وإخلاصه ، وقلبه الكبير . كما كان يعرف نهوره وتسارعه وضعفه واندفاعه ، وكم نوفر على نفوسنا الكثير من المتاعب والآلام لو نفذنا ببصائرنا إلى الجوهر الطيب ، وأغفلنا السقطة الطارئة .

٣ - لقد كان السيد يعرف ما كانه «بطرس» وما يكونه ، لكنه عرف أيضاً ما سوف يكونه . لقد عرف أن تلميذه ستتعثّر قدماه في الطريق عثرة طارئة . لكنه كان موقناً أنه سيأتي اليوم الذي تسير فيه نفس القدمين إلى صليب الأستشهاد . هنا نرى لمحة مشرقة من عظمة «يسوع» وجلاله : إنه يرى البطل المغوار في الرعديد الجبان ! يرى فينا لا ما نحن عليه ، بل ما نستطيع هو أن يصنعه بنا بقوته ، وبروحه ، وبعمل نعمته ، إن «يسوع» هو صاحب القلب الكبير الذي ينفذ إلى أبعد مما نحن عليه ، فيرى ما سنكونه ، وله بالتالي النعمة العظمى ، والقوة التي تجعلنا نصل إلى قمة انتظاراته فينا .

الأصحاحُ الرَّابِعُ عَشَرَ

موعد المجد

لَا تَضْطَرِّبْ قُلُوبَكُمْ . أَنْتُمْ تَوْمِنُونَ بِاللهِ فَأَمِنُوا بِي .
فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ . وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ
لَكُمْ . أَنَا أَمْضِي لِأَعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا . وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعِدَدْتُ
لَكُمْ مَكَانًا أَتِي أَيْضًا وَأَخْذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا
تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا .

(يوحنا ١٤ : ١ - ٣)

هنا نرى عقارب الزمن تقترب من الساعة الحاسمة . وها شمسهم المشرق
الساطع سيغرب في ساعة الظهيرة ، ومن بعده يصبح العالم بالنسبة لهم خراباً ويأساً
وظلاماً . في مثل تلك الحالة ، ليس أمامهم سوى سبيل واحد : أن يتمسكوا
بإيمانهم بالله .. أن يمسكوا بالله بيد الثقة واليقين . لقد اجتاز المرثم في القديم
في ظروف نظير هذه . وهكذا نستمتع إلى نعمة الثقة تتردد في أكثر من
ترنيمة « لقد كاد يغشي على ^(١) لولا أنني آمنت بأن أرى جود الرب في
أرض الأحياء » (مزمو ٢٧ : ١٣) . « لأنه إليك ياسيد يارب عيناى بك

(١) حسب الترجمة الإنكليزية المعتمدة .

احتميت « (مزمور ١٤١ : ٨) . حينما أعيت روحى فى ذكرت الرب
فجاءت صلاتى قدامه « ألخ . هناك أوقات تقف فيها القوى عاجزة ،
والمنطق حائرا ، والنفس خائرة ، فى مثل تلك الأوقات حيث يقصر الدليل
بتقدم الإيمان ليمسك بالأيدى ، ويقوم الركب ، ويشدد الكيان . هنا علينا
أن نقبل بتسليم الثقة ، مالا نستطيع أن ندركه بالعقل البشرى . علينا فى أحلك
الساعات أن نؤمن أن هناك قصداً مستتراً وراء حياتنا وضيقاتها ،
وآلامنا . علينا أن ندرك أن اليد التى تكتب مخطط مصيرنا ، هى اليد
الالهية المحبة . وهكذا تصبح التجربة محتملة « ويحدث أنه فى وقت
المساء يكون نور » .

ولكن «يسوع» يضيف شيئاً جديداً فيقول : «زيادة على إيمانكم بالله
ضعوا ثقثكم فى ... علاوة على تمسككم بالله تمسكوا أيضاً بى » فان
كانت السماء قد أشرقت بنور الرجاء أمام المرئم فى ظلمته ، فى تلك العهود
السحيقة ، عهود الناموس قبل أن يعلن الله قلبه النابض فى ابن محبته ،
فكم بالحرى تشرق لنا نحن الذين عرفنا إشراقة الرجاء فى وجه يسوع
المسيح . فيسوع المسيح عطية السماء للأرض . البرهان الأعظم على أن الله
على استعداد أن يهبنا كل شىء فيه . أو كما عبر عن ذلك رسول الأمم
«الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه
كل شىء ؟ (رومية ٨ : ٣٢) ان كنا نؤمن بأن الله هو كما أعلنه لنا «يسوع
المسيح» .. إن كنا نؤمن أننا فى «يسوع» نرى صورة الله وجوهه ، فى نور
ذلك الإيمان ينتفى كل ظلام للشك فى محبة الله، ويصبح من المحتمل لنا أن
نتقبل كل شىء برضى وتسليم ، حتى ولو لم تتكشف لنا حقيقة الأشياء .
وهكذا فى وسط بحر التجارب الهائج المائج ، نتمسك بمرساة الرجاء الثابتة
التي تحمينا من الهلاك .

ثم يقول رب المجد : « في بيت أبي منازل كثيرة وأما بيت الآب فهو ولا شك رمز للسماء .. ولكن ماذا يعنى بالقول إن في السماء منازل كثيرة ؟ ... إن الكلمة المستخدمة منازل هي في الأصل « موناي » . وهناك ثلاث تفسيرات محتملة لما تعنيه هذه المنازل ..

١ - الإحتمال الأول يرجع بنا إلى إيمان اليهود وعقيدتهم عن العالم الآخر . فلقد كانوا يعتقدون أن هناك درجات مختلفة أو مراتب في البركة والنعمة للنفوس المطوبة في العالم الآخر ، تبعاً لدرجة صلاحهم في حياتهم على الأرض . في « سفر أسرار أخنوخ » وهو أحد الأسفار غير القانونية نقراً : « في العالم الآتي هناك منازل كثيرة معدة للبشر . صالحة للصالحين وردية للأردباء ، وعلى أساس العقيدة اليهودية ، نستطيع أن نشبه السماء بمكان فسيح به أكثر من غرفة أو منزل . وكل منزل يبنيه الإنسان بحسب استحقاقه على الأرض وأعماله .

٢ - فإذا رجعنا إلى الكتاب الإغريق ، نجد أحدهم « بوزانياس » يتحدث عن المنازل كدرجات على الطريق ، أو مراتب للبشر . وعلى أساس هذا المعنى ، تشير إلى درجات تقدمية ، يتدرج فيها السائح إلى السماء ، من تقدم إلى تقدم ، ومن ارتفاع إلى ارتفاع . أى أن هناك ما يشبه التطور الإرتقائي في حياتنا في العالم الآخر . مثل هذا الرأي اعتنقه كثيرون من مفكرى المسيحية القدامى . فلقد نادى به «أوريجانوس» ، فقال إنه حينما تنتهى حياة إنسان ، فإن روحه تنتقل إلى مكان ما في الأرض ، يعرف بالفردوس . وهناك يتلقى التعليم والتدريب والتهذيب ، حتى يصبح أهلاً لأن ترتقى روحه إلى أعلى : وهكذا تمر الروح في ارتقاء في سلسلة من المنازل «موناي» التي يدعوها الأغريق دوائر ، ويدعوها المسيحيون

سموات ، حتى تصل أخيراً إلى المملكة السماوية. إن كان هذا حقاً ، فإن الروح تتبع يسوع في هذا الإرتقاء ، الذي عبر عنه كاتب رسالة العبرانيين بأنه «أجتاز في السموات» (عبرانيين ٤ : ١٤) . وهناك تفسير يتقدم به «إرنيوس» مستنداً إلى أقوال السيد في مثل حبة الحنطة التي تأتي بأثمار ثلاثين ، وستين ، ومائة ، (متى ١٣ : ٨) فيقول إن هذا يشير إلى حصاد متباين . وبالتالي إلى مكافآت متباينة . فالبعض يقضون أبديتهم في الفردوس ، والبعض الآخر يصبحون مجرد مواطنين في المدينة السماوية ، ولكن هناك البعض الذين يتمتعون بروية وجه الله ، والتمتع به إلى أبد الآباد. وأيضاً نادى أكلمندس الاسكندري ، بأن هناك درجات في المجد : وأن هذه الدرجات والمكافآت تختلف على أساس سمو الإنسان وتقدمه في حياة القداسة هنا على الأرض .

ومما لا شك فيه ، أن نظرية كهذه لها جانبها الجذاب ، فالتطور والإرتقاء ليس غريباً عن نوااميس الحياة الأرضية ، ويكون شيئاً جميلاً جذاباً لو انطبق بالتالي على نوااميس الحياة السماوية . وبحسب فكرنا الجسدى المادى نقول إننا لانتصور نفساً خرجت من حدود المادى ، نقول إننا لانتصور نفساً خرجت من حدود المادة وقيودها ، وضعفها ، وقصورها ، تصل فجأة إلى الأبهاء المحيطة حيث النور الذى لا يدنى منه . إن الإنسان منا لو قضى فترة في غرفة مظلمة ، فإنه يحتاج إلى وقت طويل ، وتدريب أطول ، حتى يعرف كيف يفتح عينيه في نور الشمس الساطع . فكم بالحرى نحتاج إلى تدريب ، وتوجيه ، واغتسال وتنظيف ، وصقل وتهذيب ، حتى نصبح مستأهلين أن نقف في حضرة ملك الملوك ، وننظر مجده بوجه مكشوف ؟ إننا لا نستطيع أن نجزم إن كانت هذه الأفكار صحيحة . لكننا لا نستطيع أن نجزم أيضاً إن كانت عارية عن الصحة .

٣ - ولكن قد يكون معنى هذه العبارة سهلاً بسيطاً لا يحتاج إلى كل هذا التأويل . قد يعنى أن فى العالم الآخر متسعاً للجميع . فقد تكتظ مدينة كأورشليم فى عيد الفصح بالقادمين إليها من كافة أنحاء العالم ، فلا يوجد موضع لقدم . وقد يزدحم كل منزل فى ضواحي أورشليم بالحجاج القادمين للعيد ، فلا يوجد مكان لمزيد . ولكن فى السماء يختلف الأمر كل الاختلاف . فى بيت الآب متسع ، كذلك بيت الآب رحب متسع ، نظير قلبه . إن «يسوع» يقول لتلاميذه «لا تخافوا إن البشر قد يغلقون الأبواب فى وجوهكم لأنه لا موضع لكم فى المنزل . بل ثقوا فى بيت أبى منازل كثيرة .

موعد المجد (تابع)

(يوحنا ١٤ : ١ - ٣)

هناك أكثر من حق عظيم تعلنه هذه الفقرة . .

١ - فهى تتحدث إلينا عن أمانة «يسوع» . «ولأفانى كنت قد قلت لكم أنا ماض لأعد لكم مكاناً . لا يوجد واحد يستطيع أن يحتج بأن المسيحية خدعته بوعود عريضة لا أساس لها . لقد تقدم «يسوع» بخطابه الوداعى هذا ليعلن لأتباعه أن طريق الضيق والمتاعب فى انتظارهم ، وهكذا تقدم إليهم بكلمات التعزية . لقد أخبرهم صراحة بالأضطهادات ، والعقوبات ، والمتاعب التى تنتظرهم . (متى ١٠ . ١٦ - ٢٢) بل إنه أخبرهم بأن عليهم أن يحملوا الصليب فى صبر وإنكار ذات (متى ١٢ : ٢٤) . ولكنه أخبرهم أيضاً بالحج الذى ينتظرهم فى نهاية الطريق . نعم إن «يسوع» لم يخدع أتباعه بوعود براقعة لقد أخبرهم عن الطريق . وعن الهدف والنهاية . أما

الطريق فهو التضحية ، والألم ، والموت ، أما الغاية والنهاية فهي المجد .
إنه لم يكن نظير القائد الذى يحاول أن يجمع حوله أتباعاً بأن يعدهم بطريق
مفروش بالورد ، لقد كان كالقائد العظيم الذى يدرّب أتباعه على صعود
مدارج جبل المجد ، ولو كان المرتقى صعباً قاسياً عسيراً .

٢ - وهذه الفقرة تخبرنا عن عمل «يسوع» ووظيفته... أنا ماض لأعد لكم
مكاناً إن أحد الأفكار العظيمة فى العهد الجديد عن «يسوع» ، إنه يقود مقدمتنا
لنتبعه . ممهد يفتح الطريق حتى نسير خلفه ، ونتبع أثر خطواته . وأحد
الأسماء الكبرى التى تصف «يسوع» هى الكلمة الواردة فى الرسالة إلى العبرانيين
فى الأصل « برودروموس » (٦ : ٢٠) التى ترجمت فى لغتنا بكلمة
السابق أو ممهد الطريق « Forerunner » وهذه الكلمة تستخدم فى صورتين
توضحان لنا معناها . أما الاستخدام الأول فنراه فى فرق الاستطلاع التى
تتقدم كتائب الجيش الرومانى . لقد كانت « برودروموى » أو فرق
الاستطلاع تتقدم الجيوش لتمهد الطريق . ولتلهب حماس الجنود ، ولتستطلع أية
متاعب أو أخطار قد تكمن فى المسير . وهكذا تتقدم والجيش يتبعها ،
وهناك صورة أخرى نراها فى ميناء الاسكندرية الذى كانت تقصده السفن
الرومانية للتزود بالغلال . ولم يكن الدخول إلى هذا الميناء سهلاً يسيراً .
فكانت السفن ، ترسل قوارب استطلاع تتقدمها والسفن تتبعها ، حتى
تجنبها أخطار الصخور القاسية . هذه القوارب كان يطلق عليها لقب
« برودروموى » . كانت تؤمن طريق السفن . وهذا ما فعله «يسوع» ، لقد
أمن الطريق إلى السماء ، حتى نسير خلفه فى ثقة واطمئنان .

٣ - وهى تخبرنا بانتصار «يسوع» النهائى . إنها تقول « إن مضيت
وأعددت .. آتى أيضاً .. » هذه العبارة تشير بكل تأكيد إلى مجيء المسيح

الثانى ... إن مجيء « يسوع » ثانية عقيدة قد سقطت من تفكير جمهور كبير من أتباع المسيحية ولاهوتيتها ، وهكذا أغفلوا المناداة بها . ولعلمهم يعتذرون بصعوبتها ، ولعلمهم يعتذرون بأن عليهم أن يدربوا أتباعهم على مقابلة الموت وكفى ، مع أن أعظم انتصار على الموت ، هو مجيء المسيح الثانى لإقامة الموتى المؤمنين . صحيح أن هناك بعض الصعوبات التى تعرض لنا فى طريق هذه العقيدة ، فهناك على سبيل المثال الصعوبة الحسابية أو متى سيحدث مجيء المسيح ؟ إن أكثر من رأى متضارب فى حساب الأزمنة والأوقات قد ظهر خلال أجيال المسيحية ، وفى حساب الأحداث ، التى ترافق هذا المجيء ، قد دفعت الكثيرين إلى التخلي كلية عن هذه العقيدة . ولكن هناك شيء واحد أكيد . إن عجلة التاريخ تسير إلى الأمام ... إلى هدف ما . وبدون هذا الهدف يصبح التاريخ ناقصا مبتورا ، ويصبح منطق الأحداث بلا معنى ولا غاية . إن التاريخ ينبغى أن يكون له هدف . . إتمام . . كمال . وكمال التاريخ وغايته ، هو فى انتصار المسيح ، يوم انتصار له وتمجيد لأحبائه .

٤ - وتنادى هذه الفقرة بحق آخر مجيد ، له مكانه ضمن عقائد المسيحية العظمى : إن السماء بالنسبة للمسيحى ، هى حيث يكون « يسوع » . يقول السيد : « .. حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » . إننا لا نحتاج إلى كثير عناء . لتصور السماء .. يكفيننا أن نعرف أننا سنكون مع حبيبنا إلى الأبد .

لنأخذ مثلا بشريا . حينما نحب إنسانا ما من كل قلوبنا ، فإن الحياة تبدأ حين نكون مع ذلك الإنسان . فى صحبة ذلك الإنسان نشعر حقا بأننا أحياء . وهكذا مع المسيح .

إن صلتنا به فى هذا العالم ، مهما سمت هذه الصلة ، هى مثل بسيط لما سنكون عليه ، وصورته فى قلوبنا مهما صورها الإيمان لنا ، ليست سوى

صورة غائمة باهتة ، لأننا كما يقول الرسول . ننظر في مرآة تعكس لنا لغزاً
محيراً . إن حياتنا مع سيدنا على الأرض ، حياة متقلبة لأننا بشر لانستطيع على
الدوام أن نحيا في قمم الجبال ، ولكن أعظم أمجادنا أننا سنكون في حالة
أسمى .. سنكون مع الحبيب «يسوع» على الدوام .. سنكون معه ولن يفصلنا
عنه مرور الزمن أو تقلبات الأحداث ، أو ضعف الجبلة البشرية .. سنكون
معه لا نراه بعد ، بعين الإيمان ، بل لنراه وجهها لوجه بالعيان .. سنكون
معه ونسير في تلك الأبهاء السرمدية إلى أبد الآبدين .

الطريق والحق والحياة

وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ . قَالَ
لَهُ تَوْمًا يَا سَيِّدُ لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ
نَعْرِفَ الطَّرِيقَ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ
وَالْحَيَاةُ . لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الْآبِ إِلَّا بِي .

(يوحنا ١٤ : ٤ - ٦)

في أكثر من فرصة تحدث السيد إلى تلاميذه ، معلنا لهم أين سيذهب
ولكن يبدو أن أفهامهم كانت غليظة فلم يدركوا حديثه ، « أنا معكم
زمانا قليلا بعد » هكذا قال لهم « ثم أمضى إلى الذي أرسلني » (يوحنا
٧ : ٣٣) . لقد قالها صراحة من قبل ، إنه في طريقه إلى الآب ، الذي ،
هو واحد معه . ولكنهم لم يفهموه . بل لم يفهموا بالحرى الطريق الذي
يسلكه في ذهابه للآب لأن ذلك الطريق كان الصليب . في هذه الساعة
كان التلاميذ في حيرة وارتباك ، وكأنهم يضطجعون في قلب البحر . ولكنهم
لم يفتحوا أفواههم . كان بينهم واحد فقط دفعته الشجاعة ألا يصمت ، بل
يقول السيد إنه لم يفهم ما لم يستطع فهمه ، وهذا هو « توما » . لقد كان « توما »
هو التلميذ الوحيد الذي كان أكثر أمانة مع نفسه ، وأكثر جدية مع ضميره ، حتى
لا يرضى بصورة باهتة ، ولا يقبل ذهنه حقيقة يغطيها الضباب ، وهكذا
أراد أن يوقن من كل شيء ، فأعلن شكوكه ، وأعلن أنه لم يفهم ، وأنه

عجز عن إدراك كل شيء - من الغريب أن تساؤل إنسان شاك وليست تأملات تلميذ محب، هو الذى دفع «يسوع» إلى المناداة بأعظم الحقائق التى نادى بها ، ينبغى ألا نخجل من شكوكنا ، فهى تنطبق عليها الوصية : «اطلبو تجدوا» . ان الذى يطلب حنى فى روح الشك لابد وأن يكتشف فى النهاية كل الحق .

وقال «يسوع» لتوما «أنا هو الطريق ، والحق ، والحياة» هذا قول عظيم من أقوال المسيح المحيدة . ولقد كان قولاً أكثر غرابة لليهودى الذى يسمعه للمرة الأولى. ففيه أمسك «يسوع» بالخيوط الثلاثة الرئيسية التى يتكون منها نسيج العقيدة اليهودية ، ونادى بالحق الجبار ، بأن فيه وحده ، وليس فى سواه تتجمع كل هذه الخيوط ، وتجد كمال تحقيقها ، وإعلانها ... فلقد تحدث اليهود كثيراً عن الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان ، طريق الله ، فنجد القول فى سفر التثنية : «احترزوا لتعملوا كما أمركم الرب الهكم . لا تزيغوا يميناً ولا يساراً . فى جميع الطريق التى أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لئلا تزيغوا ويحكم عليكم خيراً» . (تثنية ٥ : ٣٢ ، ٣٣) ، وفى نفس السفر أيضاً يقول موسى للشعب : «إني عارف انكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به » (تثنية ٣١ : ٢٩) فإذا اتجهنا إلى نبوات إشعياء نسمع القول : «أذناك تسمعان كلمة خلفك قائلة هذه هى الطريق اسلكوا فيها حينما تميلون إلى اليمين وحينما تميلون إلى اليسار ، (إشعياء ٣٠ : ٢١) ان عالم العهد الجديد ، سوف تكون فيه طريق سلطانية اسمها طريق القداسة ، ومن سلك فى هذه الطريق حتى الجاهل لا يضل (اشعيا ٣٥ : ٨) أما المرثم فيهتف مصلياً «علمنى يارب طريقك ، واهدنى فى سبيل مستقيم» (مزمور ٢٧ : ١١) ، لقد كان اليهود يعرفون الكثير عن الطريق .. طريق الله .. طريق القداسة ، التى ينبغى أن يسلك فيها الإنسان

إذا أراد الحياة . وهاهو يأتي في ملء الزمان واقفاً على قمة جبل التاريخ،
ليعلن لليهود، وللإنسانية جمعاء ، هذا الحق العظيم فيقول : « أنا هو الطريق »
ترى ماذا يعنى بهذا القول ؟

لنفرض أننا هاجرنا إلى بلد غريب ، وسألنا الإرشاد والهداية في طريق
لا نعرفها . ولنفرض أن واحداً تطوع لإرشادنا فقال لنا : « سر إلى الإمام
حتى تلتقى بعطفة في الطريق تتجه بك يمينا ، سر في تلك العطفة فإذا بك
تلاقى طريقاً متقاطعاً إلى اليسار ، اتخذ هذا الطريق فتصل إلى غايتك » . لو حدث
هذا وسلكنا المسيرة بمفردنا فربما نضل ولا نعرف شمالنا من يميننا بعد
خطوات قليلة .

ولكن لنفرض أن آخر قال لنا « هلموا ورائي وأنا أوصلكم إلى غايتكم »
في هذه الحالة يصبح ذلك الإنسان المرشد طريقاً لنا ، ولن يكون هناك
أدنى احتمال للضلال . وهذا ما يفعله « يسوع » .. هذا ما يعنيه بقوله أنا هو
الطريق . أنه يأخذ بأيدينا ويقودنا ، ويسير معنا خطوة فخطوة . إنه
لا ينصحنا ويرشدنا وكفى ، ثم يتركنا بعد ذلك . بل إنه يسير معنا بروحه ،
ويؤيدنا بقوته . إنه لا يخبرنا عن الطريق . بل إنه يصبح لنا الطريق .

ويقول « يسوع » أيضاً « أنا هو الحق » . ونحن نصغى إلى المرنم في صلاته
يتضرع إلى إلهه قائلاً : « علمني يارب طريقك اسلك في حقك » (مزمور
٨٦ : ١١) . « الآن رحمتك أمام عيني ، وقد سلكت بحقك » (مزمور
٢٦ : ٣) وفي المزمور المائة والتاسع عشر « اخترت طريق الحق ،
جعلت أحكامك قدامى (١١٩ : ٣٠) . وفي معرض الحديث عن الحق
نقول إن كثيرين نادوا بالحق ، ولكن لم يكن واحد منهم هو الحق المحسد .
هناك أمر جوهري بخصوص الحق الأدبي ، إنه كثير ما ينادى إنسان بذلك

الحق ، ويفصل بنوده ، ويدعو الآخرين إلى اتباعه ، في الوقت الذي لا يمس فيه الحق قلبه ، ولا يغير حياته . وإنه بذلك يهدم بتصرفه ما ينادى به . إن معلم الحق الأدبي يختلف عن أى معلم آخر . فمعلم الرياضة أو علم تقويم البلدان ، أو اللغة اللاتينية قد لا يكون هناك من داع أن يتأيد تعليمه بتصرفاته الخاصة . فما ينادى به لا يمس حياته من قريب أو بعيد . ولكن معلم الحق الأدبي يختلف كل الاختلاف . وكيف نتصور زانيا ملوث السيرة والسريرة ينادى بناموس الطهارة الأدبية ؟ أو كيف يدعو البخيل المقتر إلى البذل والتضحية ؟ وكيف نرى متهورا مندفعاً ينادى بفضائل الحكمة والتعقل وضبط النفس ؟ أو شخصاً يغلى قلبه بالأحقاد وينادى بالمحبة والأخاء ؟ إن مثل هؤلاء تنقض حياتهم تعاليمهم فتصبح بلا فائدة . فالحق الأدبي ينبغي أن يتجسم في مثال حي إن كان يقدر له أن يخلد ويصبح قوة فعالة بين الناس . هنا مقياس العظمة الحقيقية في حياة أى معلم . بل هنا مقياس العظمة الذي لم يصل إليه أى معلم في تاريخ الإنسانية سوى واحد: يسوع المسيح . إن كثيرين أنبياء ، وكثيرين فلاسفة ، وكثيرين مشرعون ، وكثيرين لمعوا في تاريخ البشرية الطويل . وهؤلاء وأولئك يستطيعون أن يهتفوا بملء الفم : « لقد علمنا الناس الحق » . ولكن لا يوجد سوى واحد يستطيع أن يقول : « أنا هو الحق » إن الحقيقة العظمى عن يسوع المسيح ، ليس أن الحق وصل إلى قمة سموه في تعليمه ، ولو أن هذا صحيح ، بل إنه هو في ذاته الحق المجسد . بمعنى أن الحق الأدبي قد وصل إلى سمو تحقيقه في شخصه المبارك .

ويقول « يسوع » : « أنا هو الحياة » . يقول « حكيم » قديم « الوصية مصباح والشرعة نور . وتوبيخات الأدب طريق الحياة » (أمثال ٦ : ٢٣) « وحافظ التعليم في طريق الحياة » (أمثال ١٠ : ١٧) ويقول المرنم

« تعرفني سبيل الحياة » (مزمور ١٦ : ١١) . إن الحياة هي الهدف النهائي
للإنسان ، فهو دائب السعي إليها . وخلف هذا الهدف يخبئ كل هدف
ويستتر كل سعي .

يسوع هو الحياة ، لأن الحياة مع «يسوع» هي الحياة الحققة ، فلن نعرف معنى
الحياة المباركة إلا في صلتنا بيسوع . بل إن «يسوع» هو الحياة لأنه مصدر
هل نقول حياة الزمن ؟ هذا حق لأن كل شيء به كان . ولكننا نقصد
بالحرى حياة الروح حياة الأبد . ألم نجد الحياة الأسمى والأرفع فيه ؟
لقد قال « جئت لتكون لهم حياة » حياة أفضل وأسمى من الحياة الأرضية ،
ويسوع هو الحياة لأنه حافظ الحياة . لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . فهو
حافظ كل الأشياء بكلمة قدرته . ويسوع هو الحياة لأنه باعث الحياة . وكما
فعل قديما حينما وهب الحياة لسكان القبور ، سوف يفعل بصورة أكمل
وأشمل وأعظم ، في إقامة أجساد الراقدين ، وتغيير الأحياء ، حينما يأتي على
سحاب مجده .. « أنا هو الطريق والحق والحياة » والغاية ! والهدف ! « ليس
أحد يأتي إلى الآب إلا بي » . فيسوع هو الطريق الذي يوصلنا للآب وهو الحق
الذي نتمسك به فنصل إلى الآب ، وهو الحياة التي تملؤنا وتفيض فينا
فتأهلنا للشركة مع الآب . إنه الوحيد الذي يستطيع أن يقود البشر إلى الله .
الوحيد الذي يمسك بيد الإنسان ويقوده دون خوف أو خجل إلى محضر
الله .

رؤيا القدير

لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا . وَمِنْ
الآن تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ . قَالَ لَهُ فِيلِبُّسُ يَا سَيِّدُ أَرِنَا
الآبَ وَكَفَانَا . قَالَ لَهُ يَسُوعُ أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هَذِهِ مُدَّتُهُ
وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلِبُّسُ . الَّذِي رَأَيْتَنِي فَقَدْ رَأَى الْآبَ فَكَيْفَ
تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الْآبَ . أَلَسْتُ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الْآبِ
وَالْآبُ فِيَّ . الْكَلَامُ الَّذِي أَكَلَّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ
مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الْآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ .
صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الْآبِ وَالْآبُ فِيَّ . وَإِلَّا فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ
الْأَعْمَالِ نَفْسِهَا .

(يوحنا ١٤ : ٧ - ١١)

لقد كان إعلان «يسوع» في هذه الفرصة ، أقوى إعلان سبب صدمة
عنيفة لسامعيه . فلقد كان الله في الفكر الأغريقي ، يعبر عنه بغير المنظور .
وكان أحد بنود الإيمان اليهودي : « الله لم يره أحد قط » . لمثل هذا الجمهور
من السامعين نادى «يسوع» : « لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضا .
من الآن تعرفونه وقد رأيتموه » . وإذا بفيلبس يطلب المستحيل فيقول :

«أرنا الآب وكفانا»، ولعله كانت في فكره، صورة موسى في ذلك اليوم الرهيب، حينما طلب من إلهه أن يعلن ذاته له (خروج ٣٣ : ٢ - ٢٣). ولكن لم يجب الله موسى لطلبه: «أضعك في نقرة من الصخرة، واسترك يدي حتى اجتاز. ثم ارفع يدي فتتظر ورائي أما وجهي فلا يرى». في أيام «يسوع» كان الناس في دهشة وذهول، لما سمّيه ترفع الله واستعلاءه.

كان يضايقهم أكثر ما يضايقهم صمت السماء عن الأرض، وارتفاع الله عن البشر، فلقد كادوا ينسون صوت الله المتحدث في أنبيائه، لأن مئات السنين كانت قد مضت منذ تكلم آخر نبي للبشر، بأقوال الله. وهكذا ما عادوا ينتظرون أن يروا الله، أو يسمعوا صوته. فاذا بيسوع يقول لهم في بساطة وثقة: «الذي رأيته فقد رأي الآب». وكأني به يقول لسامعيه: «هل تريدون أن تعرفوا ما هي صورة الله؟ كيف يكون؟ ما هي صفاته المباركة وتعاليمه؟ ما هي مشاعره نحو البشر؟ إن أردتم أن تعرفوا كل هذا، تأملوا في تشاهدون الله.. يقول أحد الكتاب في تعليق له على بشارة لوقا، إن كاتب البشارة قد رسم الله بريشة عائلية، مضافا عليه صفات البيت والأسرة. وهو يعنى بهذا القول، أن «لوقا» قد أعلن الله في «يسوع»، مشاركا لنا في أبسط صور حياتنا العائلية. إننا حينما نتطلع إلى «يسوع» نستطيع أن نقول: «هذا هو الله شريكا لنا في تجاربنا. محاربا حروبنا، مختبرا وعائشا حياتنا». إن كان الأمر هكذا، وهو بالفعل كذلك، فإننا نستطيع أن نعرف الكثير عن ذات الله، وجوهره، وصفاته، عند تأملنا في «يسوع».

١ - فنحن نرى الله في «يسوع» يحيا في بيت ريفي.. في عائلة متواضعة.

كما تقول أبيات يرددونها الأطفال في الغرب .

« في بيت لحم فارس

« ثروته الدموع .

« جنوده حملانه !!

« هاسبجوا «يسوع»

إن الله في «يسوع» الطفل قدس الطفولة ، وفي ولادة يسوع من امرأة ، قدس الأمومة ، وفي حياة «يسوع» وسط عائلة فقيرة ، قدس البساطة والفاقة ، وأحاط الأسرة العادية بهالة من الجلال .

٢ - والله في «يسوع» لم يرفع عن القيام بأدنى الأعمال. لقد دخل الله إلى عالمنا في ثياب عامل فقير فقد كان نجاراً في الناصرة . اننا لن نستطيع أن نصل حقاً إلى ادراك تلك الحقيقة العظمى المذهلة ، أن الله يعرف كل شيء عن تفاصيل أعمالنا العادية ، التي نبذل العرق فيها كل يوم . فهو يعرف صعوبة ارضاء الطرفين . وهو يعرف العملاء العصبيين الذين يصعب ارضائهم والعملاء أصحاب الذمم المتسعة ، الذين ينسون ما عليهم من ديون . ولقد عرف السيد أيضاً البيت ، ومتاعب المعيشة مع أنداد كثيرين (ربما كان أولئك الذين يشار إليهم بلقب إخوة الرب ، أبناء ليوسف من زوجة سابقة ، أو أبناء خثولة أو عمومة ليسوع) . لقد كان يعرف كل مشكلة تعرض لنا في حياتنا اليومية . أما العهد القديم فقد كان يعتبر العمل لعنة حلت بالإنسان. فالعمل على اساس قصة التكوين ، نجم عن لعنة «آدم» بسبب خطيته وتمرده « بعرق وجهك تأكل خبزاً » (تكوين ٣ : ١٩) . فاذا بالعهد الجديد يشرق ، ليعلم كرامة العمل ، ويحيط بهالة من الشرف والكرامة حينما تقدم ابن الله ، وأخى ظهره لئير الخدمة العاملة .

٣ - بل إن الله في يسوع ، قد اختبر قسوة التجربة . إن أعجب ما في حياة السيد ، أنها لا تعلن لنا ثبات الله وجبروته فحسب ، بل بالحرى صراعه . إن أى فكر يتخيل أن الله ساكن في دائرة الهدوء والسلام . . . في دائرة لا تدنو منها - أمواج الاضطراب ، ولا عواصف الصراع ، ولا بحار هذا العالم الهائجة . ولكن «يسوع» ، أعلن للبشرية إلهاً من نوع جديد . . . إلهاً يجتاز المياه التي نجتازها ، وتقاومه التيارات التي تقاومنا ، إن الله الذي أعلن لنا في «يسوع» ، ليس نظير القائد الذي يقود مؤخرة الجيش . بل هو القائد الملهم الذي يقود المقدمة ، ويحتمل الأخطار ويواجهها ويشعر في ذاته بقوة التجربة وقسوتها .

٤ - وفي «يسوع» نرى الله محبا عطوفاً فائض القلب . . ومع المحبة يأتي الألم ، فالألم هو التوأم الشقيق للمحبة . إننا إن فصلنا أنفسنا عن البشر . . عن محبة البشر . . عن التعلق بهم ، فإننا نتحرر من آلام البشرية وأجزائها وهمومها . . إن رتبنا حياتنا على أنه لا اهتمام لنا بالأحياء . . ولا اهتمام لنا بأمور الحياة ، فإننا نريح أنفسنا من تعب القلب والفكر ، ولكننا نرى الله في «يسوع» مهتماً بنا ، حاملاً أحمالنا ، باذلاً مضجياً في سبيلنا ، بلحناً ساعياً خلفنا ، مشاركاً لنا في مشاعرنا ، متألماً في آلامنا ، محباً لنا بكل ما في الكلمة من معاني مشرقة عميقة . . حاملاً في قلبه جروح تلك المحبة .

٥ - وفي «يسوع» نرى الله مضجياً على الصليب . . وهذا أبعد وأعظم من أن يصدقه العالم . إن العالم يقف في ذهول أمام هذا الزكن الرئيسي في العقيدة المسيحية . فمن السهل على الإنسان أن يتصور إلهاً يرسل صواعق غضبه ودينوته على البشرية الخاطئة . . من السهل اليسير عليه ، أن يتصور الله في صورة «ثور» ، إله الشمال الذي كان يركب العاصفة ، ويضرب

بمطرقة أعالي الجبال ، فتدوى الرعود القاصفة . . يتخيله في صورة «مولوك» الإله الدموى ، متطلباً ضحاياه من الأطفال .

نعم، من السهل على الإنسان أن يتصور إلهاً جباراً يمحى من يقاومه ، ويبيد من يقف في وجهه ، ولكن من في الوجود يتصور الله متألماً في يسوع . . ؟ مهاناً فيه . . ؟ مقوداً إلى الجلجثة كشاة تساق إلى الذبح ؟ مستسلماً لجلاديه الذين يثقبون يديه وقدميه ؟ مرفوعاً على صليب العار والهوان ؟ من يتصور إلهاً يرضى بالصليب في سبيل خلاص البشرية ؟

« من رآنى فقد رأى الآب » هكذا يقول رب المجد ، إن يسوع ، المسيح هو إعلان الله للبشر ، وهذا الإعلان العظيم الجبار ، يدفع المؤمنين بذلك الحق ، إلى الوقوف أمامه في ذهول ، وفي حب ، وفي تمجيد . .

رؤيا القدير

(يوحنا ١٤ : ٧ - ١١)

ولكن «يسوع» يتقدم خطوة أخرى، ليقدم لنا حقاً جديداً . هناك بندكبير من بنود العقيدة الموسوية ، كان اليهودى يتمسك به كل التمسك ، ويحرص عليه كل الحرص : هذا البند هو تفرد الله وجلاله ووحدانيته . لقد كان اليهود موحدين إلى أبعد مما تشير إليه هذه الكلمة . إن آخر ما يتعرض له كل مفكر من ديانة أخرى ، أنه يتصور المسيحيين ، وقد اعتبروا «يسوع» إلهاً ثانوياً . هنا نرى «يسوع» يقدم إعلاناً فريداً للبشر ، فهو يقول بأن ما يقوم به من أعمال ، وما يتقدم به من تعاليم وأقوال ، لم تنبع من ذاته ، أو من دوافعه الداخلية ، بل أعمال الله قدمت إلى البشرية بواسطة ، وتعاليم الله أعطيت للناس عن طريقه . فهو مجد الله المحسم للبشرية . . وهو حق الله المقدم للإنسان .

دعونا نأخذ مثلاً بشرياً ولو أنه ضعيف هـش ... يقول أحد الثقات^(١) عن اللاهوتى الكبير والمفسر العظيم « أ . ب . بروش » إن الناس كانوا يتهافتون عليه لبروا فى الإنسان مجد الله ، لقد كان معلم جيل . وكل معلم تقع عليه مسئولية إعلان أمجاد الموضوع الذى ينادى به ، لمن يعلمهم . فإذا كان ذلك الموضوع ليس سوى يسوع المسيح ، فهو يستطيع إن كان يمتلك شفافية الحياة التقية المقدسة ، أن ينقل محضر المسيح وصورته ومجده ، لتلاميذه .

وهذا ما عمله « أ . ب . بروش » بل هذا صورة ضعيفة مهتزة لما قدمه يسوع المسيح عن الله ، فى أعماله ، وتعاليمه . لقد نقل إلى البشر وأعلن لهم مجد الله ، ومحفته نحو البشرية .

وكتب « جون كيرنز » لأستاذه « سيروليم هاملتون » :

« إني لا أعرف شيئاً عن كيانى السابق ، ولكنى أعرف شيئاً واحداً :
إننى للنهاية سوف أحمل أمام الأجيال ، طابعك فى حياتى » .

أحياناً يتعلم طالب لاهوت على يدى أستاذ يحله ويحبه ويحترمه ، فيتشبع به كل التشيع ، حتى يرى فى التلميذ صورة حية مجسمة لأستاذه الكبير . حتى صوته ربما يتطور ليشبه صوت معلمه . فنقول « هذا الراعى أو المبشر تعلم على يدى فلان . . » ويقول كثيرون « لو أنغمضنا عيوننا فإننا نستطيع أن نتصور أن فلاناً بعينه هو الذى يعظ » وهذا أيضاً صورة لما عمله « يسوع » ولكنها صورة ضئيلة ، كقطرة أمام المحيط الزاخر . لقد أتى « يسوع » إلى البشرية بتعليم الله ، ورسالة الله ، وفكر الله ، وقلب الله . قصارى القول ينبغى أن نضع فى فكرنا على اليوم ، أن « يسوع » إن كان قد تقدم للبشرية بتعليم فن الله ،

(١) Dr. Lewis Muirhead

أو بمعجزة فبقوة الله، أو بكفارة فبترتيب الله، وقصده الأزلى . لقد أتى إلى العالم لأن الله، أحب العالم . فخلف «يسوع» وفي كيانه نرى الله .

بل إن «يسوع» ليس إعلان قلب الله ، وفكره للبشر فحسب . إنه ذات جوهر الله متجسداً في جسم بشريتنا ، ظاهراً في ملء الزمان بيننا ، معلناً ذات الله لنا ، أو كما كتب الرسول : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد » .

ثم نستمع أيضاً إليه في هذه الفقرة ، وهو يتقدم لسامعيه طالباً منهم أن يمتحنوا الحق الذي ينادى به ، يضعوه في الميزان . . وعلى الدوام يضع «يسوع» أساسين لذلك الإمتحان : أقواله ، وأفعاله ..

١ - فليمتحنوا إدعاءه في امتحانهم لتعاليمه . وكأني بيسوع يقول لهم : « حينما تستمعون إلى ، ألا تستطيعون أن تتحققوا بأنفسكم أن ما أتقدم به من تعاليم ليس سوى حق الله ؟ » إن حديث أى إنسان يتم عن شخصيته ويفصح عن كيانه ، ويترجم عن حقيقته ، ويكشف عن ذاتيته . إن كلمات أى عظيم هي أعظم الأدلة عليه . قد نقرأ سطوراً من الشعر الرائع فنقول في الحال : « لا يمكن أن يكون سوى شيكسبير وراء هذه السطور » . قد يستعصى علينا تحليل تلك الآيات ، أو الوصول إلى عمق معانيها ، ولكن نغمتها ومضمونها العام ، يعطينا الفكرة بمن تكون تلك العبقرية التي تقف وراءها . وهكذا الأمر في كلمات «يسوع» . إننا حينما نصغي إليها ، فإننا لانملك أنفسنا من أن نهتف : « لا بد أن هذا صوت الله لاصوت إنسان . آه لو عرف العالم كيف يسلك في نور هذه المبادئ ، ويطيع هذه التعاليم ؟ آه لو كنا نطيعها ونسلك بموجبها ، كم كنا نصبح أناساً آخرين ؟ »

٢ - ولیمتحنوا ادعاءه فی نور أعماله . یقول «یسوع» لتلمیذه «فیلبس»
« صدقونی إنی فی الآب والآب فی . وإلافصدقونی لسبب الأعمال نفسها .. هذا
هو عین الجواب الدی أرسله «یسوع» للمعمدان فی سجنه . فلقد أرسل یوحنا إلیه
تلمیذیه متسائلًا ، ان کان «یسوع» هو المسیا أو ینتظر معلماً سواه . فكان جواب
السید للتلمیذین : «إذهبا وأخبرا «یوحنا» بما تسمعان وتنظران العمی یمشون ،
والعرج یمشون ، والبرص بطهرون والصم یسمعون ، والموتی یقومون
والمساکین یمشرون » (متی ١١ : ٥)

إن أعظم برهان علی أن «یسوع» هو ولیس سواه بقدرته علی شفاء الجسد
بالعمل المعجزی ، وشفاء النفس بالكلمة المعجزیة . فلم یظهر فی التاریخ سواه
من استطاع أن یغیر القلوب والنفوس ، ویخلق الإنسان من جدید ...

لقد قال «یسوع» لفیلبس .. « استمع إلی تصنع لصوت الله .. أنظر إلی
نر صورة الله .. ثق بی وأنت تضع ثقتك فی الله » . وهذا هو الطریق
إلی الإیمان المسیحی بل هو أساس العقیدة المسیحیة . إن الطریق إلی الإیمان المسیحی
لا یقوم علی أساس الحادلات العقیمة عن یسوع ، بل یقوم علی أساس النظرة
السلیمة إلیه والإصغاء إلی تعالیمه ، والإیمان به .. وهذا هو الأساس المثلث
الأركان ، الودی تقوم علیه المسیحیة .. إنا إن قمنا بهذا فإننا نتحقق صدق
کلمات «یسوع» الودی رأنی فقد رأى الآب ..

وعود ثمينة

الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَأَلْعَمَالُ الَّتِي
أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا لِأَنِّي
مَاضٍ إِلَى أَبِي . وَمَهُمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ
لِيَتِمَّ جَدُّ الْآبُ بِالْأَبْنِ . إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئاً بِاسْمِي فَإِنِّي
أَفْعَلُهُ

(يوحنا ١٤ : ١٢ - ١٤)

ربما لا توجد في الكتاب المقدس وعود أقوى من هذين الوعدين، اللذين
تتضمنهما هذه الفقرة . ولكن هذين الوعدين، هما من نوع خاص، ومن
طبيعة خاصة ينبغي أن نصل إلى فهمهما ودراستهما حتى ندرك متضمناتهما.
فما لم نصل إلى المعاني التي ينطوي عليها هذان الوعدان ، فإن اختباراتنا
في الحياة تكون عتيدة أن تسبب لنا الفشل .

١ - يقول السيد إنه يوما من الأيام ، سيصل الجال بتلاميذه إلى أن
يقوموا بنفس الأعمال التي يقوم بها السيد وبأعظم منها . نرى ماذا يعني
يسوع بهذا القول ! ؟

(١) من الأكيد أن الكنيسة الرسولية في أيامها الأولى، كانت لها
القدرة على القيام بمعجزات شفاء . وبولس الرسول يعاد ضمن مواهب

الروح التي نالها البعض ، موهبة الشفاء (اكورنثوس ١٢ : ٩ ، ٢٨ ، ٣٠)
والرسول «يعقوب» ينادى أنه في حالة مرض أى مؤمن ، عليه أن يدعوشيوخ
الكنيسة فيدهنوا جسده بالزيت ويطلبوا من الله من أجله ، وصلاة الايمان
تشفى المريض (يعقوب ٥ : ١٤) . ولكن من الواضح ان هذا
ليس كل ما قصده «يسوع» ، أو ما كان يرمى إليه . لأنه حتى إن سلمنا بأن
الكنيسة الأولى قامت بنفس المعجزات التي قام بها مؤسسها ، إلا أنها على
الأقل لم تقم بأعظم من تلك المعجزات .

(ب) ومن الأكيد أيضاً ، أنه بتقدم العلم ازدادت فرص الانتصار على
الأمراض المختلفة ، إن طيب اليوم له من الخبرة ، والإمكانيات . ما يستطيع
أن يجابه به أى مرض - عدا القليل - وينتصر عليه . إن له من الوسائل ما لم
يتوافر لرجل الطب في العصور القديمة . ولو ظهر أحد أطباء اليوم في
تلك العصور السالفة ، لألتفوا حوله . ورأوا فيما يقوم به أكثر من معجزة
إن المضادات الحيوية قد بدأت تشق طريقها بسرعة مذهلة في عالم العلاج
وتقوم بما يشبه المعجزات أو يفوقها .

فإن كانت الكنيسة قد ضعفت عن التمسك بالوعد ، فليس معنى هذا أن
الوعد قد بطل . ويكفى قول السيد : « وهذه الآيات تتبع المؤمنين .
يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » (مرقس ١٦ : ١٧) .

ومع أنها مازالت تخطو خطواتها الأولى . فإن قلعة بعد قلعة من قلاع الألم
والعذاب والمرض ، تنهار أمام العقاقير المعجزية .

ولماذا لا نقول إن هذا من نتائج روح المسيح العامل في البشر ؟ ما الذي
يدفع الإنسان إلى البذل والتضحية والعراق والدم ، وتعريض الحياة للخطر ،
بل بالفعل تقديم الحياة على مذبح التضحية ؟ وفي اكتشاف هذه الأمراض

ومسبباتها، وطرق الانتصار عليها، أكثر من قصة عن إنسان، ضحى بحياته في سبيل نفع إخوته ؟ لماذا يبذل الإنسان نفسه في انقاذ المريض : وإزالة أسباب الألم عن المتألم : وإبعاد شيخ الموت ما أمكن ذلك ، عن غرفة العليل ؟ لماذا يرهق إنسان نفسه لشفاء مريضى الجسد والنفس ؟

تحت النظام النازى القاسى ، كانت الإبادة هى مصير العجزة ، والمشوهين والمرضى الذين لا رجاء لهم فى الشفاء ، .

ولكننا بين آن وآخر ، نجد شابا موهوبا يتسم له المستقبل ، ويحمل أكثر من اجازة علمية ، نظير « البرت شويتزر » ، يدير ظهره للمستقبل الباسم ، ويغادر بلاده إلى قلب أفريقية السوداء ، ليعالج أدواء البشرية ويخفف آلامها ، ويضمد جروحها الفاغرة – ما الذى يدفع مثل هذا الشاب وغيره ، إلى سلوك طريق التضحية والبذل ؟ الجواب يسوع المسيح ، ومثاله ، وتضحيته وبذله وصلبيه وموته . وكأنى بيسوع يقول لهؤلاء وأولئك فى روحه العظيم « هؤلاء المرضى . المتعبون والمتألمون ، يرفعون أكف الضراعة لكم ، إن المرضى يذيب أجسادهم ، كما تذيب النار الشمع . عليكم تقع المسئولية ، ولكم أيضاً الأمتياز ، بأن تقدموا لهم كل ما فى وسعكم » . ألم يقل السيد يوماً لتلاميذه ، وهو يشير إلى الجموع الجائعة الحائرة المرهقة « أعطوهم أنتم ليأكلوا .. ؟ صحيح أن البعض يعطى لقباً آخر لعمل التضحية فيسميه بالشفقة أو العطف أو الروح الإنسانية ، وغير ذلك من التعبيرات الحديثة ، لكن الدافع الأساسى الأول ، لكل عمل صالح ، ليس أقل من مثال المسيح وروح المسيح .

(ج) على أن هناك معنى آخر تضمه دائرة هذه الأعداد . لاحظوا خدمة «يسوع» فى أيام وجوده على الأرض بالجسد ، وكيف أنها لم تتعد حدود فلسطين ،

بل ربما وجدت بقاع في تلك الرقعة الضيقة لم تطأها قدماء . فلم يرتفع صوت السيد بعيداً عن القرى والضباع التي افتقدتها ، ومع أننا رأينا بعض اليونانيين يأتون إليه ، إلا أن صوته لم يصل إلى بلاد الأغريق .

ومع أنا سترى واحداً من عسكر الرومان ، يقول عنه ، بالحقيقة كان هذا ابن الله ، إلا أن روما لم تسمع تعاليمه ، ولم يصل صوته إليها ، لقد جابه يسوع مشكلات فلسطين الروحية ، وربما الإجتماعية ، ولكنه لم يواجه متاعب أثينا ، ولم يسهم في حل مشكلات روما ، ولم يدو صوته في ربوع وادي النيل داعياً المتعبين والثقيلي الأحمال إلى الراحة ، إن يسوع حينما ظهر على مسرح الخدمة الدينية في بلاده ، وجد الجو مهياً والطريق معبداً . فالكثبة والفريسيون وهبوا حياتهم للدين والحفاظ عليه ، في حدود دائرة تفكيرهم وتقاليدهم . ومما لاشك فيه أنهم ، برغم تزمهم ، أسدوا خدمة كبرى للروح الدينية في بلادهم ، وللمحافظة على تعاليم الدين ووصاياه ، ونقاوة الحياة . فحينما تقدم «يسوع» ببشارته ، لم يجد أمامه أسراً منحلّه ، أو رجلاً يطوف مدينته وإلى جواره زوجة غير شرعية ، أو مأبونين يلطخون وجوههم بالمساحيق والأصباغ كالبغايا ، أو قبائح ترتكب في المعابد باسم التعبد للآلهة ، لقد كان مسرح الخدمة الدينية في فلسطين أكثر نظافة ، وأكثر تهيؤاً لقبول رسالة المسيح . ولكن قذارة الأمم ونجاساتهم ، وفضائح الوثنية وممارساتها ، ومرارة الاستعباد وقساوته ، وكل ما أحاط بالحياة الاجتماعية بين الأمم من مظاهر ملوثة تعيسة ، هي التي قدر للتلاميذ أن يواجهوها ، ويحاربوها ، وينشروا رسالة المسيح هناك ، ويرفعوا علم المسيحية في وجه العار والحديد والنار . لقد خرجت المسيحية الطفلة لتحارب حربها ، وتكسب معركتها ، في ميادين أقيس تماماً يقاس من الميدان الذي حارب فيه سيدها وانتصر . . .

وهكذا نعرف ماذا يعنى السيد بقوله إنكم ستقومون بكل هذه الأعمال وأعظم منها، لأنى ماض إلى أبى، إنه يعنى أنه فى أيام خدمته على الأرض كان محددًا بحدود فلسطين . ولكنه حينما يرتفع عن الأرض على الصليب ، ويقوم من الأموات، ويصعد إلى الآب ، سوف تتسع تلك الحدود، لتشمل العالم كله . سوف يتحرر من حدود الجسد ويعمل روحه الجبار فى ميادين أكثر اتساعاً . إن يسوع حين مضى إلى بيت الآب، استطاع ، على وجه التحديد ، أن يرسل روحه كالبحر المحيط الحضم ليغطى العالم أجمع .

٢ - وفى الوعد الثانى، يقول «يسوع» إن أية طلبة تقدم باسمه سوف تنال القبول . هذا هو أساس الصلوات المحجبة : ينبغى أن ندرسه جيداً لنقيم عليه بناء طلباتنا . إنه لم يقل إن كل طلباتنا تجاب، بل قال إن الطلبات التى تقدم فى اسمه سوف تقبل وتجاب . إن المحك الحقيقى الذى يظهر طبيعة صلواتنا ، هو هل نستطيع أن أقرن اسم يسوع بهذه الطلبة التى أطلبها؟ لن نستطيع على سبيل المثال أن نطلب المصالح الشخصية أو نطلب التفوق على الآخرين ، أو نتقدم بطلبه غير مسيحية، لانتفق مع إسم المسيح وكرامته . فحينما نصلى، علينا أن يسأل كل منا نفسه، هل ماأتقدم به من صلاة أو طلبة، أستطيع أن أتقدم به فى روح المسيح؟ أم أننى أطلب لتحقيق مصالحى الشخصية وأغراضى الأنانية؟ إن أية صلاة تستطيع أن تثبت أمام هذا المحك ، أمام هذا الامتحان ، هى الصلاة الحقيقية ، والطلبه التى نستطيع أن نقرنها بالقول : «لتكن مشيئتك ، كما فى السماء كذلك على الأرض» هى الطلبه المستجابة . ولكن الصلاة التى نبنيها على الذات ، ومطامعها هى صلاة فى إسم الذات ، وليست فى إسم يسوع المسيح ، وهى بالتالى صلاة لاينبغى أن ننتظر إستجابة لها .

المعين - الوعد القديم

إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَأَحْفَظُوا وَصَايَايَ . وَأَنَا
أَطْلُبُ مِنْ آبٍ فَيُعْطِيَكُمْ مُعْزِيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ
إِلَى الْأَبَدِ . رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ
يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ لَا يَرَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ . وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لِأَنَّهُ
مَا كَثُرَ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ .

(يوحنا ١٤ - ١٥ - ١٧)

خلال فصول البشارة الرابعة، تتردد نعمة واحدة تعلن امتحان المحبة ،
وهذه النعمة هي الطاعة . فدليل المحبة الحقيقية الصادقة هو حفظ الوصايا .
حتى رب المجد نفسه لم يستثن من هذه القاعدة ، فطاعته للآب قد
أعلنت محبته له . وبالتالي طاعتنا نحن لوصايا يسوع برهان محبتنا الصادقة
له . يقول « لك . باريت » إن المحبة في البشارة الرابعة لا تدور في دائرة
خيالية حائلة تسبح بين النجوم ، وتعانق الكواكب ، بل أن تعبيرها يترجم
في بنود الناموس الأدبي ، وإعلانها يتجسم في الطاعة الكاملة .. « إننا نعرف
من اختبارنا في الحياة اليومية ، كثيرين يعلنون عن محبتهم بالكلمات المنمقة
الجوفاء ، ويتخذون من المظاهر الخارجية الخداعة ، تعبيراً لها ومع ذلك فهم في

نفس الوقت يجلبون المتاعب على من يدعون أنهم يحبونهم ، وبتصرفاتهم وأفعالهم، يكسرون قلوبهم . هناك أبناء يقبلون والديهم في الصباح عند خروجهم للدراسة ، وفي المساء قبل ذهابهم إلى الفراش . ولكنهم بعدم طاعتهم يسببون مضاعفات للوالدين ؟ أزواج ينادون بأنهم بذوبون حبا لزوجاتهم ، وزوجات لا يدعن فرصة تمر دون أن يعبرن باللسان عن حبهن لأزواجهن ، لكن الذى يفحص داخل القلب ، يعرف أن عقارب الغيرة ، والحسد ، والنفعية ترعى في القلوب .

إن المحبة الحقيقية في ناموس «يسوع» ليست شيئا عاديا هينا ، إن برهانها الوحيد الأكيد هو الطاعة . لذلك فما يدعى البعض بأنه حب ، ليس كذلك على الإطلاق لأن الحب الحقيقى الإيثارى المضحى العامل ، هو أندر شيء في الوجود .

من الواضح إذا أن الحب شيء نادر .. الحب الحقيقى الذى يتجسم في روح الطاعة . ولكن «يسوع» لا يتركنا نصارع بمفردنا في هذا الميدان . إنه يرسل لنا معيننا يسندنا ويؤازرنا ويرفعنا . من هو هذا المعين ؟ يتقدم السيد باسم تصعب ترجمته أو تستحيل . هذا الاسم في الأصل اليونانى يعبر عنه بكلمة « بارا كليتوس » أو الباراكليت ، أما الترجمة المعتمدة الإنجليزية ، وتسير في ركبها ترجمة فاندريك العربية ، فقد نقلت كلمة بارا كليتوس على أنها « المعزى » ، وبالرغم من أن هذه الترجمة تقربنا قليلا من المعنى ، كما أنها تقدست بمرور الزمن والإستعمال، إلا إنها ليست كافية لتقدم لنا المعنى الأصلى في قوته . في ترجمة موفات ترد كلمة « المعين » . وحتى هذه لاتقدم لنا الأصل في ملء غناه .

إننا لو فحصنا اللفظة « بارا كليتوس » فإننا نجد لها معنى حرفيا «شخصا استدعى

إلى « . ولكن السبب الذى بمقتضاه استدعى هذا الشخص هو الذى يحدد صفته، ويضفى على كلمة باراكليتوس صبغتها المميزة . ولقد استخدم اليونانيون الكلمة فى أكثر من طريق . استخدموها للدلالة على الشهادة أمام القضاء . فالباراكليتوس هو الشاهد الذى يدعى إلى المحكمة للإدلاء بشهادته ولا يشترط أن يكون هذا الشاهد محترفاً كبعض الشهود الذين يستدعون للإدلاء بشهادتهم . فقد يكون إنساناً له كرامته ومركزه، نظير محام أتى ليدافع عن موكله ، وبناء على دفاعه عنه تترتب أخطر النتائج . وقد يكون خبيراً استدعى للاستعانة برأيه فى قضية من القضايا ، أو مشكلة من المشكلات .

بل قد يكون الباراكليتوس وسيطاً ، ملهم من الحكمة والمقدرة والمواهب ، ما يستطيع به أن ينفخ الهمّة فى فصيلة من الجند أصابها الأعياء واليأس ، وراودها الفكر بالنكوص على أعقابها . وهكذا يدعى إلى هذه الفصيلة ليعيدها إلى القوة والنشاط .

إن الباراكليتوس ، هو على الدوام شخص يدعى إلى مهمة عاجلة تقتضيها المعونة فى الأزمات ، أو اليأس ، أو الضيقات .

أما كلمة المعزى ، فربما يرجع دخولها إلى أكثر من ترجمة من ترجمات الكتاب فى أكثر من لغة ، إلى عهد « ويكليف » ، فهو أول من استخدمها فى اللغة الإنكليزية . ولقد كانت الكلمة تعنى أكثر مما تعنيه الآن . كان أحد مقاطعها « فورت Fortis » فى اللاتينية يعنى الشجاعة . ولذلك كانت كلمة المعزى تعنى فى تلك العصور السالفة ، الشخص الذى ينفخ فى إنسان ثبّطت همته ، معانى الشجاعة وأسباب القوة . أما الآن ، فإن كلمة المعزى ، لا تزيد فى معناها عن إنسان يؤامس إنساناً آخر ، فى حزن أو مضاب

ومما لا شك فيه أن هذه هي إحدى وظائف الروح القدس . ولكن عمل الروح لا يقتصر على هذا فحسب ، إنما إن جعلناه معزياً فقط نقل من عمله ، وننتقص من وظيفته . هناك كلمة قد تكون أكثر خصوبة ، وتعطي دلالة أكثر ، وهي كلمة مكافح أو مناضل أو منهض . إن الروح القدس هو المناضل المكافح فينا ، الذي يحول هزيمتنا وفشلنا وهزالنا ، إلى قوة وانتصار .

وهكذا فإن ما يقصد «يسوع» أن يقوله لنا ، هو على هذا النحو « إنني مرسلكم في ميدان قاس ، وواضع عليكم نيراً ثقيلاً ، ومحملكم مسئولية عظمى . ولكني لن أرسلكم بمفردكم . سأرسل معكم الباراكليتوس الذي يقويكم ، ويشجعكم ، ويؤازركم حتى تستطيعوا أن تقوموا بواجبكم ، وتحملوا أحمالكم . إن الروح القدس روح الحق ، سوف يرشدكم إلى الحق ، وينهض عزائمكم الفاترة المرتخية ، حتى تستطيعوا أن تكافحوا وتناضلوا في الجهاد الموضوع أمامكم في سبيل الحق » .

ثم يتقدم «يسوع» خطوة أخرى ، ليعلم أن العالم لا يعرف روح الحق . أما العالم فيعني به ذلك « القطيع » من البشر الذي يحيا بلا إله . . . أولئك الذين حذفوا اسم الجلالة من برنامج حياتهم . أما مركز الدائرة في هذا القول الإلهي فهو هذا : إنما نستطيع أن نبصر ما نتهياً في الداخل لرؤيته . فقد يحدث أن أسير جنباً لجنب مع عالم من علماء الفلك ، ونرفع نحن الاثنين أبصارنا إلى السماء ، لكن عالم الفلك يستطيع أن يرى في صفحة السماء ، ما لا أراه أنا . وقد أسير في الحديقة إلى جوار عالم من علماء النبات . لكن الزهرة التافهة الرابضة بين العشب ، والتي تطوؤها قدماي في غير

اهتمام ، تبدو في مخيلته زاخرة بالصور والمعاني . وقد يتاح لي أن أقف إلى جوار طبيب يجري الكشف على إنسان . لكن ما يراه الطبيب في أعماق كيان ذلك الإنسان المريض ، لا أستطيع أن أراه أنا . وقد يعرض لي أن أدخل مع أحد خريجي كلية الفنون ، إلى متحف من متاحف الفن ، ونقف سويا أمام صورة من الصور . لكن كل خط من الخطوط المتقاطعة التي تخف في سوادها ، أو تكثف ، أو تتوزع هنا وهناك على اللوحة ، تكشف أمام عيني صديق عن معان لا أستطيع أن أصل أنا إلى إدراكها بنظرتي السطحية غير المدربة – دائما مانستطيع أن نفهمه ونقبله ، يتوقف على الصورة السابقة التي تكونت في مخيلتنا على أساس اختباراتنا ومعرفتنا السالفة . وعلى هذا الأساس ، فإن الإنسان الذي اعتاد على إبعاد الله عن دائرة تصوره ، وتفكيره ، وبرنامج حياته ، لن يكون لديه أدنى وقت ، في يوم من الأيام لينتظر الله ، ويصغي إلى صوته . انه يعتبر الوقت الذي يقضيه مع الله وقتا مضيعا بلا جدوى . ومالم نتعلم كيف نتنظر في صمت وثقة وتسليم في محضر الله ، فاحصين ذواتنا ، منكربين أنفسنا ، فاننا لن نقبل روح الله ، ولن تكون لنا المقدرة على معرفته المعرفة الاختبارية .

إن العالم لا يعرف روح الله ، ولا يستطيع أن يقبله ، لأن العالم لا يملك نظرة التقدير والاعتبار لكل ما هو إلهي ، ولأنه أكثر مشغولية من أن يحتل مع الله ، ويفحص نفسه في نوره الفاحص ، ويعطي الروح القدس الفرصة لدخول القلب والسيطرة على الحياة .

إن كنا نريد أن نتمتع بدخول الروح القدس إلى قلوبنا ، ونملكه

على حياتنا ، إن كنا نريد أن نتمتع بقوته وتعزيتة ، وإنهاضه لنفوسنا ،
إن كنا نريد أن نحيا في ملء القوة والثمر المبارك ، ثمر الروح القدس ،
ينبغي أن نحلى أنفسنا من العالم واهتماماته ، ونفرز وقتا منتظرين في
صمت ، وإيمان وتسليم ، حتى يتنازل الرب إلينا بموعده الآب .

الطريق إلى الشركة والإعلان

بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضاً وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنِي .
إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ . فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي
أَنَا فِي أَبِي وَأَنْتُمْ فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ . الَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَا
وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحْيِي . وَالَّذِي يُحْيِي يُحِبُّ أَبِي وَأَنَا
أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي .

قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الْإِسْخَرِيُّو طَيَّيَّاسِيْدُ مَاذَا حَدَثَ
حَتَّى إِنَّكَ مُزِمٌّ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ .
أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ إِنَّ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي
وَيَحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً . الَّذِي
لَا يُحْيِي لَا يَحْفَظُ كَلَامِي . وَالْكَلَامُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ
لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي .

(يوحنا ١٤ : ١٩-٢٤)

لا بد أن شعورا بالوحشة قد ساد على التلاميذ، وهم يصغون إلى حديث
سيدهم . لا بد أنهم أحسوا أمام ذلك الخطاب الوداعي الممتلئ بأكثر من

تعزية وتشجيع ووعد ، أن هناك مأساة تلوح في الأفق . ولكن «يسوع» يعود فيطمئنه بالقول : « لا أترككم يتامى » . ونحن نستخدم كلمة يتامى للأشارة إلى من فقد أحد الوالدين . ولكنها كانت تطلق في القديم على تلاميذ فقدوا معلمهم الحبيب .

يتحدث «أفلاطون» أنه حينما مات «سقراط» ، ظن تلاميذه أنهم سيقضون سحابة العمر في وحشة اليتامى الذين فقدوا عائلهم ، ولا يعرفون ماذا يفعلون من بعده . ولكن «يسوع» يقول لتلاميذه إنهم لن يصبحوا كذلك . ولن يتركهم في وحشة اليتيم ، بل سيرجع إليهم . وبهذا القول كان يشير إلى قيامته من الموت ، وظهوره لهم . إنهم سيرونه بأعينهم بعد أن يغيب وراء جدران القبر . . . سيرونه حيا منتصرا لأن الموت لن يسود عليه ، وسيرونه أيضا لأنهم أصبحوا أحياء فيه ، وهو يعنى بذلك الحياة الروحية . إنهم في هذه الساعة في ذهول وخوف أمام العاصفة التي تبدو نذرها في الأفق . ولكن سيأتي اليوم ، الذي تفتتح فيه بصيرتهم الروحية ، وتفتتح عقولهم المغلقة ، فيرونه ويعرفونه حقا . وهذا ما حدث تماما حينما قام «يسوع» من الأموات . إن قيامة السيد ، قد حولت يأسهم إلى بأس ، وضعفهم إلى قوة ، فتحققوا يقينا أن يسوع المسيح هو بالحقيقة ابن الله .

في هذه القطعة التي تبدو أمامنا مثل سيمفونية الرجاء ، نستمع إلى بعض الأنغام المتميزة .

١ - فهي تسود عليها نغمة المحبة . والمحبة في البشارة الرابعة أساس كل شيء ، ليس فقط لأن البشارة الرابعة هي بشارة المحبة فالآب يحب الأبن ، والأبن يحب الآب . والله يحب العالم ، وكذلك يسوع - يحب العالم . والبشر

في يسوع يحبون الله ، ويرتبطون ، الواحد مع أخيه برباط المحبة . إن المحبة هي الرباط الأسمى الذي يربط السماء بالأرض والإنسان بإلهه ، والإنسان بأخيه . بل هي الناموس الأعظم الذي يسود دوائر السماء العليا .

٢ - ومرة أخرى، نستمع إلى نغمة الطاعة ترد في هذه الفقرة . فالطاعة برهان المحبة الأوحى . ولأولئك الذين أحبههم ظهر «يسوع» حينما قام من الأموات .. أولئك الذين أظهروا محبتهم له بطاعتهم العملية .

٣ - وهذه المحبة الواثقة المطيعة تصل بنا إلى نتيجتين ، فهي توصلنا إلى الأمان الكامل . فإن أولئك الذين أحبوا «يسوع» وأظهروا محبتهم له في طاعة عملية ، سوف يكونون في أمان في يوم انتصار المسيح ، حينما تنهوى أطمع العالم وتبيد الممالك . وهي أيضاً تقودنا إلى الإعلان الكامل ، لأن الذي يحب يسوع في غير فساد ، يكشف له أكثر فأكثر عن ذاته . وصفاته . إن معرفة الله ، وإعلان الله للإنسان ، هما ثمن ما في الوجود . وهناك أساس أدبي لذلك الكشف أو الإعلان . فالذي يريد أن يرى الله في المسيح ، أن يعلن له المسيح ذاته ، هو الذي يحفظ الوصايا الإلهية . لا يمكن أن يتمتع إنسان بعيد برؤية القدير . إن الله قد يستخدم الإنسان الشرير لمجده ، ولكنه لن يعلن له ذاته ، ولن تكون له الشركة معه - الذي يسعى إلى الله بالمحبة الصادقة الطيعة ، هو وحده الذي يعلن له ذاته والذي يسعى للصعود إلى جبل الله رغم ضعفه ، هو الذي ينزل الله إليه ويتنازل .

٤ - إن الشراكة مع الله ، وإعلان الله للإنسان ، يتوقفان على المحبة . والطاعة هي برهان المحبة الأوحى . فكلمة أطينا الله أكثر فأكثر ، كشف لنا ذاته . وكلمة سرنا في وصاياهم ، نسير معهم ونتمتع به .

تركة المسيح

بِهَذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ . وَأَمَّا الْمَعَزَى الرُّوحُ
الْقُدُسُ الَّذِي سِيرَسِيلُهُ الْآبُ بِاسْمِي فَهُوَ يَعْلَمُكُمْ كُلَّ
شَيْءٍ وَيَذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ .

سَلَامًا أَتْرُكُ لَكُمْ . سَلَامِي أُعْطِيكُمْ . لَيْسَ كَمَا يُعْطَى
الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا . لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلَا تَرْهَبْ .
سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ . لَوْ كُنْتُمْ
تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لِأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الْآبِ . لِأَنَّ
أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي . وَقُلْتُ لَكُمْ أَلَا نَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى
مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ . لَا أَتَكَلَّمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِيرًا لِأَنَّ
رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ . وَلَكِنْ لِيَفْهَمَ
الْعَالَمُ أَنِّي أُحِبُّ الْآبَ وَكَمَا أَوْصَانِي الْآبُ هَكَذَا أَفْعَلُ .
قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا

(يوحنا ١٤ : ٢٥ - ٣١)

هذه الفقرة ذاخرة بالحق . وفيها يتحدث « يسوع » عن خمسة أمور ..

١ - فهو يتحدث أولاً عن الروح القدس روح الحق . وهو يذكر أمرين أساسيين عن الروح .

(أ) فالروح القدس يعلمنا كل شيء . إن المسيحي ينبغي أن يتخذ طيلة حياته ، وضع من يريد أن يتعلم ، ومن يسعى للتعليم ، والروح القدس يقوده يوماً بعد يوم ، إلى مجالات أعمق وأعمق في حق الله . لا يوجد مسيحي مهما تعمق في المعرفة ، يستطيع أن ينادى بأنه قد عرف كل الحق . ولا توجد اعذار في دائرة الإيمان المسيحي لأصحاب العقول المغلقة المكتفية . إن المسيحي الذي يشعر بأنه قد وصل في المعرفة إلى درجة الاكتفاء ، لم يتعرف قط على الروح القدس في حياته ، ولم يتلمذ على يديه .

(ب) والروح القدس يذكرنا بكل ما قاله السيد لنا . وهذا يعني أنه في دائرة إيماننا الأقدس يذكرنا روح الله بكل ما قاله لنا يسوع . إن عقولنا تفكر وتصل في تفكيرها إلى نتائج ، لكننا ينبغي أن نخضع الفكر لمقياس تعليم المسيح الكامل . ومهما سمونا في تفكيرنا فلن نصل إلى فكر الله . علينا أن نقبل حق الله الذي أعلنه لنا « يسوع » . إن مهمة اكتشاف الحق لم تهتد بعد علينا . كل ما علينا فقط أن ندرك مضمون الحق ، أن نعرفه .. أن نصل إلى أعماقه .. أن نعرف كل ما قاله « يسوع » لنا . فالروح يذكرنا بكل ما قاله السيد لنا ، ويحفظنا أيضاً من الشطط في الفكر والاستنتاج .

(ج) والروح القدس يقوم بحياتنا وسلوكنا - وكم من مرة يتكرر هذا الاختبار في حياتنا كمؤمنين . كم من مرة نجرب بأن نخطئ فيأتينا في الحال قول من أقوال المسيح ، أو صورة آلامه على الصليب ، أو آية من

المزامير ، أونصيحة نطق بها صديق نجله ونحترمه ، أو تعليم رضعناه مع
لبان أمهاتنا . ما الذى يذكرنا بكل هذا ، ويرسم هذه الصور أمامنا ؟
من الذى يتقدم إلينا بالتذكيرة فى اللحظة الحاسمة ؟ هذا هو عمل الروح القدس
فى ساعة التجربة ، فهو الذى يذكرنا بكل ما قاله لنا « يسوع » .

٢ - ويتحدث إلينا بهبة عظمى مباركة ، هبة السلام . والسلام فى
الكتاب المقدس « شالوم » لايعنى غياب المتاعب . ولكنه يعنى ما من
شأنه رفعتنا ووصلنا إلى أسمى حالة من الهدوء والسعادة . إن السلام الذى
يهبه العالم هو سلام الهروب من المتاعب ، وتجنب المضايقات ، سلام عدم
مواجهة العاصفة ، والاختباء منها . لكن السلام الذى يقدمه لنا « يسوع »
هو سلام الانتصار . . الذى لا تنزعه أية هموم أو متاعب ... السلام الذى
لا يوهنه الحزن والضيق والألم . . السلام العميق المستقل عن كل الظروف
الخارجية .

٣ - وفى هذه الفقرة يتحدث إلينا « يسوع » عن غايته ، فهو سيعود إلى
الآب . . وهو يقول لتلاميذه إنهم إن كانوا يحبونه حقاً فينبغى أن تفيض
قلوبهم بالفرح لأجل هذا ، فهو سيتحرر من محدودية الوجود المادى
ستحطم أمامه الحدود . . سيبدأ استعلان أعجابه الحققة . . لو تأملنا هذا الحق
لأمتلأت قلوبنا فرحاً ، حينما نرى واحداً من أحبائنا المؤمنين ينطلق إلى المجد .
ليس معنى هذا ألا نحس بلوعة الحزن ، ولوعة الفراق . ولكن معناه أننا
فى حزننا ، وفى وحشتنا ينبغى أن نمتلىء بشعور الأرتياح والتسليم ، لأن
أولئك الذين نجبهم قد استراحوا من أمواج الحياة ، وعواصفها ، ووصلوا
إلى الميناء بسلام ، ينبغى ألا نقلل فى ساعة أحزاننا من قيمة الراحة التى يتمتع
بها أحبائنا ، والأعجاء التى ينعمون بها ..

٤ - ويتحدث «يسوع» أيضاً عن الصراع الذى ينتظره، والمعركة التى أصبحت على الأبواب، ولقد كان الصليب هو آخر معركة خاضها «يسوع» ضد قوات الشيطان ، ولكن يسوع لم يخش الصليب لأنه كان يعلم أن النصر النهائية ليست للشر بل للحق ، لقد سار إلى صليبه بروح الثقة والانتصار ، وليس بخطوات اليأس والانكسار .

٥ - وفى هذه الفقرة يتحدث عن انتصاره . حتى هذه الساعة لم يكن الناس يرون فى الصليب سوى العار والمذلة . ولكن سيأتى اليوم الذى يصبح فيه صليب يسوع رمزاً لطاعته للآب ، ومحبه للبشر . إن مفاتيح أسمى ما فى حياة يسوع من أهداف ومعان ، قد وجدت تحقيقها فى الصليب ، هنا أعلنت بطريقة تفوق العقل والأدراك ، طاعة الابن للآب ، ومحبة الآب والابن للعالم أجمع .

الْأَصْحَاحُ الْخَامِسُ عَشَرَ

الكرمة والأغصان

أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ . كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ
لَيَأْتِي بِشَمَرٍ يَنْزِعُهُ . وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِشَمَرٍ يُنْقِيهِ لِيَأْتِيَ بِشَمَرٍ
أَكْثَرَ . أَنْتُمْ الْآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ
بِهِ . اثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ . كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لَا يَقْدِرُ أَنْ
يَأْتِيَ بِشَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ
أَيْضًا إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ . أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمْ الْأَغْصَانُ .
الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هَذَا يَأْتِي بِشَمَرٍ كَثِيرٍ . لِأَنَّكُمْ
بِدُونِي لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا . إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يَثْبُتُ
فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجًا كَالْغُصْنِ فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ
فِي النَّارِ فَيَحْتَرِقُ . إِنْ ثَبُتُمْ فِيَّ وَثَبْتَ كَلَامِي فِيكُمْ
تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ . بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ
تَأْتُوا بِشَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلَامِيذِي . كَمَا أَحَبَّنِي الْآبُ

كَذَلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا . اثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي . إِنَّ حَفِظْتُمْ
وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا
أَبِي وَأَثْبَتُ فِي مَحَبَّتِهِ .

(يوحنا ١٥ : ١ - ١٠)

في هذه الفقرة يستعير السيد من مملكة النبات صورة متواضعة ليرمز
بها لحقائق عظمى . . صورة كانت وما تزال ركنا جوهريا في التراث
الديني اليهودي . فأكثر من مرة في العهد القديم يصور الوحي اسرائيل في
صورة كرمة القدير . يقول اشعيا « ان كرم رب الجنود بيت اسرائيل »
(اشعيا ٥ : ١ - ٧) ويتكلم الرب على لسان ارميا قائلا عن اسرائيل
« وأنا قد غرستك كرمة سوري » (ارميا ٢ : ٢١) أي كرمة نبيلة
كرمة .

فإذا أتينا إلى نبوءات حزقيال ، نسمعه يكرر نفس التشبيه في أكثر من
موضع (حزقيال ١٥ ، ١٩ ، ١٠) .

أما هوشع فيقول : « اسرائيل جفنة ممتدة » (هوشع ١٠ : ١) .
أي كرمة فارغة بلا ثمر . أما المرنم فإنه يذكر إحسانات الرب لشعبه في
إخراجهم من أرض مصر فيقول « كرمة من مصر نقلت » (مزمور
٨٠ : ٨) .

وهكذا أصبحت الكرمة رمزا لأمة اسرائيل ، حتى أننا نجد النقود التي
صُكَّت في عصر المكابيين تحمل صورة الكرمة . وأما أحد أمجاد الهيكل
ورؤسها ، فقد كان الكرمة الذهبية الضخمة على مدخل الموضع المقدس .
ولقد كان الأثرياء والعظماء يتنافسون في تقديم عطايا ذهبية لتسيك وتضاف

إلى الكرمة الذهبية في صورة عنقود عنب ، أوحى حبة واحدة ، لقد كانت الكرمة جزءاً لا يتجزأ من التراث الروحي والفني لليهود . بل كانت رمزاً للأمة بأكملها .

ويأتى «يسوع» في ملء الزمان لينادى بأنه هو الكرمة الحقيقية . ماذا يعنى بكلمة الحقيقية والأصلية ؟ في الواقع إننا لو تأملنا في الوحي في صورة الكرمة في العهد القديم ، فإننا نجد أنها تقترن في غالبية الأحوال بالتدهور والانحلال . فاشعياء يتحدث عن كرم تالف يشر عنباً مرّاً رغم كل ما بذل له من عناية ورعاية . أما أرميا فشكواه تدور حول كرمة برية منحلة إشارة إلى أمة ابتعدت عن إلهها وأصبحت غريبة عنه فذب فيها الانحلال . على نفس الوتيرة يتحدث هوشع عن كرمة تمد خراعيها الحاوية ، فتبدو من بعيد شيئاً كبيراً وهي لا تحمل ثمراً على الإطلاق ، وإذا صنعت تصنع ثمراً مرّاً لحساب نفسها . وكأني بيسوع يقول لتلاميذه : « انكم تظنون انكم بانتمائكم إلى اسرائيل أنتم أغصان في الكرمة الحقيقية . انكم تظنون انكم لكونكم يهوداً أنتم شعب الله المختار . . . إنكم تظنون انكم بمولدكم ، وبجنسيتكم ، أنتم فروع في الكرمة الإلهية ، ولكني أقول لكم إنه ليس لإسرائيل كرم الله ، ولا جنس يعقوب جفنة القدير . ان إسرائيل كشعب قد أصبح كرمة برية منحرفة تقدم الثمر المر ، كما تحدث بذلك أنبياءكم . إن حقيقة كونكم يهوداً لن تخلصكم ، ولكن الطريق الوحيد للخلاص ، هو أن تكون لكم شركتكم الحية معي . . . أن تتطعموا في وتتأصلوا كما يتأصل الغصن في الكرمة . لأنني أنا كرمة الله الحقيقية ، وأنتم ينبغي أن تصبحوا أغصاناً في . لقد وضع يسوع المبدأ أن ليس الدم اليهودي أساس خلاص الله ، ولكن الإيمان به ، هو الأساس فالمؤهلات الخارجية لا تجدي . ولكن الارتباط الحي بالإيمان بيسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص .

الكرمة والأغصان (تابع)

(يوحنا ١٤ : ١ - ١٠)

حينما رسم «يسوع» أمام أنظار تلاميذه صورة الكرمة والأغصان ، كان يستوحى من البيئة صورة شعبية مألوفة . فقد كانت الكرمة هي المنظر الذى يتكرر فى فلسطين فى أكثر من مكان . والكرمة نبات يحتاج إلى أكثر من عناية ، حتى يقدر له أن يعطى ثمرا جيدا . فالتربة ينبغى أن تكون نظيفة تماما ، والدعائم والتكعيبات الخشبية قريبة من الساق حتى تتعلق بها الأغصان الغضة . وفى الحدائق كان يسمح للساق بأن ترحف قريبة من الأرض مرفوعة قليلا بدعائم خشبية على شكل حرف ٨ . وكان يفسح المكان بين كرمة وأخرى ، لأن فروع الكرمة الواحدة كانت تنتشر على مساحة واسعة . أما الكرمة الناشئة فلا يسمح لها بأن تثمر إثماراً . لمدة ثلاث سنوات كاملة . فكانت تقرض فروعها كل عام حتى لاتصل إلى حد الإثمار ، فتحتفظ بحيويتها ونشاطها . فاذا وصلت إلى سن النضوج ، تشذب الأغصان فى الشهر الأخير من العام ، والشهر الأول من العام الذى يليه . فالكرمة لها نوعان من الأغصان : أغصان مشمرة تثقل بالعناقيد ، وأغصان بلا ثمر . أما الأغصان العقيمة التى لاتحمل سوى الأوراق الخضراء ، فهى تقطع بلا شفقة حتى لاتمتص رحيق الحياة من الكرمة ، وحتى تتيح الفرصة للأغصان الأكثر نفعا بأن تنضج وتؤتى ثمارها . وبدون هذا التشذيب القاسى ، لن يتاح للكرمة أن تأتى بثمارها وتثقل بالعناقيد .

زيادة على ذلك ، فإن إحدى « ميزات » خشب الكرمة ، انه لا يصلح لشيء . فهو هش لا يناسب أعمال النجارة . حتى بلذبح المحرقات ما كان

خشب الكرمة يصلح للإيقاد . ولقد كانت هناك مواسم لتقديم عطايا الأخشاب للمحرقة، وكانت التعليمات تقضى ألا يقدم خشب الكرمة . فالمنفعة الوحيدة للأغصان الخشبية التي تقطع ، أن تطرح خارجا في حرارة الشمس لتجف ، ثم تجمع وتطرح في النار فتحترق – ربما تجمعها النسوة للإيقاد . ولقد كان « يسوع » يعرف هذه الحقيقة التي تضيء على الصورة معاني أعمق .

وهكذا يقول معلم الأجيال ، إنه ان كانت صورة الكرمة تنطبق عليه . فإن الأغصان صورة لأتباعه . فالبعض من هذه الأغصان – أتباعه – أغصان مثمرة . والبعض الآخر أغصان بلا نفع ، لا تحمل ثمراً على الإطلاق ترى ماذا كان السيد يقصد بالأغصان التي بلا ثمر ؟

هناك جوابان لهذا السؤال . أما الجواب الأول أنه كان يعنى شعبه . . أمته . . مواطنيه . إنهم أغصان في الكرمة بطبيعة كونهم يهوداً ، سلالة ابراهيم بالجسد . أليست هذه هي الصورة التي رسمها لهم الأنبياء الواحد بعد الآخر ؟ ولكنهم رفضوا أن يستمعوا له ، أن يقبلوا تعاليمه . ، أن يرتبطوا به ، وهكذا لم يثبتوا في الكرمة فكان مصيرهم الانفصال . . وكان مصيرهم الذبول والجفاف ، وكان مصيرهم مصير كل غصن لا يأتى بثمر . وإن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجا كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق .

أما الجواب الثانى لهذا السؤال ، فهو يتجه إلى صورة أكثر شمولاً وأكثر تعميقاً . فلا بد أن « يسوع » كانت في مخيلته صورة المسيحيين بالاسم الذين بلا ثمر في كل العصور والأجيال ، الذين يظهرون أمام الناس شيئاً كبيراً كالغصن المورق المزدهر ، ولكنهم في واقع الحال بلا ثمر .

بل كانت فى مخيلته صورة المرتدين الذين سمعوا يوما بشاره الحياه وقبلوها بفرح ، ولكن لم يكن لهم أصل فى ذواتهم ، فسرعان ما ارتدوا ونكصوا على أعقابهم ، وأنكروا الإيمان ، وخانوا المرسل والرسالة .

هناك طرق ثلاثة تنهى بالإنسان إلى حياة العقم العديم الثمر : أن يرفض الإنسان الإصغاء إلى صوت السيد وقبول حقه ، شأنه شأن اليهود فى عصر المسيح : أو أن يصغى لبشاره الحياه ويرحب بها مقدما خدمة الشفاء فقط دون أن تتأيد بالأعمال . أو أن يقبل يسوع سيدا على حياته . فإذا حدث ضيق أو إضطهاد أو جابهته صعاب ، أو وجد الحياه الجديده تتعارض مع مصالحه ورغائبه ، يرتد فى الحال ، ويصبح شرأ من غير المؤمنين ولكن ينبغى أن نذكر شيئا جوهريا . إن عدم الإثمار ينتهى على الدوام بكارثة أو مأساة ، فالغصن الذى لا يقدم ثمرا هو فى طريقه إلى الحريق .

الكرمة والأغصان (تابع)

(يوحنا ١٥ : ١ - ١٠)

فى هذه الفقرة تردد أكثر ما تردد ، فكرة الثبات فى المسيح . ترى ماذا يعنى السيد بقوله « إثبتوا فى » ؟

صحيح أن هذا القول له مضمونه السرى الصوفى . وأن هناك معنى صوفيا عميقا سريا خلف ثبات المؤمن فى المسيح ، وثبات المسيح فى المؤمن . ولكننا لانستطيع أن نقول ، بأن كل المؤمنين لهم اختباراتهم الصوفية . فمعظمهم أناس عاديون . لذلك علينا أن نبحث عن طريق أكثر بساطة ، ومفتوحا أمام الجميع للثبات فى المسيح . ولناخذ مثلا ماديا بشريا رغم أننا نعرف أن الأمثلة البشرية ، تقصر عن أن تصل إلى المستوى الروحى الذى

ترمز إليه . لنأخذ على سبيل المثال إنسانا ضعيفا واهن الشخصية ، ما أن تعرض له التجربة حتى يسقط فيها . لنفرض أنه ضل تماما ، والتوت به السبل ، وهو الآن في طريقه للانهيال الروحي ، والنفسى ، أيضا ولنفرض أن لذلك الإنسان صديقا له شخصيته القوية المتكاملة المحبة . وأن ذلك الصديق صاحب الشخصية القوية أراد أن ينقذ ذلك الإنسان من تهوره . هناك طريق واحد يستطيع به الإنسان الضعيف أن يستعيد ذاته ويعود إلى نفسه ، أن يلتصق التصاقا كاملا بصديقه القوي . فاذا فقد أسباب الالتصاق أو الاتصال ، يعود إليه ضعفه وينتصر عليه وتبرز رؤوس الأفاعى من جحورها . وتثور عليه عواصف التجربة فيسقط . إن خلاصه يمكن فى الاتصال الدائم ، والالتصاق القوي بصديقه ، وهلاكه فى فقدان ذلك الاتصال .

فى بلدان الغرب ، نجد أكثر من هيئة نظير جيش الخلاص وغيرها تهتم بايواء المشردين ، والسكيرين ، والذين وقعوا تحت سلطان الانحراف والرديلة . وهناك تحيطهم بأسباب النقاوة والصدقة البريئة . والجو الطاهر ، الذى يعيدهم إلى أنفسهم الحقيقية . ولكن يحدث فى بعض الأحيان ، أن ذلك السكير أو المنحرف . يحن إلى حياة الظلام فيهرب من محيطه الجديد . إنه حالما يترك دائرة النور ، تجتذبه عناصر الظلام ، وتهاجمه عقارب الشر والرديلة ، بأكثر قوة وضراوة ويصبح نظير قطعة الحديد التى تباعدت عن مجال التأثير الممغنط لمغناطيس قوى . ولكن أعضاء الهيئة لا ينفضون أيديهم يأسا ، لا بل يبحثون ويجدون ، حتى يعيدوه مرة ثانية إلى الجوانقى وتأثيرات الصداقة المباركة .

الداخل ، تحفظنا في نعمة وبركة المحضر الإلهي كل اليوم . لأن ذات إحساسنا بأننا نتمتعنا بمحضر الملك ، يحميننا من التلوث بالدنيا .

إن الثبات في المسيح ، هو صلة سرية عميقة صوفية بين النفس وبين المسيح ، واختبار روحى سام يسمو على كل تعبير وتفكير . إنه يعنى العيشة الدائمة في محضر رب المجد . . الإلتصاق المستمر بيسوع المسيح . . ترتيب برنامج حياتنا . أعمالنا . أقوالنا .. صلواتنا .. سكناتنا حتى لا يمر علينا يوم فيه ننسى وجودنا الحى في «يسوع» ، ووجوده الحى فينا .

في القرن السادس عشر ، ظهر «القديس لورنس» الذى عرف في التاريخ باسم الأخ «لورنس» ، من رهبانية الإخوة الكرمليت في باريس ، وقد جمعت اختبارات تحت عنوان « إختبار حضور الله » وفيها يقول : « بعد أن سلمت نفسى تسليماً كاملاً لله ، هجرت في سبيل محبته كل شئ سواه ، وبدأت أحيا في الوجود وكأنه لا وجود لأحد سوى هو وأنا » . وأخيراً نلاحظ في هذه الفقرة أساسين للتلمذة الحقيقية والتلميذ الصادق الأمين . أما الأساس الأول ، فهو الحياة الزاخرة الغنية المثمرة . ان ثبات الفرع في الكرمة ، وثبات الكرمة في الفرع ، يأتى بالثمر المتكاثر . والأساس الثانى تمجيد الله . إن حياة الفرع المثمر ، توجه أفكار الناس ، للإله الذى أثمر في الإنسان . للكرمة التى سرى منها عصير الحياة إلى الغصن فجاء بالثمر . وكما يقول السيد : « بهذا يتمجد الآب أن تأثروا بثمر كثير . مظهرين بذلك أنكم تلاميذى . إن أعظم أمجاد الحياة المسيحية الصادقة أننا نصبح أداة لمجد الله بحياتنا وسلوكنا :

حياة شعب يسوع المختار

كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ
هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا
أَحَبَّيْتُكُمْ . لَيْسَ لِأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ
أَحَدٌ نَفْسَهُ لِأَجْلِ أَحِبَّائِهِ . أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ
مَا أَوْصِيَكُمْ بِهِ . لَا أَعُودُ أَسْمِيَكُمْ عِبِيدًا لِأَنَّ الْعَبْدَ
لَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ سَيِّدُهُ . لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لِأَنِّي
أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي . لَيْسَ أَنْتُمْ أَخْتَرْتُمُونِي
بَلْ أَنَا أَخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ
ثَمَرُكُمْ . لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ الْآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي .
بِهَذَا أَوْصِيَكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا

(يوحنا ١٥ : ١١ : ١٧)

إن مركز الدائرة في هذه الفقرة ، هي التي يقول فيها «يسوع» لتلاميذه
ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم : اننا لسنا نحن الذين اخترنا الله ،
بل إلهنا كبير القلب متسع المراحم ، فائض النعمة ، هو الذي اختارنا في

محبه : وهذه الفقرة تقدم لنا قائمة الأشياء التي اختارنا الرب لها ودعانا للتمتع بها :

١ - فهو قد اختارنا للفرح : فمهما كان طريق المسيحي شاقا مرهقا، فقد زرع له الفرح في طريقه ، والبهجة في غايته : هناك فرح عميق اسمه فرح القيام بالواجب . إننا أحيانا نحاول أن نتجنب واجبا من الواجبات ، فإذا قمنا في النهاية به ، فإن الفرح يملأ قلوبنا . إن المسيحي هو إنسان الفرح . . المسيحي فارس المسيح المبتهج - أما المسيحي المكمد الوجه ، الحزين الملامح ، الدامع العينين ، فهو أسوأ دعاية للديانة المسيحية بل إننا نقول إن الوجوه الطويلة والمسوح السوداء، وارتباط المسيحية بها في تاريخها الطويل ، قد أضربها أكثر مما أفادها . صحيح أن المسيحي كإنسان هو إنسان خاطيء . ولكنه خاطيء مفدى بالنعمة ، وهنا يكمن سر أفراحه . وكيف يعجز الإنسان عن أن يصبح سعيداً ، إذا كان يقطع طريق الحياة في صحبة «يسوع» ؟

٢ - وهو اختارنا للمحبة . لقد أرسلنا إلى العالم برسالة معينة، وهدف ثابت ، المحبة . . أن يحب أحدنا الآخر . أحيانا نحيا في العالم وكأننا وجدنا لينا نفس أحدنا الآخر ، أو حتى ليتشاجر الواحد مع الآخر . ولكن رسالة المسيحي في الوجود ، أن يحيا بالصورة التي يعلن فيها محبته للآخرين . هنا ينادى «يسوع» بواحد من الحقوق التي له . فإذا تقدم واحد ليسأله بأي حق تطلب منا أن يحب أحدنا الآخر ؟ بأي حق تضع على أكتافنا حمل المحبة ومسئولياتها؟ يجيبنا لقد سبقتكم في هذا المجال . فأصبحت مثالا لكم . إني أطلب منكم ضريبة المحبة أحدكم للآخر ، لأنني أنا قد أحببتكم حباً لا يفوقه حب . . فليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع

أحد نفسه لأجل أحبائه. « هناك كثيرون من رجال المنبر لا يفتأون ينادون للشعب بأن يحب أحدهم الآخر ، ولو رأيت معاملتهم بعضهم لبعض ، والمنافسة على المناصب ، التي تدفعهم إلى جلد البغضة والأحقاد ، لقلت لهم بأى حق تنادون بالحببة وهى منكم براء ؟ أما يسوع فقد عاش حياة المحبة ، وسدد التزاماتها وتحمل تضحياتها ، ونفذ الوصية إلى أبعد حدود التنفيذ .

٣ - وهو دعانا لنكون أحبائه وخلانته . فهو لم يدعنا عبيداً لم يضعنا في مركز العبيد . بل رفعنا إلى مقام الأحباء . إن هذه الصفة قد فقدت في تكرارها قوتها وعمقها بالنسبة لنا ، ولكنها بالنسبة لمن سمعوها لأول مرة كانت قوية معبرة فائضة بالمعاني . إن لقب عبد (في اليونانية « دولوس » والجمع « دولوى ») لم يكن لقب مهانة أو مذلة .

لقد كان يطلق على خادم الرب وعبده . فهو لذلك لقب غاية في السمو والكرامة . فنحن نجد « موسى » دولوس أى عبد الرب وخادمه (تثنية ٣٤ : ٥) . وهكذا كان « يشوع » (يشوع ٢٤ : ٢٩) و « داود » (مزمور ٨٩ : ٢٠) بل إننا نجد « بولس » رسول الأمم يعتبره شرفاً لا يدانيه شرف أن يكون عبداً ليسوع المسيح (تيطس ١ : ١) وأيضاً يعقوب الرسول (يعقوب ١ : ١) .

لقد كان رجال الله في القديم ، يتشرفون بأنهم - دولوى - عبيد الله . فيأتى « يسوع » وينادى لأتباعه قائلاً : لا أعود أسمىكم عبيداً بل أحبباء . . إن هذا قمة الإكرام والنعمة الإلهية ، التي ما كان يحلم أعظم أعظم العالم أن يحصل إليها قبل مجيئه . . . إن « يسوع » يفتح الطريق أمامنا إلى مقام عظيم ، وألفة حبيبة قريبة مع الله ، حينما يدعوننا أحبباء الله أو خلانته .

ولكن مقام أحبباء الله أو أصدقائه وخلانته ، له مكانه في التاريخ المقدس . فإبراهيم دُعِيَ لتحليل الله (أشعيا ٤١ : ٨) . وفي سفر الحكمة

(٧ : ٣٧) ، يرد القول عن الحكمة أنها تجعل الناس أصدقاء الله . ولوانجھنا إلى التاريخ الرومانى فإننا نجد إشارة إلى عادة ملكية فى بلاط القياصرة ، تلقى ضوءاً كبيراً على هذا اللقب .

فلقد كان البلاط القيصرى - ومنه سرت العادة إلى بلاط الملوك الشرقين فى القديم - كان البلاط يضم مجموعة من المنتخبين ضمن حاشية «قيصر» يعرفون بأصدقاء قيصر ، أو ناصحيه ، أو مشيريه ، هؤلاء الأصدقاء كان لهم الحق فى الدخول إلى جناح قيصر الخاص ، فى أى وقت من الأوقات حتى فى غرفة نومه فى الصباح الباكر . كان يتحدث إليهم ويستشيرهم قبل أن يستقبل كبار رجال الدولة وقواد الجيش ، والوزراء ، والنبلاء والسفراء وغيرهم . لقد كان أصدقاء الملك يحتلون أضيقت الدوائر حول الملك ، وكانت لهم مكانتهم الأثيرة لديه .

وهكذا يرفعنا «يسوع» لنصبح أصدقاء لملك الملوك ، ورب الأرباب . أصدقاء لله جل جلاله ، هذا مركز رفيع معناه أننا لم نعد بعد نتطلع إلى الله ، كما يتطلع الفأر الخائف من شقوق الصخر ، إلى البرق الخاطف فى السماء ، فى الليلة العاصفة الممطرة ، وزئير الرعد يجعله يرتعد . إننا لن نتطلع إلى إلهنا فى رعب ، كما يتطلع العبد المرتعد من بعيد ، إلى سيده الغاضب فى جناحه الخاص ، وهو لا يتجاسر أن يقترب منه . إننا لن نتطلع إلى الملك العظيم ، كما ينظر رجل الشارع فى لهفة إلى الموكب الملكى ، وهو يدفع الجموع بمنكبيه ، ويقف عند حد معين لا يتعداه . لقد صنع «يسوع» المعجزة ، وفتح الطريق ، وقربنا إلى الله ، فلم يعد بعيداً عنا ، غريباً علينا ، بل صار صديقنا وحيينا ..

حياة شعب يسوع المختار

(يوحنا ١٥ : ١١ - ١٧)

٤ - ولكن «يسوع» لم يدعنا إلى هذه الامتيازات العظمى فحسب ، لقد دعانا أكثر لنصبح شركاءه. إن العبد لا يمكن أن يصبح شريكاً لسيدته ، وبحسب تعبير القانون اليوناني ، ما العبد إلا أداة حية .. آلة حية ، هذا هو وضعه ومقامه وكيانه ، فلا يمكن أن ينتظر العبد من سيده أن يفتح قلبه له ، ولا يمكن أن يشرح له السيد الدافع لعمل من الأعمال ، أو واجب يقوم به. إن عليه أن يعمل ما يأمره به بلا شرح ولا جدال ، ولكن «يسوع» يقول «إني لن أسمىكم عبيداً» .. لن أدعوكم إلى مقام العبيد ، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده ، ولكني دعوتكم لتكونوا شركاء أحباء ... لأعلمكم بكل شيء. لأخبركم بكل ما أعمله ، ولماذا أعمله . لأخبركم بكل ما أخبرني به الآب » . لقد شرفنا «يسوع» بأن جعلنا شركاء له في عمله .. في خدمته ، لقد فتح قلبه لنا وشاركنا فكره ، وآماله ، وأهدافه . بل إنه أعطانا الامتياز العظيم أن يكون لنا مطلق الحرية في العمل على هداية العالم إلى حق الله المعلن في المسيح .

٥ - وهو دعانا لنكون سفراءه ، « اخترتكم وأرسلتكم » إنه لم يختارنا لطبائع حياة منعزلة عن العالم ، بل اختارنا لنكون ممثلين له في العالم . في تاريخ القروسية في إنكلترا ، لانجد أن الفارس كان يأتي إلى قصر الملك آرثر ، ليقتضي أيامه في الحفلات ، وليأليه في مآدب التكريم ، والسهر مع زملائه الفرمان . ولكنه كان يأتي إلى الملك قائلاً : « أرسلني لعمل عظيم أقوم به لخدمتك ، ولكرامة الدعوة التي إليها دعيت » . لقد اختارنا «يسوع» لنكون

شركاءه ، وفي اختياره أيضاً تكليف . لقد دعانا لنخرج في اسمه إلى العالم . هذا ينبغي أن يكون برنامجنا اليوم ، وعلى أساسه ينبغي أن نرتب نظام حياتنا .

٦ - و «يسوع» دعانا لنكون إعلاناً حياً له . لقد دعانا لنثمر ثمراً مباركاً ، ويدوم ثمرنا ، ويستمر ذلك الثمر متحدياً الزمن والتجربة . إن الطريق الوحيد لنشر المسيحية ، أن نصبح نحن أنفسنا مسيحيين .. الطريق الوحيد لاجتذاب النفوس البعيدة ، واكتسابها لحظيرة الإيمان ، أن نظهر ثمار الحياة المسيحية في حياتنا ، إن «يسوع» لم يرسلنا إلى العالم لنجادل الآخرين عن حق المسيحية ، أو لنحدث إليهم عن المسيحية ، أو لنعلمهم ، إذا كان لنا السلطان ، على اعتناق المسيحية ، لقد دعانا لنجذب الآخرين إلى المسيحية لنحيا حياة الثمر المبارك ، الذي يشترك الآخرون إليه .

٧ - بل لقد دعانا لنكون أعضاء في أسرة الله ، ولل فرد في الأسرة الحق في أن يطلب فينال استجابة لطلباته . هنا يتقدم «يسوع» إلينا بحق عظيم عن الصلاة ، ينبغي أن ندركه ونصل إلى أعماقه ، أحياناً نخيل إلينا - استناداً إلى هذا الوعد - أن كل مانطلبه من الآب يجاب لنا ، ولقد أشرنا إلى ذلك في فرصة سابقة ، ولكن دعنا نعيد التأمل فيه .. فالعهد الجديد يعلن لنا أساساً ثابتة عن الصلاة ..

(١) فصلواتنا ينبغي أن نتقدم بها بروح الإيمان (يعقوب ٥ : ١٥)
فحينما تكون الصلاة شكلية روتينية طقسية ، نردد فيها بضع كلمات محفوظة موضوعة ومرتبة ، لا ينبغي أن نتظر استجابة لها . وحينما تكون الصلاة غير مقترنة بالثقة فلا رجاء فيها ، فأى نفع في طلبه إنسان يطلب أن ينال تجديداً لحياته ، إن لم يكن مؤمناً بإمكانية حدوث ذلك ؟ إن الصلاة الفعالة المتمثلة بالقوة ، هي الصلاة المقترنة بالإيمان بمحبة الله الفائقة .

(ب) وصلواتنا ينبغي أن تقترن باسم «يسوع المسيح». ينبغي أن نتقدم بها في ذلك الإسم المبارك ، وحينما نمسك بختم «يسوع» ، فإننا لا يمكن أن نضعه على طلبات أنانية ، أو طلبات لا يوافق هو عليها . إننا لن نطلب ، على سبيل المثال ، أن نمتلك شيئاً ممنوعاً ، أو نتحقق لنا طلبه أنانية ، إذا كان في هذه الطلبة ضرر لسوانا ، وجرح له ، ونحن لن نطلب في اسم ذاك الذى هو محبة ، أن ينزل بصواعق الغضب والدينونة على أعدائنا . حينما نحاول أن نستخدم الصلاة كوسيلة لإتمام أغراضنا الأنانية ، وإشباع رغائبنا الذاتية ، لن تصبح الصلاة بعد صلاة ، ولن تنتظر لها استجابة من الله .

(ج) وطلباتنا ينبغي أن تقترن بالقول : « لتكن مشيئتك » ، كما في السماء كذلك على الأرض ، حينما نصلى ينبغي أن نوقن بأننا لا نعرف أكثر من الإله الكلى الحكمة والعلم . كثيراً ما نكرر صلواتنا وطلباتنا ، ونصر عليها كل الإصرار ، وكأننا بنا نقول لإلهنا « غير مشيئتك » . ولكن ما أحرانا أن نتعلم روح التسليم فنقول « لتكن مشيئتك » ، إن الصلاة الحقيقية المستجابة قد يحدث أن يجيب الله عليها بكلمة « لا » لمصلحتنا الروحية ، وتدريبنا وتعمقنا في الإيمان ، لكنه مع كلمة « لا » يعطينا روح الرضى ، ونعمة القبول والتسليم .

(د) وصلواتنا ينبغي ألا تكون بروح الأنانية . تقدم إلينا «يسوع» بصيغة عابرة ، بفكر ملهم قوى عن الصلاة في إنجيل متى (١٨ : ١٩) فقال «إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أى شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبى الذى فى السموات . لأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم » ، نقول إن كثيرين يأخذون هذا القول مأخذاً حرفياً . فحينما يستدعى الأمر يحشدون أكبر عدد ممكن ، ليصلوا لأجل هدف واحد ليضمنوا استجابة الصلاة . ولكن ما يقصده السيد هو هذا ، إننا لو

استطعنا أن نذيب مصالحنا المتعارضة الأنانية، في سبيل هدف واحد، أو غاية واحدة ، حتى لو تعارضت هذه الغاية مع مصالحنا الفردية .

فإن الله على استعداد أن يحل وسطنا ويتنازل بالجواب ، لنأخذ مثلاً :
الفخارى يطلب الشمس لتجف أوانيهِ ، والفلاح في الحقل المجاور يطلب من الله المطر ليروى الزرع ! إننا حينما نطلب ينبغي ألا نقول : هل هذا لمصلحتي ؟ بل : هل هذا لفائدة إخوتي ؟ إن أقوى تجربة تجاهبنا في الصلاة ، هي أن نصلي وكأنه لا يوجد في الوجود سوانا . مثل تلك الصلوات الأنانية ، ينبغي ألا ننتظر لها جواباً .

لقد اختارنا «يسوع» وشرفنا لنكون أفراداً في أسرة الله . ينبغي أن تأتي بكل طلباتنا وتوسلاتنا وصلواتنا إلى العرش ؟ ولكننا لما نفعل هذا ، لا ينبغي أن نتوقع من الله الاستجابة التي نجهزها نحن في أفكارنا بل الاستجابة التي يتقدم بها هو إلينا في حكمته ومحبه الكاملة ، إننا كلما أحببنا الله أكثر ، أصبح من السهل علينا أن نقبل إرادته في حياتنا ..

كراهية العالم

إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ . لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ . وَلَكِنْ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمْ الْعَالَمُ . أَذْكُرُوا الْكَلَامَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ . إِنْ كَانُوا قَدْ أَضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهَدُونَكُمْ . وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلَامِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلَامَكُمْ . لَكِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ بِكُمْ هَذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ أَسْمَى لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الَّذِي أَرْسَلَنِي .

(يوحنا ١٥ : ١٨ - ٢١)

في البشارة الرابعة على الدوام ، نجد «يسوع» يتطلع إلى الأمور بنظرة صريحة ، فيضع الأسود في مكانه والأبيض في مكانه . فهناك العالم ، وهناك الكنيسة . العالم هو العالم لا يتغير ، والكنيسة هي الكنيسة ، ولا صلة ، ولا اتفاق ، ولا مخالطة بين الاثنين . إن «يسوع» لا يعرف أنصاف الحلول ... لا يعرف معنى المهادنة ... لا يعرف موقف المحايدة . فإما أن يكون الإنسان في جانبه ، أو في صف العالم . ولا موقف وسط بين هذا وذاك .

لنذكر أيضاً أن الكنيسة في ذلك الحين ، كانت تحيا في ظل الاضطهاد الذى تبدو نذره في الأفق . ففي اسم المسيح ، وبسبب تمسكهم بذلك الاسم المقدس عليهم ألا يتوقعوا رياحاً هادئة . لقد كانت المسيحية ديناً غير قانونى . وما كان الحاكم يحتاج إلى كبير عناء ، لبحث الجرائم التى يمكن أن يدين بها مسيحياً . لقد كان يكفى أن يسأله إن كان مسيحياً أم لا . فإن أجاب بالإيجاب فلا يهم أى اعتبار آخر . فلا مركزه ، ولا ولاؤه لقيصر ، ولا خدماته للأمة كفيلة بأن تشفع له عن تلك الجريمة النكراء . إن يسوع لا يرسم بريشته صورة متشائمة مكتوبة ، بقدر ما هى صورة حقيقية واقعية . في ملء قسوتها وبشاعتها .

ولم يخف السيد عن اتباعه الطريق الوعر الذى ينتظرهم . لم يظهر لهم الجانب المضىء ، ويخفى الجانب المظلم الكئيب . لقد كان صريحاً كل الصراحة ، فأخبرهم بما هو عتيد أن يقع بهم قبل وقوعه : « لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس . وتجلدون في مجامع . وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجل شهادة لهم ... وسيسلم الأخ أخاه للموت والأب ولده ، ويقدم الأولاد شهادة على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص .. » (مرقس ٣ : ٩ - ١٣ بالمقارنة مع متى ١٠ : ١٧ - ٢٢ ، ٢٣ - ٢٩ ولوقا ١٢ : ٢ - ٩ ، ٥١ - ٥٣) . لقد سبق السيد وحذر تلاميذه مما ينتظرهم في مقبل الأيام .

وفي الوقت الذى سجل البشير فيه بشارته ، كانت العاصفة قد انفجرت بالفعل . ولإننا نجد « تاسيتوس » المؤرخ الرومانى يكتب عن « الطائفة التى يدعوها الرعاع بالمسيحيين ، الذين يبغضهم المجتمع بسبب جرائمهم ... » وسوتنيوس يتحدث عن « ذلك الجنس من البشر الذى ينتمى إلى خرافة

جديدة شريرة . ترى لماذا كانت كراهية المجتمع للمسيحيين إلى هذا الحد ؟ .

لقد كانت السلطات الرومانية تبغض المسيحيين ، لأنها كانت تعتبرهم عنصر خيانة في قلب الأمة . ونحن نلتمس للحكومة الرومانية في موقفها من المسيحيين أكثر من عذر . فلم تكن الأمبراطورية تضم رقعة محدودة . لقد كانت ممتدة الأرجاء من وادى الفرات شرقاً إلى جزيرة بريطانيا غرباً ؛ ومن بلاد الجرمان شمالاً إلى شمال أفريقيا جنوباً . كانت تضم أكثر من شعب ، وأكثر من جنس . ولذلك كان من اللازم أن يوجد رباط واحد قوى ليربط هذه الشعوب المتباينة في وحدة كاملة .

وهذا الرباط وجد في عبادة قيصر . ولا ينبغي أن يفوتنا أن نذكر أن عبادة قيصر لم تفرض فرضاً على العالم ؛ لقد نبعت من رغبة الشعوب نفسها . إن الحكومة لم تفكر فيها ، لقد ترعرعت من الشعب . فمنذ سحيق الزمن ، اعتقد الشعب بما أسموه الإلهة روما ، أو روح روما . وليس من العسير أن تقترن صورة الأمبراطور ، قيصر العظيم ، بهذه الربة ، وأن يروا في عاهل البلاد ، الصورة المجسدة لمعبودتهم . لقد كانت روما بكل أبحادها تتمثل في الإمبراطور ، فلماذا لا يكون الإمبراطور ربة الشعب المتجسد ؟ ولماذا لا تجد تلك الربة مسكنها وراحتها في شخص قيصر ؟

ومن الخطأ أن نتصور أيضاً أن الشعوب التابعة لروما كانت ثائرة عليها غير راضية عن حكمها . لقد كان معظمها شاكراً للظروف التي أثاحت لها الإنضواء تحت لواء روما . فلقد حررتهم من طغاة الملوك . وجلبت معها الأمن والسلام والعدالة . وتقدمت بأحوالها الاقتصادية .

وطهرت البلاد من اللصوص والمجرمين والخارجين على القانون . لقد كان « السلام الرومانى » (باكس رومانا) الذى تغنى به شعراء العصر ، يمد ألويته على ربوع العالم الكائن حينذاك .

وفى مقاطعة آسيا الصغرى بدأ الناس يفكرون فى « قيصر » كظهر الألوهية المتجسد ، وبدأوا يعدون العدة لتكريمه وعبادته عرفانا منهم بالجميل . فى بادئ الأمر لم يرض الأباطرة عن هذا ، معارضين بأنهم بشر ، ولا حق لهم فى الانضمام إلى مصاف الآلهة . ولكن الحركة الجديدة التى وجدت حقولا خصبة ، فى أكثر من مكان من أرجاء الإمبراطورية المتسعة الأرجاء ، كانت أقوى وأعنف من أن تقاوم . وأخيراً رأت السلطات أنها تستطيع استغلالها والإفاده منها . فهذا هو الرباط الواحد الذى كانوا ينشدونه فلا يجدونه ، الرباط الذى يجمع الدويلات والشعوب والأجناس فى وحدة متماسكة . وهكذا جاء الوقت ، الذى حدد فيه يوم من كل عام تقام فيه الاحتفالات والمهرجانات فى كافة البلاد ، ويتقدم كل فرد بقبضة من البخور ، يلقي بها فى الحجرة أمام تمثال قيصر إكراماً له قائلاً : « قيصر رب » . بهذا الطريق وليس بسواه يعلن إخلاصه وولائه لقيصر . وإخلاصه وولائه لحكومة قيصر . وبعد أن يقوم بهذا العمل ، تعطيه السلطات شهادة على أنه نفذ أوامر قيصر ، وأثبت أنه مواطن صالح . هذه هى العادة التى رأت فيها روما المظهر الذى يوحد الشعوب المتنافرة ويجمعها فى رباط واحد ، ويضمن إخلاص المواطنين لها .

وزيادة على هذا المظهر الروتينى ، ما كانت روما تتدخل فى شئون عبادة أى شعب ، بل أحياناً كانت تشجع تلك العبادات ، وتعطى لرجال الدين أكثر من سلطة ، مظهرة روح التسامح والتفكير المتسع .

ولكن هذا المحك الرهيب ، كان يظهر في الحال معدن المسيحي الحقيقي ،
فما كان يرضى المسيحي ، وإنصافا للتاريخ نقول ، ومعه اليهودي أيضاً ،
أن يبخر لغير الله .

لقد كان المسيحي يهتف لمسيحه ، وليس لسواه ، قائلا « ربى وإلهى »
وكان اليهودي يردد بين الحين والحين ، البند الأول الأعظم من بنود
الشما « اسمع يا إسرائيل . الرب الهنا إله واحد » فلا إله إلا الله — وهكذا
رأت سلطات روما فى اليهودية بصورة عامة ، وفى المسيحية كإحدى
الطوائف المتزمنة النابعة من اليهودية ، أخطر الهيئات التى لا تدين بالولاء
للجالس على عرش قيصر ..

من هنا بدأت العاصفة تنفجر على رؤوس المسيحيين . لقد كان
المسيحيون ينادون بأنهم يدينون بالولاء لقيصر . ولكنهم يتقدمون
بتعبدهم لواحد لا سواه . فإن كان سيدهم قد قال لهم « أعطوا ما لقيصر
لقيصر » فإنه لم يأمرهم بأن يعطوا ما لله لقيصر ..

« وللرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » . هذا هو السبب الذى
من أجله قاسى المسيحيون ويلات الإضطهاد ، ونجازوا فى نيرانه ،
لأنهم كانوا يرفعون اسم المسيح فوق كل قوة ، وسلطان ، وكل
اسم يسمى بين الشعوب والأمم .

كراهية العالم

(يوحنا ١٥ : ١٨ - ٢١)

ولكن لم يكن المسيحيون هدفاً لسهام السلطات فحسب ، لقد دخلت عناصر أخرى، في مجال الكراهية والإضطهاد . لقد كانت الشعوب نفسها نبغض المسيحيين . ترى ما هو الدافع الذى دفع رجل الشارع في تيار البغضة القاسى ؟

لقد سادت روح البغضاء لأن الشائعات قد أعطت رجل الشارع فكرة بغیضة رهیبة عن المسيحيين ، ولعل اليهود كان لهم الضلع الأكبر ، في بث تلك الأنباء والترويج لها ، بالرغم من أنهم كانوا يعلمون تمام العلم بطلان تلك الشائعات .

ولنأخذ أمثلة أربعة ، من الشائعات الكاذبة ، التى وجهت ضد المسيحيين .

١ - لقد وجهت إليهم التهمة بأنهم عنصر دخيل على الأمة ، غير موال للحكومة ، غير مخلص للجالس على العرش . ولقد عرفنا السر الكامن وراء هذا الاتهام ، كما أوضحنا بطلانه .

فلم يوجد في التاريخ ، ولن يوجد إلى نهاية الأجيال ، مواطن صالح مخلص لوطنه ، قدر المسيحي الحقيقي . أترك المسيحي في دائرة دينه ، ولا تمس عقيدته ، وأنت ترى فيه أصلح مواطن . ويكفى أن يوصى رسول الأمم اتباع المسيحية في مثل تلك الأوقات ، أن تقام صلوات وابتهالات لأجل الحكام والولاة ، وكل الذين هم في منصب ، لخيرهم وسلام الأمة . لقد كان المسيحيون في دائرة أعمالهم ، وصلتهم بالمجتمع . أكثر المواطنين إخلاصاً وأمانة . التهمة الوحيدة التى وجهت إليهم ، أنهم لا يبخرون لصورة قيصر .

ولا يهتفون كما يهتف غيرهم « السلام لقيصر الرب » .. ولهذا السبب وصموا بوصمة العار والخيانة .

٢ - وقد قيل عنهم إنهم متبررون ، متوحشون ، يمارسون ممارسات بربرية وحشية . ولعل هذا الاتهام يرجع إلى إساءة فهم قول المسيح : « هذا هو جسدى المكسور من أجلكم » و « هذه الكأس هي العهد الجديد بدمى » . على أساس هذه الكلمات ، لم يكن من العسير إطلاق الشائعات بين طبقات العامة ، والعامة على استعداد أن يصدقوا كل قول ، إن المسيحيين في ممارستهم السرية ، يرتكبون جرائم دموية ، فيذبحون طفلاً ويأخذون دمه في كأس . ثم ينهشون اللحم ، ويشربون الدم ، كما يفعل أكلة لحوم البشر . لذلك لا غرابة إن كانت الجموع تنظر في احتقار واشمئزاز ، إلى كل من ينتمى إلى المسيحية .

٣ - بل وجهت إلى المسيحيين تهمة الإباحية وارتكاب أقذر القبائح . ولعل هذه التهمة كان مصدرها وليمة المحبة الأسبوعية التي كانت تدعى « الأجاني » وكان المسيحيون على عادة أن يحبوا بعضهم بعضاً بقبلة السلام ، التي تطورت فيما بعد إلى ممارسة ثابتة في وصية القديس : « قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة » . نقول لم يكن من العسير على أعداء المسيحية أن يطلقوا الشائعات ، بأن هذه القبلة هي علامة التواعد بين اثنين رق أحدهما الآخر ، حيث يصطحب الواحد أخاه لارتكاب أفظع النجاسات .

٤ - كما وجهت إليهم التهمة بأنهم مخربون ، يعملون على تخريب المجتمع وإحراقه ، ويتوقعون نهايته وزواله . ولقد كان المسيحيون يتوقعون بين لحظة وأخرى مجيء الرب ثانية . وكلما زادت الأزمات ، وزجرت الإضطهادات ، زادوا انتظاراً وترقباً لهذا الوعد . ومع عقيدة مجيء الرب

ثانية ، قرنوا الصور الواردة في العهد القديم عن يوم الرب ، تلك الصور التي لخصها الرسول بطرس في القول ، بأن العناصر سوف تنحل بضجيج ، والسماء والأرض محترقة تذوب . لأن الأرض وكل ما فيها محفوظة لتلك الساعة عينها للحريق بالنار (٢ بطرس ٣ : ١٠) . ولقد حدث بالفعل في عصر نيرون ، الحريق الذي دبره الطاغية ، لإزالة روما القديمة بأحيائها المسكدة ، وبناء عاصمة جديدة على هواه . ولم يكن من العسير عليه ، أن يلصق التهمة بالمسيحيين الذين ينادون باحتراق الوجود ونهايته . وأنهم قاموا بهذا العمل المجنون ليعجلوا بمجيئ مسيحهم ، ليؤسس ملكه العظيم العتيد على انقراض العالم القديم .

هـ - تهمة خامسة وجهت إلى المسيحيين ، وكان لها أساسها المنطقي ، وهي أن المسيحيين كانوا يخربون العائلات ، ويحطمون الروابط العائلية . إنهم كانوا يحدثون الشقاكات في البيوت ، ويقلبون كيان الأسر . ولقد كان هذا الاتهام صحيحاً إلى حد ما ، لقد قال السيد : « ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً . فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والإبنة ضد أمها . والكنة ضد حماها وأعداء الإنسان أهل بيته » (متى ١٠ : ٣٥) وكان يحدث بالفعل أن الأبناء يصبحون مسيحيين ويبقى والدهم ، في هذه الحالة تنقسم الأسرة ويسود الخلاف ، وتحدث المآسى الكثيرة . لقد كان على المسيحي أن يحب مسيحه ، ويتفانى في طاعته وخدمته ، أكثر من حب الابن لأبيه ، أو أمه ، أو أخوته . وأكثر من حب الزوجة لزوجها ، أو الزوج لزوجته .

ولا شك في أن المسيحية قد أتت ومعها الخلافات والشقاكات ، بين الأفراد والعائلات .

هذه بعض التهم التي وجهت في القديم إلى المسيحية . وكان اليهود وراء صنعها ، وترويجها . لذلك لا غرابة أن يقترن اسم المسيحي بالبغضة والكراهية والنفور .

كراهية العالم

(يوحنا ١٥ : ١٨ - ٢١)

هكذا كانت كراهية العالم في القديم للمسيحية والمسيحيين ، وهكذا كانت أسبابها . ولكن العالم ما زال يكره المسيحيين . أما العالم كما أسلفنا فيقصد به « يسوع » ذلك القطيع من البشر ، الذي رتب برنامج حياته ، على أن يحيا بدون إله . هناك فارق كبير ، بين الإنسان الذي رتب حياته على أن يكون الله هو الأول في برنامج وجوده وكيانه ، وبين الإنسان الذي نحى الله جانبا ، ورأى فيه عنصراً يعترض رغائبه وكيانه . وهذا الفارق لا بد وأن يدفع العالم إلى نظرة التوجس ، التي تنقلب إلى عداوة وبغضة .

١ - فالعالم يتوجس خيفة من كل ما يغيره . هذا يحدث في أبسط الأمور . لنأخذ صورة مبسطة استخدام المظلة في الوقاية من المطر ، وحرارة الشمس . فالمظلة أصبحت شيئاً عادياً في حياتنا . ولكنها لم تكن كذلك حينما أدخلها « يونس هانوى » في انكلترا . لقد كانوا يرمونه بالأحجار والقاذورات وهو يسير في الشوارع حاملاً مظلته . وفي أيامنا ، تنتشر بين الشباب مودة إطالة السوالف ، وإرخاء شعر الرأس . ونحن نعرف ، وعلى الأخص في مصر ، ما يلاقيه أى شاب يظهر بهذا المظهر من الذين يحيطون به ، وكيف تشاع عنه الشائعات ، إن أى إنسان يظهر بمظهر ، مخالف ، أو يرتدى ثياباً مخالفة للعرف ، أو ينادى بعقائد مخالفة ، يثير الخيفة والتوجس وقد يعتبره المجتمع مجنوناً ، أو شاذاً ، أو خطيراً . ويقف منه — موقف العداة .

٢ - والعالم يبغض بالفعل ، أولئك الذين حياتهم ، توبخ تصرفاته وحماقاته . فمن الخطر على العالم أن يكون الإنسان صالحاً . وهناك في التاريخ القديم . ما حدث للمدعو « أرسطيدس الأثيني » الذي كان يلقب بأرسطيدس البار . لقد انتهت حياته في المنفى . وحينما سئل أحد المسئولين لماذا صوت مع المصوتين بنفيه ؟ كان الجواب : « لقد تعبت من دعوة الناس له بالبار » هذا هو السبب الذي جعل العالم يدفع إلى «سقراط» كأس الهملوك السام^(١) . لقد كان يدفع الناس دائماً إلى التفكير . . إلى فحص أنفسهم . والناس يبغضون من يدفع مرآة الفحص أمامهم ، من يجابههم بعيوبهم . . من يظهر لهم سوءاتهم . وهكذا أبغضوه . وأسرعوا فقتلوه ، . من الخطر أن يكون للإنسان مثل أعلى من مستوى العالم .

٣ - وبصورة عامة شاملة نقول ، إن العالم ينظر بريبة إلى من لا يلتزم بطاعة نوااميسه . إن للعالم نوااميسه ، وهو يحب أن يضع كل إنسان في قلبه ، ويشكله فيصبح وفق كيانه وإرادته . أما ذاك الذي يتسع في إدراكه ، أو ممارساته ؛ أو عقائده ، أو تفكيره ، فيضيق به القلب ، ويضيق به العالم أيضاً ، حتى في دائرة الدواجن ، لو أتيت بدجاجة مرقطة ووضعتها وسط دجاج أبيض ، لكان نصيبها التمزيق والموت .

أيها المسيحى ، لك الشرف وعلبك المسئولية . أما الشرف والكرامة فهما لك ، لأنك أصبحت مغايراً العالم . وريثاً للعهد الجديد ، ابناً لله ، غريباً عن الوجود ، تنتمى إلى مملكة أسمى وأعلى من ممالك الأرض ، تدين بالطاعة لإله يسمو عن إله هذا الدهر .

(١) خلاصة بندر الخل الشيطاني .

ولكن عليك المسئولية أيضا ، ولا ينبغي أن تنتظر من عالم تجابهه بصورة
مغايرة إلا كل الضيقات . لتكن لك الشجاعة الكافية للثبات في وجه العاصفة .
إن شئت أن تكون مسيحيا فعليك الكلفة . وما أعظم الفارق بين إنسان
الله ، وإنسان هذا الدهر . .

المعرفة والمسئولية

لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ
وَأَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيئَتِهِمْ . الَّذِي يُبْغِضُنِي
يُبْغِضُ أَبِي أَيْضاً . لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً
لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ . وَأَمَّا الْآنَ
فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي . لَكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ
الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلَا سَبَبٍ .

(يوحنا ١٥ : ٢٢ - ٢٥) .

هنا يعود «يسوع» إلى فكر ليس غريباً عن البشارة الرابعة ، فالمعرفة التي
توهب لإنسان ، والامتيازات التي تقدم له ، تحمل معها بطبيعة الحال
مسئولية عظيمة .

إلى أن جاء المسيح ، لم تكن للبشر الفرصة الكاملة ليعرفوا الله المعرفة
الحقة . فلم يسمعوا صوت الله واضحاً . . ولم تعلن لهم الحياة التي يريدهم
الله أن يحيوها ، لذلك فقد نلتمس لهم بعض العذر ، لأن عقولهم لم تتفتح بعد .
وإعلانات الله لم تكشف لهم بعد . هناك أمور قد نتسامح فيها مع الطفل .
لأن مستواه لم يصل بعد إلى النضج الكافي ، ولكننا لن نسمح لإنسان بالغ
أن يرتكبها ، ولن نتهاون معه إذا وقع فيها ، هناك أمور يسمح بها لإنسان

لم تهبأ له الفرصة الكافية للتدريب المنزلى ، ولم تتح له الظروف لينال قسطاً كافياً من التعليم . إن زيادة المعرفة لإنسان ، وزيادة الامتيازات التى يتمتع بها ، تضع على كتفيه مسئوليات أعظم وأقسى .

وحينما أتى «يسوع» إلى الإنسانية تقدم بأمرين : فهو أعلن البشر أولاً حقيقة الخطية . لقد أخبر الناس عن الأمور التى تغضب الله ، وكشف لهم الطريق الذى يسر قلبه... طريق الحياة الحقّة... كما أنه قدم للبشر ثانياً العلاج الأكيد من الخطية . وهذا قام به بصورتين : فهو فتح الطريق للغفران بالنسبة لماضى الخطية ، ووهب البشر القوة التى تعينهم على الإنتصار على خطاياهم ، والقيام بمسئولياتهم ، والسير فى طريق الحق . هذه هى المعرفة ، وهذه هى الامتيازات التى قدمها «يسوع» للبشر .

ولنفرض أن مريضاً قصد عيادة طبيب ، فإذا بالطبيب يقوم بتشخيص المرض ، ويصف العلاج ، فإن أهمل المريض خطورة المرض ، ورفض استخدام الدواء ، فلا لوم يقع على أحد سواه إن ساءت حالته ، ووصل إلى الموت ، أر إن قدر له أن يعيش ، ولكن حياة محطمة بائسة ، وهذا ما فعله اليهود . لقد ارتكبوا حماقتهم الكبرى حينما احتقروا طبيب النفوس ، ورفضوا الدواء المقدم لهم ، ولقد فعلوا ما سبق أن أنبأ به كاتب المزامير « أبغضونى بلاسبب » (مزمور ٣٥ : ١٩ ، ٦٩ : ٥) .

وهذه الحماقة المميتة يمكن أن يقع فيها البعض ، إنهم لا يبغضون «يسوع» علانية ، ولا يضمرون له روح العداء . ولكنهم كثيراً ما يرتبون أمور حياتهم ، وتصرفاتهم ، كأنما لم يأت «يسوع» على الإطلاق .

ولكننا لن نختبر الحياة الحقّة فى هذا الوجود ، وبالتالى لن نعرف الحياة المباركة السعيدة فى الدهر الآتى ، إن أخرجنا من برنامج حياتنا رب كل صلاح ، وأهملنا وصايا السيد المسيح .

الشهادة البشرية والشهادة الإلهية

وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزَّى الَّذِي سَأَرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنْ
عِنْدِ آبِ رُوحِ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ آبٍ يَنْبَثِقُ فَهُوَ
يَشْهَدُ لِي . وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً لَأَنَّكُمْ مَعِيَ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ
(يوحنا ١٥ : ٢٦ - ٢٧)

هنا يستخدم السيد فكرين توأمين متلازمين في أقواله ، أما الأول فهو
شهادة الروح القدس . نرى ماذا يعنى السيد بشهادة الروح ؟

سوف تكون لنا فرصة أخرى لتأمل في هذا الموضوع بصورة أعمق ،
ولكن يمكننا في هذه العجالة أن نوضح الحقيقة على النحو التالى :

حينما نتلى على مسامعنا تفاصيل قصة يسوع ، ما الذى يدفعنا أن نصدق أن
تلك الصورة لا يمكن أن تكون إلا صورة السيد المبارك ؟ وحينما تفصل أمامنا
تعالم «يسوع» ، وأمثاله ، ووصاياه ، ما الذى يجعلنا نؤمن بأن مثل تلك
التعالم والأمثال والوصايا هي كثر الحكمة الإلهية المعلنه للبشر ؟ وحينما نرى
يسوع حاملاً صليبه سائراً فى طريق الجلجثة ، مهاناً مرفوعاً على خشبة العار ،
ما الذى يجعلنا نرى فيه طريق الله الوحيد للحلاص ؟ هذا التجاوب الفكرى
هذا الصدى الذى تتجاوب به قلوبنا مع أنغام محبته ، هذا الإيمان الطيع
الذى يسيطر عاينا ما هو إلا عمل الروح القدس فى حياتنا ، إن الروح القدس
هو الذى يدفعنا إلى التجاوب مع يسوع المسيح .

أما الثانى فهو الشهادة التى لابد أن يعلنها البشر عن «يسوع» . «وتشهدون أنتم لى» هكذا يقول «يسوع» لتلاميذه . وهناك عناصر ثلاثة فى الشهادة المسيحية ...

(١) فالشهادة المسيحية تأتى من العشرة الطويلة مع المسيح ، إن التلاميذ هم شهود «يسوع» لأنهم عاشروه وأختبروه من البداية . الشاهد هو الذى يقول عن شىء ما « هذا حق لأننى أعرفه » . فلا شهادة دون اختبار شخصى ، إننا نستطيع أن نشهد عن «يسوع» إذا كنا قد عرفناه حقاً واختبرناه .

٢ - والشهادة المسيحية تأتى من الإقتناع الداخلى . فإذا بدأ الإنسان حديثه نستطيع أن نميز إن كان يؤمن حقاً بما يقول أولاً يؤمن به . ولن تكون الشهادة المسيحية قوية مقنعة - بدون الإقتناع الداخلى الذى ينبع من العشرة ، الشخصية مع المسيح .

٣ - والشهادة المسيحية تتقدم للآخرين بصورة حية ملموسة مسموعة . إن الشاهد ليس هو فقط الإنسان الذى يعرف أن شيئاً ما حقيقى ، بل هو الإنسان الذى يكون على استعداد أن يشهد على رؤوس الأشهاد بأن هذا الشىء هو بالفعل حقيقى . فالمسيحى هو الذى يقرن معرفته بيسوع واختباره له ، بشهادته الحية الظاهرة عنه .

الْأَصْحَاحُ السَّادِسُ عَشَرَ

التحذير مع التحدى

قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكِنِّى لَا تَعْتُشُوا . سَيُخْرِجُونَكُمْ
مِنَ الْمَجَامِعِ بَلْ تَأْتِى سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ
يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّهِ . وَسَيَفْعَلُونَ هَذَا بِكُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا
الْآبَ وَلَا عَرَفُونِى . لَكِنِّى قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا حَتَّى إِذَا جَاءَتِ
السَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّى أَنَا قُلْتُ لَكُمْ . وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ مِنْ
الْبِدَايَةِ لِأَنِّى كُنْتُ مَعَكُمْ .

(يوحنا ١٦ : ١ - ٤)

فى الوقت الذى سجل فيه «يوحنا» يشارته ، كانت عاصفة الاضطهاد قد
انفجرت بالفعل على رؤوس المسيحيين . كان من الطبيعى أن يرتد البعض ،
وأن يتنكر آخرون للإيمان . فى سفر الرؤيا نجد أن الدينونة سوف
تحل على « الخائفين وغير المؤمنين » (رؤيا ٢١ : ٨) فى عهد «تراجان»
الإمبراطور ، كتب «بلىنى» حاكم بيثينية إليه يقول ، إنه قام بفحص البعض
ليرى إن كانوا مسيحيين أم لا . « والبعض منهم قال إنه دخل دين المسيح
منذ سنوات طويلة وصلت فى حالة منها إلى عشرين عاما . لكنهم هجروا

ذلك الدين » . حتى وسط مظاهر البطولة والتضحية التي تفوق الوصف ،
والتي بدت في استشهاد الكثيرين ، نرى البعض منهم يتزعزع إيمانهم ،
ويجبنون أمام الأضطهادات النارية ، فيتعترون في الطريق .

ولقد رأى « يسوع » كل هذا . وبروح النبوة تقدم لاتباعه منبئاً بما سوف
يلاقونه في طريق إيمانهم به — حينما حاقت الاضطهادات بعالم المسيحية
« ولیم تندل » ، بسبب ترجمته الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ، وسعى
أعداؤه لإهلاك حياته ، قال في هدوء : « ما كنت أتوقع أقل من هذا » ،
لقد وهب « يسوع » المجد لاتباعه . لكنه قدم لهم معه الصليب والهوان .

وفي حديث يسوع الواضح نراه يتنبأ عن الاضطهاد العتيد في صورتين .
اتباعه سوف يفصلون من المجتمع ، هذا كان عقاباً مؤلماً للغاية بالنسبة
اليهودى ، لقد كان للمجمع — بيت الله — مكانه الخاص في حياة اليهودى ،
حتى وصل بعض الأخبار إلى القول بأن الصلوات لا فائدة منها ما لم تقدم
في المجمع ..

ولكن كان هناك ما هو أكثر من هذا . فربما لا يحتاج الخبر أو المعلم
للاهوته إلى رفقة سواه ، ربما يستطيع أن يحيا وحيداً مع أفكاره ، ودراساته ،
ورقوقه . ولكن التلاميذ كانوا أناساً عاديين بسطاء . كانوا يحتاجون إلى
المجمع وعبادته ، والإجماع بالآخرين هناك . فليس من الهين السير على
القروى الغريب القادم إلى بلد آخر لأول مرة . أن يجد الأبواب كلها موصدة
أمامه . إنه على الأقل ينبغي أن يجد أمامه المجمع مفتوح الأبواب لاستقباله
والتعرف على الآخرين هناك ، بل إن العبادة تشعر الإنسان بالأمان والاطمئنان .
وكما تقول « جان دارك » « أجمل الأشياء أن يكون الإنسان وحيداً
مع الله » .

ثم يقول « يسوع » إنه سيأتى الوقت الذى يظن فيه من يقتلهم أنه يقدم خدمة لله ، أما كلمة خدمة التى يستخدمها « يوع » فهى فى الأصل « لأثرياء » وهى ذات الكلمة التى يقدم بها الكاهن أمام المذبح فى هيكل الله — إنها التعبير الأمثل للخدمة الدينية .. لخدمة الله المقدسة . ولعله أسوأ ما ، فى الروح الدينية أن يظن الإنسان أنه يقدم خدمة لله باضطهاده لمن يخالفه رأى . ولعل « شاول الطرسوسى » هو أقوى مثال لدينا فى هذا المجال . فهو فى غيرته الدينية الملتبسة كان يعتقد ، أن أعظم خدمة يقدمها لله هى محو اسم يسوع . وإزالة شأفة المسيحية . (أعمال ٢٦ : ٩ - ١١) . إن اضطهادات محاكم التفتيش وفضائعها فى أسبانيا ، قد خلفت سماً بغيضاً وذكري كريهة فى النفوس . ولكنهم كانوا يظنون أنهم يؤدون خدمة لله . لا تقاس بإزائها خدمة إكراه المراطقة تحت الإرهاب والتعذيب ، إلى ما ظنوه الإيمان الحق ، وانقاذهم من ويلات الجحيم . وإن كانت « مدام رولان » قد صاحت صيحتها المشهورة « أيتها الحرية كم من الجرائم قد ارتكبت باسمك » فإننا نقول أيضاً « أيتها الديانة كم من الجرائم قد ارتكبت باسمك » .

« ولكنهم يعملون هذا ، كما يقول « يسوع » ، لأنهم لم يعرفونى » ولم يعرفوا الآب » . إن مأساة الكنيسة تكمن فى أن البشر يبذلون قصارى الجهد فى نشر أفكارهم عن الديانة .. ويظنون فى أنفسهم أنهم قوامون على ما يعتقدون أنه الحق الإلهى الأوحد ولا سواه . وحتى أيامنا الحاضرة ، تقف حواجز العقيدة حائلاً دون الوحدة الحبيبة المرتقبة من الجميع .. الوحدة بين الكنائس . وسوف تظل روح الكراهية والبغضة ، توأماً ملازماً للتمسك بالرأى والتعصب له ، سيتبع ذلك إن لم يكن القتل وسفك الدماء ، فعلى الأقل العزل من بيت

الله، وتحريم مشاركة الأخ لأخيه بركات المائدة الإلهية الواحدة ، والعشاء التذكارى ، طالما يعتقد كل إنسان أنه هو وحده ولاسواه ، الذى يمسك بخاصية الحق .

ولقد عرف «يسوع» نفسية الإنسان ، وعرف كيف يتعامل مع البشر .
وها نحن نسمعه هنا يقول لتلاميذه : « إننى أتقدم إليكم بأقصى مهمة فى الوجود ، إننى أتقدم إليكم بمهمة فيها مصيركم وتحطيم قلوبكم وتمزيق أجسادكم ، هل تقبلون هذه المهمة ؟ وهل تحنون أكتافكم تحت هذا الصليب ؟ .. »

كل العالم يعرف صيحة « غاريبالدى » فى جنوده ، بعد حصار روما فى منتصف القرن الماضى حينما هتف لهم : « أيها الجنود ، إن كل مجهوداتنا التى بذلناها ضد قوى تفوقنا عدداً وعدة قد ذهبت هباء . وإننى أقول لكم إننى لأملك ما أعطيه لكم سوى الجوع ، والظمأ ، والموت ، ولكنى أدعو كل جندى يحب وطنه أن ينضم إلى .. والتف حوله مئات المئات فحاز النصر .

وحينما كان الأسبان يكتسحون أقاليم أمريكا الجنوبية ، هتف فيهم قائدهم « تستطيعون أن تمتلكوا ثروات بيرو مع أخطارها ومتاعبها ، أو أن تبقوا مع الأمان والفاقة فى بناما » ، ثم صاح فى رجاله « أيها الرفاق فى هذا الميدان لا أعدكم إلا بالتعب والجوع والعرى والعواصف والوحشة والموت . بالمقارنة إلى الأمن والراحة على الجانب الآخر . أمامكم ، أراضى بيرو بغناها ، وأمامكم أيضاً بناما بفقرها ، اختاروا الآن ما تختارون . أما من جهتي فإن وجهتي إلى الجنوب » . وكان صمت وتردد ، لكن بحاراً عجوزاً ، وأثنى عشر جندياً تقدموا ، ووقفوا إلى جانب بيزارو القائد ، وبهذه الحفنة من الرجال القلائل بدأ غزو واكتشاف بيرو ...

إن «يسوع» يقدم لنا في هذه الفقرة ، لا طريق الراحة بل طريق المتاعب ،
والضيقات والآلام والعرق والدموع والدماء ، ولكنه الطريق الذى يؤدى
بنا إلى الأجداد. وهو ما زال يدعو كل إنسان راجح العقل ، كبير القلب ، مفتوح
العينين ، إلى الانضواء تحت لوائه ، ويخاطر مخاطرته لأجل مجد اسمه ..

عمل الروح القدس

وَأَمَّا الْآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أُرْسَلَنِي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَسْأَلُنِي أَيْنَ تَمْضِي لَكِنْ لِأَنِّي قُلْتُ لَكُمْ هَذَا قَدْ مَلَأَ الْحُزْنَ قُلُوبَكُمْ . لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ الْحَقُّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ . لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيَكُمْ الْمَعْزَى . وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ . وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يَبْكُتُ الْعَالَمُ عَلَى خَطِيئَةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ . أَمَّا عَلَى خَطِيئَةٍ فَلِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِى . وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلَا تَرَوْنَنِي أَيْضًا . وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلِأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ .

(يوحنا ١٦ : ٥ - ١١)

لقد أصاب الحزن تلاميذ «يسوع» بارتباك بالغ ، وبطبيعة الحال كان سر حزنهم أنهم على وشك أن يفقدوا معلمهم . ولكن «يسوع» أخبرهم أن النهاية لخيرهم ، لأنه في الوقت الذى فيه يفارقهم ، سيرسل لهم المعزى ، الروح القدس ، المعين المشجع فى الأزمات — حينما كان معهم بالجسد ، لم يكن

ممكنا أن يرافقهم إلى كل موضع ، ويباركهم بمحضه في كل الظروف ...
حينما كان معهم بالجسد ما كان ممكنا أن يصل إلى عقولهم وقلوبهم ، ويتغلغل
إلى ضمائرهم ، ولو أننا رأيناه في بعض المواقف يعرف أفكارهم وينتقدوها .
لقد كانت تحده قيود الجسد ، والمكان ، والزمان . ولكن لامحدودية للروح ،
ولا قيود زمنية . ولا مكانية تستطيع أن تقيده . إن حلول الروح إتمام
للوعد : « ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٩) .
فالروح سيوحد البشر أجمعين في رباط الشركة الذي لا ينقطع إلى الدهر ،
وسيعطى خدام الكلمة القوة والتأثير الكامل ، في أى مكان يقصدونه ، وتحت
أية ظروف تحيط بهم .

وهنا يتقدم الرب بملخص دقيق عن عمل الروح القدس في الحياة .
والكلمة المستخدمة هنا عن عمل الروح ، هي في الأصل « إلهشين » . وقد
وردت في الترجمة المعتمدة بـ « يبكت أو يدين » ، وفي الهامش يقنع .

والسبب في هذا أن الأصل لا يمكن التعبير عنه بكلمة واحدة — الكلمة
في الأصل كانت تستخدم لمناقشة شاهد ، أو لاستجواب متهم ، أو
لمحاورة خصم في قضية . إنها تحمل فكرة مداورة الإنسان ، ومحاورته
حتى يعترف بخطئه أو يستسلم لمن يحاوره ، وكان اليونان يستخدمون الكلمة
أيضا للتعبير عن مناوشة ضمير الإنسان لقلبه وعقله . أما هذه المحاورة فلها نتيجتان .
إنها تستطيع أن تدين إنسانا ارتكب جرما أو تستطيع أن تقنع إنسانا بضعف
حجته وبطلان دعواه ، أمام قوة الخصم الذي يناوئه . في هذه الفقرة نحتاج
إلى المعنيين : نحتاج إلى الدينونة ، ونحتاج أيضا إلى الاقتناع ، وسنرى في السطور
التالية ماذا يعنى السيد بالقول : يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى
دينونة .

١ - فالروح القدس يدين الخاطيء على خطيته . حينما أسلم اليهود «يسوع» للصلب ، لم يكونوا يعتقدون أنهم يرتكبون خطية ، لقد كانوا يظنون أنهم يقدمون خدمة لله . ولكن حينما وقف «بطرس» في يوم الخمسين وجابههم بجريمتهم ، «نحسوا في قلوبهم» (أعمال ٢: ٢٧) . لقد اقتنعوا بخطيتهم ، واتضح أن أمامهم جريمتهم ، فعرفوا أنهم ارتكبوا أقسى فعلة في الوجود ، حينما أسلموا السيد للصلب . ترى ما الذى يدفع الإنسان إلى الاقتناع بخطيته ؟ ما الذى يدفعه إلى الشعور بمذنبيته أمام صليب المسيح ؟ .

قيل إنه في إحدى القرى في بلاد الهند ، وكان أحد المبشرين يعتقد اجتماعات دينية ويؤيدها بصور ضوئية ملونة عن حياة المسيح ، تنعكس على أحد جدران المنازل . وما أن وصل مدار قصة المسيح إلى الصليب ، حتى هب أحد الهنود من مكانه ، وأسرع إلى حيث كانت تظهر الصورة ، وهتف قائلاً « ياسيدى ، إنزل أنت عن الصليب . إن هذا مكانى ، لا مكانك » . إننا لن نستطيع أن نوقن بحاجتنا إلى مخلص بدون الشعور بالخطية . ترى ما الذى يذيب قلب الإنسان أمام الصليب ؟ أمام حادثة وقعت في فلسطين منذ ألى عام ؟ ما الذى يكسر قلبه أمام صليب يسوع ؟ ألم يظهر في التاريخ أنبياء وقادة ومصلحون ، قابلتهم أشنع الميئات وأقساها ؟ فماذا فى صليب المسيح يدفع الناس إلى الانكسار أمامه ؟ هذا عمل الروح . إنه تأثير الروح القدس فى قلب الإنسان ، لأنه ييكت على خطية .

٢ - الروح القدس ييكت العالم على بر . ماذا يعنى هذا القول ؟ إننا نستطيع أن ندرك بكل وضوح ما يعنيه ، حينما نعرف أن البر الذى يشير إليه هو بر المسيح . لقد صلب «يسوع» كمجرم أثم - حوكم ووجد مذنباً ، فصدر عليه الحكم ، ونفذ فيه الموت صلباً ، وهكذا اعتبر فى نظر اليهود هرطوقياً شريعياً ، واعتبر لدى الرومان ثائراً خطيراً ، فعوقب بأقسى ما تملكه البشرية من عقاب

لقد صدر عليه الحكم كمتهم خطير ثائر ، وكعدو لله . ترى ما الذى يدل صورة الجريمة إلى صورة بر ؟ ما الذى جعل الناس يتطلعون إلى « يسوع » المصلوب ، فيرون فيه مارآه قائد المئة الرومانى عند الصليب (متى ٢٧ : ٥٤) ؟ وما شاعده « بولس » فى طريق دمشق (أعمال ٩ : ١-٩) ؟ حينما نتأمل فى هذا الأمر نراه شيئاً عجيباً مذهلاً ، أن يتعلق البشر بمذنب يهودى أصدرت عليه السلطات حكمها ، ودانته القوانين الوضعيه . . . أن يضعوا ثقتهم فى « مجرم » قاسى الموت صلباً . ترى ما الذى يقنع الناس بأن ذلك المصلوب رمز العار والهوان ليس أقل من ابن الله ؟ ما الذى يحول صورة الجريمة إلى مثال البر ؟ إنه الروح القدس الذى يقنع العالم ببر المسيح ، استناداً إلى قيامته وصعوده إلى الآب .

٣ - والروح القدس يكت العالم على دينونة ، هنا نرى « يسوع » على الصليب . وفيه نرى دينونة الله الحتمية التى تدين الخطية ... وفيه نرى بالتالى خطية البشر وقد دينت ، وقهرت ، وصدر عليها الحكم . ما الذى يجعلنا نؤمن بعدالة الله . أو على حد قول الكاتب ، ما الذى يجعلنا نؤمن بخطرة الله ؟ ما الذى يواجه الإنسان الخاطى بمحتمية الدينونة التى تنتظره ، والعقاب الأكيد الذى سيناله ؟ لماذا لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعمل ما يتمناه ؟ لماذا يوفن فى قرارة نفسه بأنه إن تنكب السبيل السوى فلا مناص من العقاب ، هذا هو عمل الروح القدس . إن الروح القدس هو الذى يهينا الاقتناع الداخلى الأكيد ، بأن دينونة الله وعدالته حقيقة حتمية رادعة .

٤ - يبقى أمر آخر لم يحن الوقت بعد للتصريح به : حينما يقع الإنسان تحت الشعور بالمدنوبية ، وحينما يقتنع ببر المسيح الكافى ، وتمثل أما الدينونة القادمة ، ما الذى يهبه اليقين بأن فى صليب المسيح خلاصه ، وفى

المسيح كفايته ، وفي كفارة المسيح نجاته من ويلات الدينونة ؟ . هذا أيضا من عمل الروح القدس . ولكن «يسوع» لم يخبر تلاميذه لأن الصليب لم يكن قد تم بعد . إن يسوع المصلوب هو رئيس الخلاص ومصدره لكل من يؤمن به ، في القديم ، كما بالنسبة لنا ، والروح القدس هو الذى يدفعنا إليه . فهو يدين على خطية ، ويقنع بوجود بر ، ويؤكد لنا الدينونة ، فلا نجد طريقا للخلاص إلا في صليب يسوع .

روح الحق

إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لِأَقُولَ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الْآنَ . وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ
رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ
مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ
آتِيَةٍ . ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ . كُلُّ
مَا لِلآبِ هُوَ لِي . لِهَذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ .
(يوحنا ١٦ : ١٢ - ١٥)

إن الروح القدس في تعليم «يسوع» هو روح الحق ، لأن مجال عمله العظيم
هو أن يأتي بحق الله ، ويعلنه للبشر . ونحن نسمى هذا إعلانا ، أو وحيًا .
فالإعلان أو الوحي هو تقديم حق الله ، وتقريبه للبشر ، ولا توجد فقررة
في الكتاب تعلن لنا مبدأ الوحي قدر ما تعلنه هذه الفقررة .

١ - فالوحي في إعلانه للبشر يتبع مبدأ تدرجيا تقديميا .

لقد كان ليسوع الكثير ليعلمه لتلاميذه ، ولكنه في ذلك الحين ما كان
يستطيع أن يعلن لهم كل شيء ، لأنهم لا يقدرُونَ أَنْ يَقْبَلُوهُ . ومن
الطبيعي أن تقدم للإنسان الحق الذي يستطيع أن يدركه ويقبله . فليس من
المنطقي أن تقدم نظرية «اينشتاين» في النسبية ، لطفل في سنواته الأولى من التعليم .
من المعقول أن تقدم له مبادئ علم الحساب ، فإذا شَبَّ عَنْ الطُّرُق وَوَصَلَ

إلى سنوات الجامعة ، أو ما بعد الجامعة نستطيع أن نتدرج معه فتقدم له مبادئ
نظرية النسبية . إننا لا نتقدم بالنظريات المعقدة لعقل غرض . ولا نطلب من
إنسان ليست له دراية في اللغة اللاتينية ، أن يترجم لنا سطوراً من «فرجيل» ،
أو خطاباً من «شيشرون» ، ووحى الله للبشر يسير على هذا المنهاج . إنه وحى
تدرجى تقدمى . فالله يعلم الإنسان بقدر ما يستطيع هذا الإنسان أن يقبل . هذه
الحقيقة لها نتائجها الهامة التي تعيننا على دراسة وتفهم كتابات الوحي الإلهي .

(١) ولن يصيد منا على سبيل المثال ما يقدمه الوحي للإنسان في فصول
من العهد القديم . فلعله في تلك الفترة من تاريخ الإنسان ، كان هذا
هو كل الحق الذي تحتاجه البشرية ، والذي تستطيع أن تقبله . ولتأخذ
مثلاً واقعياً ...

في العهد القديم ترد فقرات يوصي فيها الله شعبه عند انتصارهم على
الأعداء ، أن يحرموا الغنم والبقر والماشية مع النساء والأطفال ، وحتى
الغنائم المادية والمقتنيات ، كانت الوصية تحتم أن تحرق بالنار . وهناك
حكمة خالدة وراء هذه الوصية التي تبدو في ظاهرها وحشية دموية : إن
شعب الله ينبغي ألا يتلوّث بأي مظهر من مظاهر الوثنية والعبادات الفجة
التي كانت سائدة قديماً .

فيحتي يحافظ الله على نقاوة شعبه ، لزم الأمر بأن تمحى كل عبادة
أجبري ، مع أصنامها وأصنامها ومظاهرها . بمعنى أن اليهود أدركوا قديماً
أن نقاوة الدين الحق ، تقتضى كل توضحية ، ولا تستبعد أية وسيلة حتى
ولو كان فيها الأباداة وسفك الدماء . فلو ارتبط الواحد بزوجة من
الأعداء ، أو اقتنى تمثالاً ذهبياً من معبودات تلك القبائل ، فمما لا شك

فيه، أن النتيجة ستكون انحراف الشعب بأكمله إلى تلك العبادات . لقد كان الهدف من ذلك هو الحفاظ على نقاوة الديانة الموسوية .

فلما أتى «يسوع» بروح العهد الجديد ، أعلن حقاً جديداً : إننا نستطيع بطريق آخر أن نحافظ على نقاوتنا ونقاوة التعاليم التي نعتنقها ، أفضل من أن نمسك بالسيف ونطيح برؤوس الآخرين ... نستطيع أن نحولهم إلى ديننا وعقيدتنا . فنكسب مكسبين : نكسبهم ونكسب نفوسنا وعقيدتنا ... لقد تفهم أبناء العهد القديم الحق ، ولكن جانباً منه . وبقي أن تدور دورة الزمن دورتها الطويلة ، حتى نستطيع أن تستوعب الإنسانية الدرس الذي قدمه المسيح .

(ب) وسوف نعرف أيضاً ، أن إعلانات الله للبشر هي بلامهاية ، فهي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي عند عصر من العصور . إننا نعتقد أن بين دفئ العهد الجديد، إعلان الله الكامل للبشر . هذا حق . ولكننا نخطئ إن كنا نظن أن السماء قد أغلقت أبوابها ، وأنها لم تعد تتحدث بعد إلى الأرض . إن روح الله مازال يعلن لنا إعلانات جديدة ... والله كل يوم يعلن لنا ذاته بصورة مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع . صحيح أن كمال الوحي الإلهي قد ظهر في «يسوع المسيح» ، فهو إعلان الله الأسمى للبشر . ولكن «يسوع» ليس صورة مجمدة في كتاب . إنه كيان حي ، وفيه يستمر على الدوام إعلان الله للبشرية . إن يسوع أعمق من أن يكتشف في فترة من الزمن . إن الأبدية لا تكفي لتعلنه لنا . والله كل يوم يعلن لنا أكثر فأكثر عن طبيعة المسيح ، وحقه ، عن ذاته وتعاليمه . إن الله لم يحتم على أقوال النبوة (رؤيا ٢٢ : ١٠) . ولم يتوقف عن إعلان ذاته عند تاريخ عام ١٢٠ للميلاد . إنه مازال يقود البشرية إلى اكتشاف أعظم وأعظم ، عن يسوع المسيح ، والحق المقدم فيه للإنسانية ..

٢ - وسرى هذه الحقيقة بأكثر وضوح ، حينما نتأمل في المبدأ
الثانى للوحى أو الإعلان . وهو أن وحى الله ليس وقفاً على الأنبياء والرسل
فحسب ، وليس محمداً بما نسميه بالحق اللاهوتى . فاللاهوتيون ليسوا هم فقط
الأشخاص الذين يستخدمهم الوحى .

حينما يتقدم شاعر عظيم برسالة إلى البشر تتضمنها سطور قصيدة رائعة
شأن « تنيسون » فى قصيدته الخالدة « للذكرى ^(١) » .

حينما تدفع العاصفة عصفورا إلى صدر « تشارلس وسلى » فتواتيه
كلمات الترنيمة الحلوة « خبئنى يا إلهى ساتراً لى فى الحبيب » .. حينما
يسطر الموسيقار « هاندل » فى أوبرا المسيا قرار « هلوليا » ويقول
« حينما كنت أسطره رأيت السماء مفتوحة أمام انظارى والإله العظيم فوق
العرش ، ألا نرى فى هذا وحياً وإلهاماً ، شأن الوحى الذى ألهم كاتب
المزامير كلمات مزموه الراعى ، والذى فاض فى قلب الحكيم القديم
بنشيد الانشاد ؟ »

وفى ميدان الإكتشافات والإختراعات العلمية والطبية ، التى أفادت
الإنسانية ، وعادت عليها بالخير الوفير ، ألا نرى وحى الله ؟ حينما تواتى
الصدفه « فلمنج » فىرى الدائرة الشفافة تحيط بفطر البنسليوم فى مزرعة
البكتريا ، ويؤدى هذا إلى اكتشاف البنسلين ، وإنقاذ حياة الألوف المؤلفة .
والقياس على هذا المثال كثير ، ألا نرى فى هذا وحياً وإعلاناً من الله ؟

إن الذى يحدث فى غالب الأخيان ، أن العالم أو المكتشف أو المخترع
يقوم بالتجربة تلو التجربة ، ويسهر الليالى وراء الليالى . ويحبس نفسه فى

فجره بعيداً عن المجتمع ، ثم يصل في النهاية إلى عقدة يستعصى حلها ،
وكأنني به أمام باب مغلق ، وفي لحظة ... وكما يقولون عن حق ، في
لحظة تجلى ، يشرق عليه الإلهام من مصدر لا يدرىه .. من مصدر أعلى
من فكره ومقدرته وذكائه .. من الله . وبكلمات أخرى حينما ينتهي الإنسان
عند حد العجز ، تبدأ قدرة الله .

بماذا نسمى هذا إن لم يكن إلهاماً ؟ .

إن وحي الله وإعلانه ، غير مقصور على الجانب اللاهوتي فحسب . إن كل
الحق هو حق الله . وإعلان الحق في كل مجال هو من عمل الروح القدس .

٣ - وهنا نأتى إلى مبدأ آخر من مبادئ الوحي . إن كل إعلان نافع
هو من الله . فهو مالك كل حق ، وواهب كل حق . إن الحق ليس من اكتشاف
الإنسان ، إنه عطية الله . إن ما يقدمه الروح إلينا هو حق الله . إن الحق
لا تخلقه خلايا أدمغتنا ، أو نصنعه في مصنع أفكارنا . إنه شيء موجود
بالفعل نحتاج أن نكتشفه .. شيء في حوزتنا ولكننا لا نخلقه . فخلف كل
حق الذى هو هبة الله ، ليس هناك سوى الله نفسه .

٤ - والوحي هو توصيل أفكار يسوع إلينا : وإعلان مدلولها بالنسبة لنا .
إن عظمة «يسوع» تكمن في عمقه وغناؤه الذى لا يستقصى . فلم يوجد واحد
وصل إلى عمق ما جاء «يسوع» ليعلنه لنا . ولم يستطع مفكر أن يستجلي كل
جوانب الجمال ، والسمو ، والعمق ، والحكمة ، فيما قاله معلم الأجيال .
ولم يصل إنسان إلى معرفة ما تعنيه تعاليمه للحياة ، وللعقيدة ... للفرد
والعالم .. للمجتمع وللأمة . إن الوحي هو إعلان مستمر دائم لا ينقطع ،
عن معنى « يسوع المسيح » ، وعن دلالاته للمجتمع .

هنا يكمن سر الأمر كله . فالوحي قد يصل إلينا عن طريق كتاب ،
أو كلمة مطبوعة أو عقيدة متواترة ، ولكن الإله الحي هو الذي يعلنه لنا
بواسطة الروح القدس . وكلما اقتربنا أكثر لنحيا مع مسيحننا ، عرفناه أكثر
فأكثر . وكلما ازدادنا تشبها به في حياتنا ، يعلن ذاته أكثر لنا . فنحن
إذا أردنا أن نتمتع بإعلانه ، ووحيه ، علينا أن نتعلم كيف نقبل سلطانه
وسيطرته . إن معرفة المسيح تتمشى جنبا لجنب مع الخضوع له .
ولن يعلن الله ذاته ، إلا لأبنائه الخاضعين المكرسين . هنا الطريق ، والإمتياز ،
وهنا أيضاً المسئولية ..

الحزن يتحول إلى فرح

بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تُبْصِرُونِي . ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً
تَرَوْنِي لِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى آبٍ .

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا هُوَ هَذَا
الَّذِي يَقُولُهُ لَنَا بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تُبْصِرُونِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً
تَرَوْنِي وَلِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى آبٍ . فَقَالُوا مَا هُوَ هَذَا
الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ . لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ .
فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ
أَعَنْ هَذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ لِأَنِّي قُلْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ
لَا تُبْصِرُونِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنِي . الْحَقُّ الْحَقُّ
أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ . أَنْتُمْ
سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ . الْمَرْأَةُ
وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لِأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ . وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتْ
الْطِّفْلَ لَا تَعُودُ تَذْكُرُ الشَّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لِأَنَّهُ قَدْ وَلَدَ

إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ . فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمْ الْآنَ حُزْنٌ .
 وَلَكِنِّي سَارًّاكُمْ أَيْضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ
 فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ . وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَسْأَلُونَنِي شَيْئًا .
 الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الْآبِ بِاسْمِي
 يُعْطِيكُمْ . إِلَى الْآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئًا بِاسْمِي . اُطْلُبُوا
 تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلًا

(يوحنا ١٦ : ١٦ - ٢٤)

في هذه الفقره ، يحترق رب المجد بأبصاره الحاضر المرير الذي
 يحياه ، والمستقبل القريب المؤلم الذي ينتظره ، إلى عهد جديد سيشرق
 متألقا صافيا مجيداً .. وهو في هذا لا يتأى في تفكيره ، عن الفكر اليهودي
 السائد . لقد كان اليهود يعتقدون أن الزمن ينقسم إلى دهرين ، الدهر الحالي
 والدهر الآتي . أما الدهر الحالي فهو رديء بالكلية . تحت اللعنة ، أما
 الدهر الآتي ، فهو عصر الله الذهبي . وقبل انبلاج فجر العهد المشرق
 الذهبي ، يأتي يوم الرب الذي يمهد لإشراقة ذلك العهد السعيد . أما يوم
 الرب فيوم مرير رهيب مشتعل بغضب القدير ، فيه تنحل العناصر محترقة ،
 وتنزل العروش والممالك ، وتنقلب أساسات الوجود .

ثم يشرق بعده العهد الذهبي . ولقد كان اليهود يعبرون عن الفترة
 الرهيبة ما بين العهدين ، بالآلام مخاض العالم ، لقرب أيام المسيا . وكانت
 الصورة مستعارة من آلام الأم الحامل ساعة الوضع ، تلك الآلام التي تمهد

لدخول حياة جديدة إلى عالم الوجود . والعهد القديم ، وبالأخص أدب
ما بين العهدين ، يزخر بمثل هذه الصور الرهيبة عن يوم الرب ، يوم الرهبة
والرعب ، فنجد «إشعيا» ينادى قائلا « ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم
كخراب من القادر على كل شيء . لذلك ترتجى كل الأيادي ، وينوب
كل قلب إنسان فيرتاعون . تأخذهم أوجاع ومخاض ، يتلوون كوالدة » .
(إشعيا ١٣ : ٦ - ٨) بينما يدوى التحذير من شفّى يوثيل النبي .. « ليرتعد
جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب ، يوم ظلام وقغام .
يوم غيم وضباب . شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون
أيضا بعده ، قدامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق » (يوثيل ٢ : ١ - ٣)
فإذا أتينا إلى ملاخي نسمعه يهتف « هو ذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل
المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشا ويحرقهم اليوم الآتي .. فلا يبقى
أصلا ولا فرعاً . » (ملاخي ٤ : ١) فإذا أتى إلى نهاية نبواته ، تحدث عن
مراحم الله في إعطاء الفرصة الأخيرة للبشر قائلا « هأنذا أرسل إليكم
إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والخوف » (عدد ٥) ، وفي
كتابات الأبوكريفا نقرأ في سفر باروخ الثاني :

« يتحول المجد إلى خزي وعار ، والقوة إلى احتقار ، ..
والجمال يتحول إلى قبح » (باروخ الثاني ٢٧) .

فإذا اتجهنا إلى رسل العهد الجديد، نجد «بطرس» رسول الختان يقول في
رسالته الثانية (٣ : ١٠) « ولكن سيأتي كلص في الليل يوم الرب الذي
فيه تزول السموات بضجيج ، وتنحل العناصر محترقة ، وتتحرق الأرض
والمصنوعات التي فيها » .

هذه هي صورة الآلام .. آلام المخاض التي تحل بالعالم ، وتسبق
مجىء المسيح ثانية لإعلان ملكه العتيدي ، وبداية العهد الجديد .

ولقد كان «يسوع» يعرف الكثير ، ولم تكن تلك الصور غريبة عنه .
لقد كانت في ذاكرته وفي خياله ، وهو هنا يقول لتلاميذه « إننى على
وشك أن أفترق عنكم ، ولكنى سأعود ثانية . سيأتى اليوم الذى يبدأ فيه
سلطانى ، وتشرق أمجاد ملكوتى ، ولكن قبل هذا لابد أن تجتازوا في
البلوى المحرقة .

لابد وأن تجوزوا في آلام المخاض ، فإذا احتملتم بصبر ، ووقفتم
ثابتين في وجه العواصف القادمة ، فسوف تكون لكم البركات العظمى .

تم يتطرق الحديث إلى حياة المسيحى الذى يحتمل بصبر .

١ - فحزنه يتحول إلى فرح : في أوقات الأزمات ، يبدو وكأن الجو
الحائق يكتم الأنفاس ، وكأننى بدوائر الوجود كله في راحة وسرور ، عدا
دائرة المتمسكين بالدين .

ولكن سيأتى اليوم الذى تتحول فيه أفراح العالم إلى أحزان ، وتتبدل فيه
أحزان المسيحى إلى أفراح وأمجاد ، حينما يرى المسيحى إيمانه باهظ التكاليف ،
ليذكر أن هذا الوجود ليس نهاية كل شيء ، وأن العبرة بالنهاية ، وكما
يقول «شيكسبير» خير ما نهايته خير ..

٢ - وهناك أمران جوهريان يتصلان بفرح المسيحى .

(١) فهو ثابت لا يزعزع .. مستقل عن الظروف والإضطرابات ،
وأعواج الوجود الهائجة . إنه لا يزعزع لهجوم الأعداء ، ولا يهتز أمام نشاطهم .
هذه ليست كلمات على الورق ، ولكنها حقيقة فعلية اختبارية في حياة كل
مؤمن . فكم من كثيرين جازوا في وادى الألم ، في وادى الحزن .. في وادى

التجربة والدموع ، فإذا بهم يتحولونه إلى نبع فائض بالبركة والتعزية ، ومنهم من سجل اختباراتهم .

واختباراتهم تتحدث بصدق قول المرنم « عند كثرة همومى فى داخلى تعريانك تلذذ نفسى » . إن الفرح الذى يهبه « يسوع » مستقل عن العالم بما فيه ، إنه لا يتوقف على ما يعطيه العالم أو يمنعه ، ولكنه مبنى على محضر المسيح ، وتعمق جذوره فى الإله الحى .

(ب) وهو ليس ثابتا فقط ، إنه كامل كاف . فى أسمى أفراح العالم هناك عنصر ناقص .. هتاك عنصر يبحث عنه . الإنسان يبحث فى أفراحه عن الإكتفاء ، فإذا به يجد مكانه الأسى والحزن . إنه يبحث عن السلام ، فإذا بغيمة ربما لا تزيد فى حجمها عن كفى إنسان ، تتلبد فى أفق ذاكرته ، وتملؤه بالندامة والحزن الذى لا يدرك كنهه ، إنه يبحث عن الراحة ، فيكتشف أنه لا راحة فى مباحج العالم ، إنه يبحث عن الرى ، ولكن كما قال رب المجد للسامرية « كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا » (يوحنا ٤ : ١٣) ولكن الذى يختبر « يسوع » يجد سرور محضره ، وهناك النبع الصافى الذى يقدمه له ، يملأه بالراحة والإكتفاء .

٣ - ثم يقول السيد ، إن من يختبر هذا الفرح العميق ، ينسى الآلام التى سبقته . فالأم وهى تلد تجتاز فى آلامها المبرحة ، ولكن متى ولدت الطفل ، تنسى كل متاعبها فى فرحة الطفل الوليد ، والشهيد ينسى عذابات الاستشهاد فى إشراق نور الأجداد أمامه ، كما كتب براوننج فى قصيدة له بلسان شهيد يحترق .

« فى وسط النيران فى . .

« يومى الرهيب .

« بدت يد تجذبني
« من جوف اللهب .
« وعندها نفسى غدت .
« مع المسيح .
« فى حضنه يضمنى
« فأستريح .
« وهذه شهادتى .
« نسيت كل ضيقى .

إن كان إخلاصنا ليسوع يكلفنا الكثير ، فإننا لابد أن ننسى الثمن الغالى ،
فى فرحة رجائنا بأن نكون مع حبيبنا إلى أبد الآبدين ، وفى فرحة يقيننا بأننا
أتمنناكل ماعلينا .

٤ - والمسيحى الصابر المحتمل ، يصل إلى كمال المعرفة « فى ذلك
اليوم لاتسألوننى شيئا » . هناك أسئلة كثيرة فى الحياة لانجد لها جوابا ..
هناك مشاكل لانجد لها حلا ، وسيلنا للثبات أمام مشاكل الحياة المحيرة ،
أن نسلك بالإيمان لا بالعيان .. أن نقبل فى خضوع وتسليم مالا نستطيع أن
نصل إلى فهمه .. إنها كسور من الحق نستطيع أن نحصل عليها ... لمحات
خاطفة من نور الله نستطيع أن نراها ، ولكن فى الدهر الآتى ، سيكون لنا
كل الإدراك ، ونصل إلى ملء المعرفة .

٥ - سوف نكون فى علاقة جديدة مع الله :

فحينما نعرف الله المعرفة الصادقة ، نستطيع أن نذهب إليه : ونسأله
طلباتنا بكل ثقة .. عند ذاك يصبح الباب مفتوحا على مصراعيه ، ونثق حقا

بأنه أبونا المحب ، وأن قلبه فياض بالمحبة ، حينذاك لن يساورنا أدنى شك ،
في أن الآب يسر بنا ، ويرحب بطلباتنا . ونستطيع أن نتحدث إليه بقلب مفتوح .

ويقول السيد إننا في ظل هذه العلاقة الجديدة نسأل أى شيء فيكون لنا .
دعونا نتأمل في هذا في حدود مفاهيمنا البشرية القاصرة – حينما يحب طفل
أباه ، ويثق به ، فإنه يعرف جيداً أن لأبيه المعرفة الأسمى ، والمحبة الأعظم
والحكمة الأرفع ، التي تدفعه إلى أن يقول له في بعض الأحيان : « لا » . إن
صلتنا الجديدة بإلهنا تتيح لنا أن نأتي بكل مشاكلنا إليه ، ونتقدم بكل طلباتنا .
لكن علينا أن نختم هذه الطلبات بالقول : « لتكن مشيئتك » .

هـ – وهذه العلاقة الجديدة أصبحت سهلة ميسورة في « يسوع » . إننا أصبحنا فيه
مقبولين .. في محبته نجد رضى الله . وفي غفرانه نجد قبول الله . وفي ثباتنا
في ذلك الذى وجد الآب سروره فيه ، نجد الآب سروره فينا ، بسبب من
هو يسوع ، وماعمله بسوع يكمل فرحنا ويثبت .. وتزداد معرفتنا وتسمو ،
ويفتح الطريق أمامنا إلى قلب الآب . إن كل مالنا قد نلناه ووصلنا إليه
في يسوع المسيح . ففي اسمه المبارك نطلب .. وفي اسمه نجد قبولاً ..
وفي اسمه العظيم نقترّب من الآب ، فنجد منه رضى وترحيباً .

الطريق المباشرة

قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا بِأَمْثَالٍ وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِينَ
لَا أَكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أَخْبِرُكُمْ عَنِ الْآبِ عَلَانِيَةً .
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَطْلُبُونِ بِأَسْمِي . وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
أَنَا أَسْأَلُ الْآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ . لِأَنَّ الْآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ
لَأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي وَآمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجْتُ .
خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الْآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ وَأَيْضاً
أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى الْآبِ

(يوحنا ١٦ : ٢٥ - ٢٨)

يقول يسوع لتلاميذه في هذه الفقرة ، إنه حتى تلك الساعة كان يتحدث
إليهم بأمثال . والكلمة في الأصل هي «بار وإميا» وهي تستخدم للدلالة على الأمثال ..
وهي تعني أساساً قولاً عسيراً على الفهم .. قولاً معمى يخفى على مدارك المستمع ..
قولاً يحتاج إلى الجهد والتقليد حتى يصل الإنسان إلى مضمونه ، ويمكن أن
تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى أقوال الحكماء القصيرة المضغوطة التي لا يستطيع
العقل العادي استيعابها لا كتنازها ، وقوتها ، ويمكن أيضاً أن تشير إلى اللغز
الذي يجهد الإنسان فكره للوصول إلى حله .

وهكذا يقول معلم الدهور : « حتى هذه اللحظة كنت أعطيكُم رموزاً وصوراً ، وإشارات » . كنت أقدم لكم الحق مقنعاً بقناع الرمز والمثل . كنت أقول لكم أموراً أدفعكم إلى أن تحلوها بأنفسكم .. ولكني الآن سأحدث إليكم بالحق في أجلى صورته .

هنا قال لهم علانية أنه أتى إليهم من عند الآب ، وأنه ماض بعد قليل إلى حيث أتى . هنا تقدم بالحق الأعظم المجيد الذي أعلنه عن نفسه ، إنه ليس سوى ابن الله المجيد . . . هنا أعلن لهم أن الصليب ليس نهاية الازدراء والعار وميتة المدلة . بل هو الطريق إلى بيت الآب وأعجاده الآب .

وهنا يعلن حقاً مجيداً ينبغي أن يثبت على الدوام في أذهاننا . فهو يقول لنا إننا نستطيع أن نقرب من الآب السماوى لأنه يحبنا . نستطيع أن نقدم بطلباتنا إلى الله رأساً . ونحن كثيراً ما ترسم في مخيلتنا صورة خاطئة . . . صورة نتخيل فيها إلهاً غاضباً ثائراً ، والابن الحبيب يبدو إلى جواره محاولاً أن يستعطفه ويهدئ من تأثيرته علينا . ولكن «يسوع» يمحو من أمامنا هذه الصورة ليرسم بديلاً عنها ، صورة إله محب عطوف يذوب قلبه الكبير عطفاً وحناناً من نحونا . فيقول لنا : « لا تمتثلوا رعباً من إله المحبة . . تقدموا إليه . . قدموا طلباتكم له . . وسوف تكتشفون أنه يحبكم لأن الله محبة . . لاحظوا أن يسوع يقول لنا هذا قبل اجتيازه في مرارة الصليب ، وكأني به يقول . . إنني لن أموت لأغير قلب الله وعواطفه من جهتكُم . ولكني سأقاسى آلام الصليب ومرارته وعاره لأثبت لكم أن الله يحبكم . . لقد جئت إلى العالم . . لقد أرسلني الآب إلى العالم . ليس لأن الله يبغض العالم . بل لأنه يحبه بهذا القدر ، حتى يبذل ابنه الوحيد في سبيل خلاصه . . فخلف إرسالية يسوع ، وخدمات يسوع ، واتضاع يسوع ، ودماء يسوع المراقبة على الصليب ،

نوجد محبة الله الفائضة من نحنونا . وما كان ممكنا أن ندرك هذه الحقيقة
لولم نخبرنا السيد بهذا بنفسه . لقد أعلن « يسوع » محبة الله للبشر .

في هذه الفقرة يعلن لنا رب المجد أن عمله قد أكمل ، والمهمة التي جاء
من أجلها قد وصلت إلى تمامها . لقد أتى من الآب إلى البشر في ثوب المهانة
والاتضاع ، في جسم بشريتنا ، وسوف يعود إلى الآب في طريق المهانة
والعار ، طريق الصليب . وهكذا فتح لنا طريق القبول عند الله الآب ،
ليس لأن يسوع استعطف الآب بآلامه . بل لأننا عن طريق محبتنا ليسوع
أصبحنا أعضاء على قلب الله .

المسيح وهباته

قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ هُوَذَا الْآنَ تَتَكَلَّمُ عَلَانِيَةً وَلَسْتَ
تَقُولُ مَثَلًا وَاحِدًا . الْآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ
وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ . لِهَذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنْ
اللَّهِ خَرَجْتَ . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ الْآنَ تُؤْمِنُونَ . هُوَذَا
تَأْتِي سَاعَةٌ وَقَدْ أَتَيْتِ الْآنَ تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى
خَاصَّتِهِ وَتَتْرُكُونِي وَحْدِي . وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لِأَنَّ أَلَّابَ
مَعِيَ . قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِي سَلَامٍ . فِي
الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ . وَلَكِنْ ثِقُوا أَنَا قَدْ غَلَبْتُ
الْعَالَمَ .

(يوحنا ١٦ : ٢٩ — ٣٣)

هنا يبدو لنا نور غريب ، يكشف أمام عيوننا الطريق الذي أوصلى
التلاميذ أخيراً إلى التسليم الكامل ليسوع . هنا نراهم قد قفزوا إلى قمة الإيمان
المكامل . لأنهم كما يقولون تحققوا بأن يسوع ليس بحاجة إلى سؤال إنسان عن
أى أمر من الأمور . ترى ماذا يقصدون بهذا القول ؟ لو رجعنا إلى
العدد ١٨ من الفصل الثامن عشر من نفس الاصحاح . نراهم يتناقشون

فما بينهم عن معنى ما قاله يسوع ، وهم في حيرة من أمرهم . فإذا بنا نرى السيد في العدد التاسع عشر يجيب عن أسئلتهم دون حاجة إلى أن يسألهم فيم كانوا يحتاجون أو بكلمات أخرى استطاع يسوع أن يقرأ أفكارهم كما من كتاب مفتوح .

هذا هو السبب الذي من أجله آمنوا به . لقد رأوا أنفسهم أمام من يعرف دخيلة قلوبهم ، ويجيبهم عن كل مشاكلهم قبل أن يسألوه . إن يسوع يعرف أفكارنا ، وهمومنا ، ومتاعبنا الداخلية ، وهو يستطيع أن يتعامل مع كل واحد بحسب مشاكله الخاصة . إن معرفته بالله ، وإعلان أعجابه أمام التلاميذ ، ومعرفته بطبيعة القلب البشري ، وكشف أسرار الخفية قد أقنعا تلاميذه بأنه بالحقيقة ابن الله . فلم يوجد من عرف الله ، وعرف البشر نظير يسوع . ولكن المعلم العظيم كان واقعياً . فلم يندفع في موجة الحماس الطارئ وتأخذه النشوة . لقد أنبأهم بأنه بالرغم من إيمانهم ، فستأتي الساعة التي فيها يتخلون عنه ويهجرونه . هنا نرى شيئاً عجيباً ، بل نكاد نقول أعجب الأشياء عن يسوع . فها نحن نراه يصل إلى أدق الأسرار في حياة تلاميذه . فيعرف ضعفهم ، ويعرف أنه في أخرج أوقاته . . . في الوقت الذي سيكون فيه أحوج ما يكون إلى وجودهم بجواره ، سوف يتخلون عنه هاربين . ومع ذلك استمر في محبته لهم . . . بل الأعجب من ذلك أنه استمر في ثقته بهم . إنه يعرفنا في أردأ نقاط ضعفنا . ومع ذلك يحبنا ويثق بنا ، وبضعفنا في كثير من الأحيان . قد يكون من السهل علينا أن نعفو عن إنسان أساء إلينا أو تخلى عنا .

وقد تجده من الصعب أن نعود إلى محبة ذلك الإنسان كما كنا في الماضي . ولكن من أفسى الأمور أن نعود إلى الثقة الأولى التي كنا نضعها في ذلك الإنسان . نؤتمد عليه كل الاعتماد ، كما كان شأننا في الماضي . ولكن يسوع

يقول لتلاميذه : « إني أعرف أنكم في ضعفكم ستهجروني وتتركونني وحيداً . أنا أعرف أن أحدكم سيخونني . والآخر سينكرني وكلكم ستفضون عني هاربين في الساعة الحاسمة . ومع ذلك مازلت أثق بكم . وأثق بأنكم ستعوضون عن ضعفكم وستتصرون » . إن هذه الثقة المقترنة بالغفران يندر أن نجد نظيراً لها في تاريخ الإنسانية جمعاء . ترى ماهو الدرس الذي يريد السيد أن يلقنه لنا من خلال هذا التصرف ؟ إنه يعلمنا كيف نتسامح مع الذين يخطئون في حقنا ، وكيف نضع ثقتنا فيمن تصرفوا معنا تصرفات خاطئة .

هناك أربعة أمور واضحة تعلنها هذه الفقرة عن يسوع . .

١- فهي تعلن لنا عما سيعانيه يسوع من وحشة . . إن البشر سيتركونه وحيداً . . ولكنه لن يكون وحيداً لأن الله مازال معه . ونحن إن وقفنا بجانب الحق . . إن بذلنا وضحيانا في سبيل الحق . . إن وصلت تضحيتنا حتى إلى التضحية بالذات ، فلنثق بأن الله على الدوام سيكون معنا ، مؤازراً ، ومشجعاً وسنداً . إن الله لن يترك رجاله الصالحين العاملين معه بمفردهم في الساعات الحرجة . بل إننا في مثل هذه الساعات نتحقق وجود الله إلى جوارنا . لأن الصداقة الحقة ، تظهر بوضوح في الأزمات .

٢- وهي تعلن لنا غفران يسوع . ولقد تأملنا على التو في سمو هذا الغفران لقد كان يعرف ضعف تلاميذه ، وكان يعرف أنهم سيهجرونه . ولكنه لم ينزعهم من دائرة قلبه وفكره ، ولم يذكر لهم تلك الخطية في مقبل الأيام . ولم يتمسك بضعفهم وثيقة ضدهم . لقد أحبهم في ضعفهم . . رأهم في ضعف جسم بشرتهم ، فأحبهم إلى الأبد ، واختارهم ليكونوا خاصته . إن الحب الذي يقدر له أن يبقى ويخلد ، ينبغي أن يبنى على النظرة

لسليمة . . . على المعرفة الكاملة . أما الحب الذى يبنى على معرفة ناقصة...
على قناع زائف يغطى حقيقة الإنسان . على مثالية أبعد مما تكون عن
الواقع ، فخصيره إلى النفور ، والكراهية ، والإحتقار ، حينما يسقط القناع
وتظهر حقيقة الإنسان ، وحينما تسقط الغشاوة عن العينين فيظهر الإنسان
كما هو . إذا كان هدفنا هو الحب الصادق —ينبغي أن نحب لا المثال . لا
الصورة المثالية التى ترسمها مخيلتنا ، بل الواقع الفعلى ، مفسحين فى قلوبنا مكانا
لأكثر من ضعف وقصور ، لنحب الإنسان كإنسان لا غير .

٣ — وهى تصور لنا عواطف يسوع . هناك آية فى هذه الفقرة ، يبدو لنا لأول
وهلة أنها وضعت فى غير موضعها . وهى التى يقول فيها السيد « كلمتكم
بهذا ليكون لكم فى سلام » . والفكرة الرئيسية التى تقدم لنا مفهوم هذه
الآية هى على النحو التالى : لو لم يكن يسوع قد تنبأ لتلاميذه عما سوف يحدث
لهم من ضعف فى تراجعهم ، وهروبهم بعيداً فى ساعة محنته . . . لو كانت
قد فاجأتهم التجربة دون أن يعلموا بما سيحدث لهم . لكان اليأس يتولاهم
نظير «يهوذا» ، حينما يرون أنفسهم وقد سقطوا من النعمة ، وقاموا بدور الجبان
المتنكر لسيده . ولكنه حذرهم بأن العاصفة ستهب عليهم ، وأنهم سيتزعزعون
من ثباتهم . نعم أخبرهم بأن الشيطان سوف يغربلهم كما تغربل ربة البيت
الحنطة . أما هم ، فسوف يترنحون ويهزؤون من عنف الصدمة ، شأن حبات القمح
وهى تتأرجح وترنح على الغربال . وهكذا يقول السيد لهم : « لقد صرحت لكم
بما سوف يحدث ليكون لكم فى سلام . إني أعرف ما سوف يحدث . .
وأخبركم بكل شئ . لا تظنوا أن تراجعكم وسقوطكم سيكون مفاجأة لى .
إني أعرف ما سوف يحدث ولن يقلل هذا من محبتى لكم . وإني أحدثكم
بهذا حتى تجلسوا سلامكم الأعظم فى لا فى نفوسكم المتقلبة — حينما تفكرون
فى كل هذا فى مقبل الأيام اطرءوا عن نفوسكم كل يأس » .

هنا نرى العطف الإلهي مقترنا بالغفران المجيد . لقد كان كل تفكير يسوع منصبا ليس على ما سيلحق به من ضرر وأذى بسبب خطية البشر ، بل على ما تلحقه الخطية بأصحابها من ضرر وأذى - إننا لو استطعنا أن ننظر إلى أخطاء الآخرين من نحونا ، بنفس النظرة التي ينظر بها يسوع ، فإننا سنتألم ونحزن ، ليس لأن أخطاءهم سببت لنا المتاعب ، بل لأنها سببت لهم الندامة ، والألم ، وعذاب الضمير .

٤ - بل إنها ترسم لنا صورة حية لهبات يسوع ... لما يقدمه لنا . هو يقدم لنا الشجاعة في مواجهة العاصفة ، والانتصار الكامل عليها . فهناك مأساة على وشك أن تتم أدوارها على مسرح التاريخ . وسوف يرى التلاميذ بأعينهم أن العالم سيبدل قصارى الجهد ، ليقدّم أسوأ ما لديه ليسوع ، ومع ذلك لن يغلبه ، ولن ينتصر عليه . وسوف يرى التلاميذ ، أبناء الأرض يتقدمون ليسوع بالعار والألم والصليب ، والموت . ولكنهم سيشهدون أيضاً سلطانه الذي لا يقهر ، حينما يقوم من الأموات ظافراً منتصراً . وهو على هذا الأساس يقول لهم : «إن الانتصار الذي سوف أحققه لن يكون فريداً من نوعه . . لن يكون قاصراً على أنا . إنه فتح عظيم لكل من يؤمن بى . إن العالم سيبدل قصارى جهده ليخمد ذلك الصوت الصارخ في برية الوجود ، وينتهى من صاحبه إلى الأبد . ولكن الحق لن يقبر . . لن يقدر له أن يموت وينتهى . إنه لا بد وأن يخرج في النهاية ظافراً عزيزاً منتصراً . وهذا ما سوف يحدث لى . وإنى أقول لكم إنكم انتم أيضاً ستحتبرون الانتصار الأعظم فى . سوف يقاومكم العالم بكل ما أوتي من قوة . سوف يسلمكم للعذاب والموت .. وسوف يدوسكم بأقدامه لعله يسحقكم . ولكن نظير الحنطة حينما تدفن فى الحقل ، سوف تخرجون فى ملء الازدهار والانتصار . امتثلوا شجاعة فى ، وكونوا منتصرين فى انتصارى فى الصليب .

الْأَصْحَاحُ السَّابِعُ عَشَرَ

مجد الصليب

تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ
أَيُّهَا الْآبُ قَدْ أَنْتِ السَّاعَةُ . مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ
أَيْضاً إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَوَةً
أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَوَةُ الْأَبَدِيَّةُ أَنْ
يَعْرِفُوكَ أَنْتَ إِلَهِهُ الْحَقِيقِيُّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ
الَّذِي أَرْسَلْتَهُ . أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الْأَرْضِ . الْعَمَلُ الَّذِي
أَعْطَيْتَنِي لِأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ . وَالْآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا
الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ
الْعَالَمِ

(يوحنا ١٧ : ١-٥)

لقد كانت حياة يسوع قمتها ، وكانت هذه القمة الصليب . لقد كان
الصليب ليسوع هو مجد الحياة الحاضرة ، والطريق إلى أمجاد الحياة المقبلة
« قد أنت الساعة ليمجد ابن الإنسان » (يوحنا ١٢ : ٢٣) . هكذا يقول

السيد . فى أى عنصر تكمن أجماد الصليب ؟ وماذا يعنى يسوع فى حديثه عن الصليب بأن فيه مجده ، وتمجيده ؟ هناك أكثر من جواب .

١ - فمن الحقائق الواضحة فى التاريخ ، أنه فى موت العظماء مجدهم . وكلما كانت للموت ظروفه الخاصة ، أحاط صاحبه بهالة أجدد - فالمكان الذى فيه انتهت حياة الإنسان ، والظروف التى رافقت موته ، هى التى تظهر بحق من هو ، وماذا يكون . قد يسىء الناس فهم الإنسان فى الحياة ، وقد ينتقصون من مقامه ، وقد يصل بهم الأمر إلى الحكم عليه ، وربما وصل الحكم إلى الموت كمجرم أثيم . ولكن موت الإنسان هو الذى يبرره ويضعه فى وضعه الصحيح بحسب ترتيب الأشياء .

لقد كان لآبراهام لنكولن رائد تحرير العبيد فى أمريكا ، أعداؤه فى حياته ، ولكن حتى أولئك الذين وجهوا إليه سهام النقد ، وناصبوه العداء ، اشتركوا فى تمجيده حينما مات . فمن الغرفة التى سجن فيها جسده بعد أن أطلق عليه الرصاص ، خرج أحدهم وهو يهتف « لقد أصبح آبراهام ملكاً للأجيال جمعاء » . أما وزير حربيته الذى كان يرى فيه مخلوقاً فظيماً غير مهذب الطباع ، وما كان يدع فرصة تمر دون أن يبدى احتقاره له ، قال مشيراً إلى جثته الدامية ، والدموع تملأ عينيه « هنا يرقد أعظم حاكم فى تاريخ الإنسانية » .

وهناك مثل آخر فى تاريخ العظماء : شهيدة الروان التى عرفها الأجيال باسم « جان دارك » ، والتى حكم عليها الإنكليز بالموت حرقاً كساحرة هرطوقية . وبين الجموع التى شهدت إعدامها ، تقدم واحد ، كان قد عزم أن يزيد النار اشتعالاً ، ووقف واجماً أمامها وهو يقول « ياليت نفسى تجد الراحة حيث تكون نفس هذه المرأة » . وأحد سكرتيرى ملك إنكلترا

عاد من موكب الإعدام بعد أن أحرقت «جان دارك» — عاد وهو يخبط كفاً بكف ويقول : « لقد حلت علينا اللعنة جميعاً ، لأننا أحرقنا قديسة مباركة » .

وحينما كان الأعداء يسوقون «منروز» وهو أحد شهداء اسكتلندا إلى ساحة الإعدام ، وكانوا قد دسوا كثيرين على طول الطريق للهتاف ضده ، وتحقيره ، لكن لم يرتفع صوت واحد . كان يرتدى أفخر ملابسه ، والجموع تحوطه وكأنه ملك يسير إلى حفل تتويجه . كما يقول أحد شهود العيان « لقد كان يسير في الطريق في جلال ، وكرامة ، وجمال أذهل كل أعدائه ، فاعترفوا بأنهم لم يشهدوا شجاعة نظير هذه » . وكتب أحد المراقبين العسكريين الإنكليز لرئيسه يقول « من الأكيد أنه كسب بموته أكثر ممن كان يمكننا أن يكسبهم لو عاش ، لأنني ما رأيت في حياتي مثل هذه الشجاعة » . وكم من مرة ظهرت دلائل السمو والجلال والكرامة ، في اللحظات الأخيرة في حياة الشهداء . وهكذا كان «يسوع» مع الفارق ، حتى أن قائد المئة هتف في ذهول : « بالحقيقة كان هذا ابن الله » ، لقد كان في الصليب مجد يسوع ، لأن يسوع لم يكن أكثر جلالاً قدر ما كان في موته ... لقد كان في الصليب مجد يسوع لأن جاذبية الصليب قد اجتذبت إليه الجموع أكثر مما اجتذبتهم حياته وتعاليمه ومعجزاته . وما زال الصليب إلى يومنا الحاضر وإلى نهاية الأجيال ، سيظل أقوى مغناطيس يجتذب القلوب ، ويجمع النفوس حول «يسوع» .

مجد الصليب

(يوحنا ١٧ : ١ - ٥)

٢ - زد على هذا أن الصليب كان مجد يسوع ، لأن فيه تتويج عمله وكماله « العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته » هكذا يقول . إن الوقوف دون الصليب معناه التوقف عن إتمام العمل الذى كلف به ولماذا هذا ؟ لأنه قد جاء إلى العالم برسالة محددة : أن يخبر الناس عن محبة الله ، وأن يظهر فى حياته تلك المحبة الإلهية ، وما كان الصليب إلا برهان محبة الله ، ودليل فيض القلب الإلهى من نحو البشر ، فلو لم يخط « يسوع » خطواته الحاسمة نحو الصليب لرأينا محبة الله تقف عند حدود لا تستطيع أن تتعداها . وكأنى بالله يقول للمحبة « إلى هنا وكفى » . لكن فى الصليب أعلن لنا « يسوع » أن المحبة الإلهية تفيض وتطغى وتغطى كل شىء ولا يعسر عليها أمر فى سبيل محبة البشر ، ولا حدود لها فى سبيل خلاصهم ، وعودتهم إلى أحضان المحبة الإلهية . هناك قصة برويها أحدهم ، عن صبي مراسلة كان يعمل فى أحد الميادين فى الحرب العالمية الأولى ، حينما عهد إليه بتوصيل رسالة . وركب الصبي دراجة للقيام بمهمته ، وفى الطريق جرح جرحاً مميتاً ، على أثر أصابته بشظية من قذيفة . ومع ذلك لم يتوقف عن المسير . وحينما اكتشف فى النهاية ، وكان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، همس قائلاً : « لقد أوصلت رسالتى » . لقد كلفته تلك الرسالة حياته ، ومع ذلك لم يتراجع عن القيام بواجبه .

هذه صورة ضئيلة لما قام به « يسوع » . لقد أكمل رسالته ، وأوصل محبة الله للبشر . وكان إعلان محبة الله هو الصليب ، لكنه لم يتراجع . وهكذا كان فى الصليب مجد « يسوع » لأنه كمال العمل الذى أعطاه الله إياه . كما كان فيه إعلان محبة الله للبشر .

٣ - هذا يأتي بنا إلى سؤال آخر : كيف كان في صليب يسوع مجد الله ؟
هناك طريق واحد لمجد الله ، وهو إطاعة وصاياه . فالأبن يكرم والديه حينما
يطيعهما . والمواطن يكرم أمته ، حينما يطيع قوانينها ، ويحيا بموجبها ،
والتلميذ يكرم أستاذه حينما يطيع تعاليمه ويسير وفق إرادته . ولقد مجد
يسوع الآب السماوى وأكرمه ، حينما أطاع وصاياه إن قصة البشائر تظهر لنا
بوضوح أنه كان فى إمكانه أن يتجنب الصليب . كان ممكنا بحسب الفكر الإنسانى ،
الايذهب على الإطلاق إلى اورشليم ، بل يبقى فى دائرة الجليل ، محوطاً بأحبائه
ومواطنيه ، لكنه نخطى ثابتة سار إلى ميدان الموت حتى أننا نستطيع أن
نقول : أنظروا كيف أحب الله ؟ أنظروا إلى أى نقطة أوصلته طاعته
للآب ؟ لقد كان فى الصليب تمجيد الآب ، بطاعته الكاملة ، فى ملء المحبة
والتضحية .

٤ - بل إن هناك ما هو أكثر من هذا . لقد صلى «يسوع» طالبا من
الآب أن يمجده ، وأن يمجد ذاته . فالصليب لم يكن نهاية الشوط . لقد
كان لا بد وأن تتبعه القيامة ، والقيامة كانت إعلان مجد «يسوع» . . .
تمجيذا لإرسالته . . . وتأكيذا لانتصاره وسلطانه .

لقد كان الصليب أقوى شاهد ، على أن البشر يستطيعون أن يتقدموا
بأردأ ما ليسهم ، وأن يسوع يستطيع أن ينتصر عليهم . وكأنى بالآب
السماوى ، يشير إلى الصليب ويقول « هذا ما استطاع البشر أن يفعلوه
بالابن الحبيب » ، ثم يشير إلى القبر الفارغ ويقول : « وهذا ما أستطيع أن
أريده على أيديهم » . لقد كان الصليب أردأ ما استطاعت البشرية أن تقدمه
إلى «يسوع» . ولكن أردأ ما فى مقدور البشر لمن يزعم يسوع ، ولن ينتصر
عليه ، ولن يحطمه . . . لقد لحقت أمجاد القيامة عار الصليب ، وبددت
أنوار فجر الأحد ، ظلمات يوم الجمعة الحزينة .

هـ - ولقد كان الصليب بالنسبة ليسوع عودة إلى أجداد الماضى . ونحن نستمع إليه يصلى قائلاً :

« مجدنى بالمجد الذى كان لى قبل كون العالم » . لقد كان « يسوع » شأنه شأن ابن الملك العظيم ، الذى أوكلت إليه مهمة عسيرة خطيرة ، فى بلد بعيد ثائر فترك القصر وأجداده ، ليقوم بمهمته حتى أنجزها على أتم ما يرام ، فلما انتهى من مهمته ، عاد منتصراً إلى القصر الملكى ليتمتع بشمار ظفره - من عند الآب أتى يسوع وإلى الآب يمضى ، وبين الرحلتين كانت معركة قاسية هى معركة الصليب . . . من عند الآب أتى وإلى الآب يمضى ، وكان طريق الرجوع هو طريق الصليب ، ولذلك فقد كان الصليب طريق المجد بل بوابته ، فلو أنه رفض أن يسلك الطريق ، ويدخل من الباب ، فكيف كان سيصل إلى الأجداد ؟

الحياة الأبدية

(يوحنا ١٧ : ١ - ٥)

هنا فى هذه الفقرة فكر آخر غاية فى الأهمية ، لأنها تقديم لنا أعظم تعريف للحياة الأبدية ، فالحياة الأبدية هى معرفة الله ، ومعرفة يسوع المسيح . دعنا نتأمل فى مضمون الكلمة . إنها فى الأصل اليونانى « أيونيوس » . وهذه الكلمة لا تلتزم بمعنى الطول أى طول الحياة . فليس طول الحياة بالضرورة نعمة على الدوام ، أو شيئاً مرغوباً فيه . إن المعنى الأساسى لهذه الكلمة ، يدور حول نوعية الحياة . والحياة الأبدية يمكن أن تطبق على واحد ، هذا الواحد هو الله . فالحياة الأبدية ليست أقل من حياة الله نفسه وهكذا فإن الدخول فى الحياة الأبدية ، دخول إلى حياة الله ، وامتلاك الحياة الأبدية ، امتلاك حياة القدير ، بمعنى أنها اختبار فى هذه الحياة ، لجزء من

أعجاد حياة الله في ملها ، وأفراحها ، وسلامها ، وبهاثها ، وقداسها
وسمورها .

نقول إننا لو رجعنا إلى العهد القديم ، لوجدنا أن الفكر الأساسي الذي
تدور حوله أسفار العهد القديم هو معرفة الله . فالحكمة « شجرة حياة
لمسكها والتمسك بها مغبوط » (أمثال ٣ : ١٨) . . وعن كتاب الحكمة
أحد أسفار الابوكريفا نقتبس القول : « إن معرفة قوتك أساس الخلود »
(سفر الحكمة ٥ : ٣) . وفي الأمثال « بالمعرفة ينجو الصديقون »
(أمثال ١١ : ٩) . أما حلم «حقوق» النبي عن العصر الذهبي ، فهو أن
« الأرض تمتلئ من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر » (حقوق
٢ : ١٤) . فإذا أتينا إلى نبوات «هوشع» فإننا نستمع إلى صوت الله متحدثا
عن شعبه بالقول « قد هلك شعبي من عدم المعرفة » (هوشع ٤ : ٦)
وقد تباحث أخبار اليهود عن أصغر فقرة في التوراة تضم وصايا الناموس
بأكمله ، ووصلوا إلى القول للوارد في سفر الأمثال « في كل طرقك اعرفه
وهو يقوم سبلك » (أمثال ٣ : ٦) .

وهناك أيضا قول آخر ، ورد في نبوات «عاموس» ، وأجمع الأخبار
وأئمة الشريعة على أن فيه قد جمع النبي كل وصايا الناموس ، حين قال متكلما
بلسان الله : « أطلبوني فتحيا » (عاموس ٥ : ٤) . لأن طلب الله
معناه طلب معرفة الله . إن معلمى اليهود قد اتفقوا منذ زمن طويل ، على أن
معرفة الله ، هي ألزم شيء للحياة الصادقة . ترى ماذا تعنى هذه المعرفة ؟

١ - مما لا شك فيه أن هذه المعرفة تحوى إشارة إلى المعرفة النهمية . إنها
تعنى على أقل تقدير ، معرفة كيف يكون الله . وفي محاولتنا معرفة كنهه
الجلال الإلهي ، تطبع حياتنا بأقوى مظاهر التغيير . لناخذ مثلين . لناخذ

بادئ ذي بدء المجتمعات الوثنية . إن مثل هذه المجتمعات ، وخاصة في المناطق البدائية ، تؤمن بالعديد من الآلهة . وهذه الآلهة قد تتخذ معظم مظاهر الطبيعة الناطقة والجامدة . فالإله قد يكون شجرة ، أو نهراً ، أو جبلاً ، أو هضبة . كل هذه قد تكون آلهة ، أو قد تكون لها أرواحها . كروح الجبال ، وروح الأشجار ، والأنهار وغير ذلك . مثل هذه الآلهة أو الأرواح هي على الدوام في صراع مع البشر ، وعداء معهم . ولذلك فالجموع هناك تعيش في رهبة دائمة ، وتخشى من أن تغضب واحداً من هذه الأرواح أو الآلهة ، لئلا توقع بها الضرر .

ونخبرنا المرسلون الكثير من القصص عن مشاعر أولئك البسطاء حينما يكتشفون أن هذه الأعداد الكبيرة من الآلهة لا وجود لها . وأنه لا يوجد إلا إله واحد . وأن هذا الإله هو المحبة المجسمة .

إن هذه المعرفة الجديدة تطبع الحياة بطابع مغاير بالكلية ، وتغير نظرة الإنسان للوجود ، وعاداته ، وتقاليده . إن إله المحبة على التقيض من هذه الآلهة الوحشية ، آلهة الرعب والانتقام ، وسفك الدماء ، إله يملأ النفس بالهدوء ويسكن القلب في سلام . ونحن نعرف هذه الحقيقة المحيطة ، ولكننا ما كان مقدراً لنا أن نصل إلى هذه المعرفة ، لو لم تعلن لنا محبة الله في المسيح يسوع . إننا ندخل في حياة جديدة . . . نشترك مع الله بصورة خفية في طبيعته وحياته ، حينما نصل إلى معرفة الله الاختبارية عن طريق يسوع المسيح وعمله الكامل . إن معرفة الله تعني بالنسبة لنا حياة الأبد . . . حياة الله .

٢ - ولكن هناك شيئاً آخر . إن كلمة « يعرف » المستخدمة هنا ،

يستخدمها الوحي في أكثر من موضع في العهد القديم ، للإشارة إلى الصلة الجسدية بين رجل وامراته . « فعرّف آدم امراته فحبلت وولدت قابين » (تكوين ٤ : ١) . أما معرفة الرجل بزوجته ، فهي أصدق وأقوى أنواع المعرفة . ففيها يصير الإثنين لا اثنين بعد بل واحداً . ولا نركز هنا على الجنس في مظهره ، أو مفهومه ، أو ممارسته ، فهذا ليس بالأمر الجوهري . ولكننا نقول إن أقوى ما في صلة الجنس ، وحدة القلب ، والعقل ، والمشاعر ، والنفس . ورباط الحب الذي يوحد الإثنين إلى واحد . على هذا الأساس ، فإن معرفة الله ، لا تعني تفهمه بالعقل في مدركاته ومصنوعاته أو حتى في كنهه وذاته ، بل أن تكون لنا الصلة الشخصية مع الله ، ويربطنا بجلاله ورباط الحب .

نعود فنقول إنه بدون «يسوع» ، ما كان ممكناً أن نرتفع إلى هذا المستوى .. ما كان ممكناً أن نصل إلى هذا الارتباط السامي ، وهذه الصلة القريبة الحبيبة الشخصية بالله . إننا في «يسوع» ... في تعاليمه .. في عمله .. في خلاصه .. في ذاته . قد وصلنا إلى معرفة الله معرفة اختبارية ، وارتبطنا به برباط الحب السامي ، وأصبحنا واحداً في ذاك الذي اسمه محبة .

إن معرفة الله هي أن نصل إلى إدراك كنهه الله . . أن نكون في صلة محبة معه . والطريق الوحيد إلى الوصول هو «يسوع المسيح» . ففي «يسوع المسيح» نعرف من هو الله ، وفيه نصل إلى الارتباط الأسمى مع الله .

عمل يسوع

أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ
الْعَالَمِ . كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كَلَامَكَ
وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ . لِأَنَّ
الْكَلَامَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتَهُمْ وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا
يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي .

(يوحنا ١٧ : ٦ - ٨)

هنا يعطينا «يسوع» تعريفاً مركزاً عن خلاصة ما عمله . فنحن نستمع إليه
في هذه الفقرة يقول للآب : « أنا أعلنت اسمك » . هناك فكرتان عظيمتان
تدوران حول هذا التصريح .

١ - في صفحات العهد القديم ، تستخدم كلمة « الإسم » بصورة فريدة
مميزة . فهي لا تعني ببساطة ، الاسم الذي أطلق على الإنسان لينادي به . إنها تعني
طبيعة الإنسان كله ، وصفاته التي يعرف بها ، والتي تميزه عن سواه ، يقول المزمع :
« يتكل عليك العارفون إسمك . لأنك لم تترك طالبك يارب » (مزمور
٩ : ١٠) . هنا اسم الرب لا يعنى على الإطلاق أن أولئك الذين يعرفون
بماذا يلقب الله يتكلمون عليه . بل بالحرى ، الذين يعرفون صفات الله وطبيعته
الحبة ، يتكلمون عليه بكل ثقة ، ويضعون رجاءهم فيه . ويقول المزمع أيضاً .

« هولاء بالمركبات ، وهولاء بالخيول ، أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر » (مزمور ٢٠ : ٧) . وواضح أيضاً أن المرثم هنا يضع ثقته في طبيعة الله وصفاته . إنه يثق بالله ، لأنه يعرف من هو الله . وفي مزمور آخر نستمع إليه يقول « أخبر باسمك إخوتي » (مزمور ٢٢ : ٢٢) .

وهذا المزمور الأخير ، مزمور نبوي اعتقد اليهود أنه نبوة عن المسيح ، وعما سيقوم به من إعلان طبيعة الله للبشر . أما إشعياء فإنه يرى أن أسمى خصائص العهد الجديد « يعرف شعبي إسمي » (إشعياء ٥٢ : ٦) . بمعنى أنه في العهد الذهبي ، سيعرف الناس طبيعة الله ومن يكون .

وهكذا حين يقول « يسوع » « أنا أعلنت اسمك » فإنه يقول « أنا أعنت البشر ليصلوا إلى المعرفة الحقيقية عن طبيعة الله وعن صفاته » . أو هي صورة أخرى لما أعلنه من قبل « الذي رأى فقد رأى الآب » (يوحنا ١٤ : ٩) ففي يسوع يرى البشر فكر الله ، وطبيعة الله ، وقلب الله .

٣ - ولكن هناك فكراً آخر ، في الأوقات المتأخرة . حينما كان

اليهود يتحدثون عن اسم الله ، أو اسم الجلالة ، كان يقصدون الاسم المقدس ذا الحروف الأربعة : « يهوه » . هذا الاسم كان عظيمًا مقدسًا بحيث ما كان يجرؤ يهودي أن ينطق به بلسانه . وما كان يستطيع أن يذكره سوى رئيس الكهنة ، حينما يدخل إلى قدس الأقداس في يوم الكفارة العظيم . فليس لمخلوق آخر بين البشر أن تنطق شفتاه هذا الاسم . ومن الملاحظ أن الكلمة في العربية تتفق في حروفها الأربعة مع الأصل العبري . ففي العبرية كما في العربية نضع الإشارات فوق أو تحت الحروف المتحركة . وليس الأمر هكذا في اللغة الإنكليزية . ولذلك فقد اختلف منطوق الكلمة في الترجمة الإنكليزية ، Jehovah . وليس Yahweh .

وربما كانت كلمة « جيهوفا » ترجمة لحروف « أدوناي » ، وهو أيضاً اسم الجلالة في العبرية . وكان يوضع حركاته تحت اسم يهوه حتى إذا جاء الكاهن في القراءات المرتبة إلى الاسم المقدس ينطق بكلمة « أدوناي » بدلا من يهوه .

وهكذا كان اسم الله مقدساً عظيماً في عصر «يسوع» ، حتى أن الرجل العادي ما كان يعرف شيئاً عنه ، وما كان مفروضاً أن ينطق به . لقد كان الله أرفع وأعظم من أن يعرفه رجل الشارع أو ينطق باسمه . وهكذا يقول «يسوع» : « لقد أعلنت لكم اسم الله ، هذا الاسم المقدس الذي لا يستطيع إنسان أن ينطق به . لقد أعلنته لكم في العمل الذي أكملته ، والمهمة التي من أجلها جئت . لقد قربت إليكم الله العظيم السامي البعيد ، حتى أن أبسط إنسان يستطيع أن ينطق به ويعرفه » .

إن «يسوع» في هذه الفقرة ، يتحدث عن حقه الأعظم ، كمن أعلن لنا طبيعة الله وصفاته ، وكمن قرب إلينا جلال الله ، حتى أن أقل إنسان يستطيع أن يأخذ الاسم المقدس على شفثيه دون خوف أو رهبة .

معنى التلمذة

(يوحنا ١٧ : ٦-٨)

في هذه الفقرة نكتشف نوراً يعلن لنا معنى التلمذة .

١ - فالتلمذة أساس اليقين بأن يسوع قد أتى رأساً من الله - فالتلميذ هو إنسان تحقق قبل كل شيء بأن «يسوع» رسول الله . بل أنه هو إعلان ذات الله . وأننا في صوت يسوع نسمع صوت الله ، وفي عمل يسوع نرى عمل الله ، وفي شخص «يسوع» نرى ذات الله .

التلميذ إذاً هو الذى يرى الله فى «يسوع» ، ويوقن بأنه لا يوجد من يستطيع أن يعلن الله للبشر سوى يسوع ، ولا يوجد من يستطيع أن يقول «أنا والآب واحد» سواه .

٢ - والتلمذة ليسوع مظهرها الطاعة. فهي تتمثل فى إطاعة وصايا «يسوع» . إن التلميذ الحقيقى هو الذى يحفظ وصايا الله كما قدمت فى «يسوع» . فكيف تكون هناك تلمذة ما لم تتمثل فى الطاعة ؟ إن الذى يريد أن يكون تلميذاً عليه أن يقبل سلطان معلمه . والذى يريد أن يكون تلميذاً ليسوع عليه أن يقبل سلطان يسوع . ويجعل وصاياهم ناموس حياته . فطالما نتمسك بذاتيتنا ونريد أن نسلك كما نهوى ، لن نكون تلاميذ يسوع . فالتلمذة تقتضى الخضوع وتقوم على أساس الطاعة ..

٣ - والتلمذة هى شئ مرتب من قبل . لقد أعطى الله للابن الحبيب أولئك التلاميذ . وفى مخطط الله عين له تلاميذه . هنا نصطدم بعقيدة الاختيار المسبق . ولكننا لا نقصد أن نقول إن الله عين البعض ليكونوا تلاميذ ، والبعض الآخر ألا يكونوا تلاميذ . إن هذا لا يعنى اختياراً للتلمذة ، واختياراً لرفض التلمذة . ولكن دعنا نقدم مثلاً واقعياً للتوضيح .

فقد يكون للإنسان ابن . وحول هذا الابن تدور أحلام الأب . أحلام عظيمة لأسم كبير ومركز ممتاز فى المجتمع ، ومتصور سنى فى الخيال . ولكن الابن يستطيع بمحض إختياره أن يرفض طريق الآب ، ويحطم أحلامه ، ويتخذ لنفسه الطريق الذى يختاره .

... أو قد يكون معلم فى هذه المرة ، يتوسم فى تلميذه له علامات النجاة فيتوقع له المستقبل الزاهر ، والمركز الاجتماعى العظيم فى خدمة الله ، والمجتمع .

ولكن التلميذ قد يرفض الطريق المرسوم، ويتكاسل عن الاجتهاد، وينتهي إلى الفشل .

إن كنا نحب إنساناً، فإننا نحلم الأحلام العريضة عن ذلك الإنسان ، ونخطط لمستقبله . ولكن هذه الأحلام والخطط قد تفشل كلها . وعن الفريسيين نقول إنهم كانوا يؤمنون بالقدر ، ولكنهم آمنوا أيضاً بحرية الإرادة، ومن أقوالهم: « كل شيء معين بترتيب إلهي ، عند مخافة الله » : . إن لله خطته .. برنامجه ، ترتيبه لكل نفس بشرية ، والمسئولية علينا في قبول هذه الخطة ، وذلك الترتيب ، أو عدم قبوله ، إننا حقاً لسنا في أيدي القدر ، ولكن في أيدي الله . وكما يقول أحدهم « إن القدر معناه طريق الله الذي علينا أن نسلكه باختيارنا » . إننا لانستطيع أن نفلت من قبضة الأقدار ، ولكننا نستطيع أن نرفض أو نقبل الطريق المرسوم أمامنا .

خلال هذه الفقرة ، بل بين سطور الأصحاح بجملته ، نستمع إلى نعمة الثقة الكاملة، عن المستقبل في حديث «يسوع» . إنه مع تلاميذه .. مع أولئك الذين أعطاهم الآب له .

وهو يشكر الله من أجلهم . ولا يساوره شك في أنهم سيحملون الرسالة التي جاء ليقدمها .. سيحملون المشعل . بعد أن تنتهي خدمته بالجسد تذكر من كان هؤلاء، كما يقول مفسر كبير « لم يكونوا أكثر من أحد عشر جليلياً من البسطاء ، عمل معهم ثلاث سنين ولكن كانت في هذه الكفاية في هذه الحفنة البسيطة القليلة ، رأى يسوع القوة الكامنة، لاستمرار عمل الله في الأرض » .

وحينما ترك «يسوع» هذا العالم ، لم يكن من الظاهر أن البذور التي بذرها في التربة ورواها بدم قلبه ، سيقدر لها أن تظهر للوجود ، وتؤتي ثمارها .

لقد بدا وكأن يسوع قد حقق نجاحا قليلا ، وفشلا أكثر . فهو لم يشق طريقه وسط دوائر الارستقراطية الدينية . ولم يؤمن به واحد من الرؤساء . بل إن أحبار الهيكل وكهنته ، وكبار الفريسيين من أعضاء مجمع السنهدريم . قد ثاروا عليه .

ولكنه كان ممتلئا بالثقة الكاملة النابعة من الله . لقد بدأ بداية صغيرة . ولكنه كما قال : «أليست الحميرة صغيرة ومع ذلك تخمر العجين كله ؟ وأليست حبة الخردل صغيرة ، ومع ذلك إذا دفنت في التربة تصبح شجرة تتناول إلى الأشجار الكبيرة ، حتى أن طيور السماء تأتي وتتاوى في أغصانها؟ إن يسوعنا لم يخش البدايات الصغيرة . لقد كان متفائلا إلى أبعد الحدود لأنه كان يخترق الحجاب ، ويرى المستقبل . وكأنه يقول : « يكفيني أحد عشر رجلا .. وبهذا العدد الضئيل مع الإيمان بالله ، أستطيع أن أغير العالم كله » .

لقد كان هناك أساسان يعتمد عليهما «يسوع» : الإيمان بالله والإيمان بالإنسان ، كان يثق بالله ، وكان يثق أيضا بالإنسان . وإنه لمن أقوى الدعائم التي تسندنا في الحياة ، أن نعرف بأن يسوع قد وضع ثقته في أناس نظيرنا . وعلى ذلك ينبغي ألا نخور عزائنا أمام الضعف البشري ، أو البدايات الصغيره . ينبغي أن يكون رائدنا نفس الإيمان الذي كان يملأ نفس يسوع : الإيمان بالله ، والإيمان بإخوتنا في الإنسانية . . .

فإن كنا نضع ثقتنا في الله ، وفي البشر ، فإن إمكانيات الحياة بين أيدينا تصبح بلا حدود .

صلاة يسوع لأجل تلاميذه

مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ . لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ بَلْ
مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لِأَنَّهُمْ لَكَ . وَكُلُّ مَا هُوَ لِي
فَهُوَ لَكَ . وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ . وَلَسْتُ
أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا آتِي
إِلَيْكَ . أَيُّهَا الْآبُ الْقُدُّوسُ أَحْفَظْهُمْ فِي أَسْمِكَ الَّذِينَ
أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ . حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ
فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي أَسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي
حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا ابْنُ الْهَلَاكِ لِيَتِمَّ
الْكِتَابُ . أَمَّا الْآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ . وَأَتَكَلَّمُ بِهَذَا فِي
الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَجٌ كَامِلًا فِيهِمْ . أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ
كَلَامَكَ وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي
أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ . لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنْ
الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشَّرِّيرِ . لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ

كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ . قَدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ .
كَلَامُكَ هُوَ حَقٌّ . كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتَهُمْ أَنَا
إِلَى الْعَالَمِ . وَلِأَجْلِهِمْ أَقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً
مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ

(يوحنا ١٧ : ٩ - ١٩)

هذه الفكرة غنية مكتنزة بالحق، حتى أننا لن نفعل أكثر من تقديم
تأملات خاطفة بين سطورها .. فهي تخبرنا قبل كل شيء عن تلميذ
يسوع ...

١ - فالتلميذ هو عطية الآب للابن . ماذا يعنى هذا ؟ معناه أن روح
الله يحرك القلوب لتستجيب لنداء « يسوع » .

فحينما تلهب قلوبنا في دواخلنا ، ونستسلم لجاذبية محبته ، فهذا هو ثمر
عمل الروح في قلوبنا .

٢ - وعن طريق هذا التلميذ يتمجدة يسوع . فالمرضى الذى ينال
الشفاء العاجل بمجد الطبيب الماهر . والطالب النابغة بمجد أستاذه . والرياضى
بمجد مدربه . إن أولئك الرجال الذين افتقدهم «يسوع» فأنقذهم ، وافتداهم
ومجدهم في حياة نقية عاملة ، هم الذين يمجّدونه ... إن الفاسد حينما
يتحول إلى قديس .. والخائر حينما يمتلئ شجاعة وقوة .. والسكير يوم
يحطم عنه قيود الخمر ، إن هي إلا أمثلة تمجد رب النعمة .

٣ - والتلميذ هو إنسان كلف بعمل ومهمة . وكما أرسل الله «يسوع» إلى
العالم برسالة الخلاص ، هكذا يرسل «يسوع» تلاميذه . وهنا نجد تفسيراً

لفكر محير يبدو لنا في هذه الفقرة . فيسوع يقول إنه لا يطلب من أجل العالم . ومع ذلك نعرف أنه أتى إلى العالم ، لأن الله أحب العالم . ترى هل نجد تناقضاً بين الفكرين ؟ أعتقد أن مفتاح حل هذا المشكل نجده في كلمة العالم .

ولعلنا قد عرفنا معنى الكلمة في قاموس البشارة الرابعة . فالعالم في عرف «يوحنا» هو المجتمع ، أو مجموعة المجتمعات ، التي رتبت كيانه على أساس عدم الاعتراف بالخالق ، وبالتالي عدم الخضوع له .

وعلى ذلك فإن «يسوع» يرسل تلاميذه إلى مثل هذا العالم ، لإرجاعه إلى الله . فهو يصلي من أجل هؤلاء الرسل أو التلاميذ ، لكي ينجحوا في مهمتهم ، ويكسبوا العالم إلى صفه .

وعلاوة على ما تقدمه الفقرة التي أمامنا عن تلميذ «يسوع» ، وعمله ، واهتمام السيد به في الطلب من أجله ، فإنها تخبرنا عما يقدمه السيد لتلاميذه .
١ - فهو يقدم لتلاميذه الفرح .. فرحه الكامل المجيد . إن كل ما يقدمه يسوع إلينا كفيل بأن يجلب الفرح لنفوسنا .

٢ - ولكنه يتقدم إليهم بالتحذير . إنه يقول لهم إنهم ليسوا من العالم . وإنهم بسبب مغايرتهم للعالم ، لن يجدوا منه سوى النفور والبغضة والإضطهاد . إن معاييرهم هي معايير الحق ، ومكايل العالم هي مكايل البطل . إن مثالهم في إله الحق ، ومثال العالم يكمن في رئيس هذا الدهر . إن بضاعتهم الحياة الأبدية ، وبضاعة العالم شهوة الجسد ، وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة . إن مفاهيمهم تختلف بالكلية عن مفاهيم العالم . لذلك لن ينتظروا طريقاً مفروشاً بالورود ، ولكنهم حتى في صراعهم مع العالم ، سيملا الفرح قلوبهم . إنه فرح الصراخ ، فرح الوقوف في وجه التيار ، وبالتالي . فرح الانتصار . إثننا بوقوفنا في وجه عداوة العالم ، نختبر الفرح الإلهي الغامر ..

٣ - زيادة على ذلك، يعلن السيد في هذه الفقرة عن أعظم حق له، فهو يصلى قائلاً للآب : « كل مالى فهو لك ومالك فهو لى » . أما الجزء الأول من هذه الآية الغريبة، فهو طبيعى ومنطقى، لأن كل شىء من الله ، وهو بالتالى ملك له ، وقد تكرر على لسان «يسوع» أكثر من مرة . ولكن الجزء الثانى من الآية هو الذى ينادى بحق عجيب . وكما يقول «لوثر» « منذا يستطيع أن يقول للجلال الإلهى كل مالك هو لى ؟ أى مخلوق يتجاسر وينادى بهذا الحق ؟ إن لم يكن هو الله » . إن هذا التصريح عن ذلك الحق الأسمى الأبعد ، يشير بمنطق لا يقبل الجدل أو المناقضة ، إلى وحدة يسوع مع الله .. إلى جوهره المساوى للآب . إن «يسوع» واحد مع الله حتى أن له سلطان الله ، وأجناد الله ، وحقوق الله .

صلاة يسوع لأجل تلاميذه

(يوحنا ١٧ : ٩ - ١٩)

وهذه الفقرة غاية فى الأهمية . وأهميتها تكمن فى أنها تقدم لنا صورة لصلاة يسوع من أجل تلاميذه ، ومطالب تلك الصلاة .

١ - فيسوع لم يطلب من الآب أن ينتزع تلاميذه من هذا الوجود . إن يسوع لا يصلى أبداً ليهرب أتباعه من الميدان . إنه يطلب بالحرى أن يجابه أتباعه متاعب المعركة ، ويقاوموا ماوسعهم أن يقاوموا بأسلحة الروح ، ويتوجوا فى النهاية بالنصر الأكيد . إن المسيحية التى تنزل بعيداً عن الميدان ، ليست المسيحية التى ينادى بها «يسوع» . إن «يسوع» لم يطلب ليدفن أتباعه أنفسهم فى المغاير ، والبرارى ، والأديرة والصوامع . فهذا النوع من التدين كان أبعد من أن يلقبه «يسوع» بالمسيحية .

إن المسيحية التي تدور في دائرة التعبد ، والتأمل ، والدراسة وكفى ، في دوائر تعزل العالم، يرى فيها السيد فيها خاطئاً لرسالة المسيحية الحقّة، التي من أجلها طأطأ أمجادها ، وفي سبيلها تحمل . إن مسيحيّتنا ينبغي أن تظهر لا في العزلة والتوحد ، بل في البيت . . في الشارع . . في مكان العمل ، وسط صخب الحياة وضجيجها ومتاعبها . صحيح إننا بحاجة إلى فترات نختل فيها مع الله . . فترات نخلو فيها مع أنفسنا ومع إلهنا . . فترات نغلق فيها الباب بيننا وبين العالم . مطيعين قول السيد « أدخل مخدعك وأغلق بابك » ولكن هذه ينبغي أن تكون وسيلة لا غاية . لأنها ليست هدف الحياة المسيحية . إنها الطريق الذي يوصلنا إلى ذلك الهدف . أما ذلك الهدف ، فهو إظهار الحياة المسيحية الصادقة ، في حياتنا العملية وتصرفاتنا . حينما كان بطرس ويعقوب ويوحنا مع المسيح على جبل التجلي ، ورأوا لمحة من أمجاد السيد ، قال بطرس : « جيد يارب أن نكون ههنا » ، ولكن سرعان ما اختفى المشهد وإذا بالرب ينزل بهم إلى وادي الخدمة ليخففوا آلام ابن معذب ، وأحزان أب متألم .

فالمسيحية الحقّة ، لا تهدف إلى عزلنا عن المجتمع . إن هدفها هو تجهيزنا وإعدادنا وإمدادنا بالسلاح لمحاربة المجتمع . إن المسيحية لا تمهد لنا سبيل الهروب من المشكلات . إنها تقدم لنا المفتاح لحل المشكلات . إن المسيحية لا تقدم لنا سلاماً زائفاً مبنياً على الهروب والإنزواء . إنها تقدم لنا معركة نهايتها النصر . المسيحية لا تمهد لنا فراشاً خالياً من المتاعب . إنها تقدم لنا حياة نجاحه فيها متاعبنا فننتصر عليها . ومع أنه من الأمور الصحيحة أن المسيحي ليس من العالم ، إلا أنه ليس من العالم ، ليمتلك القوة التي تؤيده لينتصر على العالم . فمسيحيته لا بد وأن تظهر في الوسط الذي يعيش فيه . . لا بد

وأن يعيشها في المجتمع وليس بعيداً عنه . إن علينا لا أن نهجر العالم بل لنعمل
لنكسب هذا العالم .

٢ — ولقد طلب يسوع لأجل وحدة تلاميذه . لقد كانت طلبته أن يكونوا
واحدًا ، كما أنه هو والآب واحد . لقد طلب أن يعيشوا لا كوحيدات بل
كوحدة فحيث هناك انقسامات . . . حيث توجد تحيزات . . . حيث تسود
منافسات رديئة . . . حيث يكون تشويش وعدم سلام ، فإن دعوة المسيحية
تضار وتتعلل رسالتها ، ولا يتحقق رجاء «يسوع» في طلبته من أجل الوحدة ،
حتى في المجتمع الواحد . . . في الكنيسة الواحدة ، لا يمكن تقديم رسالة
المسيح لأعضاء منقسمين يحارب أحدهم الآخر ، لا يمكن ، تنصير العالم
واكتسابه للمسيح ، بكنائس يطعن أحدها في الآخر .

وهكذا صلى «يسوع» طالباً من أجل وحدة تلاميذه ليكونوا واحدًا كما
أنه والآب واحد . ونقول مع الأسف ، إنه لا توجد صلاة تقدم بها «يسوع» ،
وتعطلت عن أن تتم بسبب المطامع والحزبيات والذات ، قدر ما تعطلت
هذه الصلاة . ألفا عام مرت عليها ، ولم تتحقق حتى الآن .

٣ — لقد طلب «يسوع» لأجل حماية تلاميذه من مهاجمات عدو الخير . إن
الكتاب المقدس ليس كتاب فلسفة . إنه لا يتجه إلى دراسة مشاكل
فلسفية مثل نشأة الشر وأصله وغير ذلك . ولكنه لا ينكر بأن في
الوجود قوة شريرة هدامة تناقض قوة الله للصالح والبناء . . .
قوة تحاول إغراء الناس لتبعدهم عن السلوك في طريق الصواب ، وتدفعهم
إلى طريق الأثم . . . وإنه لأمر جميل يرفع الإنسان ويسمو به ، حينما يوقن
بأن الله يسهر عليه حارساً ، وحافظاً ، ومدافعاً ، ضد قوى الشر
ومهاجمات الشيطان . إن مرسقوطنا في بعض الأحيان ، هو أننا نحاول أن نجاة

الحياة بمتاعها وضائقاتها، بقوانا الذاتية، بدلا من الأتكال على ذراع الله ، والثقة بأن القدير إلى جوارنا يعضدنا ويرفعنا ويدافع عنا .

٤ - وضمن صلاته، طلب أيضاً، أن يتقدس تلاميذه في الحق . والأصل في كلمة يتقدس هو « هاجيا زين » أو « اجيازين » وهي مشتقة من لفظة « اجيوس » ولقد ترجمت الكلمة « اجيوس » في الترجمة الإنجيلية المعتمدة كما في ترجمة فان ديك العربية ، قدوس . ولكن المعنى الرئيسى هو مفرز أو مختلف - إذا كان هناك شيء نصفه بكلمة اجيوس فهو معناه مختلف عن نظائره وعن غيره من الأشياء العادية .

وهكذا فإن كلمة « أجيازين » تقدم لنا معنيين :

(أ) المعنى الأول فرز الشيء وعزله لعمل معين . فحينما دعا الله أرميا قال له « قبلما صورتك في البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك جعلتك نبيا للشعوب » (أرميا ١ : ٥) . حتى قبل أن يتكون أرميا ، قبل أن يولد ، كان له مكانه في برنامج الله ، وكان مخصصا لعمل معين . وحينما كان الله يضع أساس الكهنوت في إسرائيل ، أمر « موسى » بأن يفرز أبناء هارون ويقدسهم للخدمة في وظيفة الكهنوت (خروج ٢٨ : ٤١) . هنا نرى أيضاً أبناء هارون يفرزون لقصد معين وخدمة معينة .

(ب) ولكن « أجيازين » لا تعنى فقط الفرز لأجل خدمة خاصة وعمل معين ، إنها تعنى أيضاً تهيئة الإنسان وإعداده عقليا ، وقلبيا ، بالصفات والمواهب اللازمة له للقيام بهذا العمل . إن فرز إنسان لعمل معين ، يقتضى أن تكون له المؤهلات التى تؤهله لهذا العمل . وتكريس الإنسان لعمل الله ، يقتضى أن يزود هذا الإنسان بصلاح الله وحكمة الله . إن من يخدم الإله القدوس ، ينبغى أن تكون له قداسة الله ، والخادم ينبغى أن يحمل طابع سيده . وعلى

هذا الأساس فإن الله لا يختار الإنسان لخدمته وكفى ، لكنه بعده إعداداً كافياً بالصفات والمؤهلات التي تعينه لإتمام هذه الخدمة .

ينبغي أن تضع على الدوام في ذاكرتنا ، أن الله قد اختارنا وكرسنا وأعدنا لخدمة مجيدة . وهذه الخدمة أن نحبه ونطيعه ونجتذب الآخرين ليكونوا ضمن دائرته . وعلينا أن تذكر أيضاً أن الله لا يتركنا بمفردنا للقيام بهذه الخدمة في قوتنا الذاتية الواهية . ولكنه في نعمته ، يعدنا لهذا العمل الكبير ويؤيدنا بروحه وبنعمته ، إن سلمنا حياتنا بكل خضوع بين يديه .

لمحة من المستقبل

وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً مِنْ
أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلَامِهِمْ .. لِيَكُونَ الْجَمِيعُ
وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا
هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي .

(يوحنا ١٧ : ٢٠ - ٢١)

وهنا نرى «يسوع» يوسع دائرة صلاته لتشمل أقاصي الأرض. في البداية
نراه يصلي لأجل ذاته وشيخ الصليب يبدو ماثلاً أمامه . ثم نراه يطلب من
أجل تلاميذه لكي يؤيدهم الله بقوته ورعايته . ولكننا نستمع إليه في هذه
الفقرة ، يفتح أحضانه ليضم المستقبل البعيد ، والأجيال القادمة . إنه يطلب
لأجل أولئك الذين في أماكن بعيدة ، وأجيال آتية ، يقبلون حقه ،
ويستسلمون لعمل نعمته ، ويدخلون في دين الله أفواجا ..

وفي هذه الفقرة ، نرى صفتين متميزتين تتضحان عن «يسوع» : فأمامنا
قبل كل شيء ثقته العظمى وإيمانه الكامل الذي لا يتزعزع ، وهو يطلب من
الآب لأجل كل من يؤمن باسمه . وهذه الفقرة ينبغي أن تكون ثمينة في
أنظارنا ، عزيزة على قلوبنا ، لأنها صلاة «يسوع» لأجلنا .

الأمر الثاني نرى في «يسوع» ثقته الكاملة في أتباعه . لقد كان يعلم أنهم
بعد فترة قصيرة سيهجرونه في أقسى ساعات الحاجة . ولكن إلى نفس

أولئك الرجال اتجه ، واثقا كل الثقة ، من أنهم سيقومون بنشر الإسم المقدس في كافة أرجاء المعمورة .

إن أسمى ما يميز حياة «يسوع» ، هو ثقته الكاملة في الله، وثقته في البشر

وماذا كانت طلبته لأجل الكنيسة ؟ لقد طلب من الآب أن تكون واحدة فيه ، كما أنه هو والآب واحد . وما هو نوع الوحدة التي من أجلها يطلب يسوع ؟ إنها ليست وحدة تنظيم . وليست وحدة نظام كنسى معين، إنها وحدة صلة وعلاقة ذاتية . فالوحدة الكائنة بين «يسوع» وبين الآب تبدو في مظهرين : المحبة والطاعة ...

وهكذا ، فإن الوحدة التي يريدها لكنيسته العتيدة هي وحدة يربطنا فيها جميعاً رباط المحبة والتضامن .

إنها ارتباط القلب بالقلب . هذه الوحدة لا تعنى على الإطلاق، الإنضواء تحت لواء هيئة معينة ، أو طائفة خاصة ، أو مذهب له صفته المميزة ، ولكنها تعنى الإنضواء تحت علم المحبة . وحدة فيها يحب أحدنا الآخر حتى إن كنا نحفظ بطاعتنا الخاص . إنها لا تعنى عبادة الله بطقوس واحدة معينة، وبفكر واحد مرتب ، وبعقيدة واحدة ثابتة .

ولا تعنى أن نقيم أماكن عبادتنا على نمط واحد ، أو نجتمع في مكان واحد . ولكن الوحدة المقصودة تتخطى كل هذه الشكليات ، وتسمو على هذه الفروق ، في روح المحبة المتبادلة ورباط التضامن . إن رجاء وحدة للمسيحية في عصرنا الحاضر، قد تعثر وأصيب بصدمة كبرى، لأن كل واحد يحب عقيدته ، يحب تقاليده . . . يحب مفهومه الخاص لكلمة الله ، أكثر من محبته لأخيه .

إن كنا نحب حقاً أحدنا الآخر كما نحب سيدنا ، فإننا لن نغلق الباب في وجه أخ من طائفة أخرى ، ولن نمنعه من الجلوس إلى مائدة أبيه - المحبة الإلهية فقط ، المحبة وليس سواها ، هي التي تحطم الحواجز التي أقامت الطائفية ، لخدمة هيئات المحترفين للدين ، واكتناز مخازنهم وامتلاء بطونهم ، وإثرائهم على حساب أشلاء جسد المسيح الممزق ..

زد على ذلك، فإن هذه الوحدة كما رآها «يسوع»، هي التي تقنع العالم بحق المسيحية، وبمركز المسيح في الكنيسة. إن روح البشر تتجه إلى التنافر والإنقسام أكثر من التآلف، وهذا طبيعي. فالإنقسام يخدم الذات والغرور، ويشبع كبرياء القلب. شيء يتفق مع الطبيعة البشرية أن أهجر أخي وأنفر منه. وعلى ذلك فالوحدة المسيحية الحقيقية التي يقدر لها أن تدوم وتثبت، هي وحدة فوق طبيعة الإنسان تحتاج إلى مفهوم يسمو على تفكيره، ومن الأمور المؤسفة، أن رؤساء الطائفية، يبذلون أقصى ما يبذلون من جهد، ليقيموا أمام العالم واجهة متنافرة منقسمة، تعطى العالم فكرة رديئة عن المسيح وعن المسيحية، بدلا من بناء يقوم على أساس المحبة، ويقدم رسالة المسيح واضحة أمام البعيدين. إن على الرؤساء يقع كل العبء.. وما أحرى الشباب الناضج المتفتح المؤمن بالمسيح الواحد، أن يقوم من جانبه، بما لا يستطيع أن يقوم به رؤساء الطائفية ودعاتها، ويمد يد الإنخاء والتضامن والمحبة لأخوته في كل مكان، وفي كل طائفة. ونحن نشكر الله لأجل حركات مثل هذه، قد بدأت تظهر للوجود في كثير من الجمعيات الدينية ونرجو أن يطغى هذا التيار الجديد على كافة المجتمعات المسيحية.

العطية وموعد المجد

وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا
وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا
مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَخْبَبْتَهُمْ
كَمَا أَخْبَبْتَنِي. أَيُّهَا الْآبُ أُرِيدُ أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي
يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي
أَعْطَيْتَنِي لِأَنَّكَ أَخْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ . أَيُّهَا الْآبُ
الْبَارُّ إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ. أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ وَهَؤُلَاءِ
عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي . وَعَرَفْتَهُمْ أَسْمَكَ وَسَاءَ عَرَفْتَهُمْ
لِيَكُونُوا فِيهِمْ الْحُبُّ الَّذِي أَخْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونُ أَنَا فِيهِمْ

(يوحنا ١٧ : ٢٢ - ٢٦)

يقول أحد المفسرين القدامى، في معرض تعليقه على هذه الفقرة : « آه ما
أعظم الأجداد المذخرة للمؤمن بالمسيح » وهذا حق . فهذه الفقرة تتحدث
عن الأجداد التي أعطاهما « يسوع » لتلاميذه ، والتي يطلب من أجلها .

وقبل كل شيء ، يتحدث « يسوع » قائلا ، إنه أعطى تلاميذه المجد الذي أعطاه

الآب إياه . دعونا نحاول أن نستجلى غموض هذه الحقيقة . ترى ما هو
مجد « يسوع » ؟

هناك ثلاث طرق تحدث عنها « يسوع » كأنما تعلن أمجاده :

(١) الطريق الأول الصليب . إن « يسوع » لم يتحدث عن الصليب كهوان أو
عارف، بل تحدث عنه كأعجاذ . إنه لم يخبر تلاميذه أنه سيصلب ، لقد تحدث
إليهم بأنه سيتمجد . لذلك ينبغي أن تكون هذه نظرتنا للآلام والتجارب
الحارقة التي قد تصادفنا، إن كنا نحمل صليبنا، لنعرف أن في ذلك الصليب
مجدنا . كما قال جورج ماثيسون .

« أيها الصليب .

يا رافع نفسى إلى العلا .

إنى لن أطلب النزول عنك .

بل سأدفن فى التراب مجد الحياة الزائل ..

ومن أعماق القبر سوف تتفتح لى ..

ورود الحياة الأبدية » ..

فينبغي ألا نطن أن الصليب الذى يوضع على كاهلنا عقاب لنا . ينبغي
أن نكتشف فيه مجدنا . وسواء كان ذلك الصليب واجباً نكلف به ، أو
ضائقة نجتازها، أو تجربة نتعرض لها ، لنعرف أن ذلك لرفعتنا . وكلما كان
الصليب أثقل ، كان المجد أعظم . إننا كثيراً ما نقول إن ذلك العبء لن
يقوم به إلا هو لا سواه . يكفيننا فخراً أن نعامل نظير سيدنا، وأن نأخذ
مكاننا إلى جواره، حتى على تلة الجلجثة ؛ ولذلك إن كان الطريق يبدو وعراً
لأقدامنا ، شاقاً علينا ، لنثق أنه نفس الطريق الذى سلكه سيدنا وفادينا .

(ب) الطريق الثانى للمجد كما يراه يسوع ، هو طريق الطاعة . لقد كانت حياته مثال الطاعة الكاملة للآب . وفى طاعته كانت أجماده . إننا لن نصل إلى أجمادنا ، كرامتنا .. سمونا ، فى السير على هوانا ، ولكن فى عمل إرادة الله . حينما نشق طريقنا بارادتنا وكما نهوى، نجد فى النهاية الضيق والألم والحزن لأنفسنا ولمن حولنا . ولكن حينما نختار إرادة الله ، ونقبلها بكل اتضاع ، ونتمثلها فى حياتنا ، نصل عن طريق إطاعتها إلى قمة مجدنا . وكلما كانت طاعتنا أعمق وأعظم ، كان مجدنا أسمى وأرفع .

(ج) الطريق الثالث للوصول إلى المجد ، كما رآه «يسوع» وتمثل عن صدق فى حياته ، يكمن فى شركته العميقة مع الله . فى حياة «يسوع» .. فى أعماله . . فى أقواله فى تعاليمه . . فى معجزاته ، استطاع الجميع أن يعرفوا عمق شركته مع الآب السماوى : لقد رأوا فأقروا أنه لا يمكن أن يحيا إنسان الحياة التى يحياها، ما لم يكن قريباً من الله، فى شركة قوية معه . إن مجدنا يتألق بنور أسمى ، حينمانعكس نور الله فى حياتنا . إننا نتمجد ونسمو فى أنظار الآخرين ، حينما يرى الناس فى الخدمة التى نقوم بها ، فى روح المحبة التى نظهرها، والتضحيات التى نقدمها ، إنعكاس محبة الله وخدمته، وتضحيته . وكما كان الأمر مع المسيح ، هكذا نكون أيضاً : لن نصل إلى مجدنا، إلا إذا أبصر الآخرون حياة الله فىنا .

الأمر الثانى الذى نكتشفه بين سطور الفقرة التى أمامنا ، هو أن «يسوع» يريد أن يكون تلاميذه حيث يكون هو فى السماء ، ليروا الأجماد السماوية التى له . ولعله من أقوى بنود الإيمان المسيحى أننا لا بد وأن نشارك المسيح كل اختباراتاه . فإن كنا نشترك معه فى صليبه وهوانه ، فلا بد أن نشترك أيضاً معه فى أجماده . وكما يقول رسول الأمم «صادقة هى الكلمة إن كنا

قد متنا معه فسنعياً أيضاً معه . إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه . (٢
تيموتاوس ٢ : ١١ ، ١٢) . إننا في هذا العالم في أسمى حكمتنا نرى
كل شيء منعكساً أمام أنظارنا كما في مرآة سحرية . ولكننا سنبصر كل
شيء هناك وجهاً لوجه . (١ كورنتوس ١٣ : ١٢) .

وما الفرح الذي نختبره في حياتنا الروحية في شركتنا مع الله ، إلا
قطرة من أنهار الفرح المذخر لنا هناك . وها هو وعد «يسوع» لنا أننا إن كنا
نشترك معه في آلامه .. في هوانه .. في عاره .. في تجاربه .. في صليبه
على الأرض ، فإننا لا بد وأن نشترك في أمجاده وانتصاره ، حينما تنتهى رحلتنا
على الأرض . وأي وعد أعظم من هذا الوعد ؟

ومن هذه الصلاة قام «يسوع» على التو ، ليلتقى بالغدر والخيانة والمحاكمة
والصليب . لقد انتهت سويغات الحديث ، وستأتى ساعات التجربة والموت .
ولنذكر أنه قبل أن يطبق ظل الموت بمرارته ، كان حديث «يسوع» لتلاميذه
متمثلًا بالفرح ، فائضًا بالإشراق والرجاء ، معلنا الأمجاد العتيدة .

الأصحاح الثامن عشر

إلقاء الأيدي في البستان

قَالَ يَسُوعُ هَذَا وَخَرَجَ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَى عَبْرِ وَادِي
قَدْرُونَ حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ دَخَلَهُ هُوَ وَتَلَامِيذُهُ وَكَانَ
يَهُودًا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ الْمَوْضِعَ . لِأَنَّ يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ
كَثِيرًا مَعَ تَلَامِيذِهِ . فَأَخَذَ يَهُودًا الْجُنْدَ وَخُدَّامًا مِنْ
عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِيسِيِّينَ وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ
وَمَصَابِيحَ وَسِلَاحٍ . فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ
مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُمْ مَنْ تَطْلُبُونَ . أَجَابُوهُ يَسُوعُ
الْنَّاصِرِيُّ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَنَا هُوَ . وَكَانَ يَهُودًا مُسَلِّمُهُ
أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ . فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ إِنِّي أَنَا هُوَ رَجَعُوا إِلَى
الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الْأَرْضِ . فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا مَنْ تَطْلُبُونَ .
فَقَالُوا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ . أَجَابَ يَسُوعُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ
إِنِّي أَنَا هُوَ . فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلَاءِ يَذْهَبُونَ .

لَيْتِمُ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَ إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا

ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بَطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ فَاسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذُنَهُ الْيُمْنَى . وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخَسَ . فَقَالَ يَسُوعُ لِبَطْرُسَ اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ . الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الْآبُ أَلَا أَشْرَبُهَا .

(يوحنا ١٨ : ١ - ١١)

بعد أن فرغ المسيح من عشائه الأخير مع تلاميذه ، وبعد أن انتهى من حديثه معهم ، وصلاته من أجلهم ، قام مع التلاميذ ليغادر العلية . كانت وجهتهم بستان جثسيماني . واتجهوا إلى بوابة المدينة . ومن خلالها هبطوا إلى الوادي وعبروا المجرى الصغير لنهر قدرون .

هناك لا بد أنهم شاهدوا صورة رمزية تجرى أمام أنظارهم . فقد كان ذلك وقت ذبح حملان العيد . وكانت دماء حملان الفصح ترش على المذبح تقديماً لله . كان عدد الحملان كثيراً جداً . ويروى التاريخ أنه في فرصة لاحقة ، بعد ثلاثين عاماً من صعود المسيح ، وصل عدد الذبائح التي قدمت في عيد الفصح ، إلى ما يزيد على ربع مليون رأس من الغنم . ولنا أن نتصور ساحة الهيكل الغارقة في دماء هذا العدد الهائل ^(١) من الذبائح .

(١) لمن يريد الاستزادة بالتأمل في صورة من أصدق الصور التي رسمتها ريشة كاتب عن جمعة الآلام والأحداث التي مهدت لها ليقرأ كتاب : « اليوم الذي صلب فيه المسيح » .

ومن المذبح كانت هناك قناة في الصخر، توصل إلى مجرى نهر قدرون .
وخلال هذه القناة كانت تجري الدماء لتختلط بمياه النهر . وحين كان «يسوع»
يعبر المجرى مع تلاميذه، لا بد أن المياه كانت حمراء اللون ، ولا بد أنه طافت
بخاطره صورة دمائه السائلة على تلة الجلجثة .

وبعد أن عبرت الجماعة الصغيرة وادي قدرون، صعدت إلى جبل
الزيتون . وفي سفح الجبل كانت هناك ضيعة جثسياني أو بستان جثسياني .
أما ذلك الاسم فمعناه معصرة الزيت، حيث كانوا يحضرون ثمار الزيتون من
أشجاره التي تنمو في الحدائق المجاورة، لتعصر ويستخرج منها الزيت . وكان
لأكثر من واحد من أثرياء أورشليم، بستانه الخاص في تلك البقعة ، لأن
رقعة المدينة الضيقة، ما كانت لتسع لذلك، وما كانت تصلح أرضها الصخرية
لهذا الغرض، لأن أورشليم تقوم على جبل . زد على ذلك أن هناك موانع
شرعية كانت تمنع قيام الحدائق في المدينة المقدسة . فما كان مسموحاً
جلب السجاد « النجس » لتلويث الأرض وتنجيسها .

لهذا السبب اختار الأثرياء الأراضي الواقعة خارج دائرة أورشليم ،
وأقربها سفح جبل الزيتون . وحتى يومنا الحاضر، يستطيع السائح المسيحي
أن يشاهد بنفسه حديقة على سفح الجبل ، يتعهد بها الأخوة الفرنسيسكان ،
وفيها تقوم ثمانى شجرات عتيقة من أشجار الزيتون ، يقول عنها «هـ . ف .
مورتون»، إنها أصبحت أكثر شجراً بالصخور، منها بالأشجار الحية . فهي
عتيقة جداً ، وربما يرجع تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لفلسطين .
ولكن لا يمكن للمرء أن يصدق، أنها نفس الأشجار التي استظل بها المسيح ،
لأن «تيطس الروماني» ، في حصار أورشليم، قام بقطع كل الأشجار ، لكشف
مشارف المدينة للعمليات الحربية ، كما لاستخدامها في صنع الصلبان التي

كان يقوم بصلب الأسرى من اليهود عليها . يكفى أن نقول إن المماشي المتقاطعة الصاعدة سفح الجبل ، هى التى كانت تطوؤها أقدام المخلص .

نقول لعل أحد الأثرياء ممن آمنوا بيسوع ، ومن كانت لهم حدائقهم الخاصة ، قد أعطى «يسوع» مفتاح البستان. وغالبا ما كان «يسوع» يصطحب تلاميذه ليقضى سويعات الليل الهادىء هناك، حيث السكينة والسلام والطبيعة الحية . ولقد كان «يهوذا» يعرف البستان . وكان يتوقع أن يجد سيده هناك . فطالما كان «يسوع» فى أورشليم ، كان البستان مكانه المفضل ، أو دار أصدقائه فى بيت عنيا . على هذا الأساس، دبر «يهوذا» خطة للقض على «يسوع» .

وهناك صورة تدعو للتأمل، فى القوة التى أرسلت للقبض على «يسوع» . يقول عنها «يوحنا» إنها ثلة من الجند مع خدام رؤساء الكهنة والفريسيين . أما الخدام هنا فهم حرس الهيكل . وحرس الهيكل كانت له صفة الضبطية ، وكان منوطاً به حراسة الهيكل ، وكذلك إلقاء القبض على من يخالف الناموس

بقيت لدينا كلمة الجند، وفى الأصل «سبيرا» . هذه الكلمة تحتل معان ثلاثة : فهى كلمة يونانية تطلق على كتيبة من جند الرومان . والكتيبة لا تقل عن ستمائة جندي . فإذا كانت الكتيبة إضافية وصل عدد «سبيرا» إلى ما يزيد على ألف من الجند، ومائتين وأربعين من الفرسان . وفى صورة ثالثة ، كانت الكلمة تستخدم نادراً، للإشارة إلى فصيلة صغيرة تصل إلى مائتى جندي .

فلو اتجهنا إلى العدد الأصغر من هذه الصور الثلاث ، نستطيع أن

نكون فكرة عن الجمهور الكبير المسلح الذى أرسل للقبض على نجار جليلي
أعزل .

ولم يكن من العسير جلب هذا العدد من الجند إلى المدينة المقدسة . أو
استدعائهم من أماكن بعيدة نظير مدينة قيصرية . فقد كانت قلعة أنطونيا
التي تشرف على الهيكل تعج بالجند الرومان ، وخاصة في أعياد الفصح ،
للمحافظة على النظام وإخماد أدنى ظاهرة للتمرد بين الشعب . ولكن أية
تحيةة تعظيم ليسوع المسيح ، وأية صورة تشير إلى قوته ، وبالتالي إلى
الخوف منه ، لقد أرسلت السلطات جيشاً كاملاً للقبض على إنسان
واحد . فقد كانت تعرف أنه في هذا الواحد، تكمن قوى معجزية تتحدى
البشر والحديد والنار .

إلقاء الأيدي في البستان

(يوحنا ١٨ : ١ - ١١)

هناك مواقف قليلة في الكتاب تظهر لنا صفات «يسوع» في ملء جلالها.
وهذا الموقف أحدها .

١ - فهو يظهر لنا «شجاعة» يسوع . في الصورة التي أمامنا تظهر لنا لحظة
خفية . فالجند كانوا يحملون المشاعل . ولكن عيد الفصح كان يأتي في
وقت يكون فيه البدر تماماً، حتى يتحول الليل إلى ما يقرب من النهار . فلماذا
المشاعل ؟

لقد كانوا يتوقعون أن يجدوا «يسوع» مختبئاً في المغاير .. في الكهوف ..
في شقوق الصخور ، وهكذا رتبوا أمرهم، على أن يبحثوا عنه لعله يكون
مختفياً عن الأنظار . ولكنهم لدهشتهم، شاهدوا «يسوع» يقف أمامهم بلحمه

ودمه ويقول لهم « من تطلبون؟ » وفي دهشة وتلعثم يجيبون « يسوع الناصري » فيقول لهم « يسوع » « أنا هو » إن ذاك الذى ظنوه مختبئاً فى المقابر .. ذاك الذى اعتقدوا أنهم سيبحثون عنه فى نور المشاعل بين تلافيف الأشجار .. ذاك الذى قالوا فيما بينهم : « سنتعب أنفسنا فى البحث عنه فى منحنيات الصخور » ، يقف أمامهم فى شجاعة نادرة وتحد صارخ . هنا نرى شجاعة « يسوع » فى مواجهة الأزمات . خلال الحرب الأهلية فى أسبانيا ، قام الأعداء بمحاصرة إحدى المدن . وكان من رأى البعض أنه لا جدوى من مقاومة أعداء تفوقهم عدة وعدداً ، وألا مناص من الاستسلام .

لكن قائداً شجاعاً ، قام فى وسط جنده وهتف فيهم « من الأفضل لنا أن نموت واقفين على أقدامنا ، من أن نحيا راكعين على ركبنا . لقد اختار « يسوع » وقفة البطل ، ونهاية البطل .

٢ - وهو يظهر لنا سلطان « يسوع » : فها هو أمامنا وحيد بلا سلاح . وها فى مجابته جيش كامل مسلح . ولكنه حين يعلن لهم أنه يسوع المسيح ، تراجعون متعثرين ، ويسقطون أمامه . فى نظراته كانت القوة والسلطان التى جعلته فى وحدته ، أقوى منهم جميعاً مجتمعين مسلحين ..

٣ - وهو يربنا أن « يسوع » اختار الموت بنفسه : فقد كان ممكناً له فى ارتباكهم واضطرابهم ، أن ينهز الفرصة ويجتاز فى وسطهم ، دون أن يستطيع أحدهم إلقاء القبض عليه .

ولقد حدث ذلك فى فرصة سالفة ، حينما أراد اليهود أن يلقوا به فى كفر ناحوم من قمة الجبل المقامة عليه مدينتهم . ولكنه اجتاز فى وسطهم ومضى ، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد . ولكنه فى هذه الفرصة أعان الأعداء على القبض عليه . لقد اختار الموت .

٤ - وهو يكشف عن محبة «يسوع» : فهو في هذه الفرصة الحرجة .
هذه الفرصة الحاسمة ، لم يفكر في نفسه . لقد كان تفكيره مركزاً في
أحبائه . « إن كنتم تريدونني فدعوا هؤلاء يمشون » هكذا قال للجد .
لقد كان تلاميذه هم شغله الشاغل . وكانت عواطفه بهذه الصورة من نحوهم ،
حتى أنه نسي الخطر المحدق به ، وتركز اهتمامه كله فيما يحيط بهم من
أخطار .

هناك أقاصيص تروى عن أعمال البطولة في الحرب العالمية الثانية، لعل
أروعها قصة بطولة «الفريد سد» المرسل في جزيرة تاراو . فحينما
استولى اليابانيون على الجزيرة ألقوا القبض عليه، وعلى عشرين آخرين من
جنود نيوزيلندا الذين يكونون حامية الجزيرة .

وأتى اليابانيون بعلم الاتحاد وفرشوه على الأرض ، وطلبوا من المرسل أن
يسير عليه بقدميه . ولكن المرسل تحاشاه أكثر من مرة، وفي النهاية طواه بين
يديه وهو يقبله . وحين اقتاد الأعداء الجميع للأعدام، كان المرسل يشجع
الجند بكلمات القوة والتعزية ، وتقدم أمامهم ليلتقي بأول رصاصة تطلق
وهو يهتف هتاف الانتصار . لقد كان يفكر في زملائه أكثر من نفسه .
وهكذا كانت محبة «يسوع» لتلاميذه .

٥ - وهو يبين لنا مدى طاعته الكاملة : « الكأس التي أعطاني الآب
ألا أشربها ؟ » . هذه إرادة الله . وفي هذا الكفاية .

في القصة شخصية نود أن نشير إليها . بكلمة إنصاف ، هي
شخصية « سمعان بطرس » ، نراه يستل سيفه الواحد في وجه
مئات السيوف .

وسوف نرى «سمعان» في فرصة لاحقة، يقوم بدور الجبان .، ولكنه في تلك الساعة كان على استعداد أن يقاسى مائة ميتة في سبيل سيده . فإن كنا نتحدث عن إنكار «بطرس»، وتراجع «بطرس» ، وجبن «بطرس»، علينا أن نتذكر أيضاً شجاعة بطرس في تلك اللحظة الحاسمة .

يسوع أمام حنّان

ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى
يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانَ أَوَّلًا لِأَنَّهُ كَانَ حَمًا
فِيَا فَا الَّذِي كَانَ رَئِيسًا لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ . وَكَانَ
فِيَا فَا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى الْيَهُودِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ
وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ

فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تَلَامِيذِهِ وَعَنْ
تَعْلِيمِهِ . أَجَابَهُ يَسُوعُ أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ عَلَانِيَةً . أَنَا
عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ
الْيَهُودُ دَائِمًا . وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ . لِمَاذَا
تَسْأَلُنِي أَنَا . إِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ . هُوَذَا
هَؤُلَاءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا . وَلَمَّا قَالَ هَذَا لَطَمَ يَسُوعُ
وَاحِدٌ مِنَ الْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفًا قَائِلًا أَهْكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ
الْكَهَنَةِ . أَجَابَهُ يَسُوعُ إِنَّ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا

فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَ أَذًا تَضْرِبُنِي . وَكَانَ
حَنَانٌ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقًا إِلَى قَيَافَا رَئِيسَ الْكَهَنَةِ

(يوحنا ١٢ : ١٩ - ٢٤)

لكي نحفظ تسلسل القصة ، سوف نتأمل في إيجاز في الفقرتين اللتين
تحدثان عن محاكمة «يسوع» أمام «حنان» ، وسوف نضم أيضاً على نفس
النمط الفقرتين اللتين تحدثان عن مأساة «بطرس» .

ويوحنا هو الوحيد الذي يحدثنا عن محاكمة «يسوع» أمام «حنان». وقد
كان «حنان» ، بشهادة «إدرشيم» ، شخصية رهيبة كريهة خدمه الحظ في
أكثر من موقف. فقد كان القوة الكامنة وراء كرسي الحكم في اورشليم.

واستمر بنفسه رئيس كهنة تسع سنوات كاملة، من السنة السادسة لميلاد
المسيح حتى السنة الخامسة عشرة، وعلى كرسي «موسى» جلس أربعة من أبنائه.
أما «قيافا» فقد كان زوج ابنته . هذه حقيقة تستحق التأمل . فقد مرت
حقبة طويلة في تاريخ الأمة اليهودية، كان رئيس الكهنة يجلس فيها على
كرسي الرئاسة حتى نهاية العمر ، وذلك حينما كان اليهود أحراراً وليسوا تحت
نير أجنبي .

ولكن تحت حكم الولاة الرومان، أصبح منصب رئاسة الكهنة في مهبط
الريح .. أصبح موضوع مساومة يصل إليه من هو على استعداد أن يدفع
أكثر من سواه ، ومن يقبل في استسلام أن يكون بوقاً للرومان ، وسند
للوالى . لقد أصبحت رئاسة الكهنوت ميدان رشوة ، ومكايد ، وفساد
ومطامع . وعلى من يريد أن يحتل مكانه في سلام ، ويحيا في مجبوحة ،
أن يدوس ضميره ، ويغمص عينيه ، ولا يستبعد أى طريق يسلكه في

سبيل الإثراء وابتزاز أموال الشعب . ومحاولة استرضاء الوالى بالهدايا والرشا ، والتأثير فى المواطنين ليكونوا تحت سلطانه فى قياد أعمى .

لا غرابة إذاً أن يروى التاريخ اليهودى الكثير عن الثراء الفاحش الذى وصلت إليه أسرة «قيافا» . ولا غرابة أن تسيطر هذه الأسرة على كرسي رئاسة الكهنوت لمدة طويلة بالقدس ، وبتقديم الرشا، بينما يستمر «حنان» العجوز القوة المسيطرة واليد العاملة فى الخفاء فى كل هذه الفترة .

ولقد كانت لحنان طرقه الملتوية للحصول على المال . حتى أنه ما كان يتورع عن مشاركة التجار فى ساحة الهيكل . ففى ساحة الأمم، كان يتكلم الباعة من الذين يتاجرون فى الذبائح التى تتطلبها مراسم العبادة . وهم الذين قام يسوع بطردهم . هؤلاء لم يكونوا تجاراً بمعنى الكلمة ، بل كانوا سماسرة محتالين . كان الناموس يطلب مواصفات خاصة فى الذبائح التى تقدم وهى أن تكون فى سن معينة وبلا عيب .

وكان هناك مشرفون يقومون بالتفتيش على الذبائح وفحصها بدقة قبل الذبح وبعده . فإذا تجاسر أحد العابدين وأحضر معه ذبيحة مشتراة من السوق الخارجى ، فلأبد أن تكتشف فيها كل العيوب . وعلى المسكين أن يلتقى بها لتجار الماشية بأجنس الأثمان ويعود إلى شراء الذبيحة من التاجر المعتمد فى ساحة الهيكل .

هناك كانت الذبائح تؤسم بميسم الهيكل دلالة على مطابقتها للمواصفات المطلوبة ، وعلى أنها فحصت فحصاً دقيقاً من قبل المختصين .

على هذا الأساس ، كان التجار يغالون فى الأثمان إلى درجة لا يتصورها العقل . فإذا كان زوج الحمام خارج الهيكل لا يزيد ثمنه عما يعادل خمسة

قروش، فإنه في داخل ساحة الهيكل، كان يصل إلى خمسة وسبعين قرشاً .
لقد كانت تجارة الهيكل كلها قائمة على النصب والإحتيال ، والإغتصاب .
وكانت سوق الهيكل تعرف باسم « سوق حنان » . كانت كلها ملكاً لأسرة
رئيس الكهنة . وبهذه الطريقة ، باغتصاب أموال العابدين ، وبالإحتيال
باسم الدين ، استطاع « حنان » أن يكسب ثروة كبرى ، حتى أن اسم رئيس
الكهنة كان بغضاً إلى اليهود أنفسهم .

بل إننا نجد التلمود نفسه يتحدث بالويلات على حنان وأسرته قائلاً :
« ويل لبيت حنان ! ويل لفحيج الأفاعي ! إنهم رؤساء كهنة . وسلاتهم
حفظة الخزانة . وأنسابهم سدنة الهيكل ، وخدامهم يضربون الشعب
بالعصى ! . » . هكذا كان « حنان » وبيته . وهكذا تحدث عنهم اليهود .

وإننا نستطيع أن نستنتج أن محاكمة « يسوع » على يديه كانت من ترتيبه
هو . فيسوع قد هاجمه في أدق مصالحه ، فهو الذي طرد الباعة من الهيكل
وقلب موائد الصيافة ونادى بالكلمة الخالدة « بيتي بيت الصلاة يدعى
وأنتم جعلتموه مغارة لصووس » . لقد مس « يسوع » « حنان » في ضمير حياته ..
في جيبه وماله . وكان من الطبيعي أن ينتهر « حنان » الفرصة ليرد ليسوع
الصاع صاعين .

وكانت محاكمة « يسوع » أمام « حنان » مهزلة على مسرح العدالة . كان الناموس
اليهودي يقضى بالألا يوجه أى سؤال أو استجواب للمتهم ، يكون من نتيجته
إمسالك المتهم بجملة ينطق بها ، وإثبات الذنب عليه . وإننا نستمع إلى المفكر
اليهودي المعروف « موسى بن ميمون » يقول « إن ناموسنا لا يوقع عقوبة الموت
على إنسان ما على أساس اعترافه هو » . وهكذا كسر « حنان » ناموس العدالة
اليهودية حينما وجه أسئلته إلى « يسوع » . ونحن نجد « يسوع » يذكره بهذا الخطأ ،

وَيَحاول أن يوجهه التوجيه الصحيح فيقول له « لماذا تسألني أنا ؟ إسأل الذين سمعوا مني » . لقد كان السيد يقول بالفعل لرئيس الكهنة : « إتجه في محاكتك لي إلى الطريق القانوني الصائب . لا تتبع طريقاً ملتوياً . إبحث عن الدليل فيمن سمعوني . إسأل الشهود وافحصهم ما شاء لك الفحص . فهذا هو الطريق الصحيح . ولكن قف عند حدي أنا . فهذا ليس من حقك . » . حينما تحدث «يسوع» هكذا مفحماً رئيس الكهنة ، إذا بواحد من الخدم يضربه على وجهه قائلاً له : « أهكذا تحاول أن تعلم رئيس الكهنة العظيم ، كيف يقوم بمحاكمة متهم ؟ » فيجيبه «يسوع» في انضاع : « إن كنت قد تكلمت كلاماً يتعد عن روح القانون فاشهد بذلك . ولكن إن كنت قد تكلمت بالحق فلماذا تضربني » .

إن «يسوع» كان واثقاً من أن موازين العدالة لن تقام هناك . لقد أصاب الضرر مصالح «حنان» وأسرته . وعلى ذلك فالحكم لا بد وأنه قد صدر من قبل أن تبدأ المحاكمة . حينما يكون الإنسان مندفعاً في عماه في طريق خاطيء ، فالموت لمن يحاول أن يعترض طريقه . إنه سيبدل أقصى الجهد ليريح من أمامه كل من يعترضه ، إن لم يكن بالحق ، بالوسائل القانونية ، فبالطرق الملتوية . والقصة التي يجلس فيها العدو قاضياً ، ويسودها روح الحق والتعصب ، ونرى فيها الضربات تكال للمتهم قبل النطق بالحكم ، ليست قضية على الإطلاق .

البطل والعجبان

وَكَانَ سِمَعَانُ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الْآخَرُ يَتَّبَعَانِ يَسُوعَ .
وَكَانَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَدَخَلَ
مَعَ يَسُوعَ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ . وَأَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ
وَاقِفاً عِنْدَ الْبَابِ خَارِجاً . فَخَرَجَ التِّلْمِيذُ الْآخَرُ الَّذِي
كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَكَلَّمَ الْبَوَّابَةَ فَأَدْخَلَ
بُطْرُسَ . فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ الْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ أَلَسْتَ أَنْتَ
أَيْضاً مِنْ تَلَامِيذِ هَذَا الْإِنْسَانِ . قَالَ ذَاكَ لَسْتُ أَنَا .
وَكَانَ الْعَبِيدُ وَالْخُدَّامُ وَاقِفِينَ وَهُمْ قَدْ أَضْرَمُوا جَمِراً .
لِأَنَّهُ كَانَ بَرْدٌ . وَكَانُوا يَصْطَلُّونَ وَكَانَ بُطْرُسُ وَاقِفاً
مَعَهُمْ يَصْطَلِّي

وَسِمَعَانُ بُطْرُسُ كَانَ وَاقِفاً يَصْطَلِّي . فَقَالُوا لَهُ
أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تَلَامِيذِهِ . فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَقَالَ لَسْتُ
أَنَا . قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَهُوَ نَسِيبُ

الَّذِي قَطَعَ بِطَرُوسَ أُذُنَهُ أَمَّا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبُسْتَانِ .
فَأَنْكَرَ بِطَرُوسَ أَيْضاً . وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدَّيِّكُ

(يوحنا ١٨ : ١٥ - ١٨ ، ٢٥ - ٢٧)

حينما هجر التلاميذ معلمهم وهربوا ، لم يقبل «بطرس» أن يفعل نظيرهم .
لقد تبع «يسوع» حتى بعد أن ألقى الجند عليه الأيدي ، لأن جاذبية «يسوع»
كانت تقيده . وهكذا جاء مع التلميذ الآخر إلى بيت رئيس الكهنة .
وكان ذلك التلميذ معروفا هناك . أما التلميذ الآخر فقد تضاربت الآراء
عنه لأنه لم يذكر بالإسم . قال البعض إنه تلميذ خارج دائرة التلاميذ
المعروفين . وقال آخرون إنه لابد أن يكون إما «نيقوديموس» أو «يوسف
الراي» . وكل من الإثنين كان عضوا في مجمع السندريم ، وكان معروفا
لدى رئيس الكهنة . ووصل البعض إلى خد الظن أن ذلك التلميذ قد يكون
يهودا الاسخريوطي نفسه ! . «يهوذا» من كثرة تردده على دار الرئيس
لابد أنه كان معروفا بين دوائر الخدم وأهل البيت ، وهكذا وجد طريقه
إلى الداخل بكل سهولة . ولكن لا يمكن أن نصدق الافتراض الأخير .
لأن دور «يهوذا» بعد القبض على «يسوع» كان واضحا جليا . ولا يمكن أن
«بطرس» يضع يده في يد ذلك الخائن ، أو يكون له أدنى تعامل معه .

أما النظرية التقليدية فهو أن ذلك التلميذ الآخر لم يكن سوى يوحنا
نفسه ، وهي نظرية لا يمكن رفضها بسهولة . والسؤال الذي يبرز أمامنا الآن :
كيف يمكن أن «يوحنا» الصياد الحليلي يكون معروفا ، ومعروفاً بصداقة
ودلال ، لدى أعلى دوائر الكهنوت اليهودي ؟ وبأى حق يصل إلى هذا
الشرف ؟

هناك رأيان يفسران هذه العلاقة بين «يوحنا» وبين بيت رئيس الكهنة .

(١) فبعيد العصر الرسولي ، ظهر كاتب يدعى «بوليكراتس» قام ، بكتابة تعليق على بشارة يوحنا وعلى كاتبها التلميذ الحبيب - هذا الكاتب لا يشك لحظة في أن كاتب البشارة الرابعة هو «يوحنا» وليس سواه . ثم يضيف شيئاً غاية في الغرابة عن يوحنا فيقول ، إنه كان بمولده من سلالة الكهنوت . وكان يلبس الشعار الكهنوتي ، وهو شريط من ذهب نقشت عليه هذه الكلمات : « قدس للرب » فوق جبهته . وعلى ذلك ليس مستغرباً أن يكون «يوحنا» معروفاً في دار رئيس الكهنة . .

ولكن من الصعب علينا تصديق هذا الخبر ، لأن البشائر تخبرنا صراحة أن «يوحنا» كان صياداً جليلاً ، وكانت له تجارته الناجحة في هذا المجال .

(ب) الرأي الثاني يرجح أن الصلة بين «يوحنا» وبين بيت رئيس الكهنة جاءت عن طريق التجارة .

فلقد أسلفنا أن «يوحنا» كان يدير تجارة ناجحة من صيد الأسماك وتمليحها لحفظها . وكانت له مجموعة من قوارب الصيد والعمال وغير ذلك (مرقس ١ : ٢٠) . أما السمك الطازج فقد كان ترفاً غير شائع في فلسطين . فوسائل النقل غير السريعة ، وحرارة الجو الشديدة لم تكن تتيح للإنسان ، وبخاصة في اليهودية في الجنوب تناول لحم السمك الطازج الوارد من منطقة نائية كبحر الجليل . أما السمك المملح ، فيمكن حفظه ، وتداوله دون أن ينحسر عليه من التلف . وهكذا كان ركناً أساسياً في الطعام . ومن الجائز أن والد يوحنا كان يوالى ارسال احتياجات بيت رئيس الكهنة مع ابنه من حين لآخر .

فكان «يوحنا» معروفاً هناك ، ويبدو أنه يوجد في التقليد ما يؤيد هذه النظرية . يقول «هـ . ف . مورتون» في كتابه الذي أشرنا إليه أكثر من مرة ، إنه حتى يومنا الحاضر، توجد في أورشليم بناية قديمة تستخدم كمقهى يديره العرب ، وقد استخدمت في إقامته أحجار من كنيسة أثرية . ويعتقد الإخوة الفرنسيون أنه كانت تقوم في موقع هذه الدار، كنيسة في نفس البقعة التي يظن أن «زبدى» والد «يوحنا» كان يمتلكها وكان يقيم عليها بيته . وقد كان هذا البيت يضم فرعاً من فروع التجارة الرائجة التي كان مركزها الرئيسي هناك في الجليل .

ومهما يكن من أمر التفاصيل ، فالخلاصة أن «بطرس» وجد له مكاناً في دار رئيس الكهنة . وهناك وقف يستدفئ وسط الخدم ، لأن الليلة كانت باردة ، وكان ما كان من أمر إنكاره لسيدته ثلاث مرات .

هناك أمر يستحق الإشارة ، بشأن صياح الديك ، الذي جعله السيد علامة لإنكار بطرس . فقد اعترض البعض بأن الناموس ما كان يبيع تربية الدواجن في أورشليم ، خوفاً من أن تنجس فضلاتها تراب المدينة . فمن أين أتى ذلك الديك ؟

ولكن قيل إن الرومان كانت لهم طريقتهم في معرفة الوقت . كانوا يقسمون الليل إلى حراسات أربع . من الساعة السادسة بعد الظهر إلى الساعة التاسعة ثم من التاسعة إلى نصف الليل ، ومن نصف الليل إلى الثالثة من صباح اليوم التالي ، ومن الثالثة إلى السادسة أو مطلع الشمس . هذا كله أشبه بنظامنا الحالي في تقسيم الليل والنهار . كان الحارس يستبدل بآخر حينما تنتهى نوبته . وساعة تغيير النوبات في الساعة الثالثة . كان ينفخ في البوق . أما نفخة البوق ، فكانت تعرف في اللاتينية بكلمة «جالسنيوم» ، وفي اليونانية

« الكترو فونيا » ومعنى الكلمتين واحد : (صياح الديك) . وهكذا قال «يسوع» لتلميذه « قبل أن ينفخ في البوق بصيحة الديك سوف تنكرني ثلاث مرات » . لقد كان كل واحد في أورشليم يعرف صيحة الديك . ويعرف أنها تتم في الثالثة بعد منتصف الليل . وهكذا انطلق الصوت يهتف في ظلام تلك الليلة ، فتذكر «بطرس» كلام المسيح .

البطل والعجبان

(يوحنا ١٨ : ١٥ - ١٨ : ٢٥ - ٢٧)

وهكذا أنكر « بطرس » سيده . نقول إنه لا يوجد واحد لقي من الوعاظ والمنابر قدر ما لقي « بطرس » . دائماً يجد الوعاظ لذتهم في الحديث عن سقوط بطرس وجبن بطرس . ولعله من النافع أن نتذكر بعض ملابسات القصة ..

١ - علينا أن نذكر أن التلاميذ كلهم هربوا عدا « يوحنا » . وجميعهم لم يمدوا أيديهم للدفاع عن سيدهم ساعة اللقاء الأبدى عليه في الإستان عدا «بطرس» . تأمل فيما فعله « بطرس » . لقد مد يده واستل سيفه . .

استل سيفه وهو يعرف تماماً أن في ذلك الموت المحقق .

استل سيفه في وجه جيش كامل مسلح . ثم نراه بعد ذلك يتبع الموكب الثائر ليرى ما سوف يتم لسيده .

إن الصورة الأولى صورة إنسان شجاع لا يتراجع في الأزمات ، تحفظه شجاعته مدافعاً عن سيده حينما ترتخي كل الأيدي . . وتدفعه شجاعته إلى السير وراء سيده وهو يعلم المصير الرهيب الذي ينتظره لو اكتشف أمره . لقد تبع سيده حتى إلى دار رئيس الكهنة .. وإلى عرين الأسد دخل غير

هباب ولا وجل . فإن كنا نرى العاصفة تثور عليه فجأة . . وإن كنا نراه يسقط من ثباته في لحظة من لحظات الغفلة .. وإن كنا نرى التجربة أقوى من أن يجابهها فسقط ، فينبغي ألا ننسى أنه سقط لا لأنه جبان حريص على الحياة ، بل لأنه شجاع اندفع في الميدان إلى آخر لحظة . لقد كانت سقطته لا سقطة الجبان ، بل سقطة الشجاع .

٢ - وعلينا أن نذكر كم أحب بطرس يسوع . ولقد أثبت الامتحان محبته . ففي الوقت الذي هرب فيه الجميع وقف هو إلى جواره . وفي الوقت الذي تخلى فيه الكل عن معلمهم ، تبعه هو بعزم وإصرار . لقد كان بطرس «محب» سيده ولم يشأ أن يتخلى عنه . صحيح أنه سقط . ولكن سقطته حدثت في ظروف وملابسات دفعته إليها محبته الشديدة لسيده .

٣ - وعلينا أن نذكر أيضاً كيف عاد «بطرس» إلى صوابه ورجع إلى مخلصه . لقد كان ممكناً أن يهلك «بطرس» . كان ممكناً أن يتأرجح ويهتز فيسقط وينتهي ويكون سقوطه عظيماً . إن قصة إنكاره لسيده كان يمكن أن تكون السطور الأخيرة في قصة حياته . نظير «يهوذا» كان يمكن أن ينهي حياته بيديه ، ويكفر عن فعلته بسفك دمه . لقد انتشرت ولا شك قصة إنكاره . والناس تسهويهم على الدوام عثرات الناس . . يجدون لذتهم الكبرى في الحديث عن سقطات الآخرين . ولعله من المثللنا أن نتصور ما يصوره التقليد ... نتصور الناس يقلدون صياح الديك حين يشاهدون «بطرس» سائراً في الطريق ، إمعاناً في السخرية منه . ولكن «بطرس» استلهم عزيمته وعاد إلى نفسه ، لقد عزم أن يستعيد مركزه الأول ، حتى ولو اقتضى الأمر أن يبدأ كل شيء من جديد . لقد كان هناك «بطرس» آخر ، في داخل «بطرس» المهتز الخائر أمام الجارية والخدم ..

إن خلاصة الأمر كله ، أن «بطرس» الحقيقي الذى أعلن ولاءه لسيده فى العلية .. هو الذى مد يده واستل سيفه مدافعاً عن سيده فى نور القمر.. «بطرس» هو الذى تبع سيده لأن قلبه قد ارتبط به برباط الحب ، فلم يشأ أن يتركه وحيداً فى محبته.. هذا هو «بطرس» الحقيقي . أما «بطرس» المهتز الحائر .. الجبان الذى أنكر سيده ، فلم يكن «بطرس» على الإطلاق . وهذا ما رآه «يسوع».. لقد نظر إلى «بطرس».. نفذ بأبصاره إلى «بطرس» الحقيقي الذى فى الداخل ليوقظه من نومته . إن أروع ما فى «يسوع» هو أنه فى وسط فشلنا .. ضعفنا .. عجزنا ، يستطيع أن ينظر فى الإنسان الحقيقى فى أعماقنا . إن «يسوع» يفهمنا بالرغم مما نصل إليه فى تهورنا ... يحبنا رغم الظروف التى نخلقها بتصرفنا أو تخلفنا . وتسيطر علينا وتصبح فى بعض الأحيان جزءاً من كياناتنا .

إنه يحبنا لا بسبب ما نحن عليه ، بل بنظرته الثاقبة التى ترى ما سوف نكون عليه . إن محبة «يسوع» العظمى ، أكبر من ضعفنا وعجزنا وعدم أمانتنا . بل محبته ترى الإنسان الحقيقى فىنا — ليس فى عدم أمانتنا ، بل فى إخلاصنا ، ليس فى هزيمتنا أمام التجربة ، بل فى قيامنا من سقطتنا ، وسعيينا الحثيث وراء الصلاح الذى ينادينا ويهيب بنا ويستحثنا حتى فى أحلك ساعاتنا ...

الْأَصْحَاحُ الْتَّاسِعُ عَشَرَ

يسوع أمام بيلاطس

ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيْفَا إِلَى دَارِ الْوِلَايَةِ .
وَكَانَ صُبْحٌ . وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلَايَةِ لِكَيْ
لَا يَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ . فَخَرَجَ بِيِلَاطُسَ إِلَيْهِمْ
وَقَالَ آيَةُ شِكَايَةٍ تُقَدَّمُونَ عَلَيَّ هَذَا الْإِنْسَانِ . أَجَابُوا
وَقَالُوا لَهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَّا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ .
فَقَالَ لَهُمْ بِيِلَاطُسَ خُذُوهُ أَنْتُمْ وَأَحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ
نَامُوسِكُمْ . فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَدًا .
لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ مُشِيرًا إِلَى آيَةِ مِيتَةٍ كَانَ
مُزْمِعًا أَنْ يَمُوتَ

ثُمَّ دَخَلَ بِيِلَاطُسَ أَيْضًا إِلَى دَارِ الْوِلَايَةِ وَدَعَا يَسُوعَ
وَقَالَ لَهُ أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ . أَجَابَهُ يَسُوعُ أَمِنْ ذَاتِكَ
تَقُولُ هَذَا أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي . أَجَابَهُ بِيِلَاطُسَ

أَلَعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ . أَمَتُّكَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَسَلَمُوكَ إِلَيَّ .
مَاذَا فَعَلْتَ . أَجَابَ يَسُوعُ مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا
الْعَالَمِ . لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ لَكَانَ خُدَامِي
يُجَاهِدُونَ لِكَيِّ لَا أَسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ . وَلَكِنْ أَلَا لَيْسَتْ
مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا . فَقَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ أَفَأَنْتَ إِذَا مَلِكٌ .
أَجَابَ يَسُوعُ أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ . لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا
وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ . كُلُّ مَنْ هُوَ
مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي . قَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ مَا هُوَ الْحَقُّ .
وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ أَنَا لَسْتُ
أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً . وَلَكُمُ عَادَةٌ أَنْ أَطْلِقَ لَكُمْ
وَاحِدًا فِي الْفِصْحِ . أَفَتُرِيدُونَ أَنْ أَطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ
الْيَهُودِ . فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ قَائِلِينَ لَيْسَ هَذَا بَلْ
بَارَابَاسَ . وَكَانَ بَارَابَاسُ لَصًّا

فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيَلَاطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ . وَضَفَرَ
الْعَسْكَرُ إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَالْبَسُوهُ ثَوْبَ
أَرْجَوَانٍ . وَكَانُوا يَقُولُونَ السَّلَامُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ وَكَانُوا

يَلْطَمُونَهُ . فَخَرَجَ بِيَلَاطُسُ أَيْضاً خَارِجاً وَقَالَ لَهُمْ هَا أَنَا
أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً .
فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ الشَّوْكِ وَثَوْبَ
الْأَرْجُوَانِ فَقَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسُ هُوَذَا الْإِنْسَانُ . فَلَمَّا رَأَهُ
رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا قَائِلِينَ أَصْلِبُهُ أَصْلِبُهُ .
قَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسُ خُذُوهُ أَنْتُمْ وَأَصْلِبُوهُ لِأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ
فِيهِ عِلَّةً . أَجَابَهُ الْيَهُودُ لَنَا نَامُوسٌ وَحَسَبَ نَامُوسِنَا
يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللَّهِ . فَلَمَّا سَمِعَ
بِيَلَاطُسُ هَذَا الْقَوْلَ أَزْدَادَ خَوْفًا . فَدَخَلَ أَيْضاً إِلَى دَارِ
الْوِلَايَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ مِنْ أَيْنَ أَنْتَ . وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ
جَوَاباً . فَقَالَ لَهُ بِيَلَاطُسُ أَمَا تُكَلِّمُنِي . أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ
لِي سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أُطْلِقَكَ . أَجَابَ
يَسُوعُ لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَى سُلْطَانِ الْبَتَّةِ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ
أَعْظَيْتَ مِنْ فَوْقَ . لِذَلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيئَةٌ
أَعْظَمُ . مِنْ هَذَا الْوَقْتِ كَانَ بِيَلَاطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلِقَهُ
وَلَكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ إِنَّ أَطْلَقْتَ هَذَا

فَلَسْتُ مُجِيبًا لِقَيْصَرَ . كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكًا يُقَاوِمُ
قَيْصَرَ

فَلَمَّا سَمِعَ بِيَلَاطُسَ هَذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ وَجَلَسَ
عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلَايَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الْبَلَاطُ وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ
جَبَاثَا . وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ .
فَقَالَ لِلْيَهُودِ هُوَذَا مَلِكُكُمْ . فَصَرَخُوا خُذْهُ خُذْهُ أَصْلِبْهُ .
قَالَ لَهُمْ بِيَلَاطُسَ أَأَصْلِبُ مَلِكُكُمْ . أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ
لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلَّا قَيْصَرُ . فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ
لِيُصَلَّبَ

فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ .

(يوحنا ١٨ : ٢٨ - ١٩ : ١٦)

هذه أقوى صورة درامية في سياق قصة محاكمة يسوع كما وردت في
البشائر . فإذا حاولنا تقسيمها إلى أجزاء نفقد الصورة روعتها . إن الفقرة
الطويلة التي أمامنا ، ينبغي أن نقرأها ككل ، إن كنا نريد أن نصل إلى عمق
متضمناتها . وسنركز تأملاتنا فيها في فصول متتابعة ، موجهين أقصى الانتباه
إلى الصور والشخصيات التي ترواح وتجيء أمامنا في مد وجزر ، على مسرح
القصة الخالدة ...

وسنبداً بالحديث عن اليهود :

فى عصر المسيح كان اليهود خاضعين لسلطان روما . وكانت سياسة الرومان ، تتيح لسكان المستعمرات الخاضعة لهم ، قدرأمن الحرية والحكم الذاتى . ولكن لم يكن من حق سكان المستعمرات ، تنفيذ حكم الإعدام . لقد كان « حتى الجلاد » أوحق السيف ، إيوس جلادى كما كان يسمى ، وقفنا على الرومان فقط . وكما يقول التلمود « قبل خراب الهيكل بأربعين عاما ، انتزع من إسرائيل حق الحياة والموت » . أما أول حاكم روماني على فلسطين فقد كان يدعى « كونيوس » . ويخبرنا « يوسيفوس » المؤرخ اليهودي الشهير عن تعيينه قائلاً « إنه عين واليا ، بأمر « قيصر » ليكون في يديه سلطان الحياة والموت ، ويتحدث « يوسيفوس » أيضا عن كاهن يدعى « عنانوس » أراد أن ينفذ حكم الإعدام في البعض من أعدائه .

وحاول عقلاء اليهود أن يثنوه عن عزمه قائلين ، إنه لا يملك الحق في ذلك ، وتم لهم ما أرادوا . ولكن الوالى عرف بتفاصيل الأمر ، فأمر بعزله من وظيفته لمجرد أنه فكر في حق لبس له . في بعض الأحيان نرى ، كما في حادثة « استفانوس » ، أن اليهود يقومون بأنفسهم بتنفيذ حكم الموت .

ولكن ذلك لم يكن جائزاً شرعاً وقانوناً . وهكذا لم يجد اليهود بداً من إحضار « يسوع » لمحاكمته أمام الوالى الروماني ، حتى يصدر عليه حكم الموت . ولو كان لليهود أن ينفذوا بأنفسهم حكم الإعدام . لما كانت لديهم وسيلة سوى الرجم بالأحجار . هذا هو تعليم الناموس « من جدف على اسم الرب فإنه يقتل . يرحمه كل الجماعة رجماً . الغريب كالوطني عندما يجدف ... يقتل » (لاويين ٢٤ : ١٦) .

وكما حدث مع الشهيد استفانوس يكون أول شاهد أدت شهادته إلى

إدانة المتهم هو الذى يمسك أولا بالأحجار ويرجمه قبل الكل .. «يرجمه بالحجارة كل الجماعة خارج المحلة» (عدد ١٥ : ٣٥) .

هذا هو الهدف الأساسى من العدد الثانى والثلاثين ، وهذا العدد يقول إن كل ما حدث قد تم حدوثه لىكى تم كلمات «يسوع» التى تنبأ بها عن الطريقة التى سوف يموت بها . لقد قال بالفعل « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) . وكلمة ارتفعت بمعنى صلبت .

وعلى ذلك كان لا بد أن يتم موت يسوع بالصلب لا بالرجم . لقد كان من المحتم أن يقاسى الموت بالطريقة الرومانية ، حتى يرفع عن الأرض . ولقد أراد اليهود من البداية أن يلقوا بتبعة الحكم فى هذه القضية على أكتاف الوالى الرومانى . لقد أرادوا أن يتنحوا بالكلية عن المسئولية حتى يظهروا فى نظر الشعب محايدى لا ذنب لهم ولا جريرة ، وهكذا اتخذوا من بيلاطس الرومانى مخلص القط لتنفيذ أغراضهم .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ إلى ١٩ : ١٦)

لكن الحديث عن اليهود يطول ، وهناك ما هو أكثر من هذا ...

فنحن إذ نتأمل سياق القصة تبرز أمامنا أكثر من حقيقة .

١ - فلقد بدأ الأمر معهم بكراهية «يسوع» ، ثم انتهى إلى بغضة قاتلة مجنونة

فنحن نصغى فى أصواتهم « اصلبه .. اصلبه » إلى عواء الذئاب الشرسة .

ونستمع فى هتافاتهم « ليس هذا بل باراباس » إلى الصرخات المجنونة

القائلة . لقد تملك جنون الكراهية عقول اليهود ، حتى اندفعوا دون ترو

فى سياق العواطف الئائرة . إن الكراهفة نوع من الجنون ، ومئى ءملكء قلب إنسان فانه لا يعرف كيف ينظر ، أو فسمع ، أو ففكر . لا شئ فى الوجود فغشى عفن الإنسان ، وقلبه ، وسمعه ، قسءر البغضة ، فلا ىرى الطرفق القوفم ، ولا فمفل إلى الرأى الصائب ، ولا فستمع إلى صوت الضمفر . إن البغضة شئ رهفب قائل ، لأنها ءذهب بحواس الإنسان ومشاءره وءقءفره السلم .

٢ - وهذه البغضة قد أفقءء الفهود القءرة على ءقفم الأمور ووزنها الصءفب لقد كانوا حرصفن على ألا فءءلوا بلاط الوالى ، لئلا فءنفسوا فلا فستطففوا أن فشرءوا فى ممارسات عفء الفصء .

ومع ذلك هاهم فءبرون ءرفمة قءل ابن الله ! وهاهم فبءلون أقصفى الءهء لفصلوا إلى أغراضهم الإءرامفة . ولقد كان الفهودى فءم على صاحبه أن فكون طاهرأ شرعفا . وكان الءءول إلى ءار الولاية الرومانية فعنى ءءنفس عن طرفقفن : الأول كما فقول الناموس الشفافى ، وهو عءء الكءبة والفرففسفن فقابل الناموس المكءوب ، وفزفءون فى ءقءفره وءءمسك به ، وهو فقول « إن مسكن الأمم فبفس » وءانى أن الإعءاء لعفء الفصء كان فقتضى ءفففش أرجاء كل البفء بكل ءقة وحرص فءثا عن أى نوع من أنواع الءمفر ، وءنفة البفء منها . فالءمفر رمز الشر . « وعلفنا أن فعفء لا فءمفر الءبء والشر بل بفطفر الإءلاء والءق » . - صورة فستفرها رسول الأمم من هذا ءءقلء .

وعلى ذلك فالءءول إلى ءار الولاية فبفس صاحبه بصورءفن ، لكسره الوصففة ، وكذلك لوجود الءمفر فى الءار . فإءا ءءء هذا ، فالفهودى فصبء فبسا ءفى المساء ، وعلفه أن فءءاز بعء ذلك فى فرائض ءاصة للءطفر ءفى فصبء طاهرأ .

وها نحن نرى تلك الجماعة المتزمتة المتمسكة بأصول ناموسها وتعاليمها بكل حرص ، تندفع كالكلاب المسعورة ، لتلطخ أياديها بدم برىء «نعم لتلطخ أياديها بدم ابن الله ، المحبة المتجسدة . . وكم من مسيحي مدقق في الأمور الظاهرية يظن أنه يرضى الله ، وهو يكسر جوهر الوصايا : البر والرحمة والإيمان بل كم من طائفة تدقق كل التدقيق في التقاليد التافهة . . في السبوت . . والأعياد . . في البخور والشموع والصور والتماثيل ، . . . في رسم الصليب أو وشمه أو رشمه . . في الاتجاه إلى جهة معينة في الصلاة ، في الملابس الكهنوتية ومطابقتها لكل المناسبات ، وعشرات من هذه الأمور وغيرها ، وفي سبيل هذه الطقوس التي هي خارج جوهر المسيحية ، تكسر ناموس المحبة ، وتطعن في غيرها من الطوائف ، ربما وصل الأمر إلى العداء المسلح ، كما يقول «ه. ف. مورتون» إن نزع مسار من المسامير التي تعلق عليها الأيقونات في كنيسة القيامة في القدس ، أدى في وقت من الأوقات إلى اندلاع حرب القرم الشهيرة . إن من أغرب الأمور ، بل من أكثرها إيلاما ، أن التعصب الأعمى يفقد الإنسان القدرة على تقييم الأمور ووزنها ووضعها في الوضع الصحيح .

٣ — ولم يتردد اليهود في اتهامهم ليسوع ، للوصول به إلى أقصى درجات الخطورة حسبما تقتضي الظروف . فلقد كانت تهمتهم له في محاکمتهم الخاصة هي التجديف (متى ٢٦ : ٦٥) ، ولكنهم كانوا يعلمون أن «بيلاطس» لن يكثر لمثل هذه التهمة . إنه سيقول لهم إن هذه أمور تختص بناموسكم ، فاحكموا فيها بأنفسكم ، لذلك لا بد وأن تتحول تهمة التجديف إلى تهمة أكثر خطورة ، تهمة تمس كيان الإمبراطورية ، فإذا لم يكثرث بلها الوالى ، فليس أقل من أن يهتم بها ، خوفا من الجالس على عرش القياصرة ، وتبرئة لنفسه ، وإلا سيكون مصيره هو مصير الخيانة وينهم بمالأة خائن لقيصر . وهكذا أقحموا

اسم «يسوع» في ميدان السياسة، واهتموه بالثورة والتمرد على نظام الحكم، والعمل على تمهيد الطريق ليصل إلى حكم البلاد. ولقد كانوا يعرفون يقيناً، أن اتهامهم هذا، باطل لا أساس له من الصحة. ولكن الحق قد لا يتورع عن أى شيء. والحاقد على استعداد أن يحرف الحق للوصول إلى غرضه. وأية قضية هذه تلك التى تقوم على اتهام كاذب ! ؟

٤ - وحتى يصلوا إلى هدفهم الدنى، لم يرجعوا عن أن يتكروا لكل مبدأ لهم. ولعل من أغرب الهتافات التى هتفوا بها فى ذلك اليوم قولهم. ليس لنا ملك إلا قيصر. لقد كانت كلمة «صموئيل» فى القديم للشعب أن الله ملكهم ولا ملك لهم سواه (سفر صموئيل الأول ١٢ : ١٢). وحينما قدم التاج للزعيم والقائد المنتصر «جدعون» كان جوابه :

« لا أتسلط أنا عليكم. ولا يتسلط ابنى عليكم. إنما الرب يتسلط عليكم ». (قضاة ٨ : ٢٣)

وحيثما فرض الرومان سلطانهم على فلسطين، قاموا بأول تعداد للشعب، حتى يمكنهم تنظيم الضرائب على أساسه. وهذا النظام كان شرعاً معمولاً به فى كافة المستعمرات الخاضعة لهم. ولكن اليهود ثاروا ثورة كلفتهم دماء كثيرة، وذلك لسبب واحد. إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين لملك واحد هو الله، خاضعين لسلطان واحد، سلطان الله، وله وحده الإكرام والتعبد والخضوع. فحينما هتف الكهنة للوالى الرومانى، ليس لنا ملك إلا قيصر، كانوا يقومون بأكبر مغالطة مذهلة فى تاريخ شعب وأمة، بل يتقدمون بأغرب تصريح يمكن أن ينادى به يهودى. ولعل «بيلاطس» نظر إليهم فى دهشة وذهول، ولعله استمع إلى حديثهم وهو لا يصدق أذنيه. ولكنه بالطبع أدرك أنهم يلعبون بالورقة الأخيرة لديهم فى سبيل الفوز على خصمهم اللدود.

صورة بغیضة ولا شك، تلك التي تبدو أمامنا. صورة يغلفها الحقد الأسود وتظهر فيها النظرات النارية والأفواه الفاعرة ، والأیدی المستعدة للعراك ، والهتافات المجنونة . إن اليهود في حقدهم قد تناسوا كل مبادئهم ، ونسوا كل شرائعهم ، وداسوا على قلوبهم ، وتنكروا حتى لإلههم . لا توجد في تاريخ الإنسانية جمعاء ، صورة تبدو أقسى وأرهب وألعن ، من الصورة التي تبدو أمامنا . . .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ — ١٩ : ١٦)

والآن دعونا نتأمل في الشخصية الثانية ، التي تبدو على مسرح محاكمة «يسوع» : «بيلاطس». خلال فصول الدراما كلها، يبدو دور بيلاطس مليئاً بالمتناقضات ، غير واضح للأفهام .

ومن الواضح الجلي ، وهناك أكثر من دليل على ذلك ، أن «بيلاطس» كان يعرف أن اليهود يزيفون الحقائق ، وأن كل اتهاماتهم ليسوع لن تزيد عن كونها سلسلة من الأكاذيب . ومن الواضح أيضاً أن الوالي الروماني تأثر بيسوع كل التأثر ، وأيقن تماماً ببراءته ، وحاول بكل وسيلة أن ينقذه من أيدي أعدائه ، ولكنه استسلم أخيراً لهم فحكم عليه بالموت .

فنحن نراه أولاً، يحاول جاهداً أن يطلق «يسوع» على أساس عادة إطلاق أسير من الأسرى، يختاره اليهود في عيد الفصح ، ثم يحاول أن يسترخصهم بتسليم «يسوع» للجلد ، ثم يتجه إليهم برجاء أخير . ولكنه لا يحزم أمره ، ولا يثبت في عزمه ، ويرفض أيضاً قاطعاً أن يستجيب لمطالب اليهود ، وينساق في تيارهم . ونحن لن نستطيع أن نصل إلى فهم «بيلاطس»، إلا إذا عرفنا ملخصاً لتاريخ حياته ، ومن حسن الحظ ، أننا نجد الكثير عنه في كتابات يوستينوس ، كما في كتابات « فيلو السكندري » .

قبل كل شيء ، علينا أن ندرك الدور الذي كان يقوم به الوالى الرومانى فى بلاد اليهودية . . ولا ضير علينا لو رجعنا إلى الوراء ، لنتتبع خطوات التاريخ من البداية .

فى العام الرابع قبل ميلاد المسيح^(١) انتهت حياة الملك «هيرودس» الكبير ولقد كان «هيرودس» ملكا على فلسطين بجملةها . وبالرغم من الكثير من أخطائه فقد كان فى أكثر من جانب ملكاً عظيماً . كان صديقاً للرومان محبوباً لديهم . فلما انتهت حياته ، قسمت مملكته حسب وصيته بين أبنائه الثلاثة : فكان من نصيب «انتياس» ولاية الجليل وبيرية ، و «فيلبس» صار واليا على باطانية وأورانيتس وتراخونيتس وهى المناطق الجبلية غير المأهولة ، الواقعة جهة الشمال الشرقى ، وبقي لأرخلاوس حكم أدومية واليهودية والسامرة وقد كانت سنة فى ذلك الحين ، لا تتجاوز الثامنة عشرة . أما الرومان فقد أيدوا هذا التقسيم وأقروه .

ولقد سارت الأمور حسناً مع أنتياس وفيلبس ، ولكن أرخيلائوس كان قاسياً فظاً ، حكم رقعته بكل عنف ، حتى أن اليهود أنفسهم قدموا شكواهم لقبصر لعزله من الحكم ، وتعيين آخر سواه . ولقد كانوا يأملون أن تضم مقاطعتهم إلى ولاية سورية ، فيكون لهم من اتساع الرقعة ما يعينهم على الحياة فى هدوء بعيداً عن رقابة الوالى وسلطانه . ولقد كانت المستعمرات الرومانية تنقسم إلى قسمين : قسم منها يحتاج إلى كتائب من الجيش الرومانى تعسكر فيها تحت السلطة المباشرة للإمبراطور ، وهذه كانت تعرف باسم المستعمرات الأمبريالية . وقسم آخر ينجى فى هدوء ومسالة بعيداً عن المتاعب

(١) حسب التقويم الحالى ، هناك خطأ أربع سنوات . بحيث نقول إن المسيح ولد عام ٤ قبل ميلاد المسيح ! !

والإضطرابات ، تحت السيطرة المباشرة لمجلس الشيوخ أو السنين الروماني .
وهذه كانت تعرف بالمستعمرات المشيخية أو السناتورية . أما فلسطين فكانت
أرض قلاقل واضطرابات تحتاج إلى كتائب من الجيش الروماني لحفظ النظام
فيها . فهي لذلك تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . وكانت المستعمرات
الشاسعة نظير سورية ، تحكم بواسطة فيصل أو حاكم .

أما المستعمرات الأصغر ، أو مستعمرات الدرجة الثانية ، فقد كان
يحكمها وال روماني . لذلك كان الالى هو صاحب السلطان العسكرى والحكومى
والشرعى على المنطقة ، أى أنه كان يملك سلطة الحكم والقضاء والتنفيذ .
كان يقوم بزيارة كل بقعة فى منطقته مرة واحدة على الأقل فى السنة .
يستمع إلى شكاوى الشعب ، ويحكم فى قضاياهم ، ويسوى خلافاتهم . وكان
يشرف على جمع الضرائب ، لكنه ما كان له الحق فى فرض ضرائب
جديدة . وكان يتقاضى راتبه من الخزانة ، ولكنه كان محظوراً عليه أن
يتناول أية هدية أو رشوة ، فإذا تجاوز سلطاته كان للشعب الحق فى رفع
أمره إلى قيصر .

وهذا النوع الأخير من نظام الحكم ، كان مطبقاً فى فلسطين ،
فإلى هناك عين «أوغسطس قيصر» من قبله الالى الأول عام ٦ للميلاد .
أما « بيلاطس » فقد بدأ ولايته عام ٢٩ م واستمر على كرسي الحكم
تسع سنوات . ولقد كانت فلسطين كما هو شأنها على الدوام ، منطقة تغلى
بالاضطرابات والمشاكل . وكانت تقتضى أن يحكم الالى بعقل ناضج ويد
من حديد . ونحن لا نعرف إلا القليل عن تاريخ «بيلاطس» ، قبل أن يلمع
فى أفق السياسة . ولكننا نعتقد أنه كان يمتلك من الحيلة والمقدرة الإدارية ،
ما جعل قيصر ، يفضلته على سواه فى حكم هذه المنطقة الثائرة ، فلقد كان
لفلسطين مركزها الفريد ، لأنها بحسب موقعها الجغرافى ، القنطرة الموصلة
بين مصر وسورية .

ولكن «بيلاطس» كحاكم أثبت فشله . فلقد بدا أنه كانت تنقصه روح التعاطف مع اليهود ، والفهم الصادق لنفسيتهم . لقد كان يحقرهم . ويرى فيهم شعبا بدائيا متخلفا عن ركب الحضارة . متمسكا بأوهامه وتقاليده ، متعلقا بناموسه وشرائعه ، متعجرفا في غباوته وعنصريته . هكذا كان اليهود في نظر بيلاطس ، وهناك ثلاثة أحداث شهيرة تثبت ذلك .

أما الحادث الأول فقد وقع في أول زيارة له لأورشليم . وأورشليم لم تكن مقر الوالى . كانت مدينة قيصرية هي المقر الرئيسى له . ولكن بطبيعة عمله كان يقوم بزيارة كل مدينة وعلى الأخص أورشليم مركز الهيكل والزعامة الدينية . كانت المدينة تكتظ بالحجاج القادمين إليها في فرض الأعياد ، وعلى وجه التحديد في عيد الفصح . فكانت مقراً للغش ، والمتاعب ولذلك كان الأمر يقتضى أن يكون برفقته كتائب من الجند الرومانى ، وكانت هذه الكتائب تتخذ من قلعة أنطونيا مقراً لها .

ولقد كان الجند يحملون شعاراتهم معهم . وعلى قمة هذه الشعارات كانت صورة من المعدن لقيصر يظله النسر للرومانى . كان «قيصر» كما أسلفنا يكرم ويقدم له التعبد كإله . وهذه الصورة المعدنية ، كانت في نظر اليهود لا تقل عن تمثال منحوت ينهى الناموس صراحة عن إكرامه وعبادته أو حتى صنعه .

أما الولاة السابقون ، فقد أوتوا من الحكمة ما جعلهم ينزعون هذه الصور المعدنية ، احتراماً لمعتقدات اليهود ، ومنعاً للقلق والثورات .

أما هو ، فلم يكثر لذلك ، بل أمر الجند أن يدخلوا المدينة المقدسة بكامل عدتهم وزينتهم وشعاراتهم . ولقد حاول كثيرون من شيوخ اليهود أن يبصروه بنتائج عمله . ولكنه رفض بإصرار وعزم ألا يستجيب لما أسماه خرافات اليهود . وهكذا عاد إلى قيصرية تاركاً جنوده في أورشليم .

وتبعته جماهير اليهود إلى هناك . وأحاطوا بقصره خمسة أيام كاملة ليل
نهار ، لا يتزحزون من مكانهم ، وهم يصرخون ويتذللون في اتضاع .
وأخيراً أرسل «بيلاطس» إليهم رسولا يخبرهم أنه على استعداد للقاءهم والتفاهم
معهم في مسرح المدينة . وهناك حيث تجتمع اليهود أحاطت الكتائب المسلحة
بالمسرح وهدد «بيلاطس» زعماءهم ، بأنهم إن لم يعودوا من حيث أتوا ، فنصيبهم
لن يكون أقل من الموت بحد السيف . وعندها مدوا رقابهم في تحد وأظهروا
استعدادهم للموت . ولكن حتى بيلاطس ما كان يستطيع أن يقتل جماعات
عزلاء بلا سلاح دون أن يعرض مركزه للخطر كوال . وهكذا لم يجد
بدا من الرضوخ لمطالبهم وأمر جنوده بنزع صورة قيصر عن الشعارات
وكانت هذه أسوأ بداية يمكن أن يبدأ بها حاكم .

والحادثة الثانية كانت تدور حول أموال الهيكل وهل يمكن استخدامها في المشاريع
العمرانية أم لا . فأورشليم كانت تعاني من مشكلة نقص المياه وكان من رأى
بيلاطس أن يعالج المشكلة بعمل قناة حجرية تجري فيها المياه ، من خارج
المدينة إلى داخلها . ومن أين يأتي بالمال اللازم لهذا المشروع النافع ؟ هناك
الألوف المؤلفة في خزانة الهيكل ، والتي ترقد في موضعها بلا فائدة إلا أن
تمتد إليها أيدي الكهنة للسلب والنهب . لماذا لا يستخدم هذه الأموال في مثل
هذا العمل ؟ على أن «بيلاطس» لم يتجه إلى استخدام الأموال المقدسة المخصصة
للذبائح والتقدمات . لقد اتجه إلى المال المسمى بالقربهن . والذي كان يأتي
من مصادر يستحيل معها استخدامه في الطقوس المقدسة .

ولقد كان مشروع «بيلاطس» حيويًا ضروريًا . مشروع عظيم ولا شك .
فالماء لازم كل اللزوم لسكان المدينة . وهو بالحرى أكثر لزوماً للهيكل
الذي يحتاج إلى التنظيف المستمر من الذبائح اليومية . ولكن اليهود ثاروا
على المشروع وتدفقوا في الطرقات يصخبون ويلعنون .

أما «بيلاطس» فقد ركب رأسه هذه المرة ، وأرسل جنوده متخفين في ملابس عادية وأسلحتهم مخبأة تحتها . وبإشارة منه تسللوا وسط الجموع الثائرة ، وانقضوا على ضحاياهم كالوحوش ، وذبحوا منهم عدداً ليس بالقليل .

ومرة أخرى زاد «بيلاطس» رصيد الحقد المذخر له في قلوب اليهود ، وأعطاهم الذريعة لرفع شكواهم ضده إلى عتاب قيصر .

والحادثة الثالثة ظهر أنها أكثر رداءة بالنسبة لبيلاطس . فنحن نعرف أنه حين كان يقوم بزيارة أورشليم كان ينزل ضيفاً على قصر هيرودس القديم . وهناك أمر بصنع مجموعة من الدروع ، التي تعرف بدروع التصويت أو الدعاية ، ونقش عليها اسم «طباريوس قيصر» تكريماً للذكرى الإمبرطور . وأمر بتعليقها حول جدران القصر . ولقد أسلفنا أن قيصر كان يكرم كإله . وها هم أولاء يقرأون اسم إله غريب في قلب مدينة داود ! وثار اليهود وطلبوا من «بيلاطس» أن ينزع الدرع ولكنه رفض بعناد . وأخيراً لم يجدوا بداً من أن يرفعوا شكواهم إلى طباريوس قيصر نفسه الذي استجاب لهم ، وأمر بيلاطس بالرضوخ لمطالبهم .

ولعله من المملد لنا أن نعرف ، كيف انتهى الأمر مع بيلاطس . حدث هذا بعد سنتين اثنتين من صلب المسيح . ففي السامرة قامت بعثة للتنقيب في جبل السامرة عن بعض الأواني الأثرية التي يقال إنها مدفونة هناك وظن بيلاطس أن في الأمر مؤامرة ، فأرسل جنده وذبحوا أعضاء البعثة . أما سكان السامرة فقد كانوا معروفين بإخلاصهم وهدوئهم . فأرسلوا يشتكون لدى والى سورية الذي رفع شكواهم إلى قيصر . فأرسل قيصر في طلبه . وفي أثناء ذهابه إلى روما انتهت حياة طباريوس قيصر .

ولا تعرف ماذا تم في أمر بيلاطس . فمن ذلك الحين اختفى من على مسرح التاريخ إلى النهاية . ويقال إنه عزل وأمر قيصر الجديد بنفيه ...

أمام هذه الصور التاريخية ، عن تطورات العلاقات بين «بيلاطس» وبين اليهود ، نستطيع أن ندرك كيف أخرج اليهود الوالي الروماني ، ودفعوه إلى أن يسلم «يسوع» للصلب .

لقد قالوا : « إن أطلقت هذا فلست محبا لقيصر ، وكأني بهم يقولون له بالفعل : « إن صحائفك عند قيصر ليست بيضاء تماما . هناك واقعة سابقة لك لدى البلاط القيصرى . فإن لم تستسلم لنا سوف نرفع أمرك مرة ثانية إلى الامبراطور ، وستكون النتيجة عزلك من الولاية » . لقد دفع «بيلاطس» دفعا للحكم على «يسوع» لأن غلطاته السابقة لم تدع له مجالا إلى تحدى اليهود هذه المرة أيضا . وهكذا ظهرت أمامه صور ماضيه في تلك اللحظة الحاسمة . والمفكر العاقل لا يسعه إلا أن يشعر بالأسى من جهة بيلاطس : لقد أراد أن يثبت أقدامه ، ولكن العاصفة كانت أقوى وأشد . لقد أراد أن يتحدى اليهود ، ولكن مركزه ومصيره كانا في كف القدر ولم يقبل أن يقامر أو يغامر . وهكذا أسلم يسوع للصلب .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ - ١٩ : ١٦)

رأينا لمحة خاطفة عن تاريخ بيلاطس . والآن دعنا نفحص سلوكه في محاكمته ليسوع . إنه من البداية لم يكن راغبا في الحكم عليه . لقد عرف أن «يسوع» بريء . ومع ذلك كان إلواى مقيدا بفعال ماضيه ، فلم يستطع أن يتخلص من حباله ، فاضطر مرغما إلى إصدار الحكم على إنسان بريء .

١ - ونحن نراه يبدأ بمحاولة التخلي بالكلية عن القضية وإلقاء المسؤولية على الآخرين إنه يقول لليهود ، خلوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم . لقد حاول أن يتخلص من القضية .. أن يتخلص من «يسوع» . ولكن هيهات .
إن يسوع لابد وأن يجابه كل واحد منا ، كمصير حياتنا وهدفنا الرئيسي . وكثيرا ما نظن أننا نستطيع أن نتخلص من يسوع . كثيرا ما نحاول أن نلقى تبعة عدم خضوعنا له على سوانا . ولكن لا أحد يسأل غيرنا نحن . ينبغي أن نتعامل بأنفسنا مع «يسوع» .. ونتحمل في ذواتنا تبعة قبوله أو عدم قبوله .

٢ - ونراه يحاول مرة أخرى أن يتخلص من المآزق فينهرز فرصة العيد ليطلق لهم حسب العادة أسيرا يطلبونه ، وقد كان هذا تقليداً جرى عليه في محاوله للتقرب من الشعب . وظن أنه يستطيع أن يغريهم بإطلاق «يسوع» . هذه مرة ثانية يحاول فيها أن يتخلص من مسؤولية الحكم عليه واتخاذ قرار بنفسه . ولكن لا أحد سوانا يستطيع أن يقرر ماذا نفعل بيسوع ، وهل نقبله أو نرفضه .

٣ - ثم يحاول طريقا ثالثا يعتقد أنه حل وسط يرضى اليهود ولا يصل به إلى أقصى الشوط ، فيأمر بأن يجلد «يسوع» . ولقد ظن أن الضربات التي ستوضع على «يسوع» ومنظر جسده الدامي سيخفف من حدة عداة اليهود له ، وربما يصل بهم إلى الاكتفاء بهذا القدر من الانتقام . لقد ظن خطأ أنه يستطيع أن يتجنب الحكم بالصلب ، بالحكم بالجلد . ومرة أخرى نقول هذا ما لا يستطيع إنسان أن يفعله . لا نستطيع أن نتصرف بين «يسوع» والعالم في حل وسط . لا نستطيع أن نرضى العالم ونرضى يسوع . لا نستطيع أن نخدم سيدين ، فإما نحن ليسوع ، أو نحن على «يسوع» ، ولا طريق وسط بين هذا وذاك .

٤ - وإن كانت هذه الحيل قد فشلت فليتنجه إلى الاستعطاف . ليتجه إلى محاولة لمس قلوبهم بمنظر يسوع الدامى. وهكذا يقتاده إليهم، والدماء لا تزال تقطر من جراحه ، ويهتف فيهم «هذا هو ملككم . هل أصلب ملككم ؟!» لقد حاول أن يستثير فيهم حاسيات العطف والشفقة . ولكن عواطف الآخرين لن تنزع عنا المسؤولية ، لن تعفينا منها . علينا أن نقرر نحن بأنفسنا لا أن نجعل الآخرين يقومون بذلك عنا . أيها القارئ الكريم إن يسوع بجأهك في طريق الحياة . وعليك أن تحكم له أو عليه . وفي حكمك له تحكم لنفسك . وفي حكمك عليه تحكم عليها .

ولن يقوم آخر بذلك «ولن يتحمل التبعة سواك» .

ولن يستطيع آخر أن يقرر مصير «يسوع» في حيائك أنت . عليك أن تقرر بنفسك مصير يسوع بالنسبة لك ، ومصيرك بالنسبة ليسوع ، ولا مناص من ذلك إنك لن تستطيع أن تتخلص من المسؤولية الرهيبة ، مسؤولية الحياة أو الموت بالنسبة لك .

وهكذا أقر «بيلاطس» أخيراً بهزيمته . وأسلم «يسوع» لأيدى رعاع اليهود ، لأنه لم يجد في نفسه الشجاعة ، أن يقف بجانب الحق ، ويتحمل مسؤوليته . ولكننا نغفل الكثير في دراستنا لبيلاطس ، لو أغفلنا جوانب أخرى في صورته الماثلة أمامنا . .

(١) فهناك إشارة إلى روح «بيلاطس» المتعالية : لقد سأل «يسوع» إن كان هو الملك . وسأله «يسوع» إن كان يقول هذا القول من نفسه أم أن آخرين قالوا له ذلك ؟ ويجيب «بيلاطس» في غرور «هل أنا يهودى نظيرك ؟ كيف لي أن أعرف شئونكم ، وناموسكم وأموركم الخاصة ؟» لقد أظهر «بيلاطس»

استعلاءه في أن يزوج بنفسه في عمار تعاليم اليهود وأفكارهم وتقاليدهم وكل ما كان يعتبره خرافات وأساطير ، كان في استعلاء «بيلاطس» سر فشله ، فلن يستطيع حاكم أن ينجح في حكمه لشعب ، مالم يفهم نفسية ذلك الشعب ويتغلغل في عقولهم وأفكارهم .

(ب) ويبدو لنا أن في أعماق «بيلاطس» يكمن الإيمان بالأساطير والأوهام فدفعه هذا إلى طلب المعرفة وحب الاستطلاع وتكرار السؤال بعد السؤال . فهو يحاول أن يعرف من أين جاء «يسوع» ، وبالطبع لم يكن يقصد البلد الأصلي المادى — وحينما سمع أن «يسوع» ابن الله زاد اضطرابه وانزعاجه ، لقد كان «بيلاطس» موسوساً أكثر منه متديناً . وكان يخشى أن تكون في «يسوع» قوة كافية لا يدركها تصيبه بضرر أعظم من الضرر الذى يمكن أن يحقق به فيما لو وقف إلى جانبه . لقد كان يخشى اليهود ، ويخشى قيصر ، ويخاف أن يفقد الكرسي الذى يجلس عليه . ولكنه كان يخشى بالتالى الأسير الذى يقف أمامه ، فربما كانت الآلهة تحل فيه . إن «بيلاطس» لم يكن له من الشجاعة ما يجعله يتحدى البشر أو يقف في جانب الله .

(ج) ولكننا نعتقد أنه في قلب «بيلاطس» كان يكمن الجوع العميق والشوق للغامر . فحينما قال السيد «لهذا قد أتيت لأشهد للحق» كان جواب «بيلاطس» «وما هو الحق ؟» .

وهناك أكثر من صورة يمكن أن يتقدم بها إنسان بهذا السؤال . قد يسأله بروح السخرية والتهكم ، وقد يخلد هذه الصورة «فرانسس باكون» حينما كتب مفصلاً هذا السؤال : «ما هو الحق ؟ هكذا سأل «بيلاطس» ساخرًا ، ولم ينتظر جواباً لسؤاله» .

ولكننا نعتقد أن الموقف ، والملابسات ، وصراخ الجماهير ومشاعر
بيلاطس نفسه ، ما كانت تتيح له وقتا للسخرية . فهذا السؤال ليس سؤال
إنسان ساخر أو عديم الإكتراث . إنه في موقف جاد حازم . ومأزق
لا مجال للسخرية فيه . لقد سأل بيلاطس سؤاله في ضيق ونفاد صبر . فيها
هو قد وصل إلى مالم يصل إليه سواه . إنه بمقاييس البشر إنسان ناجح .
لقد وصل إلى أعلى المراتب في خدمة الأمبراطورية الرومانية . . إلى كرسي
الولاية في منطقة حرجة من مناطق الأمبراطورية العريضة ، ولكن كان هناك ما
ينقصه . إنه يفتقر إلى جوهر الأشياء . لقد نال من الوجود زينتته . . عرضه
الزائل . ولكنه بحاجة إلى الجوهر . ها هو قد وصل إلى أهدافه . . . إلى مشتهاه
وها أمامه يقف جليلي فقير أعزل ، لم ينل حظاً من العلم نظيره ، ولم يصل إلى
مرتبة عليا بين أقرانه ، ولم يحتل مركزاً حكومياً في بلده ، ولكنه أحس أن ذلك
الإنسان البسيط يمتلك الشيء الذي يبحث هو عنه ولا يجده . ومع ذلك لم
ينتظر لسمع الجواب . لقد كان مضطرباً مرتبكاً .

وربما يكون بيلاطس قد تقدم بسؤاله هذا بروح السخرية ، ولكنها سخرية
المرارة واليأس .

هذا هو بيلاطس . لقد جابه شخص المسيح ، فأثار في نفسه أحاسيس
ومشاعر ما كانت موجودة من قبل . لقد فتح عينيه على حقائق أعظم في
الحياة ، فرأى ما ينقصه ، ولقد كان ممكناً أن ينال بكل ما يفتقر إليه ،
ولكن لم تكن لديه الشجاعة ليتحدى ماضيه ، ويتحدى مستقبله ، ويتحدى
الجموع ، ويقف ثابتاً إلى جوار يسوع البريء ، وهكذا ضاعت منه الفرصة
إلى الأبد . .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ – إلى ١٩ : ١٦)

في الصفحات السالفة تأملنا في صورة الجماهير التي أحاطت بيسوع أثناء محاكمته . فتأملنا في الوالي الروماني ، والظروف التي أحاطت به ودفعته للإستسلام لليهود . والآن نأتى إلى الشخصية الرئيسية في هذه الدراما – إلى يسوع المسيح نفسه – هنا نرى صورة « يسوع » تتميزها أكثر من لمسة فنية رائعة . . .

١ – قبل كل شيء لا يوجد إنسان يقرأ القصة المماثلة أمامنا إلا ويقر بجلال يسوع وسموه . هنا نرى الحاكم يمثل في قفص الاتهام ، والأسير يتخذ مكان القضاء . إن يسوع المتهم يقف ليدين بيلاطس الوالي . لقد تعامل بيلاطس بروح الإحتقار مع أكثر من واحد من اليهود . ولكن لم يتصرف هكذا مع يسوع – إننا إذ نقرأ القصة التي أمامنا ، لا يسعنا إلا أن نقر بأن يسوع هو الذى يقف على الأرض الصلبة ، وأن بيلاطس هو الذى تهتز الأرض تحت قدميه . إن يسوع يملك موقفه ، أما بيلاطس فهو يتخبط في حيرة ، في قضية أقحم فيها ولا يدرى لها بداية ولا نهاية . إن جلال يسوع لم يشع بسناء يخطف الأبصار قدر ما نراه هنا أمام البشر يحاكم في قفص الاتهام .

٢ – وهنا نسمع يسوع يتحدث إلينا بكل صراحة عن ملكوته . وملكوته ليس ملكوتا ماديا . إنه ليس من هذه الأرض وإلا كان أتباعه يجاهدون حتى لا يسلم سيدهم للأعداء . ولقد كان الجو مكهزبا في أورشليم ، وعلى الأخص في فرصة تجمع القريب والبعيد في المدينة المقدسة ، شأن عيد الفصح . وكان الرومان يعلمون ذلك . ولهذا السبب كانوا يرسلون قوات إضافية إلى

أورشليم . ولكننا نقول استناداً إلى حقائق تاريخية ثابتة أن مجموع أفراد
العسكر الذين كانوا تحت إمرة بيلاطس في كافة ربوع فلسطين ما كان يزيد
عن ثلاثة آلاف جندي . وكان لا بد أن نبقي حامية منهم في قيصرية حيث
مقر الوالي . وجزء آخر كان لا بد وأن يعسكر في السامرة لحفظ النظام هناك
بحيث لا يتبقى من هؤلاء وأولئك أكثر من بضع مئات يرافقون بيلاطس
في زيارته لأورشليم أثناء فرصة العيد . فلو أراد يسوع أن يثير شغباً ويرفع
لواء التمرد والعصيان . . لو أراد أن يستدعى أتباعه ، فتنبرز إلى الوجود
الأحقاد الكامنة في الصدور لتسعى لتحقيق الأحلام العريضة
لو أراد أن يقود ثورة مسلحة ضد الرومان لم له ذلك بكل سهولة ،
ولكان النجاح حليفه وخاصة في أورشليم في عيد الفصح – هذا إذا لم
نضع في اعتبارنا قوة يسوع المعجزية التي عبر عنها بقوله أنه يستطيع أن
يستدعى إثني عشر جيشاً من الملائكة للوقوف في صفه ، إنه جاء ليبسط
سلطانه على الوجود بأسره ، إلا أنه أكد للوالي أيضاً أن ملكوته لا يبنى
على سلطان القوة والسلاح ، ولكن على المحبة . . على قلوب البشر . إنه
لم يقل لبيلاطس بأنه لم يأت ليفرض سلطانه . ولكن قال بأن الطريق الذي
سيتبعه طريق جديد . . إنه طريق المحبة .

٣ – وهنا يخبرنا يسوع عن الهدف الرئيسي الذي من أجله جاء إلى العالم .
ويقول لهذا جئت إلى العالم لأشهد بالحق . لقد جاء ليشهد بالحق عن البشر ،
وجاء ليشهد بالحق عن الحياة .

إن عهد الصور والرموز وأنصاف الحق قد ذهب للأبد . لقد حان
الوقت ليعرف العالم الحق جلياً وأضحاً في ملء قوته . لا يوجد طريق وسط.
فإما أن يقبل الإنسان الحق أو يرفضه . والمسيح هو الحق .

٤ - وهنا نرى صورة من شجاعة يسوع الجسدية البطولية ، فلقد أمر الوالى جنوده فقاموا بتنفيذ حكم الجلد عليه .

وكانت طريقة الجلد أن يربط الإنسان إلى عامود قصير ، بحيث يصبح ظهره العارى منحنيا . أما السياط فقد كانت من سيور من جلد مقواة بقطع من الرصاص والعظام المسننة ، فإذا نزلت على الجسد تمزقه في خطوط متراصة . قليلون هم الذين كانوا يتحملون عذاب الجلد ويبقون أحياء . فمعظم الضحايا كان يموت تحت الجلدات . والبعض كان يفقد عقله . ولكن يسوع بقى ثابتا للنهاية دون أن تصعد منه أنة واحدة .

ويقتاده بيلاطس للشعب وهو غارق في دماثة . ويشير إليه قائلا : « هوذا الإنسان » . وهنا ترى يوحنا يقدم لنا إحدى الكلمات التى تحمل معنيين ولقد كان هدفه إيقاظ روح العطف في قلوب الجماهير ، فيقول لهم وهو يشير إلى يسوع . . .

« هوذا الإنسان . . . أنظروا إلى جسده الدامى . . .

تطلعوا إلى ما وصل إليه من ألم وشقاء . ألا يكفيكم هذا ؟ . . ألا يشبع قلوبكم ؟ هل تصرون بعد كل هذا أن تدفعوه إلى الموت ؟ » . ولكن حتى في محاولته امتعاط الجماهير . . حتى في نغمته التى تبدو في روح التأثير والألم ، نستطيع أن نكتشف صورة جديدة . . . نستطيع أن نصغى إلى نغمة مخالفة ، نستطيع أن نرى بريق الدهشة يشع من أنظاره ، والإعجاب يملأ قلبه وعقله . إن الكلمة التى استخدمها بيلاطس « هوذا الإنسان » ترد في الأصل اليونانى على هذه الصورة « هو أنثروبوس » وهى تطلق على إنسان بشرى عادى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى كانت نفس الكلمة ، يستخدمها مفكرو الأغريق ، للدلالة على الإنسان الإلهى . الإنسان

المثال . . الإنسان الكامل . . مثال الرجولة . إننا مهما قلنا عن يسوع . .
مهما تحدثنا عنه أو لم نتحدث .

فإن بطولته تبدو أمامنا منقطعة النظير .

هنا أمامنا الرجل . . الرجل الكامل .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ إلى ١٩ : ٥٦)

٥ — ومرة أخرى نرى في محاكمة يسوع وفي حكم الموت عليه، ترتيب الله السابق .
مرة واحدة نستمع إلى بيلاطس يلجأ لتهديد يسوع . وهو ليس تهديداً بقدر
ما هو إنذار أو تحذير . فبيلاطس يحذر يسوع بأن لديه السلطان أن يطلق
سراحه أو أن يصلبه .

ويسوع يجيبه بأنه لا سلطان له عليه بالمرة لو لم يكن قد أعطى من الله .
إن أعجب ما في قصة موت يسوع ، أن بطلها من البداية إلى النهاية ، لا يظهر
أمامنا وكأنه أخذ على غرة . . . وكأن الظروف هي التي أحاطت به فجأة
وتحكمت في مصيره . وكأنه دفع دفعا إلى الصليب والموت . إن القصة تنفي
ذلك . إن يسوع لم يكن ضحية كيد خفي انتهى إلى اغتياله . إنه من البداية
إلى النهاية، سيد الموقف، يسير بخطوات ثابتة إلى هدف محدد هو الصليب .

٦ — وهنا يرسم لنا يوحنا بريشته لمسة رائعة رهيبة لصمت يسوع . فهو
يصل إلى حد أنه يرفض فيه الإجابة على أسئلة الوالي المتلاحقة .

هناك مواقف أخرى آثر فيها رب المجد الصمت . فنحن نراه صامتا
أمام رئيس الكهنة (راجع إنجيل متى ٢٦ : ٦٣ ، ومرقس ١٥ : ٥) .

ونراه يصمت في جلال وإباء أمام هيرودس (لو ٢٣ : ٩) ، ونراه يلزم الصمت أيضاً إزاء اتهامات اليهود التي وجهت إليه أمام بيلاطس (متى ٢٧ : ١٤ مرقس ١٥ : ٥) .

وفي بعض الأحيان نخبر شيئاً نظير هذا . . فقد تجمعنا الظروف مع فرد أو جماعة . ويدور بيننا نقاش حول موضوع من المواضيع . وأخيراً نكتشف أننا نلور في حلقة مفرغة ، وأنه لا جدوى من استمرار النقاش فنصمت . إنهم لا يشاركوننا الرأي ، وليسوا على استعداد أن يسلموا بالحق الذي نتمسك به . إننا لا نفهمهم وهم بالتالي لا يفهموننا ، وكأننا وهم نتكلم بلغات مختلفة متباينة . إن مقاييسنا تغاير مقاييسهم . ومثلنا تختلف عن مثلهم ، وأفكارهم تنأى بعيداً عن أفكارنا .

هذا يحدث بالفعل حينما تكون هناك فجوة روحية عميقة فاصلة . فجوة لا يمكن أن نعبرها إليهم ، ولا يمكن أن يتجاوزوها إلينا .

وهكذا كان يسوع أمام بيلاطس . . وهكذا اضطر يسوع إلى الصمت أمام بيلاطس .

شيء رهيب حقاً أن يصمت يسوع ، شيء رهيب أن يهمل يسوع إنساناً فيوثر الصمت أمامه . إن هذا معناه أن حالته قد أثبتت فشلاً ذريعاً أمام طبيب النفوس . . . أنه لم يعد هناك أدنى أمل فيه . وأن يسوع قد نفّض يديه منه للأبد . هذا يعني أن ذلك الإنسان قد احتوى بحصن كبريائه وغروره وذاتيته، بحيث لم يعد هناك رجاء في الوصول إلى أعماق كيانه . ويالها من صورة تعيسة مبكية .

٧ - وفي قصة المحاكمة أيضاً كما تصورها لنا البشارة الرابعة : تمتطع أن ترى مواقف درامية نلمس فيها السخرية اللاذعة كما أظهرها أكثر من مرة قلم البشير يوحنا .

فالمشهد يختتم بالوالى وهو يخرج يسوع خارجاً . إلى الموضع الذى يقال له البلاط ، وبالعبرانية جباثا ، وربما سمي كذلك إشارة إلى مربعات البلاط المرمرى التى كانت تغطى أرضيته . وهناك يتخذ بيلاطس مكانه على كرسى القضاء . أما ذلك الكرسى فقد كان يعرف بلقب « البها » حيث يصدر الحاكم أحكامه النهائية . والفعل « جلس » وفي الأصل « كاتزين » ، يحتمل أن يعنى أمرين . . يحتمل أن يعنى أن يجلس الإنسان بنفسه ، أو أن يجلس سواه . وربما ، ولو أن هذا الاحتمال بعيد ، أجلس بيلاطس يسوع فى مكان القضاء ، وهو لا بس ثوبه القرمزى ، ثوب السخرية ، وعلى رأسه إكليل الشوك ، والدماء تقطر من جبينه ، ربما قام بيلاطس بإجلاس يسوع فى مكانه ، وإمعاناً فى الهزء من اليهود ، أشار إليه وهو يقول « أصلب ملككم ؟ » . ويقول إنجيل بطرس ، وهو أحد الأناجيل غير القانونية ، أن بيلاطس أجلس يسوع فى كرسى القضاء ، وهو يقول « أحكم بالحق ياملك إسرائيل ! ! » . ويقول يوستينوس الشهيد إنهم أجلسوا يسوع على كرسى الحكم وقالوا له : « أحكم لنا » .

ربما يكون هدف بيلاطس السخرية من اليهود ، فى إظهار ملكهم بهذه الصورة ، وربما يكون هدفه السخرية من يسوع . ولكن ما أروع ما انقلبت هذه الصورة الساخرة لترسم لنا نبوة عظيمة ، وحقاً مجيداً ، إن ما قصده هزءاً وسخرية كان الحق بعينه . ويوما ما ، سينظر أولئك الذين سخروا منه إلى يسوع عينه ، وهو يجلس على كرسى القضاء ليدين الشعوب .

وهكذا نرى في هذه المحاكاة المسرحية جلال يسوع ، نرى شجاعته ،
نرى قبوله للموت الرهيب بكل ثبات . . نرى تسليمه لإرادة الآب . .
ونرى صورة ساخرة درامية ، تنقلب إلى نبوة ، وترسم لنا حقيقة عظيمة .
أن يسوع لم يكن ملكيا ، أكثر منه ، وهو يرتدى الثوب القرمزى ، ولم يكن
رب التاج ، أكثر منه ، وهو مكمل بأكليل الشوك .

يسوع وبيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٠ إلى ١٩ : ١٦)

تأملنا في الشخصيات الرئيسية في محاكمة يسوع . فهناك اليهود بأحقادهم ،
وهناك بيلاطس بماضيه الذى يقيده ويتحكم فى تصرفاته ، وهناك يسوع
بجلاله ومجده الملكى . ولكن هناك شخصيات جانبية قامت بدورها الثانوى
على مسرح المحاكاة . ونحن نريد أن نفرّد لها بعض السطور : . .

١ - فهناك جند الرومان : وحينما أسلم إليهم يسوع ليجلدوه ، انتهزوا الفرصة
ليشبعوا نفسياتهم السمجة الفظة بالسخرية منه قدر المستطاع . فهو ملك .
إذا لنبحث له عن ثوب ماكى يليق به . وتاج يتوج رأسه . أما الثوب فقد
وجدوه فى رداء قرمزى قديم ، لعله كان يستخدم فى المسارح للأدوار التمثيلية .
أما التاج ، فقد اكتشفوه فى أعواد نبات شوكى يكثر فوق تلال فلسطين ،
ضفروا منه إكليلًا وتوجوه به . أما العرش فقد أحضروا كرسيًا وأجلسوه
عليه . أما الصولجان ، فكان عوداً من الغاب . وكانوا يمرون أمامه ساجدين
ساخرين هاتفين : « السلام ياملك » . ثم يلطمونه على وجهه : لقد كانوا
يلعبون لعبة سخيفة كانت سائدة فى القديم .

يحدثنا المفكر فيلو عن صورة قريبة الشبه جدا من هذه ، كان يلعبها رعا

الإسكندرية قديماً فيقول : « هناك إنسان معتوه يدعى كاراباس ، كان مصاباً بنوع من الجنون الهادئ . هذا المعتوه اعتاد أن ينزع طرفات المدينة ليلاً ونهاراً ، وهو يسير على غير هدى مجرداً من ثيابه كما ولدته أمه ، وقد أحاط به الصبية والكسالى يضايقونه ويحصبونه بالحصى .

وأحياناً كانوا يتخذونه هدف ألعابهم . وحدث أنهم دفعوه يوماً إلى الجمنازيوم أو الملعب . وأجلسوه على مكان عال حتى يراه الجميع . ثم أتوا بسلخه من لحاء الشجر ، وصنعوا منها غطاء لرأسه ، وبطنفسه عتيقة أحاطوا جسده . أما الصولجان ، فقد وجدوه في عود من أعواد البردى ملقى في الطريق ، أدخلوه ووضعوه في يمينه . وبعد أن كملت زينته كملك في مسرحية ساخرة أسرعت مجموعة من الشبان تحمل العصي الطويلة ، لتصطف عن يمينه وعن يساره وكأنها حرس الشرف . ثم تقدمت البقية الواحد بعد الآخر ، أحدهم يقدم له شكواه ، والآخر يسأله العفو عن إساءة أو جرم وكأنه يحكم في مصائر شعبه . ثم هتف الجميع أمامه قائلين « مارين » ، وهي اللفظة السورية لكلمة ملك ، نفس الصورة التي تبدو أمامنا في معاملة الجند الرومان ليسوع .

وبالرغم من كل هذا نقول ، إن دورهم كان ثانوياً . وأنهم رغم فظاظتهم وقسوتهم ، أقل الكل مسئولية وجرمًا . فهم لا يدرون ماذا يفعلون . أمامهم أسير يهودي تدينه أمته ، ويطالب إخوته بدمه فمن يدري ؟ لعله قد ارتكب معصية أو جريمة يستحق من أجلها الموت . إن معظم أولئك الجند أتى من أماكن بعيدة كمدينة قيصرية وغيرها ، ولم يسمع قط عن يسوع . لقد كان الأسير المائل أمامهم ، واحداً من الأسرى الذين يقدمون إلى المحاكمة بين الحين والحين ، ويتم فيهم تنفيذ حكم الموت . وكانوا يجدون متنفساً لأحقادهم الكامنة ضد اليهود ، في السخرية منهم .

وهنا نرى إحدى الصور الدرامية الساخرة، التي يقصد البشير بتصويرها أكثر من صورتها الحالية . لقد انقلب الموقف الساخر إلى حقيقة ساخرة . لقد صنع الجند من يسوع صورة كاريكاتورية للملك . وبهذا أقروا بملكه العظيم ، الشامل . فوراء السخرية كان الحق العظيم الأبدى .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ - ١٩ : ١٦)

٢ - وأخيرا لم يبق على خشبة المسرح ، صورة جدية بالتأمل ، عدا شخصية باراباس ويوحنا لا نخبرنا إلا القليل عن باراباس . وعن عادة إطلاق أحد الأسرى أو السجناء في عيد الفصح ، لا نعرف شيئا أكثر مما نخبرنا به البشائر ، والبشائر الثلاث الأخرى ، تقدم لنا لمسات قليلة أخرى للصورة . فإذا جمعنا هذه وتلك ، نستطيع أن نعرف أن باراباس كان أسيرا أثيرا لدى الشعب ، وأنه كان من قطاع الطرق . وأنه اشترك في فتنة وشغب في المدينة ، وأنه ارتكب جريمة قتل . (راجع متى ٢٧ : ١٥ - ٢٦ ، مرقس ١٥ : ٦ - ١٥ ، لوقا ٢٣ : ٦٧ - ٢٥ ، أعمال الرسل ٣ : ١٤) .

أما لقب باراباس ، فهو يستحق التأمل . فهناك احتمالان لما يعنيه هذا اللقب . فقد يكون مكونا من مقطعين « بار » ومعناه ابن و « آبا » ومعناه أب ، فهو « ابن أبيه » . وربما يعنى الاسم « بار بان » أو ابن المعلم الجدد . وليس بعيدا أن يكون باراباس ابن واحد من الأحبار المعروفين ، انحرف عن التعليم ، وضل طريقه . أو ربما يكون ابن واحد من الذين اختلطت في أعماقهم روح الثورة والتمرد بالأحلام الوطنية ، فأصبح في نظر الشعب زعيما ، شأنه شأن « روبين هود » الثاثة ، الذي كان يعيش مع رجاله في الغابة ،

معتمدا على ما يجمعه من الأثرياء بالرضى أو التهديد ، حتى أصبح شخصية معروفة نسجت حولها الأساطير في الأدب الإنكليزي .

ومن المهم لدينا ، ألا نرى في باراباس صورة لص منازل أو نشال في الطريق العام . لقد كان قاطع طريق ، يجمع حوله أتباعه ، ويجنح إلى المناطق الجبلية . وإحدى الكلمات الواردة عنه في الأصل « لستنس » تعنى هذا . وربما كان ميدان عمله طريق أريحا الجبلي بمنحنياته الكثيرة ومغاوره . وربما كان المسيح يقصده في مثله الشهير ، عن السامري الصالح .

بل لعله ارتفع في نظر الشعب ، كما أشرنا ، إلى مقام الزعيم الوطني الثائر ، من طائفة الغيورين ، الذين أقسموا أن يحرروا بلادهم من نير الرومان ، بكل وسيلة من الوسائل ، بالسيف ، بالنار ، بالسلب ، بالنهب ، بالقتل . فهو لم يكن مجرما رخيصا . لقد كانت مغامراته ، تحيطه بهالة من الاحترام والتقدير في نظر الشعب .

ولكن هناك ما هو أكثر من هذا عن اسم باراباس . فهو على ما يبدو ليس اسما أصيلا ، إنه اسم ثان . لقد كان لقبا له كما لقب سمعان بلقب بطرس . وهناك نسخ قديمة من العهد القديم كالسريانية ، واليونانية ، والأرمينية تعطى باراباس لقب « باراباس يسوع » . هذا ليس بعيد الاحتمال لأن اسم يسوع كان شائعا في ذلك الوقت . إن يسوع هو الترجمة اليونانية للاسم العبري يشوع . إن كان الأمر كذلك يَكُونُ هتاف الجماهير على هذا النحو .. « ليس يسوع الناصري » بل يسوع باراباس » . هتاف له رنين .

ولقد كان اختيار الجماهير اختياراً أبدياً . كان باراباس رجل القوة والبطش والدماء .. الرجل الذى اختار طريق العنف للوصول إلى مطامعه . أما يسوع الناصرى ، فقد كان إنسان المحبة والعطف الذى لا نصيب للعنف فى قلبه ، والذى أسس ملكوته فى قلوب الناس ، ومن المؤسف أن نقول ، إن العالم كله منذ بداية التاريخ حتى نهاية الدهر ، ما زال يسير فى ركاب باراباس . ما زال يؤمن بالعنف .. والبطش .. والنار .. وبسفك الدماء للوصول إلى أغراضه . ولم يعرف بعد طريق يسوع الناصرى .

أما ما حدث لباراباس بعد ذلك ، فلا أحد يعرف (١) .

ولكن الكاتبة الروائية مارى كوريللى تقدم لنا صورة خيالية رائعة ليست بعيدة الاحتمال . فهو يسير فى موكب الصليب . ويشاهد يسوع الناصرى يرفع فى المكان الذى كان ينبغى أن يرفع هو فيه . . فى فيهتف فى انكسار « إن قلبى ينكسر معك أنا المحرم الخاطئ » . بعد هذا يشرق عليه النور شيئاً فشيئاً . حتى يصل إلى صبح اليقين والإيمان الكامل ، فيهتف باسم يسوع الناصرى . ويحقق عليه رئيس الكهنة ، فيدبر له مؤامرة تنتهى بالقبض عليه ، وإلقائه فى السجن رهن المحاكمة وفى صباح اليوم المعين لمحاكمته ، يفتح السجن باب الزنازة ليجده جثة هامدة .

لقد كان فى التقاء صورة يسوع مع باراباس فى يوم المحاكمة التاريخية أكثر من مادة للتأمل ، وأكثر من مادة للوعظ والتبشير .. إنه نور الصبح ، يلتقى وجهها لوجه مع ظلام الليل الرهيب .

(١) للاستمتاع بلمسات رومانتيكية رائعة يستطيع القارئ أن يراجع قصة « باراباس » للمعرب .

لم تكن هناك في العالم القديم مية أفسى ولا أشنع من مية الصليب .
فقد كان الوقت الذى يستغرقه المصلوب حتى تنتهى حياته ، طويلا بالنسبة
لأية مية أخرى ، وكان العذاب قاسيا . بل إن الرومان أنفسهم كانوا
ينظرون إلى مية الصليب برعب ورهبة . يقول «شيشرون» خطيب الرومان
إن الصليب هو ألعن الميتات قسوة ووحشية . ويتحدث عنه تاكتوس فيقول
إنه موت لا يعبر عنه بالكلمات .

ولقد بدأ الصليب كطريقة للإعدام بين الفرس . كانت الأرض مقدسة
طاهرة ، أظهر من أن تنجس بجسد مجرم أو قاتل . ولذلك كانوا يعلقون
المجرم فى الهواء ، مسمرين إياه على الصليب ، ويتركونه يموت هناك ،
وتقوم الطيور الجارحة والنسور بعد ذلك بنهش لحمه . وعن الفرس انتقل
إلى أهل قرطاجة . ومن القرطاجيين انتقل إلى الرومان .

ولكن الصليب ما كان عقوبة تسرى على أى روماني ، مهما ارتكب من
جرائم . لقد كان عقاب العبيد ، وعقاب سكان المستعمرات . فما كان
المجتمع الروماني يتصور رومانيا معلقا على الصليب . يقول شيشرون :
«إنه لجرم أن يقيد مواطن روماني .. وجرم أكبر أن يجلد .. وجرم أشد
شناعة أن تزهق روحه . فكم بالجرى أن يعلق على صليب ؟ . إن عملا
مثل هذا لا يمكن أن تصفه كلمات . لأنه لا توجد كلمات يوصف بها »

هذا هو الموت . والموت الذى كان أفسى ما يحشاه إنسان فى العالم
القديم .. موت سكان المستعمرات ، والمجرمين والعبيد . هو الموت الذى
قاساه يسوع .

ولقد كان روتين الصليب واحدا لا يتغير . فبعد أن تثبت إدانة المتهم

ينطق القاضي بالحكم الرهيب : « إيس آد كروسيم » - مصيرك إلى الصليب
وفي الحال يبدأ موكب الصليب ، فلا فترة تفصل بين الحكم والتنفيذ .

كان يحيط بالمتهم أربعة من الجنود ، وهو يحمل صليبه في طريقه للموت .
وغالباً ما كان يجلد قبل تنفيذ الحكم .

فإذا انتهت عملية الجلد ، وما أقساها ، حمل صليبه وأسندته الجنود ،
وهو سائر على قدميه وعلى ظهره الحمل الرهيب . وأمامه كان يسير ضابط
يحمل لافتة ، سطرت عليها الجريمة التي انتهت به إلى الإعدام . أما موكب
الصليب ، فقد كان ينبغي أن يمر في أكبر عدد ممكن من طرقات المدينة .
لسببين . . السبب الأول ، كان الاعتبار والتخويف لكل من تسول
له نفسه الخروج على القانون . وقد كانت الصورة المهيبة والمصير الرهيب ،
ورؤية أكبر عدد ممكن من الناس للمحكوم عليه ، رادعاً لكثيرين ليتجنبوا
مصيره ، ووازعاً للخضوع والاستسلام .

ولكن كان هناك سبب آخر رحيم : أنه قد يكون هناك شاهد في صف
المتهم لم يأخذ خبراً بالحكم عليه فيتقدم للدفاع عنه وربما انتهى ذلك إلى
تخفيف الحكم عليه .

ولقد كان مكان الإعدام خارج أورشليم ، في موضع يقال له « مكان
الجمجمة » وبالعبرانية « جلجثة » وباللاتينية « كلفاري » ومنها انتقلت إلى
الإنكليزية . وكان الناموس يحتم أن يكون مكان الإعدام خارج المدينة ،
لأنه لا ينبغي أن يدق الصليب ، وينفذ الحكم على الأرض المقدسة .

ونحن لا نستطيع على وجه التحديد أن نعرف الموضع . هناك
أكثر من سبب تقدم به المؤرخون لتحديد المكان الذي يلقب بالجمجمة

والسبب الذى من أجله أطلق هذا الإسم عليها . هناك تقليد قديم يقول إن جمجمة آدم مدفونة فى هذا الموضع لذلك أطلق عليه هذا اللقب . واقتراح آخر يقول إن جماجم الذين حكم عليهم بالموت من أجيال طويلة كانت تنتشر هناك ، لكن هذا بعيد الاحتمال ، لأن القانون الرومانى ، بالرغم من انه كان يسمح بترك المصلوبين معرضين للشمس والهواء لتنتهى حياتهم بالجوع والعطش وتلوث الجروح ، وقد يستغرق ذلك أياماً ، إلا أن القانون اليهودى ، كان يحتم ألا تغرب الشمس على المصلوبين . بل ينبغي أن تنتهى حياتهم ، وتدفن أجسادهم قبل حلول المساء — بحسب القانون الرومانى كانت تلقى الجثث لتلتهمها الطيور الجارحة ، والوحوش الكاسرة والكلاب المسعورة . ولكن هذا كان محرماً بحسب الناموس اليهودى . وأية بقعة فى اليهودية ، ما كان يمكن أن تترك فيها جماجم مكشوفة فى العراء .

من المنطقى جداً أن نسلم بما اقترحه البعض ، أن ثلة الجلجثة ، أخذت لقبها الشهير ، بسبب منظرها الذى يشبه الجمجمة . ولقد كان اسماً على مسمى .

وهكذا سار «يسوع» فى طريق الآلام حاملاً صليبه ، بقدميه العاريتين الممزقتين ، وظهره الذى تنزف دماؤه ، ورأسه المكمل بالشوك ، إلى ساحة الموت الرهيب .

فى الطرىق إلى الصلىب

فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِى يُقَالُ
لَهُ مَوْضِعُ الْجُمُجُمَةِ وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ جُلْجُثَةُ حَيْثُ
صَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَاوَمِنْ هُنَاوَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ
وَكُتِبَ بِبِلَاطُسَ عِنَوَاناً وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّلِيبِ . وَكَانَ
مَكْتُوباً يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ . فَقَرَأَ هَذَا الْعِنَوَانُ
كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ لِأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِى صُلبَ فِيهِ يَسُوعُ
كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَدِينَةِ . وَكَانَ مَكْتُوباً بِالْعِبْرَانِيَّةِ
وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ . فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ الْيَهُودِ
لِبِيلَاطُسَ لَا تَكْتُبْ مَلِكُ الْيَهُودِ بَلْ إِنَّ ذَاكَ قَالَ أَنَا مَلِكُ
الْيَهُودِ . أَجَابَ بِيلَاطُسُ مَا كُتِبَتْ قَدْ كُتِبَتْ .

(يوحنا ١٩ : ١٧ - ٢٢)

فى هذه الفقرة أمران يجدر بنا ملاحظتهما ..

أما الأمر الأول، فيختص بنص الجريمة كما أثبت فوق الصليب . لقد
كان مكتوباً بلغات ثلاث : العبرية لغة اليهود ، واليونانية لغة التجارة

والمعاملات ، واللاتينية ، لغة السلطات الرومانية . هذه اللغات الرئيسية الثلاث ،
ترمز لحضارات ثلاث ، وأمم ثلاث . وكل من هذه الأمم ، كان لها دورها
الذى لعبته على مسرح التاريخ ، ونصيبها الذى أسهمت به فى توجيه الفكر
الإنسانى . أما اليونان فقد ألهفوا مشاعر الإنسانية للتأمل فى جمال المادة ،
وجمال الفكر على السواء ، أما الرومان فقد علموا العالم أصول الشرائع ،
وأساس الحكم الصائب ، أما أمة العبرانيين فقد قدمت للإنسان الدين
الحق ، وعبادة الإله الواحد .

وهذه المفاهيم كلها وجدت فى يسوع .

فى يسوع تجسم جمال الله ، وفكر الله ..

وفيه تمثل جمال ناموس الله ، وملكوت الله ..

وفيه تمثل دين الله ، وطريق الله ..

إن كل مجهودات البشرية وسعيها الدائب للوصول إلى الكمال ، قد وجدت
تحقيقها فى يسوع ، جميل أن نجد اللغات الثلاث ، بل الحضارات الثلاث ،
بل الأمم الثلاث التى ترمز للعلم أجمع ، تنادى به ملكا ، وتكتب هذا
وترفعه وتعلنه على رؤوس الأشهاد .

ومما لا شك فيه ، أن يلاطس قصد بالذات أن يذل اليهود ويكسر
كبرياءهم ، حينما وضع ذلك العنوان على تلك الصورة فوق صليب يسوع .
لقد هتفوا على التو :

إنه لا ملك لهم سوى قيصر . لقد رفضوا أن يكون يسوع ملكا عليهم .
وإذا بالوالى بروح السخرية ، يضع الأمور فى وضعها الصحيح . فتثور

ثائرة زعماء اليهود ، ويدقون بابه طالبين أن ينزع اللافتة التي ثبتها على الصليب ، أو أن يغير كلماتها . أما هو ، فيرفض بإباء ويقول « ما كتبت قد كتبت » . هل نرى في هذا الموقف إنساناً يفتق لنفسه ؟ هل نرى فيه موقف إنسان نادم على تخاذله ، فهو يريد أن يعوض عما جبن فيه وضعف ؟ هل نرى فيه صورة لبيلاطس العنيد ، الذي لا يلين لتهديد ؟ إن بيلاطس هذا عينه ، هو الذي انحنى أمام العاصفة ، ولم يجسر أن يقاوم ثائرة اليهود على يسوع . لقد وقف متأرجحاً بين هل يصلبه أو يطلقه . . . هل يرضى اليهود أم يرضى ضميره . وأخيراً داس على ضميره واستسلم . لقد بدا ثابتاً حيناً كتب ، تهمة المصلوب ، ومهترأً أمام قرار الصليب !

هذه صورة من المتناقضات العجيبة ، التي قد تبدو في حياتنا . إننا كثيراً ما نتشبث بأمور قد لا تهمننا في كثير ، ونضعف في مواقف أخرى غاية في الأهمية بالنسبة لنا ولغيرنا . كثيراً ما تتحجر أقدامنا ، ولا نريد أن نخرج قيد شعرة عن تفاهات لا قيمة لها ، ونستسلم في تخاذل لتصرف نكسر فيه أسمى نواميس الحياة .. لو كان بيلاطس أظهر مثل هذا العناد والتشبث في الحكم على يسوع ... لو كان قد وقف ثابتاً أمام ثائرة أعدائه ، لحسب في التاريخ ضمن الأبطال العظماء . ولكنه حين ضعف في المواقف الكبرى ، وتمسك كطفل عنيد بموقفه في الأمور الأصغر ، جلل اسمه العار . ولقد كان بيلاطس الرجل الذي أفاق لنفسه أخيراً ، ولكن بعد أن غرقت السفينة ، وضاع كل شيء من يديه .

ما أحوجنا أن نحترز لأنفسنا من مثل هذا المصير ؟

ما أحوجنا إلى أن نثبت أقدامنا في طريق الواجب ، ونقف إلى جوار الحق مهما هبت علينا العواصف والأعاصير .. ما أحوجنا إلى تقدير الأمور تقديرًا صائباً ووضع أهم الأشياء في رأس القائمة ؟

مقامرون في مشهد الموت

ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَّبُوا يَسُوعَ أَخَذُوا
ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ لِكُلِّ عَسْكَرٍ قِسْمًا .
وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضًا . وَكَانَ الْقَمِيصُ بغيرِ خِيَاطَةٍ
مَنْسُوجًا كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَنَنْشُقَّهُ بَلْ
نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ . لَيْتِمُ الْكِتَابُ الْقَائِلُ اقْتَسَمُوا
ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقُوا قُرْعَةً . هَذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ

(يوحنا ١٩ : ٢٣ - ٢٤)

رأينا مما سبق أن المتهم كان يساق إلى مكان الإعدام ، محوطة بأربعة
من العسكر . ولقد كانت ثياب المتهم من نصيب الذين تقع عليهم نوبة
العمل في ذلك اليوم .

وكان لباس اليهودي يتكون من خمسة أنواع من الثياب . فهناك
الأحذية ، والعمامة ، والمنطقة ، والثوب الداخلي ، والرداء الخارجي -
خمسة أشياء وأربعة من الجند . فكانوا يقامرون لتوزيع الحاجيات ،
ليأخذ كل نصيبه ، وما تبقى كانوا يقرعون عليه . وهكذا بعد أن أخذ
كل واحد من العسكر نصيبه ، بقي اللباس الداخلي منسوجا كله بدون

خياطة . فمحاولة تمزيقه إلى قطع أربع كان يجعله بلا منفعة . وهكذا
اقترعوا عليه لمن يكون — صورة تبدو غريبة منفرة في مشهد الموت والدماء
وعويل النساء .

هناك أمور كثيرة نستخلصها من الصورة الماثلة أمامنا ..

١ — يتساءل الواحد هل هناك مشابهة بين أولئك الجند الذين يلقون بالزهر في توقع
المجهول ، وبين ما عمله يسوع ؟ لقد كان الجند مقامرين ، وكان يسوع مغامرا .
ونكاد نقول إن هناك أكثر من وجه شبه بين المقامرة والمغامرة . ففي كلا
الحالتين يلقى الإنسان بكل ما لديه في سبيل توقع ربح أعظم . لقد وضع
يسوع حياته وكل ماله على مذبح الإخلاص والطاعة للآب ... أكاد أقول
قامر بحياته على الصليب . لقد كان الصليب آخر شوط لعبه في مغامرته
أو مقامرته ، ودفع فيه حياته ليكسب رضى الآب ، بل ليربح العالم
كله ...

وللشاعر ستدرت كنيدي سطور بهذا المعنى يقول فيها :

« وراقبوه فابعين عند أقدام الصليب ...

« في ذلك اليوم الرهيب ...

« يلقون زهرهم يقامرون في صخب !

« وهو على الصليب ...

« يكابد الموت الكئيب ...

« يدفع عنا ديننا حتى نهاية الحياة ..

« دين الذنوب والآثام .

« وفى سبيلنا يقامر بكل ماله !

« حياته ودمه ،

« ألقى بها كالزهر فوق مسرح الآلام

« ليبعد الآثام .

« وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم الرهيب

« تتوج التلال بالشعاع القرمزى ،

« أدرك صاحب الصليب

« بأنه كسب الشوط الأخير

« بموته على الصليب !

وأنت أيها المؤمن بالمسيح ، عليك أن تعرف أنك دعيت لتكون مقامراً .
فعليك بأن تلقى بذاتك ، وكيانك ، وكل مالك على مذبح التكريس ، لتكسب
رضى الله ، ومحبه ، وأعجاده ، وخدمته .

٢ - ولا توجد صورة نظير هذه تصور لنا موقف العالم من المسيح .
فالمشهد رهيب .. حزين . . دام . يسوع على الصليب ، والتأوهات
تتصاعد من صدره . والدماء تقطر من جسده . والنسوة يبكين وينحن .
والتلميذ الحبيب يحاول أن يعزيهن . وفى وسط هذه الصورة التى يحيطها
إطار أسود ، يبدو الجنود بلباسهم العسكرى ، وخوذاتهم اللامعة ، وقد أسندوا
سيوفهم إلى جوارهم ، وجلسوا على الأرض الصخرية ، وراحوا يقامرون
ويسخرون ويقهقون .

استوحى أحد الرسامين من هذا المشهد صورة معبرة ، يصور فيها
يسوع مرفوعاً على الصليب . مثقوب اليدين والقدمين ، دأى الجبين ،

منكس الرأس ، يتطلع في حزن إلى الجموع في إحدى مدننا العصرية ، أما الجماهير فهي تنزاحم ، وتتصارع ، بالأيدى والمناكب ، وعيونها إلى الأرض ، لا تكلف نفسها وسعاً ، أن ترفع أنظارها إلى المصلوب ، وتحت الصورة يكتب الرسام هذه الكلمات مستقاة من مرثي إرميا . « أما إليكم يا جميع عابري الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزني » (مرثي ١ : ١٢) .

إن جوهر المأساة يكمن ليس في عداوة العالم ليسوع ، بل في عدم اهتمام العالم بيسوع ... في سلبيةه الكاملة نحوه ، تلك السلبية التي تدفعه إلى عدم الاكتراث بحجة الله .

٣ - وهناك أمران آخران يجدر بنا ملاحظتهما في هذه الصورة ، هناك تقليد قديم يقول إن القميص أو الثوب الداخلى الذى اقترع عليه الجند لمن يكون ، نسجته العذراء المباركة نفسها وقدمته هدية لابنها الحبيب عند خروجه للخدمة . إن كان هذا التقليد صحيحاً ، ومن المرجح أنه صحيح ، فقد جرت العادة أن تقوم الأمهات اليهوديات ، بتقديم مثل هذه الهدية ، وعلى الأخص عندما يبدأ الابن حياته العملية ، إن كان هذا صحيحاً ، فإنه يضيف لمسة أخرى حزينة ، لصورة أولئك الجند الذين يقترعون على هدية أم لابنها في غير اكتراث لمشاعرهم .

٤ - هناك لمسة أخرى تبدو خفية غير واضحة . فذلك القميص يتحدث عنه البشير ، أنه كان منسوجاً كله بغير خياطة قطعة واحدة من أعلاه إلى أسفله . هذا الوصف ينطبق بالتمام على الثوب الداخلى المنسوج من كتان ، الذى كان يرتديه رئيس الكهنة . دعنا نذكر شيئاً عن وظيفة رئيس الكهنة . إن أهم شيء كان يقوم به ، هو أن يكون قنطرة العبور بين الإنسان وإلهه .

وكلمة كاهن في اللاتينية « بونتكس » معناها مقيم القنطرة أو بانها ،
إن وظيفة الكاهن أن يبنى قنطرة العبور بين الإنسان وبين الله .

ونحن لا ننكر أن الكاهن في القديم كان وسيطاً بين الله والإنسان . ولكن
لم تتمثل تلك الوساطة في أسمى وأكمل صورها ، كما تمثلت في يسوع المسيح .
لم توجد قنطرة عبور بين الإنسانية وبين إلهها قدر ما كان المسيح ، فهو
قنطرتنا ... وسيطنا .. رئيس كهنتنا الأكمل ، الذي بواسطته نصل إلى الله ،
وفيه يتنازل الله لنا .

هنا نرى معنيين للصورة الواحدة ، كما اعتاد يوحنا أن يقدم لنا ذلك : معنى
ظاهرًا سطحيًا ، ومعنى آخر ، أكثر عمقاً وخصوبة ودلالة . إن يوحنا حينما
تحدث عن القميص الداخلى المصنوع من كتان ، المنسوج كله بدون خياطة من
أعلاه إلى نهايته ، لم يكن يصف نوعاً من الثياب فحسب ، بل كان يريد
أن يوجهنا إلى أن يسوع هو وسيطنا ، ورئيس كهنتنا الأعظم الذى يفتح
الطريق أمامنا إلى الآب السماوى ، ونجد فيه الرضى والقبول والباب المفتوح .

٥ - وأخيراً نرى فى اقتسام الثياب ، والاقتراع على القميص أو الرداء
إتماماً للنبوة القديمة ، فهو يرجع بنا إلى قول المرنم . . « يقتسمون ثيابي
بينهم ، وعلى لباسي يقترعون » (مزمور ٢٢ : ١٨) .

محبة ابن

وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ أُمُّهُ وَأُخْتُ أُمِّهِ
مَرْيَمُ زَوْجَةُ كَلُوبَا وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ . فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ
أُمَّهُ وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا قَالَ لِأُمِّهِ يَا امْرَأَةُ هُوَذَا
ابْنُكَ . ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ هُوَذَا أُمُّكَ . وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ
أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ

(يوحنا ١٩ : ٢٥ - ٢٧)

على أن يسوع لم يكن وحيداً في لحظاته الأخيرة ، فعند صليبه كانت
النسوة الأربع اللاتي أحبينه ، ولقد رجح بعض المفسرين أنه في تلك العصور
ما كانت النساء بذات أهمية كبرى ، فكان يسمح لهن بالأقتراب من المحكوم
عليهم بالموت ، دون أن يلحظ أحد ذلك أو يهتم به ، وهكذا لم يكن هناك
من خطر على المريمات ، في اقترابهن من صليب يسوع . هذا تفسير ضعيف
ربما لا يطابق تماماً الحقيقة . فليس من المغفول ألا تهتم السلطات بأولئك الذين
يقربون من مذنب خطير ، أدانته الدولة وأصدرت عليه الحكم بموت الصليب
وهو في ساعات تنفيذ الحكم . فربما كان في وجودهم ما يعطل تنفيذ حكم
الموت ، وربما أعدوا العدة لاختطاف المصلوب قبل موته . إن وجود المريمات
لم يكن بسبب أنهن بلا قيمة فلم يلحظهن أحد . إن سر وجودهن هو المحبة الكاملة
التي لا تحسب حساباً للخطر .. المحبة التي تطرح الخوف إلى خارج .

وحينما نتأملهن ، نرى مجموعة غريبة متناقضة . وعدا مريم زوجة كلوبا التي لا نعرف عنها الكثير ، نستطيع أن نعرف شيئا عن الثلاثة الأخريات ..

١ — فهناك العذراء المباركة المطوبة أم يسوع . ولعلها لم تدرك شيئا من كل ما يجري أمامها ، لقد كانت مغلفة في أحزانها ، حزينة على وحيدها : ويلنوب قلبها أسى على النهاية المرة التي انتهى إليها . ولكنها لم تكن تفهم لماذا سارت الأمور هكذا مع يسوع ، فإن مريم لم تستطع أن تفهم ولكنها استطاعت أن تحب . . .

لقد كان وجودها أمراً طبيعياً كأم بجوار ابنها في ساعاته الأخيرة ، قد يكون يسوع مجرمًا في عرف السلطات .

ولكنه ابنها وكفى ...

« يقول رديار كبلنج .

« لو علقوني فوق تلة الممات .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« حبك لى بطيلة الحياة .

« لو أغرقوني وسط البحار .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« قدمك يهمى بلا انتظار .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« إذا مرضت — نفسى والجسد .

« يغمرنى حبك . للأبد ...

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

إن محبة الأمومة . . المحبة الغامرة الفائضة المثالية تتمثل في محبة الأم العنراء لابنها على الصليب .

٢ - وكانت هناك أخت أم يسوع . وفي بشارة يوحنا لا يذكر البشير اسمها - ولكننا لو درسنا القرينة الواردة في (مرقس ١٥ : ٤٠ ، متى ٢٧ : ٥٦) نعرف أن اسمها سالومه أم ابني زبدى يعقوب ويوحنا . ومن الأمور الغريبة التي نعرفها عن سالومه ، أن السيد أنجى إليها يوماً بقول قاس موبخ . فلقد أتت إليه في وقت من الأوقات ، وطلبت طلباً خاصة لابنها في ملكوته العتيد . (متى ٢٠ : ٣٠) ، فإذا بيسوع يخبرها أنها ترفع ناظرها إلى قمة لاندري الصعوبات التي تعترضها في الوصول إليها . فدونها صبغة ينبغي أن بصطبغ بها ولداها ، ودونها كأس ينبغي أن يتجرعها حتى النهاية . لقد أحجلها يسوع أمام التلاميذ ومع ذلك جاءت عند الصليب . إن وجود سالومه له أكثر من دلالة بالنسبة لها ، وله أكثر من دلالة بالنسبة ليسوع ، إنه يظهر لنا أنها كانت تملك الروح الوديدة المتضعة التي تقبل التوبيخ دون أن يقلل هذا ذرة من محبتها ، وهو يظهر لنا أن يسوع قد يضطر أن يوبخ إنساناً بحيث أن محبته تشع حتى من كلمات توبيخه . إن وجود سالومه درس لنا في كيف نعطي ، وكيف نأخذ ، كيف نقبل الإنذار بروح المحبة ، ولا يقلل هذا من محبتنا .

٣ - وهناك كانت مريم المجدلية . وكل ما نعرفه عن المجدلية أن يسوع أخرج منها سبعة شياطين ، (مرقس ١٦ : ٩ ، لوقا ٨ : ٢) ، إن فائدة مجدل ذات التاريخ القديم والماضي الكتيب ، لا يمكن أن تنسى ما صنعه يسوع لها - لقد أنقذتها محبته ، ولذلك لم يكن غريباً « أن يفيض قلبها وعواطفها بمحبتها العميقة التي لا تحمد نيرانها ، وكأني بها صار شعارها « كيف أنسى ذاك الذي أحبنى ! » .

وفي هذه الفقره نرى لمسة من أجمل اللمسات التى تذخر بها قصة الإنجيل ،
فحينما يلمح يسوع أمه ، لم يستطع إلا أن يفكر فى الأيام القادمة الحزينة ، التى
تنتظرها . وهناك إلى جوارها ، يشاهد يوحنا الحبيب ، وهو ابن خالته ،
والتلميذ الذى كان يسوع يحبه ، فيستودع أمه لعنايته ، حتى يرعاها فى وحدتها
ووحشتها . . . ويستودع يوحنا لرعايتها وعنايتها .

إن يسوع فى آلامه المرة ، فى النزاع . . يسوع وهو يحمل على كتفيه
خطايا البشرية ، ويحدد بموته مصيرها وخلصها . . يسوع وهو يصارع
الشیطان وقوات الشر ، فى معركة الأخيرة الرهيبة . . يسوع وهو يرى
احتجاب وجه الآب عنه ، وينسحق قلبه بسبب ذلك . . . يسوع فى تلك
الساعة الحاسمة ، يفكر فى أمه ، فى وحدتها ، ومصيرها بعد أن يتركها . إنه
لم ينس الواجبات البنوية ، ولم يغب عن ناظره منظر الأسرة والبيت ، إنه
يفكر فى آلام الآخرين وأحزانهم ، أكثر مما يفكر فى آلامه وأحزانه .

نهاية ظافرة

بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ
يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ أَنَا عَطْشَانٌ . وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً
مَمْلُؤاً خَلاً . فَمَلَأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا
وَقَدَّمُوهَا إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ قَدْ أُكْمِلَ .
وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ .

(يوحنا ١٩ : ٢٨ - ٣٠)

هنا في هذه الفقرة ، نأتى وجها لوجه أمام حقيقتين عن يسوع . .

١ - الحقيقة الأولى تظهر لنا آلام يسوع الجسدية . . فلقد عرف يسوع على
الصليب مرارة العطش ، ونيرانه . - حينما كان يوحنا يكتب بشارته حوالى
عام ١٠٠ بعد ميلاد يسوع ، ظهرت بدعة جديدة في مجال الفكر الدينى
والفلسفى ، تعرف بالغنوسية ، وهى كلمة تعنى أصحاب المعرفة كما أطلقوا ذلك
على أنفسهم .

وكان أحد أركان تعاليم الغنوسيين أن الروح كلها صلاح وخير ، وأن
الجسد أو المادة منبع الشر .

وعلى أساس هذا الإيمان وصلوا إلى استنتاجات عديدة ، أحدها أن

الله الذى هو روح مطلق ، لا يمكن أن يتخذ لنفسه جسداً . . لا يمكن أن يولد بجسد لأنه لا اتفاق بين الروح والجسد . . لا لقاء بين منبع الخير ومنبع الشر . وهكذا نادوا ، بأن «يسوع» لم يكن له الجسد الحقيقى نظيرنا . لقد كان له شبه الجسد ، فيه تحدد مظهر الإله الروح وأصبح مرئياً للعيون . وعلى سبيل المثال قالوا ، إن يسوع حين كان يسير على الأرض ما كان يترك آثاراً لخطواته ، لأنه روح وجوهر فى جسد أشبه بصورة الأشباح . ثم نادوا بأن الله أسمى من أن يتألم وهكذا لم يشعر يسوع على الصليب بمرارة الألم . بل كان اختبار يسوع على الصليب دون ألم فعلى .

لقد كان الغنوسيون يظنون أنهم بهذا يكرمون الله وينزهونه عن أن يلد أو يولد أو يكون له كفواً أحد ، أو يتألم أو يقاسى مثلما نتألم نحن ونقاسى ، أو يجتاز فى اختبارنا الذى نجتازه . ولكن حقيقة الأمر أنهم كانوا بهذا يحطمون كيان يسوع ، ورسالته ، وهدفه . فإذا كان ليسوع أن يفتدى البشر ، فلا بد وأن يصبح إنساناً ، لا بد وأن يهبط إلى مستوانا ، حتى يرفعنا إلى مستواه . . لا بد وأن يذوق مرارة أخطائنا وعقوبتها ، حتى ينقذنا من أخطائنا . لا بد أن يصير هو ما نحن عليه حتى نصير نحن ما هو عليه . لهذا السبب يؤكد يوحنا حقيقة عطش يسوع ، كصورة من آلامه الجسدية التى كابدها وعانها وقاسى منها أكثر ما قاساه . إن يوحنا يؤكد لنا بهذا إنسانية يسوع . . رجولية يسوع . . حقيقة آلام يسوع .

٢ _ الحقيقة الثانية تواجهنا بنصرة يسوع السرمديّة حينما نقارن ما جاء بالبشائر بصدد صليب يسوع ، نجد حقيقة عظيمة تظهر أمامنا . فالبشائر الثلاث التوافقية ، لا تخبرنا بأن يسوع قال « قد أكمل » ثم نكس رأسه وأسلم الروح . (متى ٢٧ : ١-٥ ، مرقس ١٥ : ٣٧ ، لوقا ٢٣ : ٤٦) .

ولكنها تخبرنا أن يسوع صرخ عند موته بصوت عظيم . ولكن يوحنا هو الوحيد الذى يخبرنا أن كلمات يسوع الأخيرة على الصليب كانت « قد أكمل » والتفسير الذى يفسر هذا التناقض الظاهري هو أن كلمة « قد أكمل » كانت هى الصرخة العظيمة التى أسلم بها المخلص الروح . إنها بعينها صرخته المرتفعة . الجملة « قد أكمل » هى فى الأصل اليونانى مكونة من كلمة واحدة : « تيتلستاي » وقد كانت هى الكلمة التى نادى بها بصوت عظيم . إنه لم يهمس بها بانكسار من يجتاز وادى الهزيمة . لقد هتف بها بفرحة من كسب الإنتصار . لقد كان يسوع محطما على الصليب ، لكنه فى تحطمه كسب المعركة وانتصر على العدو . .

والجملة الأخيرة فى الفقرة التى أمامنا تظهر لنا ذلك بأكثر وضوح . فالبشير يقول إن يسوع قد نكس رأسه . وفى الأصل أسند رأسه ، كتعب يسند رأسه على وسادة بعد رحلة شاقة مرة . إن المعركة بالنسبة ليسوع قد انتهت . . انتهت بالانتصار ، لقد عرف فرحة الانتصار ، وهتف هتاف الفوز ، واختبر راحة من أكمل واجبه وأدى رسالته ، واختبر الاكتفاء والسلام .

أمران آخران ينبغى ألا تفوتنا ملاحظتهما فى هذه الفقرة ، الأول أن صرخة « أنا عطشان » يرجع بها يوحنا إلى أصلها فى العهد القديم . . إلى المزمور التاسع والستين والعدد الحادى والعشرين من هذا المزمور حيث يرد القول « يجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلا » .

إن آلام يسوع قد وردت بروح النبوة على لسان الأنبياء القدامى قبل وقوعها بمئات السنين . . والأمر الثانى ، نلاحظ فيه صورة للمعانى الخفية التى تتكرر بين سطور البشارة . يقول البشير إنهم ملأوا الإسفنجة خلا ،

ورفعوها على عود من أعواد نبات الزوفا إلى شفتي المصلوب. ولقد اعترض بعضا من نبأيات الزوفا، وهو عشب لا يزيد في ارتفاع عوده عن قدمين، لا يصلح لأن يحمل شيئاً. وأن الكلمة ربما تكون ترجمة خاطئة لرمح أو حربة. ولكننا نعتقد أن يوحنا كتب عن الزوفا، وهو يقصد بالفعل نبات الزوفا.

حينما نعود مئات السنين إلى الوراء، إلى أول ليلة فصيح في تاريخ الأمة اليهودية، حينما كان إسرائيل على وشك الخروج من مصر أرض العبودية، نذكر كيف أن ملاك الرب كان مزمعا أن يطوف في الليل في أرض مصر حاملا سيفه المهلك ليقتل الأبنكار. ونذكر أيضاً كيف أن الرب أوصى شعبه المختار أن تذبح كل أسرة حمل الفصح، وترش دمه على العتبة العليا والقائمتين حتى إذا رأى ملاك الموت علامة الدم، يعبر عنها ولا يمسهما بضرر. وكانت الوصية على هذا النحو. «وخذوا باقة زوفا، وانمسوها في الدم في الطست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطست وأنتم لا تخرج أحد منكم من باب بيته إلى الصباح.

فإن الرب يجتاز لضرب المصريين، فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين، يعبر الرب عن الباب، ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم لضرب» (خروج ٢١ : ٢٢، ٢٣) لقد كان في الدم ستر النجاة لشعب الرب، وفي دم يسوع، أساس الخلاص والنجاة من الخطية ومن الغضب الإلهي. إن مجرد ذكر نبات الزوفا، كان يرجع بخيال اليهودي إلى دم حمل الفصح.. حمل النجاة. وهكذا يريد البشير أن يوجه أنظارنا بهذه اللفتة الخفية إلى مانادي به يوحنا المعمدان في مستهل إرسالية يسوع حينما هتف وهو يشير إليه «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا ١ : ٢٩).

الماء والدم

ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِغْدَادُ فَلَكَى لَاتَبَقَى الْأَجْسَادُ عَلَى
الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ لِأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا سَأَلَ
الْيَهُودُ بِيَلَاطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيَرْفَعُوا . فَأَتَى
الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ الْمَصْلُوبِ مَعَهُ .
وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقِيَهُ لِأَنَّهُمْ
رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ . لَكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ
بِحَرْبَةٍ وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ . وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ
وَشَهِادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ .
لِأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ عَظُمَ لَا يُكْسَرُ مِنْهُ .
وَأَيْضًا يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوهُ

(يوحنا ١٩ : ٣١ - ٣٧)

بخصوص عقوبة الصلب ، نستطيع أن نقول إن اليهود إلى حد ما ،
كانوا أكثر رحمة من الرومان - فحين يكون الصلب تحت إشراف الرومان ،
كانوا يتركون المصلوب ليموت ببطء على صليبه ، حتى ولو استغرق
الأمر أياماً .

فقد يكون المصلوب قوى البنية ، فيبقى أياماً معرضاً لحرارة الشمس في النهار ، وقسوة البرد في الليل ، والجوع يعذبه ، والعطش المحرق يجففه ، وجراحه من أثر الجلد والمسامير الصدئة تتقيح وتتعضن ، والذباب والحشرات تجد فيها مرتعاً خصيباً ، لقد كان الصلب فترة رهيبة مرة قاسية ، ولا غرابة أن يخبرنا المؤرخون أن كثيرين من المصلوبين ، كانوا يفقدون عقولهم ، ويموتون وهم يهرفون ..

فإذا انتهت حياة الضحية التعسة ، كانوا يلقون بالجثة للكلاب المسعورة ، والطيور الجارحة ، دون أن يقوموا بدفنها .

ولكن القانون اليهودي ما كان يسمح مثل هذا الموت الوحشي . ونحن نقرأ في سفر التثنية الأصحاح الحادى والعشرين ، والعدين الثانى والعشرين والثالث والعشرين « إذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة ، فلا تدت جثته على الخشبة بل تدفنه في ذلك اليوم ، لأن المعلق ملامعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إهلك نصيباً » . وفى سفر المشنا ناموس الكتبة نقرأ « كل من يترك جثة لتبقى ليلة ، يتعدى الوصية » ، ولقد أعد السنهدريم عدته لذلك ، فكانت هناك مقبرتان لمن لا يدفنون في قبور آبائهم . وعند صلب يسوع ، كانت الفرصة مساء سبت الفصح . وكان الأمر يقتضى عدم بقاء الجثث دون دفن ، لأن ذلك السبت كان عظيماً عند اليهود .

ولقد كان اليهود يتبعون طريقة بدائية لإنهاء حياة المصلوبين . كانوا يقومون بكسر سيقانهم من راء حتى يموتوا .

وهكذا كان تصرفهم مع اللصين اللذين صلبا مع يسوع .

ولكن يسوع كان قد أسلم الروح ، فأعفى من تلك الرحمة الوحشية
أو الضربة الرحيمة كما كانوا يلقبونها .

ويرى البشير في ذلك التصرف أيضاً ، إتماماً للنبوة القديمة القائلة « عظم
منه لا يكسر » (عدد ٩ : ١٢) بل إن حمل الفصح نفسه ما كانت تكسر
عظامه . كانوا يأكلون لحمه مشوياً على أعشاب مرة دون أن يكسر عظم
منه . وهنا نرى إشارة أخرى إلى أن يسوع هو حمل الفصح الإلهي الذي
يرفع خطية العالم .

ثم تتبع ذلك حادثة غريبة . قبعد أن رأى الجند أن «يسوع» قد مات ،
تقدم واحد منهم ورفع رمحه ، وطعن به الجسد ، ولعله فعل ذلك ليتأكد أن المصلوب
قد انتهت حياته بالفعل ، وللوقت سال دم وماء . ويعلق البشير أهمية خاصة
على هذا الحادث ، فهو إتمام لنبوة قديمة نادى بها زكريا قديماً في نبوآته ،
في الأصحاح الثاني عشر والعدد العاشر .. وينظرون إلى الذي طعنوه .. ثم
يضيف الكاتب أنه شهد بعينه هذه الواقعة ويؤكد صدقها وصحتها .

قبل كل شيء دعنا نصور لأنفسنا ما حدث .

ونحن لا نستطيع أن نفهم بالضبط من أين أتى الدم والماء ، ولكن من
المحتمل جداً أن الظروف الإستثنائية الأليمة التي اجتازها يسوع ، قد أدت
إلى انفجار جدار القلب .

إننا نعرف أن الميت لا يدعى ، فالدم يتجمد في عروقه ، ولكن يسوع
اجتاز في آلام نفسية وجسدية مروعة ، فضلاً عن الإرهاق الذي عاناه في
جثسياني في الليلة السابقة ، والسهر المتواصل ، والمحامات المضلة المذلة ، كل
هذه كان لها أثرها في انكسار قلبه الكريم ؛ ولقد وردت النبوة عنه على

لسان كاتب المزمور التاسع والستين والعدد العشرين « العار كسر قلبي » ،
يقول علماء للتشريح ، إن انفجار جدار القلب يؤدي إلى تدفق الدم واختزانه
خلف الحجاب الحاجز . وسرعان ما يتخثر إلى كتلة دموية ، منكمشاً عن المصل
أو السيرم الذى يحيط به . فحين احترق الرمح جنب المسيح ، مزقت الطعنة
الحجاب الحاجز ، فسال الدم ومعه المصل المائى . وهناك رأى آخر يقول ، إن
سن الرمح وصل إلى القلب نفسه ، فمزق الغشاء الخارجى الذى يحوى الماء
ونفذ إلى حجرات القلب . فتدفق الدم والماء .

وسواء كان هذا أو ذاك ، لماذا يصر البشر على تأكيد هذه الحقيقة ؟
ربما كان ذلك لسببين ..

١- السبب الأول ، أن يوحنا كما أسلفنا كتب بشارته في وقت ظهرت فيه بدعة الغنوسيين .
وهو بذلك يريد أن يؤكد أن يسوع كان إنساناً حقيقياً ، وأن جسده كان
جسداً فعلياً . هذا هو رد البشر على أولئك الذين ينادون بشبه الجسد .
أو الجسد الشبح .. وهذا أصدق دليل على أن يسوع كان عظماً من عظمنا .
ولحماً من لحمنا .

٢ - ولكن بالنسبة ليوحنا ، كان هناك في ذلك الحادث ما هو أكثر من
إثبات ناسوت المسيح . لقد رأى في ذلك رمزاً لسرين عظيمين من أسرار
الكنيسة . أحدهما يبنى على الماء ونعنى به سر المعمودية ، والآخر يقوم على أساس
الدم ، سر العشاء الرمزي أو كما يلقب بالعشاء الرباني . فالكأس التى تحوى
النبيذ الأحمر ترمز للدم ، إن ماء المعمودية هو العلامة والرمز ، لنعمة الله
المطهرة في يسوع المسيح ، أما النبيذ في فريضة التناول فهو رمز لدم المسيح
الذى يسفك عن كثيرين لمغفرة الخطايا ، إن الماء والدم اللذين سالا من جنب

يسوع المطعون هما إشارة إلى رمز الغسل في فريضة المعمودية ، ورمز الدم
المطهر الذي نتناوله في صورة النبيذ في عشاء الرب . لقد رأى يوحنا في
تلك الحادثة علامة ورمزاً وإشارة إلى عملية تطهير الحياة بنعمة المسيح ،
وعملية غفران الخطايا بالدم المقدس .

أشواك وزهور فى بستان الجلجثة (١)

وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان ..

(يوحنا ١٩ : ٤١)

ولن يضيرنا أن نقف وقفة تأملية أخرى أمام آية من الآيات الذاخرة التى تذخر بها البشارة الرابعة ، فالبشير يصور لنا الموضع الذى قاسى فيه يسوع الموت فى صورة بستان — بستان فى موضع الموت . إشراقة الحياة أمام غروبها . صورة رائعة تجمع المتناقضات .

كان الوقت بداية الربيع . ولا ريب أن البستان كان يزدهر بالزهور المتفتحة . ولا ريب أنه عن قرب منه ، بين شقوق الصخر ، كانت تنمو الأشواك . وليس ببعيد أن الأشواك التى ضفر منها الإكليل الذى توج به يسوع ، أخذت من هناك . فلم تكن الجلجثة تبعد كثيراً عن دار الولاية . وأمام هذه الأشواك والزهور ، نريد أن تكون لنا وقفة تأملية ، ففيها أكثر من رمز يشير إلى حقائق عظمى .

١ — ولعل أول الرموز التى تشير إليها الأشواك ، أنها تذكرنا بقساوة البشرية . هنا نقف وجهاً لوجه أمام الجريمة الأعظم فى تاريخ البشرية —

(١) هذا التأمل للمعرب

جرّمة صلب يسوع ، لقد جاء ابن الله إلى خاصته ، وخاصته لم تقبله — برسالة المحبة ، برسالة الخدمة ، برسالة السلام ، برسالة الرجاء ، جاء إلى أمته . أما هم فكما قال لهم رسول الختان : « طلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل ورئيس الحياة قتلتموه » (سفر الأعمال ٣ : ١٤ ، ١٥) ألا تنطبق عليهم المراثاة التي رفعها السيد عند اقترابه من أورشليم ؟ « يا أورشليم ، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها » (متى ٢٣ : ٣٧) إن تلة الجلجثة تنادى بأعلى صوت معلنة قساوة قلب الإنسان .

٢ — الرمز الثاني الذي ترمز إليه الأشواك ، هو مرارة الخطية . هنا الأساس وراء القسوة والصليب والدماء . هنا الأساس خلف هتاف الجماهير ليس هذا بل باراباس . وكما يقول البشير « النور جاء إلى العالم » والنور يوبخ .. يكشف .. يعلن . لذلك لا غرابة إن « أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة ، لأن كل من يفعل السيئات يبغض النور ولا يقبل إلى النور لتلا توبخ أعماله » لا غرابة أن يحاول الناس إطفاء النور . إن إنسان الخطيئة لا بد وأن يهرب من إله القداسة ، لا بد وأن يخشاه ، فإذا لم يكن بد من مواجهته ، تحول الخوف إلى عداوة ، وهجوم .

لماذا رفضت الجموع « يسوع » ، وهتفت باسم « باراباس » ؟ ألم يكن « يسوع » معبود الجماهير الذي هتفت له ، أوصنا . مبارك الملك الآتي باسم الرب .. (لوقا ١٩ : ٣٨) ؟ فلماذا تننروا له بعد ذلك ؟ السبب أن الأمر اختلط عليهم في البداية ، لقد توقعوا أن يروا مثال . باراباس في « يسوع » ، فلما خاب ظنهم ، ارتدوا إلى مثالهم الحقيقي ، إن « باراباس » معبودهم منذ البداية ، وليس يسوع ، حقاً ما أقسى خطيئة الإنسان !

هناك قصة من أحداث الثورة الفرنسية تدور حول جماعة من الثائرين

هاجمت أحد النبلاء . وفي ساحة البيت ، رأى زعيم الجماعة صورة كبرى للعدراء المباركة . ووقف برهة في تردد ، ثم ما لبث أن جثا أمام الصورة إلى الجدار وهو يقول : الآن أستطيع أن أفعل ما أريد .

وهذا ما حدث ليسوع . لقد كان صورة الله .. مجد الله .. قداسة الله .. محبة الله .. نور الله المعلن للبشرية . لذلك لم يكن من بد أن تهاجم الإنسانية ، التي تعيش في ظلامها .. في شرها .. في حقدها .. هذا النور الكاشف الموبخ .

٣ — الرمز الثالث الذي نراه في أشواك بستان الجلجثة يشير إلى العدالة الإلهية وليس هناك دليل أقوى من هذا الدليل الذي أمامنا ، يعلن لنا عدالة الله وبغضه للخطية . فالآب المحب لا يشفق على الإبن الحبيب ، لأنه قبل بأن يقف في دائرة الخطية ، ويحمل وزرها وشنائعها ، وكما يقول النبي قديماً « استيقظ ياسيف على راعي ورجل رفقتي » ، إننا نقلل من سمو مقياس الله ، لأن مقاييسنا قاصرة ، ولكن إله القداسة ، لا يمكن أن يتهاون مع الخطية . وصليب يسوع أصدق دليل على ذلك .

٤ — وهذه الأشواك تشير إلى النهاية الحتمية . إن تلة الجلجثة هي تلة الموت في صورتها فهي على شكل جمجمة ، فيها جعلت له ، فقد أصبحت ميدانا للإعدام ، في القبور المتراسة إلى جانبها المنحدر ، في الصليبان التي تغرز في أرضها ، في الدماء التي تلطخها . إن كل ما في الجلجثة ، يشير إلى النهاية الحتمية للبشر . فقد وضع للناس أن يموتوا مرة ، وكما يقول « إغناطيوس ليولا » « لكل سؤال في الحياة نستطيع أن نجيب بكلمة » ربما « إلا سؤال واحد : هل سأموت ؟ ما أقسى حتمية الموت في حياة الإنسان ؟

يقول البشير : فى الموضع حيث صلب يسوع بستان . وما أقسى
الأشواك التى تحيط بهذا البستان ، والتى تعلنها لنا تلة الجلجثة ، بصورها
الرهيبة .

أشواك وزهور فى بستان الجلجثة

(يوحنا ١٩ : ٤١)

ولكن هناك من الجانب الآخر زهور يانعة متفتحة على تلة الجلجثة..
زهور ترمز إلى أكثر من حقيقة .. هناك تقليد يهودى يقول ، إن الله أرسل
إلى العالم بعد سقوط الخليقة ملاكين ، الواحد اسمه ملاك النعمة ، والثانى
ملاك النعمة . فحيثما زرع الأول شوكاً أنبت الثانى فى الشوك ورداً ، وحيثما
زجر الأول بغضب فأرعدت السماء ، وتصيب السيل ، رسم الثانى قوس
قزح على صفحة السحاب الأسود .

وقد تكون النعمة تمثلت فى عهد الناموس ، عهد سيناء بضبابه ،
وبروقه ، ورعوده ، ونيرانه . ولكن النعمة تمثلت فى عهد النعمة .. فى
إشراق رب النعمة فى شخص المسيح المبارك .

على تلة الجلجثة صدمتنا الأشواك فزقنا . وعلى تلة الجلجثة أيضاً
جابهتنا الزهور اليانعة فأحيت فينا ميت الرجاء ..

١ - فهناك وردة الفداء : وهى وردة حمراء بلون الدم . لأنها من دم
المسيح نبتت ، وفى دمه ترعرعت وتفتحت . « الذى فيه لنا الفداء بدمه
غفران الخطايا » . فما كان لنا أن نفتدى من ماضى الخطية ، وسلطانها ،
ولعناتها ، وأبديتها ، لولا فداء المسيح الذى تم على صليب الجلجثة .

هناك قصة خيالية لأوسكار وايلد، خلاصتها أن أميراً اشتاق أن تكون له وردة . وكان الفصل شتاء . وكان للأمير صديق : بلبل جميل . فذهب البلبل إلى شجرة الورد التي لا تملك إلا الأوراق ، وأسر إليها بطلب الأمير . وطلبت الشجرة منه أن يأتي في ظلام الليل ، ويلصق صدره بأحد أشواكها وطار البلبل إليها . ونفذت الشوكة إلى قلبه . وراح يغرد ويغرد ، والشوكة منغرسه في قلبه ، تمتص منه دماء الحياة . واستمر على هذا النحو حتى بذل آخر قطرة من دمه فسقط جثة هامدة . بينما انتفخت الشوكة وتفتحت عن وردة حمراء يانعة .

هنا نرى صورة لما قدمه يسوع للبشرية على تلة الجلجثة ، لقد نفذت شوكة الخطية إلى صدره ، ومزقت قلبه . لكنه قدم للبشرية بديلاً عنها ، وردة الفداء المباركة .

٢ - وهناك بنفسج الصفاء : وسلام الله لا بد وأن يأتي بعد فداء الله . إن الإبن الذي نال الفداء بدم المسيح ، وتحرر من لعنة الخطية وقصاصها ، لا بد وأن يختبر سلام الله الذي يفوق كل عقل . لقد زالت الغيوم ، وانقشعت السحب ، وأشرقت شمس البر والشفاء في أجنتها . « يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً » .

٣ - وإلى جوار هذه تنمو زنبقة النقاء : زهور الزنابق البيضاء تشير على الدوام إلى القداسة . إلى النقاوة . ونقاوتنا و قداستنا هي في ذلك الذي صار لنا من الله برآ و قداسة وفداء .

وفي الصليب تقدم إلينا المسيح ببره الكامل ليستر عرينا . وكما قال أحد القديسين القدامى ، لقد تعرض بالكلية على الصليب ليكسوننا بثوب بره .

٤ - وهناك زهرة رابعة إسمها نرجس العزاء : وأى عزاء لنا فى
آلامنا ، وتجاربنا ، وأمراضنا ، وأحزاننا . إلا أن نتمثل حبيبنا يسوع ،
وقد سار قبلنا فى وادى الدموع والألم ، وعرف تجاربنا وضيقاتنا ؟ « لأنه
فيا هو قد تألم مجربا بقدر أن يعين المحربين » .

٥ - وهناك آخر الكل زهرة الرجاء : وقد تكون هذه الزهرة كامنّة
لم تفتح بعد فى تلة الدماء والصليب والموت . ولكن بعد يومين اثنين ،
شقت طريقها لتستقبل أشعة الشمس . وبظهورها أصبح لنا ملء الرجاء
فى الإنتصار على الموت والهاوية .

والآن تعال أيها العزيز لمن فداك ، وقدم له الأشواك التى بين يديك ،
إنه على استعداد أن يتحمل لعنتها ومرارتها ليعطيك ورود الفداء ، والنقاء
والرجاء ، والحياة الأفضل . هل تأتى إليه ؟

الهدايا الأخيرة ليسوع

ثُمَّ إِنَّ يَوْسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ وَهُوَ تَلْمِيزُ يَسُوعَ
وَلَكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ سَأَلَ بِيَلَاطُسَ أَنْ
يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ . فَأَذِنَ بِيَلَاطُسَ فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ
يَسُوعَ . وَجَاءَ أَيْضاً نِيْقُودِيمُوسُ الَّذِي أَتَى أَوَّلًا إِلَى
يَسُوعَ لَيْلًا وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيْجَ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوَ مِثْقَلِ مَنَاءٍ .
فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الْأَطْيَابِ كَمَا
لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفَّنُوا .

فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ لِأَنَّ
الْقَبْرَ كَانَ قَرِيبًا

(يوحنا ٢٩ : ٣٨ - ٤٠)

وهكذا أسلم « يسوع » الروح على صليب الجلجثة . واقتضى الأمر العمل
بسرعة على إنزال الجسد عن الصليب ، وإعداده للدفن ، حيث أن السبت
كان قريبا ، ولا ينبغي القيام بأى عمل فى السبت ، فكم بالحرى تدلّول
جسد الميت . ولكن اعترضت الأمر مشكلة ، فجميع الذين حول يسوع فقراء

لا تمكنهم مواردهم الضئيلة من أن يقوموا بتكاليف الحنوط ، وقد كان غالبا ،
والدفن ، ولم تكن هناك مقبرة خاصة — هنا يتقدم اثنان لينقذا الموقف .

وأول الإثنين كان «يوسف الرامى» ، فقد كانت له مقبرة منحوتة في
الصخر ، كان إنساناً عظيماً ، وعضواً في مجلس السنهدريم . وكان تلميذاً
ليسوع ، ولكن خفية بسبب الخوف من اليهود . والثانى «نيقوديموس» .
ولقد جرت العادة حينذاك ، كما لا تزال سارية الآن ، أن يلف جسد
الميت بكتان أبيض مشبع بالأطياب ، الحنوط . وهكذا أحضر «نيقوديموس»
معه ما يكفي لهذه المناسبة ويزيد .

لقد قدم «يوسف الرامى» القبر ، وقدم «نيقوديموس» الثوب الذى يلبسه
الضيف الجديد ساكن القبر .

وفي هذه الفقرة نلمس المأساة ، كما نرى الأجداد يلتقيان معاً ...

١ — فهناك عنصر المأساة : لقد كان «نيقوديموس» ، كما كان «يوسف
الرامى» تلميذين ليسوع فى الخفاء . وكانا عضوين فى مجمع السنهدريم مجمع
اليهود الأعلى ، الذى يضم ممثلين من كبار الفريسيين ، والكهنة ، والذى
حوكم المسيح أمام أعضائه . فلما أن نفترض أن «يوسف الرامى» وزميله
اعتذرا عن الحضور ، أو أن نقول إنهما لزموا الصمت طيلة المحاكمة . وكم
كانت تكون لفظة عظيمة لو ارتفع صوت واحد بين الأصوات الثائرة المعادية
مدافعاً عن «يسوع» . وكم كان الفارق يبدو كبيراً لو تطلع يسوع فرأى وسط
أمواج الحقد والعداء ، وجهها واحداً يشع بالمحبة والإخلاص ! ولكن
الخوف تملك قلب «نيقوديموس» كما ساد على «يوسف الرامى» ، فنكسا
رأسيهما ولم ينطقا بكلمة .

حتى أتت فرصة موت «يسوع» ، فظهر الإثنان ليكرما جسد صديق
انتهت حياته !

صورة مؤسفة ولاشك !

لكن ألا يحدث معنا أن نتنكر لواحد من معارفنا في الحياة ، ثم يدفعنا
الندم إلى إكرامه بعد الوفاة ؟ كم كانت كلمة طيبة ، أو وقفة شجاعة
إلى جوار «يسوع» في محنته أفضل من حنوط غالى الثمن ، وأكفان ثمينة ،
وقبر يليق بجسد ملك ؟ إن زهرة واحدة تقدم في الحياة ، أفضل من
عشرات «الكورونات» النفيسة التى تلقى على قبر ميت ... كلمة واحدة
من كلمات المحبة والشكر والمشاركة العطوفة ، أفضل من المراثى البليغة
والقصائد الرنانة التى نهتف بها أمام نعش يضم الجسد الساكن .

٢ - ولكن هناك تكمن الأعجاف : إن موت يسوع قد صنع ليوسف ،
ولنيقوديموس ما لم تصنعه حياة «يسوع» . فما أن أسلم «يسوع» الروح على
الصليب ، حتى تبددت المخاوف ، وأسرع الاثنان إلى دار الوالى يطلبان
الجسد ، ليقدما له الإكرام الواجب . لقد انتهى عهد الجبن ، والخوف ،
والتردد ، والحكمة الجسدية . والتوارى خلف جدار الحرص والحذر . إن
جميع الذين دفعهم الخوف إلى التستر عن العيون في حياة «يسوع» قد وقفوا
إلى جواره ، وأعلنوا اسمه ، ونادوا به ، بعد أن انتهت حياته بالجسد ،
نعم لقد تنبأ السيد قبيل موته بالنبوة القائلة «وأنا إن ارتفعت عن الأرض
أجذب إلى الجميع» (يوحنا ١٢ : ٣٢) . ولم تمض ساعة واحدة بعد
موته على الصليب ، إلا وتحققت تلك النبوة . ربما يكون «نيقوديموس» قد
شعر بالمرارة والألم ، لتغيبه أو صمته عن الدفاع عن «يسوع» . ولكن

الصليب عمل عمله فى أعماق كيانه . وهكذا عرف كيف يطرح الخوف إلى خارج .

إن جاذبية الصليب عملت عملها فيه . والمعجزة تمت فى أعماقه . وقوة الصليب حولت الخائر المتردد الخائف ، إلى بطل شجاع ، لم يتردد فى السير فى طريق الواجب ، والوقوف إلى جانب معلم الأجيال .

المحبة الداهلة

وَفِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ
بَاكِراً وَالظَّلَامُ بَاقٍ فَنَظَرَتْ الْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ الْقَبْرِ .
فَرَكَّضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الْآخَرِ
الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ وَقَالَتْ لَهُمَا أَخَذُوا السِّدَّ مِنَ
الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ . فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ
الْآخَرُ وَآتَيَا إِلَى الْقَبْرِ . وَكَانَ الْاِثْنَانِ يَرْكُضَانِ مَعاً .
فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الْآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلًا إِلَى الْقَبْرِ وَأَنْحَنَى
فَنَظَرَ الْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ . ثُمَّ جَاءَ
سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتَّبِعُهُ وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً
وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الْأَكْفَانِ
بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ . فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً
التِّلْمِيذُ الْآخَرُ الَّذِي جَاءَ أَوَّلًا إِلَى الْقَبْرِ وَرَأَى فَاَمَنَّ .

لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ
يَقُومَ مِنَ الْأَمْوَاتِ . فَمَضَى التَّلْمِيزَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعَيْهِمَا
(يوحنا ٢٠ : ١ - ١٠)

لا نجانب الصواب إن قلنا إن واحداً من التلاميذ أو البشر الذين
عاصروا السيد لم يحبب يسوع ، قدر ما أحبته مريم المجدلية . نخبرنا البشير
لوقا أن السيد أخرج منها شياطين الخطية .

لقد صنع معها عملاً عجيباً . ولذلك لا يمكن أن تنسى ما قدمه لها .
إن التقليد يخبرنا أن تاريخ «مريم المجدلية» كان عفناً ملطخاً بالآثام حين ظهر
يسوع في حياتها ، فغفر لها وطهرها ، وقبلها في مراحمه .

ولقد جرت العادة بين اليهود ، أن يقوموا بزيارة قبر الميت ، لمدة ثلاثة
أيام متتالية ، من يوم دفنه لأنهم كانوا يعتقدون أنه لمدة ثلاثة أيام كاملة
تقوم روح الإنسان حول الجسد ، منتظرة عند باب القبر . حتى إذا هل
اليوم الرابع ، تفضل الطريق ولا تستطيع أن تتعرف على الجسد ، لأن عوامل
الفساد تكون قد دبّت فيه ، وغيرت سحته .

وهكذا تغادر المكان أسيفة حزينة . ولم يستطع واحد من أصدقاء
يسوع ، سواء من النسوة أم من التلاميذ ، أن يقوم بالزيارة التقليدية للقبر في
يوم السبت . فقد كان هذا كسراً للناموس . وهكذا لم تجد «مريم المجدلية»
بداً من الانتظار على أحر من الجمر ، حتى تمر ساعات السبت . وفي فجر
الأحد هبت مسرعة . والكلمة المترجمة باكراً هي في الأصل « بروى »
وهي التعبير العلمي عن آخر حراسة ، من الحراسات الأربع التي يقسم لها الليل .

من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى الساعة السادسة . كان الظلام باقياً حين أتت المجدلية إلى القبر فلم تستطع الانتظار .

وحين أتت إلى القبر ، أصابها الدهشة البالغة ، فما كانت للمقابر في القديم أبواب تغلق . لقد كان لها مجرى محفور أمام مدخلها ، وهذا المجرى كان يدرج فيه حجر مستدير كحجر الرحي يغلق المدخل تماماً .

ويخبرنا البشير متى ، أن السلطات اليهودية قامت بنحتم القبر ، حتى لا يقوم إنسان بتحريك الحجر وإزاحته (متى ٢٧ : ٦٦) .

وهكذا وقفت «مريم المجدلية» أمام القبر في دهشة عظمى ، وهي تسأل نفسها من الذى امتدت يدها ، وقام بإزاحة الحجر من موضعه . ولعل خواطر شتى قد جالت بفكرها . ولعلها ظنت أن اليهود لم يكتفوا بقتل حبيبها على صليب العار ، فامتدت أيديهم إلى الجسد الساكن في القبر ، للتمثيل به أشنع تمثيل . أو لعلها ظنت أن أيدي اللصوص أو العابثين قد امتدت إلى المكان ظناً منهم أن فيه ما يستحق السلب .

وكانت لحظة رهيبة لسيدة عزلاء ، تقف وسط المقابر في رهبة ظلمة ما قبل الفجر ، وأمامها قبر مفتوح قد خلا من ساكنه . وهكذا رجعت مسرعة لتلتقي ببطرس ويوحنا . إن مريم مثال المحبة الداهلة ، مثال الحب العنيد الواثق ، الذى يظل يحب ويحب ، ولا ينطفى لهيب محبته حتى لو هبت أعاصير المتاعب والشكوك . . حتى لو جابهتها ظروف لا تفهمها أو تصل إلى إدراكها . وهذا هو الحب الذى يصل إلى الأمجاد في خاتمة المطاف .

الاكتشاف الأعظم

(يوحنا ٢٠ : ١ - ١٠)

من اللمحات المشرقة في هذه الفقرة ، أن بطرس استمر كما هو قائد جماعة الرسل ، ورائدها ، فإليه ذهبت المجدلية في محنتها وحيرتها . إنه يحتل مركز الصدارة بالرغم من ضعفه وإنكاره لسيد ، ولابد أن قصته مع الخدم في ساحة رئيس الكهنة ، قد وصلت إلى أكثر من أذن ، وتناقلها أكثر من فم . إننا كثيرا ما نتحدث عن ضعف بطرس .. عن جنبه .. عن بطرس المهتز المتأرجح كموجة البحر المهتزة المتأرجحة . وقد كان ممكنا أن حادثة مرة مذلة مثل إنكاره للسيد ، تقضى على مستقبله كتلميذ ، وتجعله ينزوى بعيدا في ظلال الحزى والندامة . ولكن يبدو أن معدن بطرس كان من نوع صلب لا يلين . فها نحن نراه برغم سقطته يقوم على قدميه ، وينفض عنه الغبار ، ويدوس ضعفه وجنبه ، ويستعيد إشراقة الثقة والزعامة مرة أخرى . . . نعم لابد وأنه كان في شخص . بطرس ، ما يميزه عن الإنسان العادي ، حتى نرى إخوته يحنون له الروثوس مرة أخرى . إن ضعف «بطرس» وإنكاره ، كثيرا ما يطغى في أنظارنا على جلاله ، وأصالة معدنه ، وقوة شخصيته ، وكونه ولد ليحتل مركز الزعامة والريادة بين الآخرين . . . إلى «بطرس» هذا ومعه «يوحنا» الحبيب ، ذهبت المجدلية ، وسرعان ما أسرع ثلاثهم إلى القبر مسرعين . ونحن نتخيلهم وهم يتسابقون في لفحة وشوق .

وفي هذا السباق المضني ، استطاع «يوحنا» ، ويبدو أنه كان شابا صغير السن ، لأنه عاش حتى جاوز نهاية القرن الأول ، استطاع أن يسبق «بطرس» ويصل إلى القبر . وهكذا انحنى ، ونظر الأكفان موضوعة وجسد «يسوع» ليس هناك . ولكنه اكتفى بذلك .

أما بطرس ، فقد دخل إلى القبر ، وفحص المكان بدقة ، وهو في دهشة وذهول . وعند ذاك بدأ يوحنا يقلب الأمر من كافة نواحيه . فلو كان لصوص المقابر هم الذين قاموا بهذا العمل ، لما تركوا الأكفان في موضعها ؟ وما قيمة جسد الميت بالنسبة لهم ؟ ثم إذا كانوا قد اهتموا بسرقة الجسد فكيف استطاعوا ذلك دون فك الأكفان ، وبِعَثَرَتِها ؟ إن الكفن بقى كما هو ملفوفا بعناية . وكأنما سحب جسد « يسوع » منه ، كما تسحب القدم من الجورب . والكلمة في الأصل نظر الأكفان موضوعة كما هي ، نعى بلفاتها وطياتها دون أن تفك طية واحدة منها - الأكفان تحتل موضع الجسد أما والمنديل أو الفوطة التي لشم بها وجه الميت ، فطوى في مكانه ، وكأنه يلتف حول الرأس كما كان - صورة غريبة ولا شك تدعو للخوف والرعبة والذهول . فكأنما جسد « يسوع » قد تبخر كالأثير من وسط اللفائف ! وفي هذه الصورة المعجزية التي لا تقبل التأويل ، تحقق التلميذ الحبيب ما حدث ، فأمن . إن يوحنا لم يبن إيمانه على ما جاء في الكتب من نبوات ، أو على ما قاله « يسوع » من تصريحات . لقد تحقق من قيامة سيده من الأموات ، عن طريق ما رآه بعينه ، ولمسه بيديه .

وفي القصة التي أمامنا ، نرى لمسة رائعة للدور الذي تقوم به المحبة . فحريم التي أحبت سيدها كثيرا ، هي التي تسرع أولا إلى القبر والظلام باق ، ولعلها لم تذوق طعم النوم طيلة اليومين السابقين . ويوحنا الحبيب ، التلميذ الذي كان « يسوع » يحبه ، هو الذي آمن أولا بقيامة « يسوع » .

لقد كانت المجدلية أول سيدة تؤمن بقيامة « يسوع » وكان « يوحنا » أول رجل يشاركها هذا الإيمان الحي ، لقد كانت المحبة هي النور الذي أشرق في العينين لتريا الحقيقة ، والنور الذي بدد ظلام القلب ، فأدرك كل شيء .

وهنا نلمس ناموساً عظيماً من نواميس الحياة . ففي أى عمل نقوم به
لا نستطيع أن نترجم أفكار الآخرين ، إن لم تكن بيننا وبينهم رابطة من
التعاطف .

لا يوجد محاضر يستطيع أن يلقي خطاباً عن إنسان ما ، لا يحس نحوه
بالعطف أو المحبة ، لا يستطيع موسيقار أن يقود أفراد مجموعته ، لتعزف
أوبرا لمؤلف عظيم ، لا يشعر بالحب من نحوه . إن المحبة هي أعظم مترجم
يهضم أفكار الآخرين ويقدمها للناس . المحبة هي التي تغوص إلى الأعماق
لتكتشف لآلىء الحق ، في الوقت الذي يتخبط فيه المنطق على الشاطئ ...
المحبة هي التي تحقق معنى الأشياء التي يعجز البحث عن الوصول إليها .

يقال إن رساما ناشئاً ، رسم صورة ليسوع ، وتقدم بها للفنان الكبير
« دوريه » لينقلها . وفي بادئ الأمر لم يشأ أن يجرح مشاعره . لكنه لما
ألح عليه وضع تقريره عن الصورة في كلمة واحدة . « إنك لا تحب
موضوع صورتك ، وإلا استطعت أن ترسمه أفضل من ذلك » .

إننا لا نستطيع أن نفهم « يسوع » ، أو نعين الآخرين على فهمه ما لم
نأت أولاً بقلوبنا وعقولنا . . . بمشاعرنا وأفكارنا . . . بعواطفنا ومنطقنا
ونسلم الكل بين يديه ، ليستنير بنوره ويهتدى بإشراقه ..

المعرفة الأعظم

أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي .
وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ فَنَظَرَتْ مَلَائِكَيْنِ
بِثِيَابٍ بَيَاضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالْآخَرَ عِنْدَ
الرَّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا . فَقَالَا لَهَا
يَا امْرَأَةُ لِمَذَا تَبْكِينَ . قَالَتْ لَهُمَا إِنَّهُم أَخَذُوا سَيِّدِي
وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ . وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا انْتَفَتَحَتْ
إِلَى الْوَرَاءِ فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ .
قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا امْرَأَةُ لِمَذَا تَبْكِينَ . مَنْ تَطْلُبِينَ .
فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ فَقَالَتْ لَهُ يَا سَيِّدُ إِن كُنْتُ
أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ وَأَنَا آخُذُهُ . قَالَ
لَهَا يَسُوعُ يَا مَرْيَمُ . فَانْتَفَتَحَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ رَبُّونِي الَّذِي
تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ لَا تَلْمَسِينِي لِأَنِّي لَمْ
أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي . وَلَكِنْ أَذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ

إِنِّي أَضَعِدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهُكُمْ . فَجَاءَتْ
مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتْ التَّلَامِيذَ أَنَّهَا رَأَتْ الرَّبَّ وَأَنَّهُ
قَالَ لَهَا هَذَا

(يوحنا ٢٠ : ١١ - ١٨)

تحدث أحدهم عن هذه القصة كصورة أدبية، فوضع لها عنوانا في هاتين
الكلمتين : « المعرفة الأعظم » . ولقد قدر للمجدلية أن تكون أول من
اكتحلت عيناه بروية المخلص . إن كل سطر في القصة ترصعه جواهر
محبتها — فقد أتت مسرعة إلى القبر والظلام باق . وحينما تكتشف عدم
وجود الجسد ، تجرى مسرعة إلى بطرس ويوحنا . وفي تسابق التلميذين
إلى القبر يبدو أنها لم تستطع اللحاق بهما ، فأسرعت تجر قدميها جهد
المستطاع وحين وصلت ثانية إلى القبر ، كان الإثنان قد غادرا
المكان ، فوقفت وحيدة هناك تبكي . وليس هناك ما يدعونا إلى أن
نتحدث عن السبب الذي من أجله لم تعرف « يسوع » . فقد « حشت » الدموع
عينها . وحديثها مع من ظنت أنه البستاني ، يهتف بأصداء محبتها الصادقة .
« إن كنت أنت قد أخذته فقل لي أين وضعته » . إنها لم تستطع أن تنطق
بالاسم العزيز على قلبها ، فصدمه الحزن ما تزال تذهلها . بل لم تنطق
بالاسم المبارك ، ظناً منها أن نيل واحد في الوجود ، لا بد وأن يعرفه . لقد
كان « يسوع » يحتل عقلها وقلبها ، حتى أنه لم يعد هناك مكان لآخر .

ثم تأمل قولها « وأنا أذهب لآخذه » . وكيف بك « يامريم » تستطيعين
ذلك في ضعف قواك ؟ وإلى أين ستأخذين الجسد ، وأين تذهبين به ؟
وعيون الجند ، والسلطات الرومانية ، واليهود — كيف ستفletin من كل

هؤلاء ؟ إنها لم تحسب حساباً لكل هذا . لقد كانت رغبته الواحدة أن تسكب ينبوع قلبها ، وحبها ، دموعاً ثخينة على جسد حبيبها الذى فقدته . ولم تنتظر لتسمع جواباً ممن تحدته ، فأدارت ظهرها له ، وأسرعت للقبر مرة أخرى .

ثم نستمع إلى نداء «يسوع» فى قوله « يا مريم » . وجوابها الصارخ باللهفة والشوق : « ربونى ... يا معلم » وهى كلمة لا تفرق عن كلمة ربى فى الآرامية ..

ولو عدنا لتأمل لماذا لم تعرف مريم يسوع ، فإننا نرى سببين :

١ - فهى لم تعرفه بسبب الدموع .. لقد أعمت الدموع عينيها فلم تراه ولم تستطع أن تميزه . إننا حينما نفقد عزيزاً لنا ، حبيباً لقلوبنا ، فإن الحزن يكسر القلب ، والدموع تغشى العينين . ولكن ينبغى ألا تفوتنا حقيقة هامة : إن حزننا ينبع من أنانيتنا ، فهو فى جوهره حزن أنانى . فنحن نفكر فى وحدتنا ، ونخسارتنا المادية ، أو المعنوية ، وتخلفنا عن تحقيق ما كنا نأمله . إننا لا نبكى على الميت ، بقدر ما نبكى على الأحياء . . لا نبكى على من مضى واستراح وأصبح فى رحاب الرفيق الأعلى ، وانتهت أيام جهاده ومتاعبه ، أو على حد تعبير الكاتب انتهى من حمى الحياة ، نحن نبكى على أنفسنا وهذا أمر طبيعى ... علينا فى أوقات الحزن ، ألا ندع الدموع تعمينا عن حقيقة الأجداد ، بل خلال الدموع ، ليرى لمحات مشرقة من أشعة المجد .

٢ - ولم تعرف على يسوع لأنها كانت تصر على الدوام أن توجه أنظارها إلى الاتجاه الخاطئ . لقد كانت متعلقة بالقبر مربوطة باتجاهه . لا تنفك تدوير ظهرها ليسوع لتسرع إلى هناك .

وهنا نرى أيضا صورة لما يحدث معنا في أحزاننا . إن قلوبنا تتعلق بالقبر .. بمن نظنه قد أصبح سجين القبر ، أو نزيله . ولكن ينبغي أن نرفع أنظارنا عن كل هذا . إن أحبائنا ليسوا هناك . . إن باب القبر لا يغلق عليهم . قد تكون أجسادهم هناك . . . أجسادهم المحطمة البالية . لكن الجسد ليس هو الإنسان . . . الجسد ليس هو جوهر الإنسان . إن الروح هي الجوهر الحقيقي . وهذه الروح تكون في أسمى درجات انطلاقها . وتمتعها ، وإشراقها ، حينما تخلع عنها ثوب الجسد البالي . إنها تصبح وجهها لوجه ، في رفقة «يسوع» في أمجاد الإله الحي .

حينما تواجهنا أحزاننا ، علينا أن نواجهها ، ليس بالعينين اللتين تعميهما الدموع ، بل بالأنظار المستنيرة بإشراقة النور ، الأنظار التي تخترق السحابة السوداء ، لتبصر أمجاد الشمس المشرقة . ينبغي ألا يحبس القبر عيوننا ، وقلوبنا ، فتتركز مشاعرنا هناك ، ويستولى التراب على أحاسيسنا ، ونشعر بأن آمالنا ، ورجاءنا ، ومستقبلنا قد أصبح رهن الثرى مع حبيبنا الذي أهلنا عليه التراب .

في كتاب بعنوان « جليشة كل إنسان » يتحدثنا الكاتب^(١) ، وهو خادم دين ، عن خدمة جنازة قام بها لأسرة لا يعرف أفرادها من الدين غير اسمه يقول « بعد أن أودعنا الميت في مرقد الأخير ، اندفعت إبنته إلى جانب القبر الذي لم يغلق بعد ، وهتفت صارخة « وداعا للأبد يا أبي . هذه هي نهاية من لا رجاء لهم » .

ينبغي علينا أن نهتف للراقيدين ! إذا كانت لنا حقا نعمة الرجاء المسيحي

ينبغي أن نهتف لأحبائنا الراقدين : « إلى اللقاء - حتى نلتقى مرة أخرى في عالم أفضل » .

المناداة بالأخبار السارة

(يوحنا ٢٠ : ١١ - ٢٨)

هناك صعوبة واحدة تجابهنا في هذه الفقرة . فحين يلتقي يسوع بالمجدلية وتعرفه ، تندفع نحوه تريد أن تقبل قدميه ، فيصدها السيد بالقول « لا تلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي » . وإننا نجد في فرصة ظهوره للتلاميذ في العلية يدعو توما قائلا له « هات أصبعك إلى هنا وأبصر يدي . هات يديك وضعها في جني » (يوحنا ٢٠ : ٢٧) . وفي بشارة لوقا في الأصحاح الرابع والعشرين العدد التاسع والثلاثين نجد أن يسوع يدعو تلاميذه الخائفين المرتعبين قائلا لهم : « ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم أنظروا يدي ورجلي إني أنا هو . جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي . وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه » . وفي سياق الحديث عن قيامة « يسوع » يقول « البشير متى » عن لقاء « يسوع » مع المريمثين في فرصة لاحقة - وكانت إحداهما المجدلية - بأنهما « تقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له » (متى ٢٨ : ٩) . ولكن يبدو أن « يوحنا » يعقد الأمور حينما نستمع إلى صوت السيد من خلال سطور قصة القيامة يقول للمجدلية « لا تلمسيني لأنني لم أصعد بعد إلى أبي » . وكأنني بلمسه محذور قبل صعوده إلى الآب ، ومباح بعد صعوده . ترى ماذا يعني السيد بهذا القول ؟ .

لا يوجد تفسير نستطيع أن نقول إنه مقنع تماماً . ولكننا سنعرض لبعض الآراء ..

١ - فهناك من اتجه إلى تفسير روحى . فيسوع يريد بحديثه هذا ، أن ينبه المجادلة إلى خطئها - لا تلمسينى بمعنى لا تتعلقي بى . ولو كانت هذه لمسة من يريد أن يتيقن من حقيقة قيامة المسيح بجسد فعلى ، فإنه يسمح لها بذلك . ولكن تصرفها كان يدل على أنها تريد أن تترجم عن حبها فى صورة عاطفية جسدية . وكأنى يسوع يقول لها إن وقت الصلات الجسدية قد ولى وانتهى » « وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد ، ولكن الآن لا نعرفه أيضاً » كما يقول رسول الأمم - كأنى به يقصد أن يوجهها إلى الصلة الروحية ، والتي ستكون صلة الأجيال والعصور إلى نهاية الدهور . سوف تكون صلتهم به عن طريق الروح القدس ! وليس عن طريق اللمس والبصر والسمع . فقبل القيامة كان يعيش معهم بالجسد ، ومن الآن فصاعداً سوف تكون صلتهم به صلة الروح . وليس المهم أن تتلاقى الخواص ، فالروح بالروح تستطيع أن تتلاقى - هذا تفسير جليل ، ولكنه لا يلقى الضوء الكافى على معنى الكلمة هنا .

٢ - وهناك من يتمسك بالقول إن الكلمة فى اليونانية هى ترجمة معروفة عن الآرامية . ويسوع كان يكلم المجادلة باللغة الآرامية وليس اليونانية . وما قدمه يوحنا البشير هو ترجمة لحديث « يسوع » إلى اللغة اليونانية . لقد نادى هؤلاء أن حقيقة ما نطق به « يسوع » كان على هذا النحو : « لا تلمسينى . ولكن قبل أن أصعد لأبى ، إذهبي وقولى لأخوتى ... » وكأنى به يقول لها « لا داعى لإضاعة الوقت فى التعبد لى فى فرحة اكتشافك الجديد السعيد . ولكن إذهبي وانقلى هذه الأخبار السارة لبقية التلاميذ » .

بل إن الصيغة فى اللغة اليونانية ، تشير إلى النهى المستمر . وكان ينبغى أن تترجم على هذا النحو .. « كفى عن لمسى » . وكأنى يقول لها يسوع :

«لماذا تستمرين في التعلق بي على هذه الصورة ولا تحسبين حساباً للوقت ، ولا للمسئولية الملقاة عليك . لن يمضي وقت طويل حتى أعود إلى الآب إذهبي ونادي بالبشارة السارة للتلاميذ ، فإنني أريد أن ألتقي بهم سريعاً . لقد كان هذا أمراً لمريم بأن تترك يسوع ، وألا تستمر في التعلق به ، وأن تمضي للمناداة بالأخبار المفرحة للآخرين . وهذا ما عملته «مريم» ..

٣ -- ولكن فئة أخرى انجذبت إلى محاولة ثالثة لتفسير كلمة لا تلمسيني ، فقال أصحابها إن أقوى ظاهرة ترافق ظهور يسوع لتلاميذه . هو الرعب الذي يطغى عليهم . وهذا يؤكد كتيبة البشائر الثلاث الأولى . «البشير متى» يصور لنا يسوع وهو يقول لتلاميذه «لا تخافوا» (متى ٢٨ : ١٠) . فإذا أتينا إلى «مرقس» (١٦ : ٨) نجده يصور لنا المريميتين وقد هربتا من القبر ، لأن الرعدة والحيرة أخذتاها . وفي بشارة لوقا (٢٤ : ٥) نشاهدهن « خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض » .

ولكننا لا نجد إشارة إلى مثل هذا الخوف في قصة «البشير يوحنا» . وعلى ذلك يعتقد البعض أن ناقل الأسفار المقدسة ، أخطأوا في نقل الكلمة التي ترجمت « لا تلمسيني » فهي في الأصل الآرامية تشبه إلى حد كبير كلمة لا تخافي (كلمة لا تلمسيني Me Aptou وكلمة لا تخافي MePtoou) . فيكون قول يسوع للمجدلية « لا تخافي . إني لم أترككم بعد وأصعد إلى أبي . إني مازلت معكم حتى الساعة » .

وإننا نترك هذه الآراء كلها ، لفطنة القارئ الكريم . لينتقي منها ما يشاء . ومهما يكن من أمر ، فإن المجدلية أطاعت الأمر الكريم ، وأسرعت تخبر التلاميذ بما حدث من قيامة يسوع ، وما هو عتيد أن يحدث من أنه في طريقه للآب وكانت بشارتها تتركز في أنها رأت الرب .

وفى بشارة «مريم المجدلية» نرى جوهر المسيحية الحققة ، فالمسيح الحقيقى هو الذى يستطيع أن ينادى للآخرين قائلا « لقد رأيت الرب ، إن المسيحية ليس معناها أن نعرف الكثير عن «يسوع» ، إنها تعنى أن نعرفه هو . إنها لا تعنى أننا نقدر أن نجادل الآخرين عن «يسوع» ونقنعهم ، بل بالحري تعنى أننا التقينا بيسوع ، وأن اختبارنا يؤكد لنا ، أنه حى فى حياتنا وكياننا .

تكليف المسيح

وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَسْبُوعِ
وَكَانَتْ الْأَبْوَابُ مُغْلَقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ
لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ
وَقَالَ لَهُمْ سَلَامٌ لَكُمْ . وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ .
فَفَرِحَ التَّلَامِيذُ إِذْ رَأَوْا الرَّبَّ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً
سَلَامٌ لَكُمْ . كَمَا أَرْسَلَنِي الْآبُ أَرْسِلُكُمْ أَنَا . وَلَمَّا قَالَ
هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمْ أَقْبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ . مَنْ غَفَرْتُمْ
خَطَايَاهُ تُغْفَرْ لَهُ . وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ

(يوحنا ٢٠ : ١٩ - ٢٢)

من المحتمل جداً أن التلاميذ ظلوا يجتمعون في العلية التي اجتمعوا فيها
مع سيدهم لتناول العشاء الأخير .

ولكنهم كانوا يجتمعون هناك في خوف ورهبة . كانوا يعرفون مواعيد
عداوة اليهود . لقد تأمر اليهود على «يسوع» وأفلحت موامراتهم . وقد تأتى
عليهم الدور بعد ذلك . وهكذا كانوا يجتمعون معاً في رعب وهم يتسمعون

أقل خطوة على درجات السلم ، ويتوقعون بين لحظة وأخرى ، أن يسمعون
قرعات الجند على الباب ليلقوا عليهم الأيادى . وبينما كانوا مجتمعين فى
خوف ورعب ، ظهر «يسوع» فى وسطهم ، والأبواب مغلقة كما هى ،
وابتدرهم بالتحية الشرقية المعروفة : « سلام لكم » شالوم الياقيم . وهذه
التحية تعنى أكثر من « ليتكم تجنبون شر المتاعب . إنها تعنى « ياليت
الإله يهبكم كل ما هو طيب » . وبعد ذلك تقدم إليهم بالتكليف الذى
لا ينبغى أن يفوت الكنيسة خلال العصور ..

١ - « إنه يقول لهم : كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا » هنا نجد ، كما
يقول وستكوت « منهاج الكنيسة » ودليلها .. وهذا التكليف يعنى أموراً
ثلاثة ..

(١) فهو يعنى أن يسوع المسيح بحاجة إلى كنيسته . هذا يفسر ما نادى
به رسول الأمم بعد ذلك بأن الكنيسة جسد المسيح . (الرسالة إلى أهل
أفسس ١ : ٢٣ ، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٢ : ١٢) لقد
أتى يسوع برسالة عظمى للبشرية جمعاء . وما هو على وشك الصعود إلى
الآب . لكن هذه الرسالة ، لا بد وأن تبلغ هدفها . وكيف يكون ذلك
إلا عن طريق الكنيسة .

ينبغى أن تكون الكنيسة البوق الذى يبوق فيه روح الله برسالة المسيح
المباركة ، ينبغى أن تكون فما ليسوع يتحدث فيه للناس ، قدمين ليسوع
يسعى بهما للبحث عن الحمل الضال ، يدين ليسوع يتمم بهما العمل الذى
أعطاه الآب . إن المشعل ينبغى أن يرتفع عالياً فى أرض الظلمة وظلال
الموت . ولا سبيل لذلك بعد صعود السيد لأجاده ، إلا عن طريق الكنيسة

ولن يصل إنجيل المسيح إلى كافة أرجاء المعمورة ، ما لم تحمله أيدي الكنيسة ،
وتقدمه للبعيد والقريب ، وعلى ذلك ، فأول ما يعنيه هذا التكليف أن يسوع
يعتمد كل الاعتماد ، على عمل روح الله بواسطة الكنيسة .

(ب) وهو يعنى أن الكنيسة فى مسيس الحاجة ليسوع . إن المرسل بحاجة
إلى من يرسله ، وبحاجة إلى الرسالة التى يحملها ، وبحاجة إلى القوة التى تؤيده
والسلطان الذى يؤكد رسالته ، إنه فى أشد الحاجة لمن يرجع إليه حين تتأزم
الأمر وتواجهه المتاعب .

وعلى ذلك فلا غنى للكنيسة عن «يسوع» ، فبدونه لارسالة لها ، وبدون
قوته ونعمته وتأييده وسلطانه لا فعالية لها ، وبدون إرشاده ومعاونته ، لا
نور لها ، ولا إرشاد .

(ح) وهو يعنى أن ارسال يسوع للكنيسة وتكليفه إياها بالعمل ، يوارى ارسال
الآب لابن ، وتكليفه إياه بالرسالة التى قدمها ، وأطاع حتى الموت فى سبيل إتمامها .
ولا يوجد باحث حقيقى فى البشائر ، يخفى عليه ، أن الصلة بين الآب والابن
كما صورها لنا البشير الرابع ، تعتمد كل الاعتماد على طاعة يسوع الكاملة للآب
وخضوعه الكامل لمشيئته ، ومحبة الأمانة له . إن يسوع لم يصبح بحق رسول
الله ، إلا بتقديم حياته ذبيحة طيبة لخدمة الآب ومحبة وإتمام مشيئته . وعلى نفس
القياس نقول إن كنيسة المسيح لن تصبح كفوآ لأن تكون رسول المسيح ،
وأداة حية لإتمام رسالة المسيح ، إلا حينما تحبه بحق ، وتطيعه بكل خضوع . إن
الكنيسة لا ينبغى أن تخرج إلى العالم لتقدم رسالتها هى ، ينبغى أن تخرج إلى العالم لتقدم
رسالة المسيح ، إن الكنيسة تفشل حينما تحاول أن تحل مشاكل العالم بحكمتها
ومقدرتها ... تفشل حينما تتخلى عن الخضوع لإرادة المسيح وإرشاده ...

٢ — نلاحظ أيضا أن المسيح نفخ فى تلاميذه ، وقال ضم اقبلوا الروح

القدس. ومما لا شك فيه . أن هناك مشابهة أكيدة بين هذه الصورة . وما ورد عن قصة الخلق في القديم . فحين خلق الله آدم ورد القول « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية » (تكوين ٢ : ٧) .

وتتكرر الصورة أيضا في القصة الواردة في سفر نبوات حزقيال في الأصحاح السابع والثلاثين عن وادي العظام اليابسة ، حين هتف صوت السيد الرب « هلم ياروح من الرياح الأربع ، وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا » (حزقيال ٢٧ : ٩) إن حلول روح الله في مكان ما ، معناه الخلق الجديد ... معناه البعث من الموت إلى الحياة . ألا يشبه هذا أيضا الصورة التي وردت في السطور الأولى من قصة خلق العالم ، حين كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة « وروح الله يرف على وجه المياه » ؟

حين يأتي روح الله إلى الكنيسة .. حين يهب روح الله على الكنيسة .. حين ينفخ يسوع روح الحياة في الكنيسة تنتعش انتعاش الحياة ، وتهب من رقادها ، لتعمل عملا مباركا لمجد المسيح ..

٣ - ثم يقول السيد « من غفرتم خطاياهم غفرت له ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت .. » هذا قول مقدس ، ينبغي أن نحرص كل الحرص على تفهم معناه الحقيقي .

قبل كل شيء ، ينبغي أن نقرر أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يغفر خطايا إنسان. هذا أمر واضح منطقي لا يحتاج إلى جدال لكن هناك أمرا آخر أكيدا هو أن يسوع قد أعطى لكنيسته الامتياز الكبير أن تعلن للناس ، وتقدم البشر رسالة غفران الله .

ولنفرض أن شخصا أتى إلينا برسالة من شخص آخر فإن تقديرنا لقيمة هذه الرسالة ، يتوقف على صلة حامل الرسالة بمن أرسلها إلينا – إن كان واحدا يأتي معلنا ومفسرا ومقدما فكر آخر ، فإننا . نعلم أن قيمة هذا التفسير أو التعليم تتوقف على صلة هذا الإنسان بذلك المفكر الذى يقدم تعليمه . فالرسل هم أول من يمتلك الحق لتقديم رسالة المسيح للبشر ، لأنهم أول من عرف «يسوع» المعرفة الحقيقية ، فاذا اكتشفوا حياة التوبة فى إنسان ، فإن لهم الحق فى أن يعلنوا غفران المسيح له ، وعلى النقيض من ذلك إن اكتشفوا فى حياة إنسان ما ، تحجر القلب ، واستهتار التصرفات ، وكبرياء الذات والانسياق وراء الشهوات ، فإن لهم الحق أيضا فى (حرمان) ذلك الإنسان أو إعلان أنه لا غفران له ولا قبول ، ما لم يرجع بالتوبة والندامة عن طريقه الرديئة هذا هو المفهوم الحقيقى لهذه الآية ..

فهى لا تعنى مطلقا وأبدا ، أن لإنسان ما ، أو لكائن ما مهما سمت رتبته الكهنوتية ، ومهما ارتفع فى درجات القداسة والاقتراب من الله ، لا تعنى أن لذلك الإنسان ، السلطان ، لمغفرة الخطايا أو لإمساكها . وهذه هى الصخرة التى اصطدم بها اليهود فى حادثة شفاء المفلوج ، حينما قال المسيح له : «ثق يابنى مغفورة لك خطاياك» . فقالوا فيما بينهم « إنه يتكلم بتجديف لأنه من يستطيع أن يغفر الخطايا إلا الله وحده» . وقد كانوا على حق ، ولكن رب الغفران ، أراد أن يوجههم إلى حقيقة أن ابن الإنسان له السلطان لمغفرة الخطايا ، لأنه الله الذى ظهر فى الجسد .

إن كل ما يقصده «يسوع» بقوله هذا لتلاميذه ، أن لهم السلطان لتحذير الإنسان الخاطئ من أن خطاياہ ثابتة عليه ، لن تراح عنه ، ولن تغفر له ،

طالما استمر في عناده ، وبالتالي لهم السلطان ، للتأكيد للإنسان التائب بأن
خطاياهم مغفورة له، وأن السماء قد قبلت نوبته، وأن باب المرحم الإلهية قد فتح
أمامه ، وأن حمل الخطية قد رفع عنه .

وهذا هو حق الكنيسة وامتيازها على مر العصور .

إِقْنَاعَ الْمُتَشَكِّكِ

أَمَّا تَوْمًا وَاحِدٌ مِنَ الْأَثْنَى عَشَرَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوَامُ
فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ . فَقَالَ لَهُ التَّلَامِيذُ
الْآخَرُونَ قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ . فَقَالَ لَهُمْ إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي
يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعُ إصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعُ
بَدِي فِي جَنْبِهِ لَا أُوْمِنُ .

وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَيْضًا دَاخِلًا وَتَوْمًا
مَعَهُمْ . فَجَاءَ يَسُوعُ وَالْأَبْوَابُ مَغْلَقَةٌ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ
وَقَالَ سَلَامٌ لَكُمْ . ثُمَّ قَالَ لِتُومَاهَاتِ إضْبَعِي إِلَى هُنَا
وَأُبْصِرِي يَدَيَّ وَهَاتِي يَدَكَ وَضَعِيهَا فِي جَنْبِي وَلَا تَكُنْ غَيْرَ
مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا . أَجَابَ تَوْمًا وَقَالَ لَهُ رَبِّي وَإِلَهِي .
قَالَ لَهُ يَسُوعُ لِأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَتُومَاهَاتِ آمَنْتَ . طوبى للذين
آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا

(يوحنا ٢٠ : ٢٤ - ٢٩)

لقد كان الصليب بالنسبة لتوما ، كما توقعه ، فحينما عزم « يسوع » على الذهاب إلى بيت عنيا في فرصة مرض لعازر ، كان إحساس « توما » لنذهب نحن أيضاً لموت معه « (يوحنا ١١ : ١٦) ، أى لنذهب ولو كان في ذلك موتنا .

كلمة شجاعة ولكنها تنطوي على روح التشاؤم .

ولقد كان «توما» يحب «يسوع» حقاً، لقد كان يحبه إلى حد أنه لم يحجم عن مرافقته إلى بيت عنيا القريبة من أورشليم ، رغم يقينه بأن هناك الموت المحقق . لقد كان مبدؤه : لنذهب معه ولو إلى الموت ، هذه هي المحبة الصادقة.

وحدث ما توقعه «توما» ، ونجحت مكيدة اليهود ، وأسلم «يسوع» لحكم الموت . وانتهت القصة الكبرى برقاده في القبر الصخري البارد المعتم ، ولم يكن حزن «توما» نظير حزن «بطرس» الذي يبكي ويعول على رؤوس الأشهاد . لقد كان حزنه حزناً إنطوائياً .. حزن الفيلسوف المفكر المتأمل ، وما كان يرغب بعد أن ختمت حياة سيده هذه الخاتمة الدموية ، ما كان يرغب إلا أن يتركه الآخرون ليحيا منطوياً ، منزوياً ، بعيداً ، في آلامه يجتر أحزانه على انفراد .

وهكذا هجر اجتماعات التلاميذ، حتى أنه لم يكن هناك ، حينما ظهر يسوع لهم في العلية ، وبالطبع بعث إليه التلاميذ من يخبره بالحدث الكبير ، ولكن تفكيره الذي كان يعتمد أكثر ما يعتمد على المنطق والحس ، ما كان ليدع له مجالاً أن يصدق ، أن سيده الذي رآه مصلوباً ، وشاهده ميتاً منكسراً ، وأوسد في حضن الصخر جسداً جامداً ، وختم عليه باب القبر ، واصطف الحراس حوله مدججين بالسلاح ، قد عاد إلى الحياة ، إن هذا مستحيل في عرف المنطق والأحداث ، بل هو

مستحيل في نظرة التلميذ الحزين المتشائم الذي قبع في صومعة أحزانه لا يبغي عنها بديلاً .

وهكذا جاء جوابه قاسياً ، ولكنه يحمل المنطق العلمي التجريبي ، « إن لم أبصر في يديه آثار المسامير ، وأضع أصبعي في أثر المسامير ، وأضع يدي في جنبه لا أومن » (لاحظ أنه لا يذكر هنا أثر المسامير في قدميه ، وهو خطأ يقع فيه الرسامون حينما يصورون مسماراً كبيراً يخرق القدمين الموضوعتين الواحدة فوق الأخرى ، ذلك لأن القدمين كانتا تربطان بالحبال إلى قائم الصليب دون أن تسمرا) ، و مر أسبوع طويل ، وفي أول الأسبوع التالي كان التلاميذ مجتمعين معاً في العلية ، وكان «توما» معهم ، وجاء « يسوع » ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم ، وفي هدوء ، تقدم السيد من تلميذه المتشكك كاشفاً أسرار قلبه ، مكرراً نفس الكلمات التي ردها قبل ذلك ، داعياً إياه ليصل إلى الإيمان عن طريق التجربة والاختبار ، وأمام تلك المحبة الغامرة ، وذلك الإلتضاع الفائق ذاب قلب «توما» في أعماقه ، وخر على ركبتيه ساجداً وهو يهتف لمسيحه « ربى وإلهى » ، ويقول له السيد «لأنك رأيتنى ياتوما آمنت ، طوبى للذين آمنوا ولم يروا» . لقد كان في حديثه هذا إشارة إلى أجيال الأجيال التي ستأتى حتى نهاية الدهر ، فتؤمن بيسوع وتحميه ، وتتعلق به ، وتتعبد له ، دون أن تراه رؤية العين .

وخلال سطور القصة ، نستطيع أن نرى ملامح شخصية «توما» .

١ - فلقد ارتكب توما خطأ كبيراً حينما أهمل شركة القديسين وانزوى بعيداً منطقياً على نفسه ، لقد اتجه إلى الوحدة بديلاً عن الاجتماع ، ولأنه لم يكن مع إخوته ، فاتته أول فرصه لظهور المسيح ، إننا نخسر الكثير حينما نغزل

أنفسنا عن المؤمنين ، ونهمل اجتماعات القديسين ، إن اختبارات كثيرة يمكن أن نجربها هناك ، ولكننا لن نصل إليها في خلوتنا ، وما أحوالنا في ظروفنا المتنوعة أن نسعى إلى إخوتنا ، إن كثيرين في أحزانهم ، يلزمون بيوتهم ، ويرفضون الذهاب إلى الكنيسة ، وأين نجد التعزية إن لم يكن في اجتماعات المؤمنين ؟ وكيف يهرب الحزن والتهد ، مالم نتقابل وجهاً لوجه مع ذلك الذى يسكب بلسم التعزيات في كأس أحزاننا ؟

٢ - ولكن توما كان يمتلك فضيلتين : فهو رجل صادق مع نفسه، وصادق مع الآخرين . إنه يرفض أن يغالط نفسه . فهو لا يصمت متظاهراً بالتصديق في وقت لا يجد فيه من الأدلة ما يدعو إلى التصديق . وهو لا يوهم الآخرين بغير الحقيقة ، ، إن أمانة «توما» لا تدارى ولا ترائى ، ولا تنكر الشكوك الثائرة في أعماقها . إنه ليس كأتباع بعض الطوائف ، الذين يؤمنون بالعقيدة لأنها عقيدتهم وكفى ، ويتمسكون بها ، ويدافعون عنها ، دون أن يعرفوا مضمونها ، أو يدركوا سبباً لذلك ، إن «توما» يريد أن يصل إلى يقين الإيمان ، وله الحق في ذلك ، وكما يقول « تيسون » ..

« إن الإيمان الحى يحيا في الشك الأمين ..

« أكثر مما يحيا في نصف العقائد السائدة ..

هناك إيمان يصل إلى منتهاه في الإنسان الذى يصر على أن يلمس كل شيء ويتأكد متيقناً منه ، أكثر من الإنسان الذى يردد ما سمعه دون أن يفهمه أو يؤمن به . إنه الشك الذى يصل بصاحبه إلى نور اليقين ..

٣ - الفضيلة الثانية أن توما حينما يلوح له شاطئ الإيمان لا يتراجع عن أن يندفع بكل قوته ، فهو يصل في إيمانه إلى أقصى الطرف النقيض من شكه . وهكذا نستمتع إليه بهتف « ربى وإلهى » ، لا حل وسط عند «توما» ،

فإما أن يؤمن أولاً يؤمن على الإطلاق ، ومتى آمن فهو يصل في إيمانه إلى أبعد الحدود . إنه لا يمسك بالعصا من وسطها . وإذا كان يتمسك بالشك ، ففي سبيل أن يصل إلى أقصى اليقين . ومتى وصل إليه ، أسلم نفسه وكيانه وعقله في فرحة هذا اليقين المبارك ، إن المسيحية لا تربى الجهل ، ولا تحترمه ، بل على النقيض من ذلك تقدر مجهودات أى مفكر متزن صادق ، يسعى باحثاً منقّباً محارباً شكوكه ، حتى يصل إلى يقين الإيمان ، بأن يسوع المسيح رب .. إن مثل هذا الإيمان ، هو بلا شك أفضل بكثير من الإيمان المبني على عدم التفكير ، وعدم البحث ..

توما في الأيام التالية

(يوحنا ٢٠ : ٢٤ - ٢٩)

ونحن لا نعلم علم اليقين ما حدث لتوما بعد ذلك . ولكن هناك كتاب ضمن كتب الأبوكريفا . يعرف بسفر أعمال « توما » يتضمن الكثير من الأقاصيص المبهية على تقاليد خيالية ، والتي ربما يكون لها بعض الأساس التاريخي من الصحة . وفي هذه نستطيع أن نلمس ملامح شخصية « توما » بكل وضوح .

فبعد صعود المسيح ، قسم التلاميذ رقعة العالم بين أنفسهم إلى ميادين تبشيرية ، يقوم كل واحد منهم بنشر بشارة الإنجيل في ربوعها . وكانت الهند من نصيب « توما » . هذا يبدو أمراً مؤكداً ، لأن الكنيسة في جنوب الهند ، والتي تعرف باسم الكنيسة التوماوية ، ترجع بأصلها إلى « توما الرسول » كمؤسسها . فهو أول من قام ببث الدعوة المسيحية هناك . ويقال إن « توما » رفض الذهاب إلى الهند في بادئ الأمر ، فقد كان يخشى السفر الطويل . بل إنه يخشى

أيضاً صعوبات التخاطب مع قوم لا يعرف لغتهم ، ولا يعرفون لغته .
« وكيف بي أذهب إلى الهنود منادياً بكلمة الحق » هكذا قال « وأنا أتكلم
العبرية ؟ .. وفي تلك الليلة ظهر له «يسوع» ونخاطبه بالقول « لا تخف ياتوما
تكفيك نعمتي . إذهب إلى الهند وبشر بالكلمة » .

ولكن يبدو أن طبيعة العناد كانت لا تزال تسيطر في أعماقه ، وهكذا
يعترض قائلاً : « إلى أى مكان تريدني أن أذهب ياسيدى ، أنا على
استعداد أن أذهب ، عدا بلاد الهند » .

وحدث أن تاجراً من بلاد الهند يدعى «عبانيس» ، قدم إلى أورشليم مرسلًا
من قبل الملك «جوندا فرس» ملك البلاد فيبحث بين اليهود عن نجار ماهر ،
وقد كانت مهنة «توما» النجارة ، فظهر «يسوع» لهذا المدعو «عبانيس» بصورة
مرئية في سوق أورشليم ، وقال له « هل تريد أن تشتري عبداً يحترف
النجارة ؟ .. فأجاب الرجل بالإيجاب فقال له « يسوع » « لدى عبد نجار وأنا
أريد أن أبيعه لك »^(١) ، ثم أشار إلى «توما» الذى تصادف وجوده في المكان
في ذلك الوقت ، وهكذا تمت الصفقة ، وقبض «يسوع» الثمن ، وأعطى الرجل
الهندي صك الملكية على هذا النحو .. « أنا يسوع بن يوسف النجار ، أقر
وأعترف أنني بعت عبدى المسمى توما إلى عبانيس التاجر الموفد من قبل
جوندا فرس ملك الهند . وبعد أن وقع «يسوع» على الصك اصطحب التاجر
إلى حيث يقف «توما» . وسأل التاجر توما « هل هذا سيدك ؟ » فأجاب
« حقاً هو سيدى » ، فقال التاجر « لقد اشتريتك منه » ولم ينطق «توما»

(١) يلاحظ القارئ سماجة القصص الموضوعة وبعدها عن روح الكتاب . فكيف يتحدث
السيد عن تلميذه ملقباً إياه بالعبد ، متصرفاً معه تصرف السيد بعبد ، وهو الذى قال بفمه الطاهر
« لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده ، لكنى سميتكم أحبباء ! » وكيف به يرغم
تلميذاً على خدمته بهذه الخديعة ! . (المعرب) .

بكلمة ، وفي الصباح قام توما مبكراً . وبعد أن تلى صلواته ، اتجه إلى يسوع وقال ..

« لتكن مشيئتك ياسيدى يسوع . سوف أذهب حيث تريد » .
وتستمر القصة لتروى لنا كيف أن الملك الهندي أمر توما بأن يبنى له قصرآ ، وأجابه توما أنه يستطيع ذلك . فأعطاه الملك المال الكافى ليشترى ما يلزمه من مواد البناء ، وليقوم بسداد نفقات العمال . فاذا بتوما يوزع كل هذا على الفقراء ، وهو يخبر الملك يوماً بعد يوم ، أن القصر على وشك الإتمام . وفي نهاية الأمر أرسل يستدعيه وسأله قائلاً « أين القصر الذى وعدتني بآتمامه ؟ ..

فأجاب توما « لقد أقمته » « ومتى أذهب لأراه ؟ . وجاء جواب التلميذ « إنك لن تشاهده فى هذه الحياة . ولكن بعد أن تفارق هذه الدنيا ستراه » . وفى رادىء الأمر استشاط الملك غيظآ ، وكان توما فى خطر فقدان حياته ، ولكن التلميذ بحكمته استطاع أن يوجه الملك إلى الحياة الأفضل ، فربحه للمسيح ، وهكذا دخلت المسيحية إلى الهند .

من هذه القصة ، كما من تصرف توما السابق فى مواجهة حقيقة قيامة المسيح ، نستطيع أن نصل إلى استنتاج صادق عن «توما» ، فالإيمان لم يكن شيئاً سهلاً بالنسبة له ، والطاعة لم تكن ميسورة . لقد كان من صنف الرجال الذين لا يصلون إلى الإيمان إلا عن طريق الإختبار والتجربة ، لقد كان يحسب لكل خطوة حسابها ، ولكنه متى وصل إلى اليقين ، فإنه يذهب فى إيمانه إلى أبعد الحدود . إن إيماناً نظير إيمان «توما» هو ولا شك أفضل من الإيمان التقليدى المتوارث ، الذى يقبله الإنسان عن غير معرفة أو فحص ، وطاعة مثل طاعة «توما» هى أفضل من الإنسياق العاطفى المندفع ، الذى لا يحسب حساباً للكلفة ، فإذا هبت العواصف وصدمته سقط وانهار ، وأضحى حطاماً ولم يعد له وجود .

هدف البشارة

وآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلَامِيذِهِ لَمْ
تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا
أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونْ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ
حَيَاةً بِاسْمِهِ

(يوحنا ٢٠ : ٣٠-٣١)

هذه الفقرة تشكل خاتمة طبيعية للبشارة ، ويبدو أن الأصحاح الحادى والعشرين هو ملحق لها .. ولا توجد فقرة فى البشائر بحملتها ، تلخص هدف بشائر الإنجيل كلها ، كما تفعل هذه الفقرة .

١ - فمن الجلى أن البشائر الأربعة ، لا تدعى على الإطلاق أنها قدمت تاريخياً كاملاً مفصلاً لحياة «يسوع» ، وتعاليمه ، ومعجزاته . وهى فى سرد الأحداث لا تتبع حتى الترتيب الزمنى ، إنها تنتخب عينات بارزة من تلك الأحداث والمعجزات والتعاليم ، ولكنها لا تقدم تقريراً كاملاً يلم بكل الحواشى والنواصى ، ويرسم صورة كاملة بكل دقائقها وتفاصيلها . إنها فقط تعطينا الأحداث المثالية التى تظهر لنا ما كانه «يسوع» ، وما كان يعمل .

٢ - من الواضح أكثر من هذا أن البشائر لم يقصد بها أن تقدم صوراً من أكثر من جانب لحياة «يسوع» ، إن الهدف منها هو تقديم الدعوة للآخرين

ليقبلوا «يسوع» مخلصاً وسيداً ورباً. إن هدف البشائر لا أن تقدم معلومات ، بل أن تقدم للناس الحياة الأفضل ، لا أن تملأ عقولهم بحقائق عن «يسوع» ، بل أن تجتذبهم ليؤمنوا بيسوع ويختبروه ، ويكون في إيمانهم واختبارهم الحياة المحيية ، إن الهدف الأسمى للإنجيل في مجموعه ، هو أن يقدم لنا يسوع ، في إطار فريد ، يجعلنا نشق بأن ذاك الذى كان على هذه الصورة في حياته وصفاته وتعاليمه ومعجزاته ، وفدائه ، ليس أقل من مسيح الله الحي ، الذى نجد سر الحياة الحقيقية في إيماننا به .

وعلى ذلك ، فإذا اتجهنا إلى بشائر الإنجيل كتاريخ للمسيح ، وسرد لأحداث حياته ، فإن الهدف الأعظم يفوتنا . ينبغي أن ندرس الإنجيل لا بعين المؤرخ الذى يبحث عن دلالات الأحداث وأزماتها واتجاهاتها ، ولكن بقلب المحتاج المتلهف الباحث عن رب الحياة .

الأصحاح الحادى والعشرون

بالرغم من أن هذا الأصحاح يشكل إضافة للإنجيل الذى يبدو من الفقرة السابقة أنه وصل إلى تمامه ، إلا أننا سنحاول أن ندرسه نفس الدراسة التأملية . وعلى نفس النمط الذى رأينا فيه «يوحنا» يهدف إلى معنيين في سرده للأحداث ، أو عرضه لبعض الأقوال : المعنى الواضح الظاهرى ، والمعنى الروحى الخفى الأعماق ، سنحاول أن نكتشف لماذا أضيف هذا الأصحاح إلى البشارة الرابعة .

المسيح المقام

بَعْدَ هَذَا أَظْهَرَ أَيْضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلَامِيذِ عَلَى بَحْرِ
طَبْرِيةَ . ظَهَرَ هَكَذَا . كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا الَّذِي
يُقَالُ لَهُ التَّوَّامُ وَنَثْنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ وَأَبْنَا
زَبْدَى وَأَثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلَامِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ . قَالَ لَهُمْ
سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَا أَذْهَبُ لِاتَّصِيدَ . قَالُوا لَهُ نَذْهَبُ نَعْنُ
أَيْضاً مَعَكَ . فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ وَفِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً . وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ
عَلَى الشَّاطِئِ . وَلَكِنَّ التَّلَامِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ
يَسُوعُ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ يَا غُلَمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَاماً .
أَجَابُوهُ لَا . فَقَالَ لَهُمْ أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ
الْأَيْسَنِ فَتَجِدُوا . فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا
مِنْ كَثَرَةِ السَّمَكِ . فَقَالَ ذَلِكَ التَّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ
يُحِبُّهُ لِبَطْرُسَ هُوَ الرَّبُّ . فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسَ أَنَّهُ

الرَّبُّ أَتَزَرَ بِثَوْبِهِ لِأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ .
وَأَمَّا التَّلَامِيذُ الْآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الْأَرْضِ إِلَّا نَحْوَ مِثْتَى ذِرَاعٍ وَهُمْ
يَجْرُونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ . فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الْأَرْضِ نَظَرُوا
جَمْرًا مَوْضُوعًا وَسَمَكًا مَوْضُوعًا عَلَيْهِ وَخُبْزًا . قَالَ لَهُمْ
يَسُوعُ قَدِّمُوا مِنِ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمْ الْآنَ . فَصَعِدَ
سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الْأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكًا
كَبِيرًا مِئَةً وَثَلَاثًا وَخَمْسِينَ . وَمَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ
الشَّبَكَةُ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ هَلُمُّوا تَغْدُوا . وَلَكِنْ يَجْسُرُ
أَحَدٌ مِنَ التَّلَامِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ مَنْ أَنْتَ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
أَنَّهُ الرَّبُّ . ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ
وَكَذَلِكَ السَّمَكُ . هَذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ
بَعْدَمَا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ

(يوحنا ٢١ : ١ - ١٤)

هذه القصة هي واحدة من الأدلة الناصعة القوية ، على أن « يوحنا » الحبيب
هو كاتب البشارة الرابعة . فهو يعرف خفايا بحر الجليل ، والسماك ، والشباك
وموعد الصيد . وهو يعرف أن أفضل وقت للصيد هو سويغات الليل الساكن .

يحدثنا «و. م. طومسون» في كتابه الشهير «الأرض والكتاب» عن صيد الليل فيقول : «هناك بعض أنواع الصيد تتم أثناء الليل . وما أجمل أن يشاهد الناظر قارباً ينساب على صفحة المياه السوداء في حالك الظلام ، وفي مقدمته أحد البحارة وقد أمسك شعلة متوهجة تنير صفحة المياه . وعلى الجانبين يقف الرجال وقد أمسكوا بشباكهم وحراهم على استعداد أن يستخدموها متى لمحوا الأسماك الكبيرة تمرق تحت القارب . وفي الصباح تشاهد الصيادين عائدين بأعصاب مرهقة من العمل المضني طيلة الليل ، والقوارب محملة بالصيد الثمين» وعن «مورتون» في كتابه التصويري الرائع «في خطوات السيد المسيح» نقرأ كيف أنه شاهد اثنين من الصيادين على شاطئ بحر الجليل ، أما أحدهم ، فقد خاض المياه حاملاً شباكاً ليلقيها في العمق القريب ، ثم يجذبها بعد برهة ليجدها فارغة كما هي . فيعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى . يقول الكاتب «كان منظرًا رائعاً أن أتأمله وهو يلتقي الشباك ، كانت الشباك بين يديه تنفرد في لحظات إلى ما يشبه الخيمة العريضة ، ثم لا تلبث أن تغوص في المياه بأطرافها المثقلة بقطع الرصاص .

«وأخيراً جاء صوت زميله من الشاطئ هاتفاً له : ألق الشبake إلى الجانب الأيسر ! ، وأطاع الصياد النصيحة ، فاذا به يجذبها غاصة بالسماك الحى المتأوى في محاولته الإفلات من خيوط الشباك» .

صورة تبدو قريبة الشبه جداً بما عمله يسوع في هذه الفقرة التي أمامنا .

كان الوقت لا يزال مظلماً في الفجر الباكر ، حينما ظهر «يسوع» لتلاميذه على شاطئ البحر . كانوا متعبين مرهقين من ليلة طويلة فاشلة في الصيد ، وجاءت نصيحة «يسوع» لهم ، وتمت المعجزة ، ولم يعودوا يقدر أن يجذبوا الشباك من كثرة السمك ، كان التلاميذ في القارب ، ولكن واحداً

فقط ، التلميذ الذي كان «يسوع» يحبه ، استطاع أن يرى في المعجزة ،
والصوت ، والشبح الواقف على الشاطئء مغلفاً في غبش الفجر ، صورة
المخلص وليس سواه . وأسر «يوحنا» لبطرس بالحقيقة ، ولما عرف «بطرس»
أنه الرب ، ائثرر لأنه كان عرياناً ، وقفز في الماء لأن الشاطئء لم يكن
بعيداً - لاحظ حركة «بطرس» في الاثزار أو التستر . لقد كان الناموس
اليهودى يعتبر التحية عملاً دينياً ، وحين يقوم المرء بعمل دينى شأن ذلك
شأن الصلاة ، عليه أن يلبس ثوبه ، وهكذا حين عرف «بطرس» أن المائل
على الشاطئء ليس سوى «يسوع» ، وأراد أن يكون الأول في تحيته ،
أسرع ليتستر بثوبه لأنه كان عرياناً ..

حقيقة القيامة

(يوحنا ٢١ : ١ - ١٤)

والآن نأتى إلى الحديث عن الهدف الحقيقى لإضافة هذا الأصحاح
للبشارة الرابعة ، ألا وهو إثبات حقيقة قيامة المسيح ، وتأكيدها بالبرهان تلو
البرهان ، فهناك من قال إننا لا ينبغي أن نعمل كثير أ على شهادة سيدة ترى
إنساناً فى الظلام ، فيقول لها إنه الرب فتصدق ، وخاصة ، وقد كانت حواسها
مضطربة من طول السهر والحزن والإرهاق ، وهناك من حاول أن يشكك
فى حادثى ظهور «يسوع» لتلاميذه المجتمعين فى العلية ، على أساس أن الحواس
المضطربة ، تتخيل كل شىء ، وتصدق كل شىء ، وهناك من قال إن ظهور
«يسوع» ليس فى صورة جسمية ، ولكن فى صورة شبح مرئى . إلى غير
هذه الآراء التى تخرج عن دائرة هذه الصفحات ^(١) ولقد كان أحد أهداف
البشارة الرابعة ، كما أسلفنا ، إثبات أن يسوع ليس شبحاً ولا صورة ،

(١) الذى يريد الإستزادة ليرجع إلى كتاب « من دحرج الحجر ! للأستاذ حبيب سعيد .

ولا روحاً ، بل شخصاً حقيقياً ، وأن القيامة كانت بالجسد ، وإن كان الجسد المعجزى ، وأن القبر كان بالفعل فارغاً وأن ذلك الجسد المعجزى المقام ، الذى كانت له إمكانيات عظمى ، يحمل نفس آثار المسامير ، وطعنة الحربه ، وله أيضاً خاصيات الجسد العادى .

ولكن القصة هنا ، تأخذنا إلى ما هو أبعد من هذا ، إن شبحاً مرثياً لا يمكن أن يشعل الجمر ، ويشوى السمك ... لا يمكن أن يقدم وجبة شهية ويشترك مع التلاميذ فى تناولها .. ومع ذلك ، فىسوع المقام استطاع أن يقوم بكل هذا ، وحينما يتحدث «يوحنا» عن ظهور السيد للتلاميذ فى العلبة رغم الأبواب المغلقة ، نجده يقول «وأراهم يديه وجنبه» (يوحنا ٢٠ : ٢٠) إشارة إلى قيامة فعلية بالجسد .

يقول «القديس أغناطيوس» فى رسالته إلى أهل سميرنا ، متحدثاً بأكثر وضوح وتأکید «إنى أعرف وأؤمن أن السيد كان فى الجسد فى حياته ، وبعد قيامته . وحين جاء لبطرس وجماعة التلاميذ قال لهم : خذوا جسدى وانظروا إنى لست شبحاً بلا جسد . وحالما لمسوه آمنوا وصدقوا وأيقنوا بوجود جسده الفعلى ، ودمه... وبعد قيامته أكل وشرب معهم كمن هو بالجسد..

إن أول أهداف الأصحاح الحادى والعشرين من البشارة الرابعة ، هو تأكيد حقيقة قيامة الرب يسوع من الأموات بالجسد ، فالقيامة لم تكن رؤيا أملاها خيال مضطرب ، أو رؤيا من العالم الآخر ، أو شبحاً أو روحاً ظهر فى شبه الجسد ، لقد كان يسوع نفسه هو الذى ظهر فعلاً للتلاميذ ، يسوع الذى داس الموت ، وانتصر عليه ، وعاد فى ملء القوة والسلطان .

عمومية إرسالية الكنيسة

(يوحنا ١٢ : ١ - ١٤)

ولكن هذا الأصحاح يقدم لنا حقاً عظيماً ثانياً في صورة رمزية ، إن كل سطر ، وكل كلمة ، وكل حرف في البشارة الرابعة ، زائر فياض بالمعاني ولذلك فيحق لنا أن نتساءل ، ماهو السر في أن يذكر «يوحنا» عدد السمك الذي اصطاده التلاميذ في فجر ذلك اليوم ؟ لماذا يذكر البشير أن عدد السمك كان مائة وثلاثة وخمسين ؟

يقول البعض إن السر في عدد السمك ، كان ليأخذ كل واحد من الشركاء نصيبه . فقد كان هناك أكثر من واحد في قارب الصيد ، وكان يلزم إزاله ذلك العدد الكبير ، أن يقوم من اشتركوا في الصيد بعده .

ولكننا إذا ذكرنا أن من عادة يوحنا ، تقديم الحقائق الروحية الخفية تحت ستار صور مادية ، فينبغي أن نتوقع شيئاً وراء ذكر هذا الرقم الفردى . وهكذا حاول كثيرون منذ بداية العصر الرسولى ، تقديم اقتراحاتهم عن مدلول المئة والثلاثة والخمسين .

١ - يقول البابا « كيرلس الاسكندري » أن عدد ١٥٣ يتكون من مجموعات ثلاث : المجموعة الأولى عدد مائة وهذا رمز إلى ملء الأمم . فهذا العدد على حد تعبيره هو رمز الكمال ، وفي مثل المسيح عن الحروف الضال ، حدد عدد الحراف عند الراعى بمئة (متى ١٨ : ١٢) وأيضاً في مثل الزارع يتحدث عن الأرض الخصبة بالقول إنها تعطى ثمراً يصل إلى المئة ، وهكذا فإن هذا العدد يرمز إلى كمال ملء الأمم ، في اجتذابهم لحظيرة المسيح .

والعدد الثاني هو الخمسون ، وهو يرمز إلى البقية التي تخلص من إسرائيل . « وإن كان عدد إسرائيل كرمل البحر فالبقية تخلص » .

والعدد الثالث رقم ثلاثة. وهو يرمز إلى الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس ، الممجد في ملء الأتم ، وخلاص البقية الباقية في إسرائيل.

٢ - وللقديس « أوغسطينوس » رأى آخر ، وهو مبني كذلك على الافتراض والتخمين ، فهو يبدأ بدراسة مدلول بعض الأرقام ، ويطبّقها على هذا العدد الذي أمامنا ، فرقم ١٠ يشير إلى الناموس لأنه يحوى الوصايا العشر ، ورقم ٧ يرمز للنعمة لأن مواهب الروح سبعة ، فإذا أضفنا عدد ١٠ إلى عدد سبعة نصل إلى مجموع ١٧ .

وإذا قمنا بجمع الأرقام ١+٢+٣+٤+٥ الخ حتى عدد ١٧ فان حصيلة المجموع تصل بنا إلى العدد ١٥٣ وعلى ذلك فالعدد ١٥٣ يشير إلى مجموع من يأتون ليسوع المسيح سواء من اليهود أم من الأمم ، تحت الناموس ، أو في تدبير النعمة .

٣ - ولكن القديس إيرونيموس له تفسير أكثر بساطة ، فهو يقول إن مياه البحر تحوى مائة وثلاثة وخمسين نوعاً مختلفاً من الأسماك ، وعلى ذلك فحصيلة الصيد كله تضم كل نوع من أنواع السمك ، فالرقم رقم تنبؤى يشير إلى أنه لا بد وأن يأتى الوقت الذى فيه تصبح كل الممالك للرب وللمسيح.

ولكننا نلاحظ أمراً آخر ، إن هذا العدد الوافر الكبير ، ضمته شبكة واحدة لا غير ، وبالرغم من هذا لم تتمزق الشبكة. فهي رمز للكنيسة ، ففي الكنيسة متسع لكل الأمم والشعوب والممالك ، إن الكنيسة على استعداد أن تقبل الجميع وتفتح ذراعها للجميع .

إن يوحنا يخبرنا في هذه الفقرة بطريقة الخاصة بالحكمة، أن الكنيسة فيها من الرحابة ما يكفي لأن تضم في أحضانها كل شعب وأمة وقبيلة ولسان . إنه يخبرنا عن عمومية الكنيسة وشمول إرساليتها . إن أحضانها أحضان جامعة شأنها في ذلك شأن محبة الله التي ظهرت لنا في يسوع المسيح .

وهذا يقودنا إلى السبب الثاني الذي من أجله أضيف هذا الأصحاح لبشارة وصلت إلى ختامها .

لاحظ أن بطرس هو الذي قام بجذب « الشبكة » إلى الشاطئ

(يوحنا ٢٠ : ١١)

راعى رعية المسيح

فَبَعْدَمَا تَغْدُوا قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ يَا سِمْعَانُ
بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ . قَالَ لَهُ نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ
تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ أَرَعَ خِرَافِي . قَالَ لَهُ أَيْضاً
ثَانِيَةً يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي . قَالَ لَهُ نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ
تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ أَرَعَ غَنَمِي . قَالَ لَهُ ثَالِثَةً
يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي . فَخَزَنَ بُطْرُسُ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ
ثَالِثَةً أَتُحِبُّنِي فَقَالَ لَهُ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ . أَنْتَ
تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ أَرَعَ غَنَمِي . الْحَقُّ
الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُمْنِطِقُ
ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ . وَلَكِنْ مَتَى شِخْتُ فَإِنَّكَ تَمُدُّ

يَدَيْكَ وَآخِرُ يُنْطِقُكَ وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لَا تَشَاءُ . قَالَ
هَذَا مُشِيرًا إِلَى آيَةٍ مِيْتَةٍ كَانَ مُزْمِعًا أَنْ يُمَجِّدَ اللَّهُ بِهَا . وَلَمَّا
قَالَ هَذَا قَالَ لَهُ أَتَبَعْنِي .

(يوحنا - ١٥ : ٢١ - ١٩)

أمامنا صورة لآبد وأنها تركت طابعها الذي لا يمحي في نفسية « بطرس »
وفي مخيلته ..

١ - قبل كل شيء دعنا نلاحظ السؤال الذي تقدم به « يسوع » لتلميذه .
باسمعان بن يونا ، أتجنبي أكثر من هؤلاء ؟ وحسبها يشير مفهوم الكلمة
في الأصل هناك احتمالان ، وكلاهما معقول منطقي ..

(أ) ربما كان « يسوع » يشير بيده إلى القارب ومعداته ، والشبك المكتنز
بالصيد وهو يوجه سؤاله لتلميذه : أتجنبي أكثر من هذه ؟ هل أنت على استعداد
أن تضحي بكل خططك المادية ، أحلامك الجسدية .. مطامعك في تجارة رابحة
ومكاسب وفيرة ؟ هل أنت على استعداد أن تترك هذه كلها في سبيل خدمتي
وعملى وربح النفوس ؟ هل أنت على استعداد أن تترك الراحة ، والمال ،
والبيت الهادئ ، والحياة الناعمة ، وتعتنق الفاقة والجوع والاضطهاد والعار
والمتاعب في سبيلي ؟ لقد كان هذا تحديا لبطرس ليصل إلى قراره الأخير الحازم
ولتكون هذه الساعة نقطة ختام وانتهاء ، كما هي نقطة بدء وانطلاق . نقطة
ختام حياته الماضية ، كما نقطة بداية لحياته الجديدة في خدمة المسيح ورعية المسيح
(ب) وقد يكون يسوع أشار بيده إلى بقية التلاميذ المحيطين به وقال لبطرس
ياسمعان بن يونا أتجنبي أكثر من اخوتي هؤلاء ؟ ولعله أراد أن يذكره
بالليلة التي هتف فيها أمام سيده « وإن شك فيك الجميع فانا لأشك أبدا ...
ولو اضطرت أن أموت معك لأنكرك (متى ٢٦ : ٣٣) لعله أراد
أن يذكره برفق ، كيف أنه في ساعة سابقة اعتمد على نفسه ، وظن أنه يستطيع

بمقدرته أن يقف في وجه العاصفة ، لكن الشجاعة خائنه ، هذا المعنى الثانى هو الذى يبدو أكثر احتمالاً ، لأن «بطرس» فى جوابه للسيد لا يشير إلى مقارنة بينه وبين الأشياء المادية بل يقول بكل انضاع (أنت تعلم أنى أحبك) .

٢ - الأمر الثانى نلاحظ فيه تكرار يسوع لنفس السؤال . لقد كره ثلاث مرات ، وهناك سبب لهذا التكرار لقد أنكر «بطرس» سيده ثلاث مرات لذلك أراد أن يذكره بسقطته المثلثة ، كما أراد أن يعطيه الفرصة لتأكيد محبته لسيدته بعدد المرات التى أكد فيها إنكاره له . لقد كانت هذه لفظة موبخة كما كانت لفظة رحمة أعطى فيها «يسوع» تلميذه الفرصة ليحسب ذكرى الإنكار المثلث بإعلان مثلث لمحبهته ..

٣ - نلاحظ أيضاً ما قدمته تلك المحبة لبطرس .

(أ) لقد أعطته المحبة مجالاً للخدمة . إن كنت تحببى حقاً ، إن كنت تعلم محبتك أمام الآخرين .. فأمامك الدليل الصادق .. أمامك المجال لإثبات تلك المحبة .. ابذل نفسك فى رعاية غنى .. إرع حملانى . اننا نستطيع أن نثبت محبتنا ليسوع ، بمحبتنا لشعب «يسوع» وقطيعه . إن محبة السيد أعظم امتياز لنا فى الوجود ، لكنها تتضمن أعظم مسئولية .

(ب) وأعطته المحبة صليباً . فنحن نستمع إلى السيد يقول له « لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاء ، ولكن متى شئت فلأنك تمد يديك وآخر بمنطقك ويحملك حيث لا تشاء » .. نعم لقد أتى عليه الوقت الذى مد فيه يديه ليسمر على الصليب ، ودفع إلى طريق ما كان يختاره ويرضاه .. لقد أتى الوقت الذى استشهد فيه «بطرس» فى مدينة روما ، ونخم على شهادته لسيدته بشهادته بدمه ... لقد أتى الوقت الذى سمر فيه على الصليب منكس الرأس ، لأنه حسب نفسه غير مستأهل أن يصلب مثل سيده ، لقد أتت المحبة لبطرس بامتياز ، وقدمت له

خدمة . كما أعطته صليبا ، إن المحبة تتضمن المسئولية ، وتتضمن التضحية .
فإذا كنا نحب يسوع حقاً ، فعلينا أن نعمل عمل «يسوع» ، ونقوم بخدمة
«يسوع» ، ونحمل صليب «يسوع» .

لذلك لم يكن عبثاً أن يضيف البشير هذا الأصحاح الأخير . ولم
يكن بلا جدوى أن يسجل في أصحاحه هذا الحدث ، لقد سجله ليعلن أن
«بطرس» هو راعي رعية المسيح ، كثيراً ما يلذ للبعض – وهذا كان شأن
الكنيسة منذ أقدم العصور – أن يعتقدوا مقارنة فيمن هو الأعظم بين
تلاميذ المسيح ، فهناك من قال إنه «يوحنا الحبيب» لأنه رفع البشرية إلى قمم
الشركة الحية مع الله ، بأجنحة أفكاره الروحية السامية ، وهناك من قال إنه
«بولس» رسول الأمم ، لأنه راح يذرع الدنيا ، ويجابه المخاطر ،
ويتحمل المشاق ، في سبيل رفع لواء للمسيح ، ولكن هذا الأصحاح يرفع
بطرس رسول الختان وسط القمم الرفيعة ، ويفسح له مكاناً هناك ،
فقد لا تكون له موهبة «يوحنا» ، ونظراته الروحية الثاقبة ، وقلمه الناري ،
وأفكاره المجنحة ، وقد لا تكون له المقدرة على قطع المسافات وسط
الوعور والجبال والغابات ، وخوض الأنهار ، ومجابهة أخطار البحار ؛
ومواجهة الوحوش الآدمية في سبيل نشر الدعوة المسيحية ، ولكن يكفيه
أن الرب قد وهبه التكليف المجيد بأن يكون راعي رعية المسيح .

وهنا نستطيع أن نجد طريقاً نسير في إثر خطواته ، فقد لا تكون لنا
موهبة يوحنا ، وقد لا نستطيع أن نتمثل ببولس في غيرته وخدمته ، ولكن
كل واحد منا يستطيع أن يصبح راعياً ولو في دائرة أسرته .. يستطيع أن
يرعى أبناءه وأفراد أسرته من الضلال والانحراف ، يستطيع أن يطعمهم
كل حين بطعام الكلمة الإلهية الحية ..

الشهادة للمسيح

فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ التِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ
يُحِبُّهُ يَتَّبِعُهُ وَهُوَ أَيْضاً الَّذِي أَتَكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقَتَ الْعِشَاءِ
وَقَالَ يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُكَ . فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ
هَذَا قَالَ لِيَسُوعَ يَا رَبُّ وَهَذَا مَا لَهُ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ إِنْ
كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ . أَتَبْعُنِي أَنْتَ .
فَذَاعَ هَذَا الْقَوْلُ بَيْنَ الْأَخْوَةِ إِنَّ ذَلِكَ التِّلْمِيذَ لَا يَمُوتُ .
وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لَا يَمُوتُ . بَلْ إِنْ كُنْتُ
أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ

هَذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا .
وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ ضَنَعَهَا
يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ
نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ .

آمين

(يوحنا ٢١ : ٢٠-٢٤)

هذه الفقرة تطهر لنا أن «يوحنا» لا بد أنه امتد به العمر إلى سن متقدمة للغاية ؛ لقد وصلت به السن إلى الحد الذي قيل فيه إنه لن يذوق الموت حتى يرى «يسوع» في الجنة للعالم ثانية ، وكما أن الفقرة السالفة قدمت لبطرس مكانته ومركزه وتكليفه بالعمل ، فإن الفقرة حددت ليوحنا أيضاً مكانه ، لقد كانت وظيفة «يوحنا» أن يكون شاهداً للمسيح ، ولعل جمهور الكنيسة كان يعتقد أنه أن يعقد المقارنة بين ما قام به رسل المسيح في حقول الخدمة ، لعله تحدث عن «بولس» ، كمن قطع البراري والوعور ، ووصل إلى نهاية الوجود ورفع مشعل الإنجيل في أكثر من بلد ، ولعله تحدث عن «بطرس» كمن قام برعاية الكنيسة الأم في ربوع اليهودية ، ولكن أكثر من واحد كان يتساءل : وما هو مركز «يوحنا» ؟ لقد استمر يحيا في ربوع مدينة أفسس ، حتى بلغ من العمر أقصاه أو أقساه . وقيل إن قدماء عجزوا عن حمل جسده فكانوا يحملونه ، ترى ماذا كان عمله في الكنيسة الأولى ؟ — هنا الجواب : قد نتحدث عن «بولس» فنقول إنه بطل المسيح ، أما «يوحنا» فنستطيع أن نسميه شاهد المسيح ، إنه شاهد عيان للأحداث التي ينادى بها ، فهو وحده الذي يستطيع أن يقول «الذي كان من البدء» ... الذي سمعناه .. الذي رأيناه بعيوننا .. الذي شاهدناه ولمسته أيدينا .

وحتى يومنا الحاضر ، فإن الاختبار المسيحي هو أعظم الأدلة على صدق المسيحية ، فالمسيحي هو الذي يستطيع أن يشهد قائلاً «إنني أعرف المسيح ، لأنني اختبرته في حياتي» وهكذا في ختام البشارة ، يقدم لنا الوحي صورتين مميزتين للكنيسة الرسولية ، الأولى صورة «بطرس» والثانية صورة «يوحنا» ، ولكل أعطى السيد وظيفته الخاصة ، لقد كانت وظيفة بطرس أن يرعى رعية المسيح ، وأن ينظم حياته وخدمته بدمه ، وكانت وظيفة «يوحنا» أن يشهد لقصة حياة المسيح ، وأن تتقدم به العمر في شهادته الحية الخالدة

ويغمض عينيه في سلام ، هذا لن يجعل منهما شخصيتين متنافستين ، أو صورتين تحلو بينهما المقارنة في الكرامة والخدمة ، فليس هذا أعظم . ، ولا ذاك أقل ، إنهما خادمان متآزران يكمل أحدهما الآخر ، ولا تستغنى "خدمة الواحد عن خدمة الثاني ، دع هذا يخدم في مجاله ، ودع ذاك يخدم في دائرته ، كما قسم السيد لكل واحد عمله ، إن «يسوع» يقول لبطرس « دع عنك التطلع إلى سواك اهتم أنت بعملك ، اتبعني أنت ... ينبغي أن يكون هذا شعارنا ، ينبغي ألا نقارن أنفسنا بالآخرين ، أو نقيس أنفسنا على سوانا ، ينبغي أن نضع نصب أعيننا المقياس الأسمى الذي وضعه لنا السيد ، والخدمة التي كلفنا بها ، فمجدنا ليس في مقارنة أنفسنا بغيرنا ، بل في وصولنا إلى المقياس الأسمى الذي وضعه لنا السيد ، وقيامنا بالواجب الذي كلفنا به ..

المسيح غير المحدود

« وأشياء أخرى كثيرة صنع «يسوع» ...

(يوحنا ٢١ : ٢٥)

في هذا الأصحاح الأخير يتقدم كاتب البشارة الرابعة بحقائق عظيمة للكنيسة ، فهو يذكرها بحقيقة قيامة الرب يسوع من بين الأموات ، وهو يذكرها بعمومية رسالتها وشمولها للعالم أجمع ، وهو يصدر أمامها ما يؤكد أن بطرس ويوحنا ليسا متنافسين في مجال الخدمة والكرامة ، بل أن بطرس هو الراعي الكبير ، ويوحنا هو الشاهد الكبير .

وهكذا يأتي البشير إلى ختام بشارته ، وإذ يتسك بالقلم ليكتب الكلمات الختامية ، يسطع عليه نور المسيح ، وجلال المسيح ، وأمجاد المسيح ، فتبهر هذه كلها نظره ، فيهتف لقارئيه : « ومهما تحدثنا ، ومهما أطلنا ، ومهما حاولنا ، فكيف بنا نستطيع أن نصل إلى أعماق المسيح ؟ إنه المحيط

الحضم الزاخر، الذى يخفى فى باطنه كنوزاً تجل عن الوصف ، مهما عرّس
عنه ، فلم نعرف إلا النذر اليسير ، ومهما ذكرنا من معجزاته ، فما هذه
إلا قطرات من مياه البحار ، ومهما وقفنا فاغرى الأفواه ، أمام ما اختبرناه
من عظمته وسموه ، وجلاله ، فهناك فى ذلك المذخر فيه كل كنوز
الحكمة والعلم والأعجاد ، ما يثير دهشتنا ، وعجبنا ، أكثر ، ويهر أنظارنا
أكثر فأكثر .. إن كلمات البشر تعجز عن أن تصف المسيح ، وكتب البشر
لا تكفى لكى تحوى المسيح ، وهكذا يختم التلميذ الحبيب بشارته الرائعة المجيدة ،
بالحديث عن المسيح كلى النصرة .. المسيح كلى القدرة .. المسيح غير المحدود
فى نعمته وأعجاده ..

 Bibliotheca Alexandrina



0376975